سلسلة التأصيل العلمي

(١)

التأصيل العلمي



تأليف

أ.د. أحمد بن علي القرني

١٤٤١هـ



لِلَّهِ مُرشِدُ طَالبٍ يَهدِي إلىٰ نَهْجِ الصَّوابِ، وَتُحْفَةٌ لِلعَالِمِ
جُمِعَتْ به غُرَرُ الفُنُونِ بَهيَّةً وحُقُوقُـه مَبذُولـةٌ لِلعَالَـمِ

النشرةُ الأولىٰ

شعبان ١٤٤١ هـ

الإبداعُ العلميُّ للنشرِ والتوزيعِ

للتواصل مع المؤلِّف
على البريد الشَّبكي
dal1388@gmail.com




الإهداء

إلىٰ الـذين نَشَـدُوا المعْرِفـةَ طَلَبًا للكَمـال.. وبَـذَلُوا في سَـبيلِها الكثيـرَ مـن الوقتِ والمال..

إلىٰ الذين طَلَبوا العِلْمَ؛ رَهْبـةً مِن الجَهْل، وهرَبُـوا مِـن الجَهْـل؛ رَغْبـةً في العِلْم، فهُم بين رَغَبٍ ورَهَبٍ، وخَوفٍ ورَجَاء..

إلىٰ الذين أرَادُوا العِلْمَ ولم يَعرِفُوا الطَّريق..

وإلىٰ الذين عَرَفوا الطَّريقَ ولم يَعرِفوا كيفَ يَسلكُونَه..

وإلىٰ الذين سَلكُوهُ فتعرَّجتْ بهم السُبُل..

إلىٰ هؤلاء جميعًا..

أُهْدِي هذا الكتابَ..

تَبْصِرةً، وتَذْكِرة!

والـحُرُّ لا يَكتَفِـي مِـنْ نَيْـلِ مَكرُمَـةٍ ... حتّىٰ يَرومَ الّتي مِـنْ دُونِهـا العَطَـبُ

يَسْـعَىٰ بِـه أمَـلٌ مِـنْ دُونِـه أجَـلٌ ... إِنْ كَفَّـهُ رَهَـبٌ يَسْـتَدْعِهِ رَغَـبُ!





بسم الله الرحمن الرحيم



المُقَـــدِّمَةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العـالمين، الـمَلِكِ الحـقِّ المبين، والصلاةُ والسلامُ علىٰ أشرفِ الأنبياءِ وأكرمِ المرسَلين، وعلىٰ آلِه الـمُنتَجَبِين، وأصحابِه الـمُنتَخَبِين.

أمَّا بعدُ؛

-١-

«فإنَّ العِلمَ أنفسُ ما طَلَبَه الطّالبون، وأجلُّ شيءٍ رغِبَ فيه الراغبون، وأفضلُ فضيلةٍ سعىٰ لها الفاضِلون، باستثمارِه سَعِدَ الصالحون، وبانْتِحاءِ مَنارِه فازَ الفائزون. اتّفقَتْ علىٰ شرفه الأممُ وتطابَقَتْ، وتظاهَرَتِ الأدلةُ علىٰ تفضيله وتناصَرَتْ. فهو ساعِدُ السَّعادة، وأُسُّ السِّيادة، والمِرْقاةُ إلىٰ النجاةِ في الدارِ الآخرةِ التي هي مَطمَحُ آمالِ الـمُسْتبصِرين، وغايةُ مِضْمارِ الموفَّقين»[(١)].

مِن هنا كان الحديثُ عن التأْصِيلِ لقضايا العِلْمِ، وأقسامِه، وطرائقِه، وقواعِده، ذا أهميّةٍ بالغةٍ - لاسيّما في هذا العَصْر الذي كَثُرتْ فيه الـمُلْهِياتُ، وتَنوّعتْ فيه الصَّوارِفُ، وتَراخَتْ فيه الهِمَمُ! -؛ لأنّ غِيابَ المنهجِ الواضحِ، وفُقدانَ الضوابطِ المُسَيِّرةِ، يُؤدِّي - لا شكَّ - إلىٰ الفوضىٰ في الحياة العِلْميَّة والعَمَليَّة.

---

(١) خطبة كتاب المؤمَّل للردّ إلىٰ الأمر الأوَّل: لأبي شامة المقدسي (ص/ ٥٠).

يَتجلَّىٰ ذلك في ضَياعِ المقاييسِ الصحيحةِ، وغِيابِ الرُّؤيةِ الشَّامِلةِ، وعدمِ فقهِ الأَوْلَويَّاتِ، وكثرةِ التَّكرارِ والاجْتِرارِ، وتضييعِ الأوقاتِ فيما تَقِلُّ جَدواهُ أو تَنعدِمُ.

وطالبُ العلمِ أحوجُ ما يكونُ - اليومَ - إلىٰ تأصيلٍ مَنهجِيٍّ، يُضيءُ له الطريقَ، ويَرسُمُ له المعالمَ، ويُوضِحُ له المسالكَ؛ ذلك لأنَّ الفِجَاجَ كَثُرَتْ، والمعالمَ خَفِيَتْ، ومسالكَ العلومِ تَشَعَّبَتْ!

وللهِ **دَرُّ** علمائِنا الأفذاذِ؛ حيثُ تَنبّهوا لهذا الأمرِ من قديمٍ، **فقال ابنُ عبدِ رَبِّه** في أُرجُوزة العَرُوض[1]:

يـا طالـبَ العِلْـمِ: هُـو المِنهـاجُ ... قـدْ كَثُـرَتْ مِـن دُونِـه الفِجَـاجُ!

وكُـــلُّ عِلْـــمٍ فَلَـــهُ فُـــنُونُ ... وكُـــلُّ فَـــنٍّ فَلَـــهُ عُـيُـــونُ

وقال الفَيروزُ آبادي: «إنّ للعِلمِ رِياضًا وحِياضًا، وخمائلَ وغِياضًا، وطرائقَ وشِعابًا، وشَواهقَ وهِضَابًا، يتفرَّعُ عن كلّ أصلٍ منه أفنانٌ وفُنونٌ، ويَنشَقُّ عن كلّ دَوحةٍ منه خِيطانٌ وغُصُونٌ»[2].

---

(١) **انظرها:** في العِقْد الفريد (٥/ ٤٣٠).

(٢) القاموس المحيط (ص/ ٢٦).

ونحوُهُ قولُ علي الشاوري الفرشوطي في تقريضه لكتاب «تاج العروس» للزبيدي: «إن للعلوم شُعَبًا وطرائق، وهِضابًا وشواهق، يتفرَّع من كلِّ أصلٍ منه فُنون، ومن كلِّ دَوحةٍ فُروعٌ وغُصون». حِلية البَشَر، في تاريخ القرن الثالث عشَر: للبيطار (ص/ ١٤٩٥).

-٢-

إنّنا في حاجَةٍ ماسّةٍ إلىٰ **التَّأصيلِ العِلْمِيِّ** المنضبِط، المبنيِّ علىٰ منهجٍ واضحٍ بَيّنٍ؛ لكي نستأنفَ الحياةَ العِلْميَّةَ علىٰ أصولٍ صحيحةٍ، وعلىٰ أساسٍ خِطَطيٍّ متينٍ؛ حيثُ لم يَعُدْ ثَمَّتَ مَجالٌ للتخبُّط والاضطراب، كما لم تَعُد الفَوضىٰ العِلميَّةُ ذاتَ قِيمةٍ في بناءِ جيلٍ واعٍ، أو إخراجِ علماءَ راسخين.

إنّ مُشكلةَ كثيرٍ من طُلّابِ العلم وشُداتِه اليومَ، هي أنهم لا يَتريّثون في اختيار: (الفنِّ، والمنهجِ، والأستاذِ، والكتابِ) الملائمةِ لأفهامِهم ومَدارِكِهم، ومِن ثَمَّ تَضيعُ عليهم كثيرٌ من الأوقات والجهود فيما لا جدوىٰ منه! أو فيما غيرُه أجدىٰ منه! ولو أنّهم تريّثوا وتأمّلوا وسألوا لما حَصَلَ لهم ذلك!

يقولُ سَعْدي الشِّيرازي:

والقولَ لم تُعْمِلْ به التأمُّلا … كالثوبِ مِن غيرِ قِياسٍ فُصِّلا
قليلُه مِن بعدِ إعمالِ الفِكَرْ … أفضلُ مِن طُول الكَلام في الهَذَرْ
لا تَرْمِ آلافَ السِّهامِ خَائبَا … وارْمِ إذا تَعقِلُ سَهمًا صَائبَا!

-٣-

كذلك، فإنه لا بدّ من التخطيطِ الجيدِ منذُ البداية، والتصوّرِ الصحيحِ للعلوم ومقاصدها؛ حتىٰ يسهلَ بعد ذلك تحصيلُ العلوم، وفهمُ مسائلها.

ولقد أحسنَ مَنْ قالَ:

وَكُلُّ عِلْمٍ غَامِضٍ رَفِيعِ … فَإِنَّهُ بِالْمَوْضِعِ الْمَنِيعِ

لَا يُرْتَقَـــىٰ إِلَيْـــهِ إِلَّا عَـــنْ دَرَجْ ... مِـنْ دُونِهَـا بَحْـرٌ طَمُـوحٌ وَلُجَـجْ

وَلَا يَنَـــــالُ ذُرْوَةَ الْغَايَـــــاتِ ... إِلَّا عَلِـــــيمٌ بِالْمُقَـــــدِّمَاتِ(١)

وقال الآخَرُ:

شَرْطُ النِّهاياتِ تَصْحيحُ البِداياتِ ... وفَاقـدُ الشَّـرطِ بالمشْـرُوطِ لا يَـاتِي

فَصَـــحِّحْ البَــدْءَ في أمــرٍ تُحاوِلُــهُ ... وارْعَ النتيجـةَ في الأمـرِ الـذي تَـاتِي

-٤-

إنّ ممّا ينبغي علىٰ العلماءِ الراسخين، وطلبةِ العلم الناهين، ممّن لهم سابقةٌ في الطَّلَب، أن يبيِّنوا للمبتدئين من طُلّاب العلم المنهجَ الصحيحَ، والمسلكَ الرشيدَ، في الطلب والتحصيل؛ حتىٰ لا تَضيعَ عليهم الأوقاتُ، وتَتَشَتّتَ منهم الجهودُ، فيما لا طائلَ مِن ورائه(٢).

وهذا مِن واجب شُكْر نعمة العلم عليهم، قال ابنُ تيميَة - رَوَّحَ اللهُ رُوحَه، وفتحَ لنا فُتوحَه -: «أهلُ العلم الذين يحفظون علىٰ الأمة الكتابَ والسنةَ: صورةً ومعنىً، مع أنّ حفظَ ذلك واجبٌ علىٰ الأمة عمومًا علىٰ الكفاية منهم، ومنه ما يجب علىٰ أعيانهم، وهو عِلمُ العيْن، الذىٰ يجب علىٰ المسلم في خاصَّةِ نفسِه؛ لكنّ وجوبَ ذلك عينًا وكفايةً علىٰ أهل العلم الذين

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٨٥).

(٢) ممّا يُروىٰ عن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «ما أكثرَ الشجرَ! وليس كلُّها بمُثمِر، وما أكثرَ الثِّمارَ! وليس كلُّها بطيِّب، وما أكثرَ العلومَ! وليس كلُّها بنافع، وما أكثرَ العلماءَ! وليس كلُّهم بمُرْشِد». ربيع الأبرار: للزمخشري (٤/ ٤٢).

رأَسوا فيه، أو رُزِقوا عليه، أعظمُ من وجوبه علىٰ غيرِهم؛ لأنه واجبٌ بالشرع عمومًا. وقد يتعيَّنُ عليهم؛ لقُدْرَتِهم عليه وعَجْزِ غيرِهم.

ويدخلُ في القدرة: **استعدادُ العقل، وسابقةُ الطلَب، ومعرفةُ الطُّرق الموصلةِ إليه، من الكتبِ المصنَّفة، والعلماءِ المتقدِّمين، وسائرِ الأدلة المتعدِّدة، والتفرُّغُ له عما يُشْغَل به غيرُهم.**

ولهذا مضت السُنّةُ، بأن الشُّروعَ في العلم والجهاد يَلزمُ، كالشُّروع في الحجّ. يعني أنّ ما حَفِظَه مِن عِلْم الدين وعِلْم الجهاد ليس له إضاعتُه»[(١)].

كما أشار إلىٰ ذلك **العلّامةُ ابنُ بدران**؛ **حيثُ قال**: «اِعلمْ أن كثيرًا من الناس يَقضُون السنينَ الطوالَ في تعلّم العلم، بل في علمٍ واحدٍ، ولا يحصُلُون منه علىٰ طائلٍ! وربما قَضَوْا أعمارَهم ولم يرتقوا عن درجة المبتدئين! وإنما يكون ذلك لأحد أمرين:

أحدهما: عدمُ الذكاء الفطري، وانتفاءُ الإدراك التصوّري، وهذا لا كلامَ لنا فيه ولا في علاجِه[(٢)].

والثاني: **الجهلُ بطُرُق التعليم**، وهذا قد وقع فيه غالبُ المعلِّمين، فتراهم يأتي إليهم الطالبُ المبتدئُ ليتعلّم النحوَ مثلًا، فيشغلونه بالكلام علىٰ البسملة،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ١٨٦).

(٢) **ولذا قال الحافظُ الزَّبيديُّ** في ألفيّة السَّنَد (ص/ ٢٨٩):

ومَــــنْ يكــــنْ في فَهمِــــهِ بَــــلادَهْ	فلْيَصـــرِفِ الوقـــتَ إلـــىٰ العِبـــادَهْ
أو غيرِهـــا مِـــن كـــلِّ ذِي ثـــوابِ	ولـــوْ بحُسْـــنِ القصْـــدِ في الأســـبابِ

ثم علىٰ الحمدلة، أيامًا بل شهورًا! ليُوهِمُوه سَعةَ مداركِهم، وغزارةَ عِلمِهم.

ثم إذا قُدّر له الخَلاصُ من ذلك، أخذوا يُلقِّنونَه متنًا أو شرحًا بحواشيه، وحواشي حواشيه! ويَحشُرون له خلافَ العلماء، ويَشْغلونَه بكلام مَن رَدَّ علىٰ القائل، وما أُجيبَ به عن الردّ، ولا يزالون يَضربون له علىٰ ذلك الوَتَر؛ حتىٰ يرتكز في ذهنه أنّ نوالَ هذا الفنّ من قبيل الصعب الذي لا يَصِلُ إليه إلّا مَن أُوتي الوِلايةَ! وحضر مجلسَ القُرْب والاختصاص![1].

هذا إذا كان الملقِّن يفهم ظاهرًا من عبارات المصنِّفين، وأما إذا كان من أهل الشَغَف بالرُّسُوم - أُشير إليه بأنه عالمٌ، فموَّه علىٰ الناس، وأنزل نفسَه منزلةَ العلماء المحقّقين، وجلس للتعليم - فيأتيه الطالبُ بكتابٍ مطوّلٍ أو مختصرٍ، فيتلقّاه منه سَرْدًا، لا يَفتحُ له منه مُغْلَقًا، ولا يَحُلُّ له طِلَّسْمًا، فإذا سأله ذلك الطالبُ المسكينُ عن حلِّ مُشكلٍ، انتفخ أنفُه ووَرِمَ، وقابله بالسبّ والشَّتْم، ونسبه إلىٰ البهائم، ورماه بالزَّندقة، وأشاع عنه أنه يَطلب الاجتهادَ!»[2].

ثمّ قال بعد ذلك: «وطُرُقُ التعليمِ أمرٌ ذَوْقيٌّ، وأمانةٌ مودَعةٌ عند الأساتذة، فمن أدّاها أُثيب علىٰ أدائها، ومَن جحدها كان مطالَبًا بها. وقد أَودعَ ابنُ خلدون في مقدمة تاريخه نفائسَ من هذه المباحث كالمقدِّمات، ومطالعتُها

---

(١) لا شكّ أنّ هذا من معوِّقاتِ الطلَبِ، لا سيّما للمبتدِئين، وقد جاء في ترجمة الفقيه المالكي عبد الله السُّوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يُدرِّس «مختصر خليل» بجامع فاس، فكان يقتصر علىٰ شرح الخُرَشي عليه، ويختمُه في كلّ ستة أشهر، فكان المبتدِئون من طلبة العلم يَقصِدُونه، ويَحضرُ مجلسَه منهم الجَمُّ الغفيرُ، لأجل الاختصار، والاقتصار علىٰ بيان كلام المؤلِّف دون تطويل. انظر: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني: للقادري (٤/ ١٥٥).

(٢) المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص/ ٤٨٥).

تُهدي النتيجةَ لصادقِ الهمّةِ، مُطلَقٍ من قيد التقليد. ولله دَرُّ ابنِ عرفة المالكي حيث قال:

إذا لم يكنْ في مجلسِ الدَّرسِ نُكتةٌ ... وتقريرُ إيضاحٍ لمُشكل صورةِ

وعَزْوُ غريبِ النَّقْلِ، أو حَلُّ مُقْفَلٍ ... أوِ اشْكَالٌ أبْدتْهُ نتيجةُ فِكْرةِ

فدعْ سعيَه، وانظرْ لنفسِكَ، واجتهدْ ... ولا تتركَنْ، فالتركُ أقبحُ خَلَّةِ»[١]

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ٤٩١).

لطيفة: أجاب ابنَ عرفةَ علىٰ أبياته هذه تلميذُه الفقيهُ النبيهُ أبو عبد الله محمد بن خِلْفة الأُبِّي بقوله:

يمينًا بمن أولاكَ أرفعَ رُتبةِ ... وزانَ بك الدنيا بأكملِ زِينةِ

لَمجلسُك الأعلىٰ الكفيلُ بكُلِّها ... علىٰ حينِ ما عنها المجالسُ وَلَّتِ

فأبقاكَ مَن رَقَّاكَ للناس رحمةً ... وللدين سيفًا قاطعًا كلَّ بدعةِ

وقال تلميذُه البسيلي بعد أنْ أورد هذه الأبيات: وقد أساء الأدبَ بعضُ مَن ينتمي إلىٰ العلم، ووَصْفُ الجهل ألْيَقُ به، فذَمَّ هذا المجلسَ بشعرٍ سخيفٍ لا يليق كَتْبُهُ، ولم يشعرْ بقلْبِ النُّكْتة عليه، حسبما قرّره الجدَلِيُّون، وقال فيه شيخُنا:

وما حالُ من يهجو أخاهُ بلفظةٍ؟ ... كذا ذُكِرَ المرويُّ عند الأئمةِ

وعلمُ أصولِ الفقهِ والبحثِ والنظرْ ... سِوىٰ حالِ من قد ساءَه قَلْبُ نُكتةِ

فَباءَ بِفِسْقٍ قاله سيدٌ أتىٰ ... بذكرٍ وقرآنٍ ووعظٍ وحِكمةِ

روىٰ مسلمٌ معْ شيخه عند قوله: ... سِبابٌ لذي الإسلام فِسقٌ بحُجّةِ

بصغرىٰ وكبرىٰ يُنتجانِ فُسوقَه ... فبالله أعرِضْ عنه، وادفعْه بالتي!

انظر: شرح حدود ابن عرفة: للرصّاع (ص/ ٥٣٨)، ونكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: للبسيلي (١/ ٨٢)، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج: للتنبكتي (ص/ ٤٦٥)، وإضاءة الراموس: للفاسي (٢/ ٢٨٧).

ولذا يقولُ العلّامةُ السعديُّ: «إنْ يسَّر اللهُ للطالبِ مُعلِّمًا يُحسِنُ طريقةَ التعليم، ومسالكَ التفهيم؛ تَمَّ له السببُ الموصِلُ إلىٰ العلم»[(١)].

-٥-

كما أنه يجب علىٰ طلبة العلم اليوم، أن يَشكروا اللهَ علىٰ النعم الكثيرة التي تهيأتْ لهم في هذا العصر، والتي لم تكن مُهيَّأةً لمن قبلَهم في الزمن القريب. فالمدارسُ تملأ الأرجاء، والجامعاتُ ومراكزُ العلم منتشرةٌ في كل مكان، وحِلَقُ العلم ومجالسُ الذِّكر والدوراتُ العلميةُ لا تكادُ تنقطع طِوالَ العام، والعلماءُ والمرشدون والموجّهون لا يكاد يَخلو منهم بلدٌ، وعشراتُ الآلاف من المحاضرات والدروس -مسموعةً ومرئيةً- مرفوعةٌ علىٰ الشنكبوتية (الإنترنت)، ومناهجُ الطلب وطرائقُ التحصيل قد أصبحت اليومَ - بحمد الله - كثيرةً متنوعةً، ممّا حفظ علىٰ الطلّاب الكثيرَ الكثيرَ من الوقت والجهد أنْ يَضيعَ سُدىٰ.

يقول العلّامةُ الطاهرُ بنُ عَاشُور: «إنِّي علىٰ يقينٍ أنني لو أُتيح لي في فجر الشباب التشبُّعُ من قواعد نظام التعليم والتوجيه، لاقتصدتُ كثيرًا من مواهبي، ولاكتسبتُ جَمًّا من المعرفة، ولَسلِمتُ من التطوُّح في طرائقَ، تبيَّن لي بعد حينٍ الارتدادُ عنها!!»[(٢)].

وقال العلّامةُ ابنُ بدران بعد أن ذكر بعضَ التوجيهات العِلميّة من شيخه

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص/ ٥١) بتصرفٍ يسيرٍ.

(٢) أليس الصبح بقريب (ص/ ٩).

محمد بن عثمان الحنبلي المشهور بخطيب دُوْمَا: «ولما أخذتُ نصيحتَه مأخذَ القبول، لم أحتجْ في القراءة علىٰ الأساتذة في العلوم والفنون إلىٰ أكثر من ستّ سنين! فجزاه الله خيرًا، وأسكنه فراديس جِنانه»(١).

-٦-

لقد عُني أسلافُنا الأماثلُ بقواعد التأصيل ومناهج التحصيل أتمَّ عناية.

تجد ذلك في وصاياهم المبثوثة في كتب السِّيَر والتراجِم، أو في مؤلفاتهم المستقلّة التي تناولوا فيها العلم. ولم يَبخلوا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بذكر أيِّ أمرٍ ينفع طالبَ العلم. حتىٰ لقد ذكروا الأدويةَ والأطعمةَ التي تزيد الفهمَ وتقوّي الحفظَ، أو التي تُضعِفُ الحفظَ وتُسببُ النِّسيانَ!(٢).

---

(١) المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص/ ٤٨٨).

(٢) تكلّمتُ عن ذلك بتوسّعٍ في كتابي «الإبداع العلمي» (ص/ ١٢٧- ١٣٦) الطبعة الثانية من نشرة مكتبة دار المنهاج، وفي (ص ١٢٨ - ١٣٨) من الطبعة الثالثة لدار المازَري.

تنويهٌ: رحم اللهُ علماءَنا الأسلافَ فقد كان العلمُ شُغلَهم الشاغِل، وهمَّهم الماثِل؛ لأنهم عرفوا مكانةَ العلم؛ فأنزلوه منزلتَه اللائقةَ به! وهذه بعضُ الشواهد علىٰ ذلك - وهي غيضٌ يسير، من فيضٍ كثير -:

- جاء عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «إِنَّ النَّاسَ، كَانُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَإِنِّي كُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِشِبَعِ بَطْنِي حَتَّىٰ لاَ آكُلُ الخَمِيرَ وَلاَ أَلْبَسُ الحَبِيرَ، وَلاَ يَخْدُمُنِي فُلاَنٌ وَلاَ فُلاَنَةُ، وَكُنْتُ أُلْصِقُ بَطْنِي بِالحَصْبَاءِ مِنَ الجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَسْتَقْرِئُ الرَّجُلَ الآيَةَ، هِيَ مَعِي، كَيْ يَنْقَلِبَ بِي فَيُطْعِمَنِي، وَكَانَ أَخْيَرَ النَّاسِ لِلْمِسْكِينِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، كَانَ يَنْقَلِبُ بِنَا فَيُطْعِمُنَا مَا كَانَ فِي بَيْتِهِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ لَيُخْرِجُ إِلَيْنَا العُكَّةَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، فَنَشُقُّهَا فَنَلْعَقُ مَا فِيهَا». أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ١٩) برقم (٣٧٠٨).

- وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يَا فُلَانُ هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّهُمُ الْيَوْمَ كَثِيرٌ. فَقَالَ: واعجبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، =

=

أَتَرَىٰ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ، وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ تَرَىٰ؟ فَتَرَكَ ذَلِكَ، وَأَقْبَلْتُ عَلَىٰ الْمَسْأَلَةِ، فَإِنْ كَانَ لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِيهِ، وَهُوَ قَائِلٌ، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَىٰ بَابِهِ، فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَىٰ وَجْهِي التُّرَابَ، فَيَخْرُجُ، فَيَرَانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: لَا، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ. فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ. قَالَ: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّىٰ رَآنِي، وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ، فَقَالَ: كَانَ هَذَا الْفَتَىٰ أَعْقَلَ مِنِّي». أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٤٦٧) رقم (٥٩٠) بسندٍ صحيح.

- **وقال عكرمة:** «كان ابن عباس يضع الكَبْل في رجليّ في تعليم القرآن والسنة!!».

وفي روايةٍ: «يعلّمني القرآن والفرائض». تاريخ دمشق: لابن عساكر (٤١/ ٨٢).

- **وقال إبراهيمُ الجرّاحُ:** «دخلتُ علىٰ أبي يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مرضه الذي مات فيه، ففتح عينيه وقال: الرميُ راكبًا أفضلُ أم ماشيًا؟ فقلت: ماشيًا. فقال: أخطأتَ. فقلت: راكبًا. فقال: أخطأتَ. ثم قال: كلُّ رمي كان بعده وقوفٌ؛ فالرمي فيه ماشيًا أفضل. وما ليس بعده وقوفٌ فالرميُ راكبًا أفضلُ. فقمتُ من عنده فما انتهيت إلىٰ باب الدار حتىٰ سمعتُ الصراخَ؛ لموته! فتعجّبتُ من حرصه علىٰ العلم في مثل تلك الحالة». المبسوط: للسرخسي (٤/ ٤١).

- **وقال السبكي** عن أبي محمد الجويني والد إمام الحرمين: «كان لفرط الديانة مهيبًا لا يجري بين يديه إلا الجِدُّ، والكلامُ إما في عِلمٍ أو زُهدٍ وتحريضٍ علىٰ التحصيل.... ومن ظريف ما يُحْكىٰ ما ذكره أبو عبد الله الفراوي قال: سمعتُ إمام الْحَرَمَيْنِ يقول كان والدي يقول في دُعَاء قنوت الصُّبْح: «**اللَّهُمَّ لَا تَعُقْنَا عن الْعلم بعائقٍ، وَلَا تَمْنَعنَا عنه بمانعٍ**»! طبقات الشافعية الكبرىٰ (٥/ ٧٣).

- **وقال ابن القيم:** «حدّثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن عبد الحليم ابن تيمية قال: كان الجَدُّ (يعني المجد ابن تيمية) إذا دخل الخلاءَ يقول لي: اقرأْ في هذا الكتاب، وارفعْ صوتَك حتىٰ أسمعَ!!

قلتُ: يشير بذلك إلىٰ قوة حرصه علىٰ العلم وحصوله، وحفظه لأوقاته». ذيل طبقات الحنابلة: لابن رجب (٤/ ٥). وسيأتي الخبرُ بتمامه.

- **وممّا يُحكَىٰ** عن محمود بن عبد الرحمن شمس الدين الأصبهاني (ت٧٩٤هـ) من حرصه علىٰ العلم وشحّه بوقته أنْ يَضيعَ، أنّ بعض أصحابه كان يَروي أنه كان يمتنع كثيرًا من الأكل؛ لئلا يحتاج إلىٰ الشراب؛ فيحتاج إلىٰ دخول الخلاء؛ فيضيع عليه الزمان!! البدر الطالع: للشوكاني (٢/ ٢٩٨).

=

كما أنهم قد وضعوا شروطًا لمَنْ أراد أن يُتقنَ العلمَ حِفظًا وفَهمًا، وهي مبثوثةٌ في كتب أدب الطلب والتراجم وغيرها نظمًا[(١)] ونثرًا، فلْتُراجَعْ فيها.

=

- وقال ابنُ الجوزي: «لقد كنتُ في حلاوة طلبي العلم؛ ألقىٰ من الشدائد ما هو عندي أحلىٰ من العسل! لأجل ما أطلبُ وأرجو.

كنتُ في زمان الصِّبا آخذُ معي أرغفةً يابسةً، فأخرجُ في طلب الحديث، وأقعدُ علىٰ نهر عيسىٰ، فلا أقدِرُ علىٰ أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلتُ لقمةً، شربتُ عليها، وعينُ همّتي لا ترىٰ إلا لذّةَ تحصيل العلم!

فأثمر ذلك عندي أني عُرِفتُ بكثرة سماعي لحديث سير الرسول ﷺ وأحواله وآدابه، وأحوال أصحابه، وتابعيهم، فصرتُ في معرفة طريقه كابن أجْوَد». صيد الخاطر (ص/ ٣٩٥).

قلتُ: ابنُ أجْوَد مصطلحٌ يَعني به أهلُ ذلك العصر: الدليلَ. ومنه قولُ ابن الجوزي في «المدهش» (ص/ ١٤٢): «كان جبريلُ دليلَ البادية، فلما وصل إلىٰ مفازةٍ ليس فيها عَلَمٌ يعرِفُه، عَلِمَ ابنُ أجْوَد أنّ الصدقَ أجود، فقال: ها أنتَ وربَّك».

لطيفة: نَقَلَتْ صاحبةُ كتاب: «آراء ابن الجوزي التربوية» - (مِن منشورات أمانة للنشر، ميريلاند، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩هـ) - هذا النصَّ لابن الجوزي (ص/ ٤٨١)، ثم قالتْ عن (ابن أجود): «بحثتُ ولم أصلْ بعدُ إلىٰ معرفة هذا الرَّجُل»!!

(١) نَظَمَ جماعةٌ من العلماء هذه الشروط بحسب اجتهاداتهم:

فمن ذلك: قولُ الشيخ محمّذ (تصحيف محمّد!) فال بن مُتّالي التَّندَغي مرتِّبًا الطريقةَ الأجدىٰ لتلقّي العلم وتحصيله:

كَتْـــبٌ، إجــازةٌ، وحفـــظُ الرَّسْـــمِ ... قـــراءةٌ، تـــدريسُ، أخـــذُ العلـــمِ

ومَـــنْ يُقـــدِّمْ رُتبـــةً عـــن المحَـــلْ ... مـــن ذي المراتـــبِ، الـــمَرَامَ لـــم يَنَـــلْ

وقال آخَرُ:

شُـــــروطُ العِلــــم أربعـــــةٌ: ... فأوَّلُهـــــا التَّفـــــرُّغُ لَـــــهْ

=

=

ودرسٌ، ثـــم حِفـــظٌ، ثُمْـــــ ـــمَ حَمْلكَــــهُ مـــعَ الحَمَلَـــهْ

شُـــروطٌ مـــن تكُـــن فيـــه وإلَّا لــــم يَنـــلْ أَمَـــلهْ!

وقال غيرُه:

قالـتْ مسـائلُ سَـحنونٍ لناظرِهـا: لـن تُـدرِك العلـمَ حتىٰ تَلْعَـقَ الصَّـبِرا

لا يُـدرِك العلـمَ بطَّـالٌ، ولا كَسِـلٌ ولا مَلـولٌ، ولا مَـنْ يَـأْلفُ البشَـرا

ولـيس يُدرِكُـه إلا فتـىً فَطِـنٌ قـد عاهَـدَ الـدَّرْسَ، والإدْلاجَ، والنَّظَـرا

وقال غيرُه:

العلـمُ أركانُـه يـا صـاحِ أربعـةٌ فهاكَهـا مثـلَ تـاجٍ زِيـنَ بالـذهبِ

حفـظٌ، ونَسـخٌ، وشـيخٌ تسـتنيرُ بـه ثـم القـراءةُ والتنقيـبُ في الكُتـبِ

وقال غيرُه:

ألا لَـنْ تنـالَ العلـمَ إلا بسـتةٍ سـأُنبيكَ عـن مجموعهـا ببيـانِ

ذكـاءٌ، وحِـرصٌ، واجتهـادٌ، وبُلْغَـةٌ وصُـحبةُ أُسـتاذٍ، وطُـولُ زَمَـانِ

وقال غيرُه:

بعَشْـرٍ تَنَـالُ العِلـمَ: قُـوتٌ، وصِـحَّةٌ وحِفـظٌ، وفَهـمٌ ثاقِـبٌ في الـتعلُّمِ

ودَرْسٌ، وحِـرصٌ، واغتـرابٌ، وهِمّـةٌ وشَـرخُ شـبابٍ، واجتهـادُ مُعَلِّـمِ

وقلتُ أنا في هذا المعنىٰ:

شـروطُ العلـم أربعـةٌ: فأوَّلهـا: هـو المَلَكَـهْ

وثانيهـا: هـو المنهـا جُ فاسـألْ ربَّـك البركَـهْ

=

-٧-

وهذا هو السرُّ في النبوغ المبكِّر لطلّابهم، حتىٰ إن بعضًا ممن تُوفّي منهم وهو مازال بعدُ شابًا، قد نيّفتْ مؤلفاتُه علىٰ المئة!

كما أنّ كثيرًا منهم قد باشَرَ التأليفَ، أو تصدّرَ للإفتاء، أو تولّىٰ القضاءَ، ولـمّا يبلغ العشرين![(١)].

فهذا الإمامُ الشافعيُّ يقول له شيخُه مسلم بن خالد الزنجي: أَفْتِ يا أبا عبد الله، فقد والله آنَ لك أن تُفتي. وهو ابنُ خمسَ عشرةَ سنةً! وقيل: وهو ابنُ ثمانِ عشرةَ سنةً[(٢)].

وهذا ابنُ الجوزيّ ابتدأ التصنيفَ وله من العمر سبعَ عشرةَ سنةً! فلا غرابة أن يكون أكثرَ الـمُصنِّفين في الإسلام، حيثُ تجاوزتْ مُصنفاتُه ألفَ مُصنَّفٍ!![(٣)].

=

وحفـــــظُ الوقـــــت ثالثُهـــا ورابعُهـــا هـــو الحَركَـــهْ

شـــروطُ مَـــنْ تكـــنْ فيـــه وإلّا ظَـــلَّ في الدَّرَكَـــهْ!

(١) هُمْ كُثُرٌ، قد يتَجاوزُون المئةَ! ولعلّي أجدُ نَشْطَةً فأُفردُهم في كتابٍ مُستقلٍّ.

(٢) الجرح والتعديل: لابن أبي حاتم (٧/ ٢٠٢)، والثقات: لابن حبان (٩/ ٣١).

عجيبة: قال العلّامةُ الكتاني: «في (فواتح الرحموت شرح مسلّم الثبوت) أنّ الشافعيَّ حفظ (الموطأَ) وهو ابنُ خمسٍ!». التراتيب الإدارية (٢/ ٢٩٧).

(٣) قال ابنُ رجب: «قال الإمامُ أَبُو العباس ابنُ تيمية في أجوبته المصرية: كان الشيخُ أَبُو الفرج مُفتيًا كثيرَ التصنيف والتأليف. وله مصنفاتٌ في أمورٍ كثيرةٍ، حتىٰ عَدَدتُّها فرأيتُها أكثرَ من ألفِ مصنَّفٍ، ورأيتُ بعدَ ذلك له ما لم أرَهْ!». ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٨٩).

أمّا شيخُ الإسلام ابنُ تيمية فقد تأهّل للفتوىٰ والتدريس، ولـمَّا يبلغ العشرينَ! ومثلُه تاجُ الدين السُّبكي! وشمسُ الدين السخاوي!

وتوفِّي القاضي جلالُ الدين محمدُ ابن القاضي بدر الدين محمد بن مُزهر سنة (٨٣٣ هـ) ولم يبلغِ العشرينَ سنةً![١].

وكَتَبَ ابنُ الملقِّن بعضَ مصنَّفاته ولـمَّا يبلغ العشرينَ بعدُ![٢].

وألّف السيوطيُّ ما يُقاربُ ألفَ كتابٍ! بعضُها في مجلداتٍ كثيرةٍ![٣]، وأوّلُ كتابٍ ألّفه كان في شرح الاستعاذة والبسملة، وعُمرُه إذْ ذاكَ سبعَ عشرةَ سنةً![٤].

وألّف كتابَه العُجَابَ «**بُغية الوُعاة في طبقات اللغويّين والنحاة**» سنة (٨٦٨ هـ) وعمرُه تسعَ عشرة! وطالَعَ عليه ما يَنيفُ علىٰ ثلاثِ مئةِ مجلّدٍ! كما ذكر في مقدّمته[٥].

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٥/ ١٦٨).

(٢) ولذا كثُرتْ مصنَّفاتُه حتىٰ قال السيوطيُّ: «أربعةٌ تعاصروا: السراجُ البُلقينيُّ، والسراجُ ابنُ الملقِّن، والزينُ العراقيُّ، والنورُ الهيثميُّ، أعلمُهم بالفقه ومداركه: البُلقينيُّ، وأعلمُهم بالحديث ومتونه: العراقيُّ، وأكثرُهم تصنيفًا: ابنُ الملقِّن، وأحفظُهم للمتون: الهيثميُّ». تدريب الراوي (٢/ ٩٤٣).

(٣) انظر: دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها: للخازندار والشيباني.

(٤) انظر: حُسْن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (١/ ٣٣٧) و (١/ ٣٤٠).

(٥) ومِمّن ألّف قبلَ العِشرين أيضًا:

* أحمدُ بنُ محمد المعروف بابن المنقار الحلبي، الأديبُ الشاعرُ الذكيُّ البارعُ.

ألّف قبل أن يبلغ العشرين رسالةً في مباحث الاستعارة وبيان أقسامها وتحقيق الحقيقة والمجاز، وعَرَضَها علىٰ علماء عصره فقَبِلُوها.

=

=
لطيفةٌ: جاء في ترجمة المذكور أنه رحل إلىٰ الآستانة فاختلطَ بظُرَفائِها واستعملَ المكيِّفات (!!) فأُصيبَ بعقله، فحُمل إلىٰ دمشق مطوَّقًا بالحديد، فأقام علىٰ حاله نحوَ ثلاثينَ سنةً! وزاره البُورِينيُّ (المؤرِّخُ الأديبُ) فلما رآه ابنُ المنقار عَرَفَه، وكان مقيَّدًا بسلسلةٍ، فأنشد:

إذا رأيتَ عارِضًا مُسَلْسلًا ... في وَجنةٍ كجِنّةٍ يا عاذلي
فاعلم يقينًا أننا من أمةٍ ... تُقاد للجَنّة بالسَلاسِلِ!

انظر: نَفحة الرَّيحانة ورَشحة طِلاء الحَانة (١/ ١٩٦)، وخُلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: كلاهما للمحبي (١/ ٢٩٦)، والأعلام: للزركلي (١/ ٢٣٦).

* **ومن المتأخِّرين:** أبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الحضرمي، فقد ألّف منظومة «ذريعة الناهض إلىٰ علم الفرائض» وعمره ١٨ عامًا!

والعجيبُ أنه نظَمَهَا في ليلةٍ واحدةٍ! وقال فيها:

وعُذْرُ مَنْ لم يَبلغْ العِشرينَا ... يُقبَلُ عندَ الناسِ أَجمعينا!

* ومنهم محمدُ بنُ أحمد الشاطري، له منظومةُ «اليواقيتِ من فنّ المواقيت» في (٣٦٣) بيتًا.

نظمها وهو في الثامنةَ عشرةَ من عُمرِه! وقد أشار إلىٰ ذلك في ختام منظومته بقوله:

واعفُ عن العُيوبِ فيها واصْفَحِ ... وإنْ رأيتَ غَلَطًا فصَحِّحِ
فالجبرُ للكسْرِ مِن اللوازِمِ ... لأنها رَكِيكةُ الدَّعائمِ
ناظمُها يَقْصُرُ في الآدابِ ... لأنه في غِرّةِ الشَّبابِ!
فكنْ له يا ناظرًا ذا عُذْرِ ... وانشِدْ مَقالَ ابنِ الشهابِ الفَخْرِ:
(وعُذْرُ من لم يبلغِ العشرينا ... يُقبلُ عند الناسِ أجمعينا)!

وممّا أعجبني منها قولُه في عدِّ الشهورِ الميلاديّة المسيحيّة علىٰ الترتيب:
=

وكان للإمام النَّوويِّ في كلّ يومٍ اثنا عشر درسًا في ثمانية فُنونٍ![١].

وقال جمالُ الدين الطيماني عن عزّ الدين بن جماعة: «إنه كان يَقرأُ عليه، ويَسمعُ دروسَه، وكان إذْ ذاك نحو خمسين درسًا في اليوم والليلة في دقائق العلوم!!»[٢].

=

يَنَــــايِرٌ، فِبْرايِــــــرٌ، فَمَــــــارِتُ ... إبريــلُ، مَــيْ، جُــوْنٌ، فجُــوْلِي ثابــتُ

أُكْتُــــوْبَرٌ، نُـــــوْفَمْبَرٌ، دِيْسَــــمْبَرُ ... أُقُسْـــــتُسٌ، وبعـــــدَه سِــــبْتَمْبَرُ

فهـــذه أشـــهرُهُم إثنـــا عَشَـــرْ ... جـــاءتْ بترتيـــبٍ ونظـــمٍ مُختصَـــرْ

* ومِن عَجَبٍ أنَّ شهابَ الدينِ الآلوسي - صاحبَ التفسير الشهير «روح المعاني» - ألّفَ حاشيةً علىٰ «شرح قطر الندىٰ» وهو ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً!!

كما ألّفَ «حاشيةً علىٰ ابن عصام» في الاستعارة سماها «بلوغ المرام» وهو ابنُ ستَّ عشرةَ سنةً!

وشَرَحَ «سُلّمَ المنطق» وهو ابنُ تسعَ عشرةَ سنةً! انظر: المسك الأذفر: لمحمود شكري (ص/ ٧٦).

* وأعجبُ منه بمفاوزَ ما جاء في كتاب التراتيب الإدارية (٢/ ٢٩٧) للبحّاثة الكِتاني، قال: «مِن الغريبِ، ما رأيتُه في «حاشية الصبّان علىٰ شرح الملَوي علىٰ السُّلَّم» أنّ ابنَ مرزوق نَظَمَ جُمَلَ الخونجي وهو ابنُ ستِّ سنينَ!! كما صرَّح بذلك في نظمه. وبعضُهم ذكر ذلك عن ابن الحاجب».

قلتُ: يشيرُ إلىٰ قولِ الناظمِ فيها:

وإنْ تَـــــرىٰ تقصــــــيرَه يُحتَمَـــــلُ ... فلابــنِ نحــوِ السِّــتِّ عُــذْرٌ يُقبَــلُ!

(١) انظر: تذكرة الحفاظ: للذهبي (٤/ ١٧٤)، وطبقات الشافعيين: لابن كثير (ص/ ٩١٠)، وفوات الوفيات: للكُتبي (٤/ ٢٦٥).

(٢) طبقات الشافعية: لابن قاضي شهبة (٤/ ٥٠).

وقال ابنُ الأخضر الحافظُ: «سمعتُ أبا محمد بن الخشّاب يقول: إني مُتقنٌ في ثمانية علومٍ، ما يسألُني أحدٌ عن عِلْمٍ منها، ولا أجدُ لها أهلًا!»[(١)].

ولـمّا وصل الشيخُ عبدُ الله بنُ عبد الرحمن بن محمد المغربي (ت ٦٦٩هـ) بغدادَ، ألقىٰ عليه بعضُ علمائها مسألةَ بيوع الآجال فقال: أذكرُ فيها ثمانين ألفَ وجهٍ!! فاستغرب فقهاءُ بغداد من ذلك، فشرع يسردُها عليهم إلىٰ أن انتهىٰ إلىٰ مائتيْ وجه، فاسْتَطالُوها، وأضْرَبُوا عن سماعها، واعترفوا بفضل الشيخ وسَعَة علمه[(٢)].

فمتىٰ طَلَبَ هؤلاء العلمَ؟! وكيف استطاعوا أن يَحتَوُوا هذه العلومَ والمعارفَ في زمنٍ وجيزٍ؟! حتىٰ كانوا كما قال شيخُ كَتَبَةِ العَصْرِ؛ الرافعيُّ: «كأنما عُصِرَتْ أرواحُهم من الفُنون عَصْرًا، وكأنّ في الواحد منهم رُوحَ مَكتبةٍ كُبْرَىٰ!»[(٣)].

ثم ما هي تلك المناهجُ التي أوصلتهم إلىٰ هذه المكانة العلمية العالية؟

-٨-

إنّني من خلال قراءاتي في كتب العلماء، وتتبّعي لمناهجهم، وأنماط حياتهم العِلْميّة والعَمَليّة[(٤)]، وجدتُ أنها لا تخرج عن ثلاثة أنماط:

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٤٧).

(٢) الديباج المذْهَب: لابن فَرْحُون (١/ ٤٤٨).

(٣) تحت راية القرآن (ص/ ١٤).

(٤) وقد ساعدني علىٰ ذلك كثيرًا، القراءةُ الواسعةُ في تراجم العلماء وسِيَرهم وأخبارهم.
وهذا مما أُوصي الباحثينَ بالاهتمام به؛ فإنَّ تراجمَ العلماء تَمُدُّ القارئَ بمناهجَ عِلميَّةٍ دقيقةٍ، =

١/ النمَطُ العِلميُّ.

٢/ والنمَطُ السُّلوكيّ.

٣/ والنمَطُ المعيشيُّ.

فقد كانوا يهتمُّون بالزمان والمكان والحرَكة والغذاء ونحوها؛ ليساعدهم ذلك علىٰ حفظِ العلم، وهَضْمِ مسائِله.

وسوف أتناولُ في هذا الكتاب بشيءٍ من البَسْطِ: **النمطَ العلميَّ** فحَسْب[١].

-٩-

ولا يَخفىٰ علىٰ اللبيب الفَطِن، أنّ هذا الموضوعَ مُتَشَعِّبُ العناصر، مُترامي الأطراف، كثيرُ الجُزئيّات، مادتُه منثورةٌ في بطون الكتب والأسفار. ومن ثَمَّ صار

=

وأصولٍ وقواعدَ عميقةٍ، قد لا يجدُها الباحثُ في كُتُبِ العلمِ نفسِه!

(١) **أما النمطُ السُّلوكيُّ** فقد أشبع العلماءُ الكلامَ عليه في كتب أدب الطلب، مثل:

١- «**أخلاق العلماء**»: **للآجُرِّي**.

٢- «**الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**»: **للخطيب البغدادي**.

٣- «**اقتضاء العلم العمل**» **له أيضًا**.

٤- «**جامع بيان العلم وفضله**»: **لابن عبد البر، وهو مِن أجمعها**.

٥- «**تعليم المتعلم طريق التعلّم**»: **للزَّرْنُوجي**.

٦- «**ذمّ من لا يعمل بعلمه**»: **لابن عساكر**.

٧- «**تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**»: **لابن جماعة**.

٨- «**حلية طالب العلم**»: **لبكر أبو زيد**.

وغيرُها كثيرٌ.

وسوف أعالجُ ذلك في كتبٍ لاحقةٍ بحول الله وقوَّته.

وأما النَّمطُ المعيشيُّ فقد تحدّثتُ عنه بشيءٍ من التفصيل في كتابي «**الإبداع العلمي**» فَرَهْ إن شئتَ غيرَ مأمورٍ.

الكلامُ في مثل هذا اللون من المواضيع عَسِرَ المأْخَذ، بعيدَ المَرام، كثيرَ الكُلْفة؛ لأنه يُحوِجُ إلىٰ تفتيشٍ كثيرٍ، وتقميشٍ واسعٍ، وتأمُّلٍ طويلٍ. لكنّ طالبَ العلم جديرٌ بأن يُبذَلَ في سبيل إفادته الغالي والنفيسُ، ويُضحَّىٰ من أجله بالوقت والجُهد، مادام أنه طالبُ عِلمٍ!

مِن هنا رأيتُ أنْ أَدْليَ بدَلْوِي في هذا الموضوع المهمّ[1]، وذلك بتأليفِ هذا الكتابِ، الذي وَضعْتُ بَذْرتَه الأولىٰ قبلَ أكثرَ من رُبعِ قَرنٍ من الزمان! ثمّ «لم أزلْ علىٰ فارِط الحال، وتقادُم الوقت، مُلاحِظًا له، عاكفَ الفِكر عليه، مُنجذِبَ الرأي والرَّويّة إليه، وَادًّا أن أجِدَ مُهمَلًا أَصِلُه به، أو خَلَلًا أَرْتِقُه بعَملِه، والوقتُ يَزدادُ بنوادِيه ضِيقًا، ولا يَنهجُ لي إلىٰ الابتداء طريقًا. هذا مع إعْظامي له، وإعْصامي بالأسباب المُنتَاطَة به»[2]، حتىٰ مَنَّ اللهُ بإتمامِه، وأعانَ علىٰ إحْكامِه. ومعَ هذا؛ فإني لا أعُدُّه إلّا «عُلالَةً مِن بُلالَهْ، وسُلالَةً مِن زُلالَهْ. ونُغْبَةً مِن دَأْمَاءْ، وتُرْبَةً مِن يَهْمَاءْ»[3].

راجيًا أنْ يُسْهِمَ - ولو بشيءٍ يسيرٍ - في إمدادِ الحركة العلمية بما ينفعُ، وأنْ يكون له حَظٌّ من قول الحافظ ابن حجر عن كتاب (علوم الحديث)

---

(١) إيقاظٌ: يقولون: أمرٌ هامٌّ، ولا يَهمُّنا هذا - بفتح ياء المضارع - وقد هَمَّهُ الأمرُ! وكلُّ ذلك خَطأٌ.

والصوابُ: أمرٌ مُهِمٌّ، وقد أهَمَّهُ الأمرُ، ولا يُهِمُّنا - بضمّ ياءِ المضارع -. لجام الأقلام: لأبي تراب الظاهري (ص/ ٢١٨).

(٢) من كلام ابن جِنّي في مقدّمة كتابه: الخصائص (١/ ١).

(٣) من كلام أبي حيّان الأندلسي في مقدّمة كتابه: التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل (١/ ٩).

لابن الصَّلاح: «فاجتمعَ في كتابه ما تفرَّقَ في غيرِهْ، فلهذا عكف الناسُ عليه وساروا بسَيرِهْ»[١].

وقد جعلتُه في ثلاثة فصولٍ:

- **الفصلُ الأولُ: أقسامُ العلومِ.**
- **الفصلُ الثاني: طُرُقُ تحصيلِ العلمِ، وفيه ثلاثةُ مباحثَ:**

المبحثُ الأولُ: طريقُ الحِفظِ.

المبحثُ الثاني: طريقُ الفَهمِ.

المبحث الثالث: طريقُ المطالَعة.

- **الفصلُ الثالثُ: أَخَائِرُ الذَّخَائِر، ومَنَائِحُ النَّصَائِح.**

وقد كنتُ هممتُ أنْ أُسمِّيَهُ «التأصيل، لقواعد التعلّم وطرائق التحصيل»، لكنْ عدَلتُ عن ذلك إلىٰ: «**التأصيل العلمي**»؛ لأنه أيْسَرُ وأسْيَرُ.

وهذا الكتابُ هو حَلْقةُ من سِلْسِلةٍ سمّيتُها: **(التأصيل العلمي)**، هذا أولُها، وثانيها كتابُ «**الإبداع العلمي**»، وسوف يتلُوهُما - إن شاء اللهُ تعالىٰ - كتبٌ أخرىٰ؛ أُتمِّمُ فيها الكلامَ علىٰ قضايا العلم وقواعده.

-١٠-

وختامًا: فإنني أحمدُ اللهَ ﷻ وأشكرُهُ، أولًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا، علىٰ حُسْنِ توفيقه وتسديده.

ثم أشكرُ الشيخَ الدكتورَ/ **أحمدَ بنَ عليٍّ الحُذَيْفي** -وفّقه اللهُ- علىٰ ملحوظاتِه القيّمة التي أتحفني بها إبَّانَ قِراءتِه مُسوَّدةَ الكتاب.

---

(١) نزهة النظر (ص/ ٤٠).

راجيًا ممّن وقف علىٰ خَلَلٍ أو زَلَلٍ في هذا الكتاب، أن يلتمسَ ليَ العذرَ، وأن يَتفضّلَ بتَنْبِيهِي علىٰ بَرِيدِي الشَّبَكي، مُذكِّرًا إياه بقول الناظم:

ومَنْ رَأَىٰ الخَلَلَ أَصْلَحَ الخَلَلْ — فقَلَّمَا يَنْجُو امْرُؤٌ مِنَ الزَّلَلْ

وللجَوادِ في الرِّهانِ كَبْوَهْ — وللحُسَامِ في القِرَاعِ نَبْوَهْ(١)

لا أن يُفَوِّقَ نَحوي سِهامَ الجَرْح، ويُبادرَ إلىٰ قَرْعِ أجراسِ الثَّلْبِ والقَدْح!

فالناسُ لم يُصنِّفوا في العِلْمِ — لكَيْ يَصِيرُوا هَدَفًا للذَّمِّ!

ما صَنَّفوا إلّا رَجاءَ الأجْرِ — والدَّعَواتِ وجَميلِ الذِّكْرِ

لكنْ فَدَيْتُ جَسَدًا بِلا حَسَدْ — ولا يُضِيعُ اللهُ حَقًّا لأحَدْ

واللهُ عِندَ قَولِ كُلِّ قَائِلِ — وذُو الحِجَا مِن نفسِه في شَاغِلِ!(٢)

وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله رب العالمين.

وكتب

أحمدُ بنُ عليِّ بنِ أحمدَ القَرْنيُّ

مِن مَأْرِزِ الإيمان طابة،

في غُرَّةِ شَهْرِ جمادىٰ الآخِرِ مِن عام ١٤٤٠هـ

Dal1388@gmail.com

---

(١) نظم مجدِّد العوافي: لمحمد بن عبدالله العلوي (ص/ ٣).

(٢) الألفيّة الورديّة في علم تعبير الرؤىٰ والمنام: لابن الوردي (ص/ ١٤٧).




كُـنْ عالمًـا في النـاسِ أوْ مُتعلِّمًـا أوْ سـامِعًا؛ فـالعِلمُ ثـوبُ فَخَـارِ

مِـنْ كـلِّ فَـنٍّ خُـذْ ولا تَجهـلْ بـهِ فـالحُرُّ مُطَّلِـعٌ علـىٰ الأسْـرارِ

قِيَمُ الـوَرَىٰ مـا يُحسِـنُونَ وزَيْـنُهمْ مُلَـحُ الفُنـونِ ورِقَّـةُ الأشْـعارِ

فاعمـلْ بمـا عُلِّمْـتَ فالعُلمـاءُ إنْ لّـمْ يَعْمَلـوا شَـجَرٌ بـلا أثْمـارِ

قـد يَشْـفَعُ العِلـمُ الشـريفُ لأهلِـه ويَحُـلُّ مُبغِضُـهُمْ بـدارِ بَـوَارِ

هـل يَسـتوي العُلمـاءُ والجُهَّـالُ في فَضْـلٍ، أمِ الظَّلْمـاءُ كـالأنْوارِ؟

ابن الوردي






الفصلُ الأُولُ

أقسامُ العُلُوم



الفَصلُ الأَولُ
أقسامُ العُلُومِ

من خِلال النَّظَرِ في العُلومِ وأنواعِها، نجِدُ أنَّ العلومَ عند الأمة الإسلاميَّة لا تخرُجُ عن ثلاثة أقسامٍ رئيسةٍ:

١- علوم المقاصد.

٢- علوم الوسائل.

٣- العلوم المساعِدة.

القِسْمُ الأوّلُ: عُلومُ المقَاصدِ أوْ (الغَايَة).

وهذه تدور علىٰ ثلاثة علومٍ، لا رابعَ لها، هي:

١- العقيدةُ: وتُسمّىٰ الفقهَ الأكبرَ، وعلمَ أصولَ الدين، لأهمّيّتها.

٢- الفقهُ: ويُراد به - في اصطلاح المتأخِّرين -: علمُ الأحكام العمليّة، من طهارةٍ وصلاةٍ وزكاةٍ وشِبْهِهَا، ويُلْحَقُ به: المعاملاتُ، والأنكحةُ، والجناياتُ، ونحوُها(١).

---

(١) إلماعةٌ: مَدَحَ كثيرٌ من العلماء عِلمَ الفقه، وأوْصوْا بالاسْتكثارِ منه، فمِن ذلك قولُ ابنِ الورْدي:

والعُمْرُ عن تحصيلِ كلِّ عِلمِ ... يَقْصُرُ، فابدأْ منه بالأهمِّ

وذلك الفقهُ؛ فإنّ منهُ ... ما لا غِنىٰ في كلِّ حالٍ عنهُ

=

=

وقال غيرُه:

إذا مـــا اعتـــزّ ذو عِلـــمٍ بعِلـــمٍ ... فعِلـــمُ الفقـــهِ أولـــىٰ بـــاعتزازِ

فكـــمْ طِيـــبٍ يَفـــوحُ ولا كَمِسْـــكٍ ... وكـــمْ طيـــرٍ يطيـــرُ ولا كبـــازي!

وقال غيرُه:

الفقـــهُ أنفـــسُ شـــيءٍ أنـــتَ ذاخِـــرُهُ ... مَـنْ يَـدرسِ العلـمَ لـم تَـدرُسْ مَفـاخِرُهُ

فاكسَـبْ لنفسـكَ مـا أصـبحتَ تجهلُـهُ ... فـــأولُ العِلـــمِ إقبـــالٌ وآخِـــرُهُ

وقال غيرُه:

تفقّـــهْ، تَســـتطيلُ علـــىٰ الرِّجـــالِ ... وتَزهُـــو في المحافـــلِ بالكَمـــالِ

إذا وقـــعَ القيـــاسُ بكـــلِّ عِلـــمٍ ... فحـــالُ الفقـــهِ يَعلـــو كـــلَّ حـــالِ

ومَـــنْ طَلَـــبَ التفقُّـــهَ وانتحـــاهُ ... أنـــافَ برأسِـــه تـــاجُ الجَمـــالِ

وقال غيرُه:

غَايَـــةُ الْعلـــم بعيـــدٌ غَوْرُهـــا ... إِنَّمَـــا الْعلـــمُ بُحـــورٌ زاخـــرهْ

فَعَلَيْـــكَ الْفِقْـــهَ مِنْـــهُ يَحتـــوي ... شَـــرَفَ الـــدُّنْيَا وعِـــزَّ الْآخِـــرَهْ

انظر ما تقدّم في: تعليم المتعلم طريق التعلّم: للزرنوجي (ص/ ٦٥)، وخطبة الكتاب المؤمَّل للردّ إلىٰ الأمر الأول: لأبي شامة (ص/ ٦٢)، ونشر طيّ التعريف، في فضل حملة العلم الشريف، والردّ علىٰ ماقِتهم السخيف: للوصابي (ص/ ١٩٩)، والمعيد في أدب المفيد والمستفيد: للعلْموي (ص/ ٥٠)، ورحلة الشتاء والصيف: لكبريت الحسيني (ص/ ٩٣)، وردّ المحتار: لابن عابدين (١/ ٤٢).

لطيفة: قالوا: الفقهُ زَرَعَه عبدُ الله بنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسقاه علقمةُ، وحَصَدَه إبراهيمُ النخعيُّ، وداسَه حمادٌ، وطَحَنَه أبو حنيفة، وعَجَنَه أبو يوسف، وخَبَزَه محمد (بن الحسن)، فسائرُ الناس يأكلون من خُبْزه، وقد نظمه بعضُهم فقال:

=

٣- **الآدابُ**: والمرادُ بها الآدابُ الشرعيّةُ. وتنقسم إلىٰ قسمين:

أ - **آدابُ الظاهر**، وتنقسم إلىٰ قسمين:

١/ **آداب العبادات**: كآداب قراءة القرآن، وآداب طلب العلم، وآداب السلام، ونحو ذلك.

٢/ **آداب العادات**: كآداب الطعام، وآداب الزيارة، وآداب النوم، وآداب المزاح، ونحو ذلك.

ب- **آدابُ الباطن**: وهي ما تُعرَفُ بأعمال القلوب. كالإخلاص، والخشية، والحبّ، ونحوها.

وهذه العلومُ الثلاثةُ جُملتُها ترجع إلىٰ علمٍ واحدٍ هو الفقهُ في الدين، وهو المراد بقول النبي ﷺ: «مَنْ يُرِدْ اللهُ به خَيرًا يُفقّهْهُ في الدِّين» متفقٌ عليه(١)؛ لأنّ الفقهَ عند السلف يَشمل ثلاثةَ أشياء، هي: فقهُ الاعتقادِ، وفقهُ العباداتِ والمعاملاتِ وما إليها، وفقهُ النفسِ وأعمالِ القُلوب(٢).

=

الفقـــهُ زَرْعُ ابـــنِ مســـعودٍ، وعلقمـــةٌ حصَّـــــادُه، ثـــــم إبـــــراهيمُ دوّاسُ
نعمـــانُ طاحنُـــه، يعقـــوبُ عاجنُـــه محمـــدٌ خـــابزٌ، والآكـــلُ النـــاسُ!

ردّ المحتار: لابن عابدين (١/ ٤٩).
وفيه تفاوتٌ بين النثر والنظم!

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٥) برقم (٧١)، ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٨) برقم (١٠٣٧).

(٢) هذه هي العلومُ علىٰ وجه التحقيق، وهي أفضلُ العلوم وأكملُها وأعلاها شأنًا في الدنيا والآخرة، فهنيئًا لمن تعلّمها وعَمِلَ بها وعلّمها، فكمْ له في ذلك من الأجر والثواب. ولله دَرُّ =

فإذا قالوا في ترجَمة أحَد السلف المتقدّمين: كان فلانٌ فقيهًا، فالمرادُ مجموعُ العناصر الثلاثة السابقة[١]، وليس الفقه بمفهومه عند المُتأخِّرين[٢].

ولتسهيل حِفْظِها، قلتُ:

= الشهاب المنصوري حيثُ يقول:

لا تَجْـنحَنَّ لعِلْـمٍ لا ثَـوابَ لـهُ ... واجنحْ لما فيه أجرٌ غيرُ مَمنونِ

إنّ العُلُومَ ثِمارٌ فاجْنِ أحسَنَهَا ... وأحسَنُ العِلْمِ ما يَهدِي إلىٰ الدِّينِ

نظم العقيان في أعيان الأعيان: للسيوطي (ص/ ٨٣).

(١) ومنه قولُ محمد بن الحسن الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما نُسِبَ إليه:

تَفَقَّهْ؛ فإنّ الفِقهَ أفضلُ قائدٍ ... إلىٰ البِرِّ والتقوىٰ وأعدلُ قاصدِ

وكُنْ مُستفيدًا كلَّ يومٍ زيادةً ... من الفقه، واسبحْ في بُحورِ الفوائدِ

فإنّ فقيهًا واحدًا متورِّعًا ... أشدُّ علىٰ الشيطان من ألفِ عابدِ

هو الْعَلَمُ الْهَادِي إِلَىٰ سُنَنِ الْهدىٰ ... هو الْحِصْنُ يُنجي من جَمِيعِ الشدائدِ

وقال آخَرُ:

وخَيرُ علومٍ عِلْمُ فقهٍ لأنه ... يكونُ إلىٰ كلِّ العلومِ تَوَسُّلَا

فإنَّ فقيهًا واحدًا مُتوَرِّعًا ... علىٰ ألْفِ ذِي زُهْدٍ تَفَضَّلَ واعْتَلَىٰ

انظر: تعليم المتعلم طريق التعلّم: للزرنوجي (ص/ ٣١)، ونشر طيّ التعريف: للوصابي (ص/ ١٩٩)، والمعيد في أدب المفيد والمستفيد: للعلْموي (ص/ ٤٧)، والدرّ المختار: للحصفكي (ص/ ١١) وردّ المحتار: لابن عابدين (١/ ٤٢).

(٢) وانظر: شرح الحديث الحادي عشر من كتاب: «بهجة قلوب الأبرار» للشيخ: عبد الرحمن السعدي (ص/ ٤٦) طبعة مكتبة دار المنهاج.

مقاصـــدُ العلـــم لـــدىٰ أهلِـــهِ: عقيـــــــدةٌ، فقـــــــهٌ، وآدابُ
فشَـــمِّرْ الســـــاعدَ في نَيْلها فصــــاحِبُ الهِمّـــة وثَّــــابُ

تنوير: هناك طريقتان لمنْ أراد دراسةَ علومِ المقاصدِ، هما:

١- طريقةُ الدَّلائِل.

٢- وطريقةُ المسائِل.

أمّا الطريقةُ الأولىٰ - طريقةُ الدلائل -: فهي أنْ يَعمدَ الطالبُ إلىٰ دراسةِ هذه العلومِ عن طريق حفظِ ودراسةِ المتونِ التي جمعتْ أدلّةَ ذلك العلم من الكتابِ، أو من السنّة، أو منهما معًا، مع الأخْذِ في الحِسْبان مستوىٰ الدارسِين، إنْ كانوا من المبتدئين، أم من المتوسّطين، أم من المنتهين؛ لأنّ لكلِّ مستوىً متونًا تُناسبُه.

ففي العقيدة: هناك مثلًا كتابُ التوحيد من صحيح البخاري مع شرْحه للعلّامة عبد الله الغُنيمان.

و«كتابُ التوحيد» للإمام محمد بن عبد الوهّاب.

وكتابُ «بلوغ السعادة من أدلّة توحيد العبادة» للشيخ صلاح البُدير، وهو متنٌ نفيسٌ.

وكتابُ «جامع الأحاديث الصحيحة في العقيدة» للشيخ ممدوح الحربي.

وغيرُها.

وفي الفقه: هناك كتابُ «عمدة الأحكام» للمقدسي. وكتابُ «المحرّر في الحديث» لابن عبد الهادي. وكتابُ «بلوغ المرام» لابن حجر. وكتابُ

«منتقىٰ الأخبار» لمجد الدين ابن تيمية، وهو أحسنُها وأجمعُها.

وغيرُها.

وفي الآداب: هناك كتابُ «رياض الصالحين» للنووي. وكتابُ «الترغيب والترهيب» للمنذري، وهو أعظمُ كتابٍ في هذا الباب.

وغيرُها.

والطريقةُ الثانيةُ – طريقةُ المسائل –: وهي أنْ يدرسَ الطالبُ هذه العلومَ عن طريقِ دراسةِ كتبِ مسائلِ كلِّ علمٍ، منظومةً أو منثورةً، مع ملاحظةِ ما تقدّم التنبيهُ عليه في الطريقة الأولىٰ من مراعاة مستوىٰ الدَّارِسين.

ففي العقيدة: هناك مثلًا: كتابُ «العقيدة الطحاوية» للطحاوي. و«لمعة الاعتقاد» لابن قدامة. و«العقيدة الواسطيّة» لابن تيميّة. و«القواعد المثلىٰ» للعُثيمين.

وغيرُها.

وفي الفقه: هناك المختصراتُ الفقهيّةُ المعروفةُ.

وفي الآداب: هناك بعضُ المتون المنظومة فيها، وستأتي في محلِّها.

وانظر بقيّةَ الكلام علىٰ هذا في مبحث: «**أشهر المنظوماتِ في العُلوم والفُنون**».

القِسْمُ الثَّاني: عُلومُ الوَسَائِل أوْ (الآلَة).

هي العُلُومُ أو الفُنُونُ التي يُتوصَّل بها إلىٰ علوم المقاصد والغاية، فهي وسيلةٌ إليها. وذلك كعلم: النحو، والصَّرف، والتجويد، وأصول الفقه، وأصول التفسير، ومصطلح الحديث، والمعاني، والبيان.... ونحوها.

وهي كثيرةٌ، لكنَّ أصولَها ثلاثةٌ: مصطلحُ الحديث، والنحوُ، وأصولُ الفقه. علىٰ هذا النَّسَق.

ذلك لأنّ أيَّ نصٍ أو خبرٍ يُحتاجُ فيه إلىٰ هذه العلوم الثلاثة، **فالمصطلحُ**: لمعرفة صحّة النصّ أولًا، **والنحوُ**: لضبطِ النصّ وفهمِه ثانيًا[١]، **وأصولُ الفقه**: لمعرفة كيفيّة الاستنباط من النصّ ثالثًا[٢].

أمَّا مَا سوىٰ ذلك من علوم الآلة فهي علومٌ تكميليّةٌ، ومنها ما له تعلُّقٌ بجمال النصّ وتحسينه ليس إلّا، كعلم: البيان، والبديع، وما شابه.

---

(١) **تنبيه**: قد يُحتاجُ لعلم (متن اللغة) لفهم مفردات النصّ إذا كانت من الغريب، وذلك يَسبقُ علمَ النحو الذي مهمّتُه فهمُ مركَّباتِ الكلام، لكنّ الحاجةَ لعلم (متن اللغة) ليستْ علىٰ وجه الدوام كما هو الحالُ في علم النحو.

ولذا قال ابنُ خلدون بعد أنْ ذكر أهمَّ علوم اللغة: «والذي يتحصَّل أنّ الأهمَّ المقدَّمَ منها هو النحوُ، إذ به يتبين أصولُ المقاصد بالدلالة، فيُعرف الفاعلُ من المفعول والمبتدأُ من الخبر، ولولاه لجُهل أصلُ الإفادة.

وكان من حقّ علم اللغة التقدُّمُ، لولا أنّ أكثرَ الأوضاع باقيةٌ في موضوعاتها لم تتغيّر، بخلاف الإعراب الدالّ علىٰ الإسناد والمسند والمسند إليه، فإنه تَغيّرَ بالجملة ولم يبق له أثرٌ. فلذلك كان علمُ النحو أهمَّ من اللغة، إذْ في جهله الإخلالُ بالتفاهم جملةً، وليست كذلك اللغةُ». المقدمة (ص/ ٦٢٤).

(٢) **قال العلّامةُ المحدِّث أبو إسحاق الحُويْني عن عِلْميْ أصول الحديث وأصول الفقه**: «والله! لا أشْطُطُ إذا قلتُ: إننىٰ أبصرتُ بعد العمىٰ لـمّا دَرَسْتُ هذيْن العِلْمين الجليليْن، وأُقرِّرُ هنا أن الجاهلَ بهذيْن العِلْميْن لا يكون عالمًا مهما حَفِظَ من كتب الفروع؛ لأنّ تقريرَ الحقِّ في موارد النزاع لا يكون إلّا بهما، فعِلْمُ الحديث يُصحِّحُ لك الدليلَ، وعِلْمُ أصول الفقه يُسدِّدُ لك الفهمَ، فهما كجناحيْ الطائر». تنبيه الهاجد إلىٰ ما وقع من النظر في كتب الأماجد (١/ ١٣).

القِسْمُ الثَّالثُ: العُلومُ المُساعِدَة.

هذا القسمُ يدخُل فيه بقيّةُ العُلُومِ والفُنُونِ المنتشِرةِ، التي يمكن أن يُستفاد منها في مُسَانَدَة القِسْمَيْن السابِقَيْن، كالعَرُوض، والحِسَاب، والفَلَك، والهندَسَة، والطِّبّ..... وغيرها(١).

---

(١) وهناك تقسيماتٌ أخرىٰ للعلوم باعتباراتٍ أُخَرَ:

- قال الإمامُ الشافعيُّ: «إنما العلمُ علمان: علمُ الدين، وعلمُ الدنيا، فالعلمُ الذي للدين هو: الفقهُ، والعلمُ الذي للدنيا هو: الطبُّ. وما سوىٰ ذلك من الشعر ونحوه، فهو عناءٌ وعَبَثٌ».
وفي لفظٍ: «وما سوىٰ ذلك فَبُلْغَة مجلسٍ».
آداب الشافعي ومناقبه: للرازي (ص/ ٢٤٤)، ومناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١١٤) وانظر شرح مقولة الشافعيّ فيه.

- وقال يحيىٰ بن عمّار السِّجِسْتاني (ت ٤٢٢هـ): «العلومُ خمسةٌ:
فعلمٌ هو حياةُ الدين: وهو علمُ التوحيد.
وعلمٌ هو غِذاءُ الدين: وهو علمُ التذكّر بمعاني القرآن والحديث.
وعلمٌ هو دَواء الدين: وهو علمُ الفتوىٰ، إذا نزل بالعبد نازلةٌ احتاج إلىٰ مَن يَشفيه منها، كما قال ابنُ مسعود.
وعلمٌ هو داءُ الدين: وهو الكلامُ المحْدَثُ.
وعلمٌ هو هلاكُ الدين: وهو علمُ السِّحر ونحوِه».
أمراضُ القلوب وشفاؤُها (ص/ ٣١) لابن تيمية، وهو في مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٤٥).

- وقال الغزاليُّ (ت ٥٠٥هـ): «العلومُ ثلاثةٌ:
عقليٌّ محضٌ: لا يَحثُّ الشرعُ عليه، ولا يندُب إليه، كالحساب والهندسة والنجوم وأمثاله من العلوم، فهي بين ظنونٍ كاذبةٍ لائقةٍ؛ وإن بعض الظن إثمٌ. وبين علوم صادقةٍ لا منفعة لها؛ ونعوذ بالله من علم لا ينفع. وليست المنفعةُ في الشهوات الحاضرة والنِّعم الفاخرة، فإنها فانيةٌ دائرة، بل النفعُ ثوابُ دار الآخرة.
ونقليٌّ محضٌ: كالأحاديث، والتفاسير، والخَطْبُ في أمثالها يسير؛ إذ يستوي في الاستقلال بها الصغيرُ والكبير؛ لأنّ قوةَ الحفظ كافيةٌ في النقل، وليس فيها مجالٌ للعقل.
=

إيقاظ: لِقَائلٍ أنْ يقولَ: فأين الكتابُ والسُّنّةُ؟ أليستْ من علوم المقاصد؟ فإنّنا لم نرَ لها ذِكْرًا في هذا التقسيم!

والجوابُ: الكتابُ والسُّنّةُ لا تدخل في هذا التقسيم؛ لأنها مَصادِرُ، فهي مَصادِرُ عُلومِ المقاصدِ كلِّها، تُؤخذُ منها تلك العلومُ، وتَصْدُرُ عنها.

فنصوصُ الكتاب والسُّنّة من الآيات والأحاديث، إمّا أنْ يُستنبَطَ منها حُكمٌ عقديٌّ، أو حُكمٌ فقهيٌّ، أو أدبٌ شرعيٌّ ظاهرٌ أو باطنٌ.

ولهذا فإنكَ لو نَظَرتَ في أيِّ كتابٍ من كتب تفسير القرآن أو شُروح الأحاديث، لم تَجدْها تخرجُ غالبًا عن هذا الذي ذكرتُ لك.

تفريعٌ: فإنْ قال قائلٌ: تحتَ أيِّ قسمٍ من هذه الأقسامِ تندرِجُ السيرةُ النبوية؟

=

وأشرفُ العلوم: ما ازدوج فيه العقلُ والسمعُ، واصطحب فيه الرأيُ والشرعُ. وعلمُ الفقه وأصوله من هذا القبيل؛ فإنه يأخذ من صَفْو الشرع والعقل سواءَ السبيل. فلا هو تصرُّفٌ بمحض العقول، بحيث لا يتلقاه الشرعُ بالقبول. ولا هو مبنيٌّ علىٰ محض التقليد، الذي لا يَشهد له العقلُ بالتأييد والتسديد». المستصفىٰ (١/ ٣).

- **وقال بعضُ الحكماء**: «**العلومُ ثلاثةٌ**: علمٌ يرفع، وعلمٌ ينفع، وعلمٌ يُزيِّن. الرافعُ الفقهُ، والنافعُ الطبُّ، والمزيِّنُ الأدبُ». البصائر والذخائر: للتوحيدي (٩/ ١٣٤).

- **وقيل**: **العلومُ ثلاثةٌ**: علمٌ نضج وما احترق، وهو علمُ النحو والأصول. وعلمٌ لا نضج ولا احترق، وهو علمُ البيان والتفسير. وعلمٌ نضج واحترق، وهو علمُ الحديث والفقه. حاشية ردّ المحتار علىٰ الدرّ المختار: لابن عابدين (١/ ٤٩).

- وهناك **مَنْ يُقسّمُها إلىٰ**: علومٍ ضَروريّةٍ، وعلومٍ مُكْتَسبَة.

- **ومَنْ يُقسّمُها إلىٰ**: علومٍ نافعةٍ، وعلومٍ ضارّةٍ.

- **ومَنْ يُقسّمُها إلىٰ**: علومٍ إنسانيّةٍ، وعلومٍ كَوْنيّة.

إلىٰ غيرِ ذلك من التقسيماتِ الاجتهاديّة، واختلافُهم في العِباراتِ لِاختلافِ الاعتباراتِ.

وقد استقصيتُ تلك التقسيمات في كتابي: «رياض الفُهوم في أقسام العُلوم».

فالجوابُ المُرْتَضَىٰ عندي أنَّ السيرةَ تنقسم إلىٰ قسمين:

١- قِسْمٌ يتعلّقُ بالجانبِ الشَّخْصيِّ للنبيِّ ﷺ، فهذا القسمُ يندرج تحت السنّة النبويّة بلا رَيْب؛ لأنّ العلماءَ قد عرَّفوا السنّةَ بأنها أقوالُ النبيّ ﷺ وأفعالُه وتقريراتُه.... إلخ، وهذا من أفعاله.

فعلىٰ هذا يُشترَطُ في هذا القسم ما يُشترَطُ في نصوص السنّة النبويّة مِن حيثُ صحّةُ الإسنادِ والمتنِ.

٢- وقِسْمٌ يتعلَّقُ بالجانب التاريخيِّ، مثلُ وصفِ الأماكنِ التي مرّ بها النبيُّ ﷺ في أسفاره، أو وصفُ أحوالِ المعاركِ التي خاضَها، ومكانِها، وزمانِها، وعَددِ الجيش وعَتَادِه، ونحوِ ذلك، فهذا القسمُ يندرِجُ تحتَ علمِ التاريخ، ويُتسامَحُ في رُواتِه ورِواياتِه. اللهمّ إلّا أنْ يترتّبَ علىٰ بعضِ ذلك أحكامٌ شرعيّةٌ، فتُلحَقُ حينئذٍ بالقسم الأول.

ولذا قَبِلَ العلماءُ قولَ الواقديِّ في السِّيَر والمغازي، مع أنه متروكٌ في الحديث![1].

---

(١) **قال عنه الخطيبُ البغداديُّ:** «هو ممّن طَبَّقَ شَرْقَ الأرض وغَرْبها ذِكْره، ولم يَخْفَ علىٰ أحدٍ عرفَ أخبارَ الناس أمرُه، وسارت الرُّكْبان بكُتبه في فنونِ العلم؛ من المغازي، والسِّيَرِ، والطبقاتِ، وأخبارِ النبيِّ ﷺ، والأحداثِ التي كانت في وَقْته وبعد وفاته ﷺ، وكُتبِ الفقه، واختلافِ النَّاس في الحديث، وغير ذلك». تاريخ بغداد (٤/ ٥).

وقال الذهبيُّ: «صاحبُ التصانيف، وأحدُ أوعية العلم علىٰ ضعفِه... كان إلىٰ حفظه المنتَهَىٰ في الأخبار والسير والمغازي والحوادث وأيام الناس والفقه وغير ذلك». ميزان الاعتدال (٦/ ٢٧٣).

وقال الحافظُ ابنُ حجر: «متروكٌ مع سَعَة عِلْمه». تقريب التهذيب (ص/ ٤٩٨).

=

وقد أشار إلىٰ هذا الحافظُ العراقيُّ بقوله في ألفيّة السيرة[١]:

فلْـــيَعلَمِ الطالـــبُ أنَّ السِّــــيَرَا تَجمَـعُ مـا صَـحَّ ومـا قـدْ أُنْكِـرَا

والقَصْـدُ ذِكْـرُ مـا أتـىٰ أهـلُ السِّـيَرْ بـــهِ، وإنْ إِســـنادُهُ لـــمْ يُعْتَبَـــرْ

فـإنْ يَكُـنْ قـدْ صَـحَّ غَيـرُ مـا ذُكِـرْ ذَكَـرْتُ مـا قـد صَـحَّ منهُ واسْـتُطِرْ

=

وقال تقيُّ الدين السُبكي: «قد يقول قائلٌ: كيف يُحتجّ بهذه القَصَصِ التي يَذكرُها أهلُ السِّيَر - مثلُ الواقديِّ وغيرِه - ولم يرِدْ بها حديثٌ صحيحٌ؟

فاعلمْ أن المقصودَ تأكيدُ الأدلة، وقد ذكرنا الحديثَ الصحيحَ أولًا، وبانضمام هذه الأمور إليه يزداد تأكيدًا، بل الأمورُ التي ينفردُ بها أهلُ السِّيَر إذا اشتهرتْ وعُرفتْ في بعض الأوقات تكون أقوىٰ من الحديث الذي ينفرد به ثقةٌ، والواقديُّ إمامُ أهل السِّير بلا مدافَعَة، منه تُستفادُ، وإن كان فيه كلامٌ كثيرٌ، ربما حَمَلَ عليه كونُه يجمع الأسانيدَ الكثيرةَ ورواياتِها في لفظٍ واحدٍ يَقصدُ به الجمعَ والاختصارَ، فكَثُر الكلامُ فيه لذلك، وأما عِلمُه فلا منازعةَ فيه، وإذا ذكر قصةً وشرحها تقوَّىٰ بها وُرُودُها من جهةِ غيرِه، وتبيَّن الحالُ فيها، والأحاديثُ الضعيفةُ إذا اجتمعتْ قَرُبتْ من رُتبة الاحتجاج، أو وصلتْ، فكيف إذا كان معها صحيحٌ؟! فكيف إذا اتفقتْ السِّيَرُ عليها؟!». السيف المسلول علىٰ من سبّ الرسول (ص/ ٣٥٢).

وانظر عيون الأثر: لابن سيد الناس (١/ ٦٧ - ٧٢)، وقاعدة في المؤرخين: للسبكي (ص/ ٦٩)، والإعلان بالتوبيخ: للسخاوي (ص/ ٨٢).

(١) الدرر السنيّة في نظم السيرة الزكيّة (ص/ ١٧).




الْعِلْمُ زَيْنٌ وَتَشْرِيفٌ لِصَاحِبِهِ ... فَاطْلُبْ هُدِيتَ فُنُونَ الْعِلْمِ والأدَبَا

الْعِلْمُ كَنْزٌ وَذُخْرٌ لا نَفَادَ لَهُ ... نِعْمَ الْقَرِينُ إذَا مَا صَاحِبٌ صَحِبَا

قَدْ يَجْمَعُ الْمَرْءُ مَالًا ثُمَّ يُحْرَمُهُ ... عَمَّا قَلِيلٍ فَيَلْقَىٰ الذُّلَّ والْحَرَبَا

وجَامِعُ الْعِلْمِ مَغْبُوطٌ بِهِ أَبَدًا ... ولا يُحَاذِرُ مِنْهُ الْفَوْتَ وَالسَّلَبَا

يَا جَامِعَ الْعِلْمِ نِعْمَ الذُّخْرُ تَجْمَعُهُ ... لا تَعْدِلَنَّ بِهِ دُرًّا وَلا ذَهَبَا

أبو الأسود الدُّؤلي






الفَصْلُ الثَّانِي

طُرُقُ تحَصيلِ العلْم



الفَصْلُ الثَّاني
طُرُقُ تَحصِيلِ العلْم

الطُّرُقُ الأشهرُ لتحصيلِ العلومِ؛ **ثلاثةٌ**:

١- **طريقُ الحِفظِ**.

٢- **وطريقُ الفَهْمِ**[1].

---

(١) **إضاءَة**: خاضَ الناسُ كثيرًا في جَدَليّة الحفظ والفهم، هل هما متلازمان؟ وأيُّهما يُقدَّمُ؟ وأيُّهما الأجدىٰ؟

لكنني أرىٰ أن لّا تلازمَ بينهما؛ فقد يكون الشخصُ الواحدُ مُبرِّزًا في جانب الحفظ، لكنه ليس كذلك في جانب الفهم والتيقُّظ، والعكسُ صحيحٌ.

- **ومن الأدلّة علىٰ ذلك**، أنّ الإمامَ الحريريَّ (ت ٥١٦هـ) صاحبَ المقامات المشهورة، صنع في مقاماته (ص/ ٤٩٨) بيتين من الشعر ووصفهما بأنهما: «أَسْكَتا كلّ نافِثٍ. وأَمِنا أنْ يُعَزَّزا بثالِثٍ!» **وهما قولُه**:

سِـــمْ سِـــــمَةً تحْسُــــنُ آثارُهـــا ... واشْـكُرْ لمــنْ أعطَـىٰ ولـوْ سِمْسِـمَهْ

والـــمَكْرُ مَهْمـــا اسْـطَعْتَ لا تأتِـهِ ... لتَقْتَنـــي السُّـــــؤدَدَ والـــــمَكْرُمَهْ

حيثُ جعلَ أوَّلَ البيت وآخرَه سواءً! لكنْ هذا في كَلِمتين وذاك في كَلِمة.

فجاء إسماعيلُ بنُ أبي بكر بن عبد الله بن إبراهيم الشرْجي اليماني المعروف بابن المقرئ (ت ٨٣٧ هـ) فنظمَ خمسينَ بيتًا علىٰ مِنْوال بَيْتَيْ الحريري!!

لكنه مع هذا الذكاء المُفْرِط كان مِنْ أنْسَىٰ خَلْق الله!! **فقد قال عنه الشوكاني**: متفرّدٌ بالذكاء وقوة الفهم وجوْدة الفكر، وله في هذا الشأن عجائبُ وغرائبُ لا يَقدِر عليها غيرُه. ولم يبلغْ رتبتَه في الذكاء واستخراج الدقائق أحدٌ من أبناء عصره، بل ولا مِن غيرِهم.

=

=

سمع بعضَ الناس يَذكرُ بَيتيْ الحريري في المقامات اللّذيْن قال: «إنه قد أُمِنَ أن يُعزّزا بثالثٍ»... فقال: إنّ تعزيزَهما بثالث غيرُ ممتنع! فجحد ذلك البعضُ، وطال بينهما النزاعُ، فرجع إلىٰ بيته وعمل علىٰ هذا النمط توفيةَ خمسين بيتًا! وأرسل بها إلىٰ من جادلَه وقال: قد صارا خمسين!! وأولُ أبياته:

مَــنْ كَــلَّ مَهْــديْ ودعــا أحمــدا   أُجيــبَ، مــا أســعدَ مَــنْ كَلَّمَــهْ!

ومع كونه بهذه المنزلة من الذكاء كان غايةً في النسيان! حتىٰ قيل: إنه لا يذكر ما كان في أول يومه!!

ومن أعجب ما يُحكىٰ في نسيانه أنه نسي مرةً ألفَ دينار، ثم وقع عليها بعد مدةٍ اتفاقًا فتذكّر ذلك، مع عدم توسّعه في الدنيا، بل مع مزيد حاجته إلىٰ ما هو أقلّ من ذلك! انتهىٰ من البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/ ١٤٢) بتصرّف.

- وقال السخاوي في الضوء اللامع (٧/ ٤١) عن الجلالِ المحلِّي - مؤلِّفِ «تفسيرِ الجلالَين» المشهورِ مع الحافظ السيوطي -: «كان إمامًا، علّامةً، محقّقًا، نظّارًا، مُفْرَطَ الذكاء، صحيحَ الذهن، بحيث كان يقول بعضُ المعتبَرين: إنّ ذهنَه يَثقُبُ الماسَ! وكان هو يقول عن نفسه: إنّ فهمي لا يَقبلُ الخطأَ! حادُّ القريحة، قويُّ المباحثة».

ومع ذلك فقد قال عنه ابنُ العماد في شذرات الذهب (٧/ ٣٠٢): «لم يكُ يقدِر علىٰ الحفظ! وحَفِظَ كُرّاسًا من بعض الكُتُب، فامتلأ بدنُهُ حرارةً!!».

أمّا عكسُ ذلك فهُم كُثُرٌ، منهم:

- هشامُ بنُ محمد بن السائب الكلبي، فقد قال عن نفسه: حفظتُ ما لم يحفظْ أحدٌ، ونسيتُ ما لم ينسه أحدٌ، كان لي عَمٌّ يعاتبني علىٰ حفظ القرآن، فدخلتُ بيتًا وحلفتُ أن لّا أخرج منه حتىٰ أحفظَ القرآنَ، فحفظتُه في ثلاثة أيام!! - وفي روايةٍ في ستة أيام أو سبعةٍ-، ونظرتُ يومًا في المرآة فقبضتُ علىٰ لحيتي لآخذَ ما دونَ القبضة فأخذت ما فوقَ القبضة!!

وقال يزيدُ بنُ هارون: قال لي الكلبي: ما حفظتُ شيئًا فنسيتُه، وحضر الحجّامُ فقبضتُ قبضةً فأردتُ أن أقولَ خُذْ مِن هاهنا، فقلتُ: خُذْ مِن هاهنا، فأخذَ مِن فوقِ القبضة!!

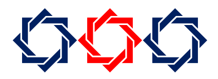
انظر: الكامل في ضعفاء الرجال: لابن عديّ (٧/ ٢٧٥)، والأنساب: للسمعاني (١١/ ١٣٥)، ونزهة الألبّاء في طبقات الأدباء: للأنباري (ص/ ٧٦)، وتاريخ الإسلام: للذهبي (٩/ ٢٦٧).

- وقال حمّادُ بنُ الزبْرِقَان: حفظتُ مَا لم يحفظْ أحدٌ، ونسيتُ مَا لم ينسَ أحدٌ. كنتُ لَا أحفظ الْقُرْآنَ، فأنِفتُ أَن أجيءَ بِمن يُعلّمُني، فحفظتُه من الْمُصحف فِي شهرٍ وَاحِدٍ! ثمَّ
=

٣ - وطريقُ المطالَعة.

ولكُلِّ واحدةٍ منها وسائلُ ومناهجُ وأساليبُ، سيأتي الحديثُ عنها - إن شاء اللهُ تعالىٰ - بالتفصيل.

لكنْ ينبغي أنْ يُعلَمَ أنَّ من الفنون ما يَحتاجُ إلىٰ الحفظ، ومنها ما يَحتاجُ إلىٰ الفهم، ومنها ما يحتاجُهما معًا، ومنها ما تَكفي فيه المطالَعةُ.



=

قبضتُ يَوْمًا علىٰ لحيتي لأقصَّ مَا فَضَلَ عَن قبضتي فنسيتُ أَنِّي أحتاج أَن أقصَّ مَا دون القبضة فقصَصْتُ أَعْلَاهَا، فَاحْتَجْتُ أَن أَجْلِس فِي الْبَيْت سنةً إِلَىٰ أَن اسْتَوَتْ!! نثر الدرّ في المحاضرات: للرازي (٧/ ٢١٥)، والتذكرة الحمدونية: لابن حمدون (٩/ ٣٣٩).

- وقال الحافظُ السيوطيُّ عن نفسه: «أمّا علمُ الحِساب فهو أعسرُ شيءٍ عليَّ وأبعدُه عن ذهني؛ وإذا نظرتُ في مسألةٍ تتعلّقُ به فكأنما أحاولُ جَبَلًا أحملُهُ!!». حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (١/ ٣٣٩).

- وقال السخاويُّ عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم النَّيْني: «حضر عندي في بعض دروس الألفيّة، وحافظتُه أحسنُ من فاهمتِه!» الضوء اللامع (١/ ١٢١).

ففي هذا دلالةٌ ظاهرةٌ علىٰ أن لّا تلازم - كما أسلفتُ - بين الحفظ والفَهم، والله أعلم.




أَمَا لَوْ أَعِي كُلَّ مَا أَسْمَعُ … وَأَحْفَظُ مِنْ ذَاكَ مَا أَجْمَعُ

وَلَمْ أَسْتَفِدْ غَيْرَ مَا قَدْ جَمَعْتُ … لَقِيلَ: هُوَ الْعَالِمُ الْمُقْنَعُ

وَلَكِنَّ نَفْسِي إِلَىٰ كُلِّ فَنٍّ … مِنَ العِلْمِ تَسْمَعُهُ تَنْزَعُ

فَلَا أَنَا أَحْفَظُ مَا قَدْ جَمَعْتُ … وَلَا أَنَا مِنْ جَمْعِهِ أَشْبَعُ

وَمَنْ يَكُ فِي عِلْمِهِ هَكَذَا … يَكُنْ دَهْرَهُ القَهْقَرَىٰ يَرْجِعُ

إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًا … فَجَمْعُكَ لِلْكُتْبِ لَا يَنْفَعُ

محمد بن بشير






المبحثُ الأولُ

طريقُ الحفظ



المبحثُ الأولُ
طريقُ الحفظِ

طريقُ الحفظِ هو أعظمُ الطُّرقِ في تحصيل الفُنُون، وعليه قِوامُ جُلِّ العُلُوم[1]، لا سيّما العلوم الشرْعيّة والعربيّة والتاريخيّة. وبمقدارِ الحفظِ تكونُ الإمامةُ، كما سيأتي بعدُ.

وقد بدأتُ بالحفظ أولًا؛ لأربعة أسبابٍ مهمّةٍ:

أولًا: أنَّ الطالبَ في أول سنّ الطلب تكون حافظتُه أقوىٰ من فاهمتِه - وهذا أمرٌ مَعلُومٌ ومُشَاهَدٌ - وأنَّ الفَهم لديه لا يكون قويًّا كما هو الحالُ عند المُتقدِّمين في السِّنّ.

---

(١) ولذا قال الشيخُ العلّامةُ عبدُ الله بنُ محمد (سفيان) الحَكَمي في منظومته الماتِعة: عُدّة الطلب (ص/ ٥٤):

والحِفظُ أولىٰ ما مضَىٰ من أُسُسِ	فادْأبْ عليه في الضُّحىٰ والغَلَسِ
وكلِّ حينٍ ما حَييتَ، واصْطبِرْ	عليهِ، واسأَلْ المليكَ المقتِدِرْ
سبحانَه، التوفيقَ والتثبيتَا	علىٰ الهُدىٰ والرُّشْدِ ماحَيِيتَا
وأنْ تكونَ حافظًا مُسْتحْضِرَا	تُمطِرُ طلابَ العلومِ الدُّرَرَا
مَنْ مُنِحَ الحفظَ - رُزِقْتَهُ - وَعَىٰ	وعاشَ في أوهامهِ مَنْ ضيَّعَا
لأنَّه لفهمنا الأساسُ	وحظُّ من يَترُكُه الإفلاسُ!

ولهذا برّر عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوّةَ فهمِ ابن عباس رُغمَ صِغر سنِّه بقوله: «ذَٰلِكُمْ فَتَىٰ الْكُهُولِ؛ فَإِنَّ لَهُ لِسَانًا سَؤُولًا، وَقَلْبًا عَقُولًا»![1].

ثانيًا: أنَّ بعض مناهج التَّعليم المُعاصرة تُزهّدُ - مَعْ أسفٍ - في الحفظ، مع أنَّه أصلٌ لا بُدّ منه في طلب العلم وتَحصيله، لا سيَما علوم الشريعة الإسلاميَّة ووسائلها التي تُوصل إليها كما أسلفتُ[2].

وهذا أمرٌ يكادُ يكونُ مُجمَعًا عليه عند السلف، ولذا كان من عباراتهم: «العلمُ ما دخل معك الحمّام»! وقولهم: «كلُّ علمٍ لا يدخل معك الحمّام فلا تَعُدَّه»! أي كلُّ ما لا تحفظُه من العلم فلا يُعْتَدُّ به!

بل إنّ حِفظَ العلم من خصائص هذه الأمة. قال ابنُ الجوزي: «إن الله ﷻ خصَّ أمتَنا بحفظ القرآن والعلم، وقد كان مَن قبلَنا يقرءون كتبَهم من الصُّحُف، ولا يَقدرون علىٰ الحفظ، فلما جاء عُزيرٌ فقرأ التوراةَ من حِفظه، قالوا: هذا ابنُ الله!!

فكيف نقوم بشكر من خوَّلنا أن ابنَ سبعِ سنينَ منّا يَقرأُ القرآنَ عن ظَهرِ

---

(١) أخرجه معمر بن راشد في جامعه (مع المصنف) (١١/ ٢٤١) رقم (٢٠٤٢٨)، وأحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٨٤٤) رقم (١٥٥٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٢٦٥) رقم (١٠٦٢٠) وغيرهم، بسندٍ صحيح.

(٢) قال ابنُ الجوزي: «تأمّلتُ حالةً تَدخُلُ علىٰ طلاب العلم تُوجب الغفلةَ عن المقصود، وهو حرصُهم علىٰ الكتابة، خصوصًا المحدِّثين، فيستغرق ذلك زمانَهم عن أن يحفظوا ويفهموا، فيذهب العمرُ وقد عَرَوْا عن العلم إلا اليسير.

فمَنْ وُفّق، جَعَلَ مُعظمَ الزمان مصروفًا في الإعادة والحفظ، وجَعَلَ وقتَ التعب من التكرار للنسخ، فيَحصُلُ له المرادُ». صيد الخاطر (ص/ ٦٠٤).

قلْبٍ!..... وهذه المنحةُ العظيمةُ نفتقر إلىٰ حفظها بدوام الدراسة؛ لِيَبقىٰ المحفوظُ»[(١)].

ثالثًا: ما يَستصعِبُه كثيرٌ من النَّاس من أمر الحفظ، والسَّببُ في ذلك - والله أعلم - هو أنَّهم لا يعرفون كيفيةَ طُرُقِ الحفظ، ووسائلِه، وأساليبِه.

فعدمُ معرفة الطريقة الصحيحة للحفظ مما يُزهِّد الطُلاب في الحفظ وتعاطيه. وإنْ كانت الطريقةُ في النهاية أمرًا نِسْبيًا يَختلف من شخصٍ إلىٰ آخر، فقد يحفظ زيدٌ بطريقةٍ، ويحفظ عمروٌ بطريقةٍ أخرىٰ، لكنَّ المهمَّ هو أن يحفظَ كلٌّ واحدٍ بالطريقة التي تناسبه، وسيأتي الكلام عن بعض الطرق الميسِّرة للحفظ إن شاء الله تعالىٰ.

رابعًا: العُرْفُ السائدُ من أنَّ وقتَ الحفظ قد مَضىٰ، وأنَّه مقصُورٌ علىٰ فترة الصِّغَر فحسْب.

وهذا غيرُ صحيح؛ لأنَّ عُنصرَ الحفظ باقٍ ما بقيَ الإنسانُ. **وقد قال الخليلُ بنُ أحمد الفراهيدي:** «أكملُ ما يكون الإنسانُ عقلًا وذِهنًا عند الأربعين»[(٢)].

لكنّ الشأنَ هنا هو في الصُعوبة من عدمِها؛ إذ لا جدال في أنَّ الحفظَ عند الكبير أصعبُ منه عند الصغير، وهذا أمرٌ معروفٌ[(٣)]. لكنْ إذا كرّر الصغيرُ

---

(١) الحثّ علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص/ ٣١).

(٢) سير أعلام النبلاء: للذهبي (٧/ ٤٣١).

(٣) **لَفتَةٌ:** لا شكَّ أنّ فترةَ الصِّبا هي الفترةُ الذهبيّةُ للحفظ، لكنه ليس مقصوراً عليها كما أبنتُ في الأعلىٰ.

=

المحفوظَ عشرين مرَّة مثلًا وحَفِظَه، فلماذا لا يُكرّر الكبيرُ أربعينَ مرةً مثلًا حتىٰ يَحفظَ؟

ثم إنَّ كثيرًا من الذين طلَبوا العلم لم يكن طلبُهم له في الصِغر فحسْب، بل إنّ بعضَهم لم يطلبْه إلّا في الكِبَر! إمّا لأنه بدأ الطلَبَ بأخَرَةٍ. وإمّا لأنه اشتغل بفنٍ مّا، ثم اشتغل في آخر حياته بفنٍ آخرَ وبرّز فيه. وإمّا لغير ذلك من الأسباب.

ومن أولئك: **الكَسائيُّ**، حيثُ بدأ طلبَ العلم وعُمرُه أربعون سنةً، وكان يَحفظ في كل يومٍ خمسَ مسائلَ فحسْب! ومع ذلك صار إمامَ الكُوفيين في

=

ولذا ينبغي للوالديْن والمدرِّسين والمربِّين أن يستغلّوا هذه الفترة في تشجيع الأولاد علىٰ الاستكثار من المحفوظ، كما قال ابنُ الجوزي: «ينبغي أن يُحملَ الصبيُّ مِن حينِ يَبلغُ خمسَ سنين علىٰ التشاغل بالقرآن والفقه وسماع الحديث، ولْيُحصَّلْ له المحفوظاتُ أكثرَ من المسموعاتِ؛ لأنّ زمانَ الحفظ إلىٰ خمس عشرة سنة، فإذا بلغ، تشتّتتْ هِمّتُه، فليُضرَبْ تارةً، ويُرْشَىٰ أُخرىٰ؛ لِيبلغَ وقد حصَّلَ محفوظاتٍ سَنيَّةً.

وأولُ ما ينبغي أن يُكلَّفَ حفظَ القرآن مُتقَنًا؛ فإنه يَثبُتُ ويَختلِطُ باللّحم والدّم، ثم مقدمةً من النحو؛ يعرف بها اللّحنَ، ثم الفقهَ مذهبًا وخلافًا، وما أمكن بعد هذا من العلوم، فحِفظُه حَسَنٌ.

ولْيَحذرْ من عادات أصحاب الحديث؛ فإنهم يُفنُون الزمانَ في سماع الأجزاء التي تتكرّرُ فيها الأحاديثُ، فيذهبَ العمرُ وما حصّلوا فهمَ شيءٍ! فإذا بلغوا سِنًّا، طلبوا جوازَ فتوىٰ أو قراءةَ جُزءٍ من القرآن، فعادوا القَهْقَرَىٰ؛ لأنهم يَحفظون بعد كِبَر السنّ، فلا يَحصلُ مقصودُهم. فالحفظُ في الصِّبا للمُهمِّ من العلم أصلٌ عظيمٌ.

وقد رأينا كثيرًا ممّن تشاغَل بالمسموعاتِ، وكتابةِ الأجزاء، ورأىٰ الحفظَ صعبًا، فمالَ إلىٰ الأسهل، فمضىٰ عُمُرُه في ذلك؛ فلما احتاج إلىٰ نفسه، قعَد يتحفَّظُ علىٰ كِبرٍ، فلم يحصُلْ مقصودُه!

فاليقظةَ لفهم ما ذكرتُ، وانظرْ في الإخلاص، فما ينفع شيءٌ دونَه» صيد الخاطر (ص/ ٤٠٨).

النحو، كما أنه أحدُ القُرَّاء السبعة المعتبَرين.

ومنهم: **أحمدُ بنُ عبد القادر بن أحمد القيسي الحنفي النحوي**، فقد اشتغل بعلوم العربية دهرًا، ثم أقبل علىٰ سماع الحديث ونسْخ الأجزاء وكتابة الطِّباق بأخَرَة، فعاب عليه ذلك بعضُ الناس، فقال يُجيبهم:

وعابَ سماعيْ للأحاديثِ بعدما ... كَبِرْتُ أناسٌ هم إلىٰ العيبِ أقربُ

وقالوا: إمامٌ في علومٍ كثيرةٍ ... يَروحُ ويَغدو سامعًا يَتطلَّبُ

فقلتُ مُجيبًا عن مقالتهم وقد ... غدوتُ لجهلٍ منهم أتعجَّبُ!

إذا استدركَ الإنسانُ ما فاتَ من عُلًا ... فلِلحَزمِ يُعزَىٰ لا إلىٰ الجهلِ يُنسبُ![1]

وأعرفُ بعضَ كبارِ أساتذة الجامعات رجعوا يحفظون المتونَ والمنظوماتِ العِلميَّة؛ لأنهم أدركوا أنه مهما بلغ شأنُ الإنسان في القراءة والاطلاع والبحث، فإنَّ ذلك كلَّه لا يُغني شيئًا ما لم يكنْ لديه أصلٌ ثابتٌ محفوظٌ.

هذا مع مراعاة أنَّ الناسَ يختلفون في موهبة الحفظ، فقد يحفظ إنسانٌ من مرَّةٍ (مع أنّ كلمة: مرَّة غيرُ مُستقرَّة!)، وقد يحفظ إنسانٌ من مئة مرَّة! فالذي

---

(١) الدرر الكامنة: لابن حجر (١/ ٢٠٤).

ضميمة: حُدِّثتُ عن رجل في المسجدِ النَّبويِّ طاعِنٍ في السنِّ! جاء إلىٰ أحد مُدرّسي تحفيظ القرآن، وقال: أُريد أنْ أحفَظَ القرآن، فقال له المدرّسُ: وأنتَ في هذه السِّن؟! قال: نعم، فقال له: اقرأْ - لِيختبِر قراءتَه -، فقال: لا أعرفُ القراءةَ! فقال المدرّسُ: فكيف تُريد أنْ تحفظَ القرآنَ وأنت لا تعرفُ القراءةَ؟! فقال الرجلُ: هَبْ أنني أعمىٰ، فكيف تُعلِّمُ الأعمىٰ؟ فأقام عليه الحُجَّة! وبدأ الرجلُ يَحفظُ ويَحفظُ، ولم تمرّ عليه خمسُ سنوات حتىٰ أتمَّ حِفظَ القرآن!

يحفظ من مرَّة ينبغي عليه أن يحفظَ، والذي يحفظ من مئة مرَّة ينبغي عليه أن يُكرِّرَ حتىٰ يحفظَ!

ولا رَيبَ أنّ قوّةَ الحفظ وسرعتَه هبةٌ من الله تعالىٰ، يهبُها مَنْ يشاء مِن عباده، كما نُقلَ ذلك عن جماعةٍ من الحَفّاظ.

فقد جاء عن **زِنْبَاع بنِ الحارث القُرْطبي** أنه كان يحفظ في ساعةٍ - وهي البُرهةُ من الزَّمَن - عشرينَ حديثًا سندًا ومتنًا![(١)].

ومثلُه **خالدُ بنُ سعد القرطبي**؛ فقد حفظ عشرينَ حديثًا من سَمْعةٍ واحدةٍ![(٢)].

وكان **اليُونِينيُّ** يحفظُ في الجلسة الواحدة ما يزيدُ علىٰ سبعين حديثًا!

---

(١) جاء في تاريخ علماء الأندلس: لابن الفَرَضي (١/ ١٨٨): «قال أحمد: كانَ زنباعُ بنُ الحارث يَقِظًا. سمِع: منْ بَقِيِّ بنِ مَخْلَدٍ، ومحمّد بن وضَّاح. وكان يحْفَظُ عِشْرين حَديثًا في سَاعةٍ!».

أخبرنا محمد بن رفاعة، قال: نا أحمد بن عبد البر، قال: نا محمد بن قاسم، قال: شهدتُ محمدَ بنَ وضَّاح وعنده زِنباع، وقد أملىٰ ابنُ وضَّاح أحاديث علىٰ من كان عنده، وزِنباع يتشاغل عن ذلك ويتحدث مع من كان يجاوره، فلما أكثر من الحديث، وتشاغل عما كان يمليه الشيخ، قال له ابنُ وضَّاح: يا مشاوم وخَرَجَ عليه (غَضِبَ عليه)، تَدَعُ أن تكتب سُنَنَ النبيّ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وتشتغل بالحديث؟! فقال له أصلحك الله: لم أشتغلْ عمّا أمليتَه، وقد حفظتُه! وكان ابنُ وضَّاح أملىٰ اثني عشر حديثا فحفظها زِنباع ونَصَّها كما أملاها ابنُ وضّاح!! فعجب منه، وكان يُدْنيه بعد ذلك».

(٢) حتىٰ إنّ أميرَ المؤمنين المستنصر بالله كان يقول: إذا فاخَرَنا أهلُ المشرق بيحيىٰ بن معين؛ فاخَرْناهم بخالد بن سعد.

انظر: تاريخ علماء الأندلس (١/ ١٥٤)، وتاريخ الإسلام: للذهبي (٨/ ٤٥).

وقال ولدُه قُطبُ الدين: حفظ «الجَمْعَ بين الصحيحين»، وأكثرَ «المسند» - يعني مسند الإمام أحمد - وحفظ «صحيحَ مسلم» في أربعة أشهر! وحفظ سورةَ الأنعام في يومٍ واحدٍ! وحفظ ثلاثَ مقاماتٍ من الحريريّة في بعضِ يومٍ![١].

وقيل **لهُشيم بن بشير الواسطي**: كم كنت تحفظ يا أبا معاوية؟ قال: كنتُ أحفظ في المجلس مئةَ حديثٍ! ولو سُئلتُ عنها بعدَ شهرٍ لأجبتُ!![٢].

وعن وكيعٍ قال: «ما كان أحدٌ من أصحابنا أحفظَ للحديث من يحيىٰ بن يمان؛ كان يحفظ في المجلس خمسَ مئةِ حديثٍ!!»[٣].

وحضر **الدارقطنيُّ** في حداثته مجلسَ إسماعيل الصفار، فجعل ينسخ جُزءًا كان معه، وإسماعيلُ يُملي، فقال له بعضُ الحاضرين: لا يَصحُّ سماعُك وأنت تنسخ. فقال الدارقطنيُّ: فهمي للإملاء غيرُ فهمك! ثم قال: تحفظُ كمْ أملىٰ الشيخ من حديثٍ إلىٰ الآن؟ قال: لا، فقال: أملىٰ ثمانية عشر حديثا، فعددتُ الأحاديث، فكانت كما قال! ثم قال: الحديث الأول: عن فلان عن فلان، ومتنه كذا. والحديث الثاني: عن فلان عن فلان، ومتنه كذا. ولم يزل يذكر أسانيدَ الأحاديث، ومتونَها، علىٰ ترتيبها في الإملاء، حتىٰ أتىٰ علىٰ آخرها!! فتعجّب الناسُ منه[٤].

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ: للذهبي (٤/ ١٥٥)، وذيل طبقات الحنابلة: لابن رجب (٤/ ٦٥)، والمقصد الأرشد: لابن مفلح (٢/ ٣٥٧).

(٢) انظر: الكامل في ضعفاء الرجال: لابن عديّ (١/ ١٨١)، وتاريخ بغداد: للخطيب (١٦/ ١٣٠)، وتهذيب الأسماء واللغات: للنووي (٢/ ١٣٨).

(٣) تاريخ الإسلام: للذهبي (٤/ ١٠٠٥).

(٤) انظر: تاريخ بغداد: للخطيب (١٢/ ٤٨٧)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٤٣/ ٩٨)، =

وكان **بندارُ بنُ عبد الحميد الأصبهاني** يحفظ سبعَ مئة قصيدةٍ، أولُ كل قصيدة: (بانتْ سعاد)! فما بالُكَ بغيرها؟! [(١)].

وقال السخاويُّ عن أحمد بن عبد الله بن محمد الكناني المجدلي: «كان غايةً في الذكاء وسرعة الحفظ، بحيث سمعتُه يحكي أنه حفظ نحو خمسين سطرًا من «صحاح» الجوهري بحضرة السفطي من مرتين أو ثلاثة!»[(٢)].

وجاء عن **أحمد بن الحسن الرازي الحنفي** أنه كان يحفظ في كل يومٍ ثلاثَ مئةِ سطرٍ![(٣)] أي ما يُعادل خمسَ عشرةَ صفحة تقريبًا!.

وقال ابنُ العربي المالكي: «كنتُ أحفظ بالعراق في كل يومٍ سبعَ عشرةَ ورقةً!»[(٤)].

وعن **أحمد بن إبراهيم القَنَائِي** أنه كان يحفظ في كل يومٍ أربعَ مئةِ سطرٍ!

=

والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لابن الجوزي (١٤/ ٣٧٩)، ومعرفة أنواع علوم الحديث: لابن الصلاح (ص/ ١٤٥).

(١) **انظر**: طبقات النحويين واللغويين: للزبيدي (ص/ ٢٠٨)، ومعجم الأدباء: للحموي (٢/ ٧٦٦)، وبغية الوعاة: للسيوطي (١/ ٤٧٦).

لكنْ قال ياقوتُ الحمويُّ: «بلغني عن الشيخ الإمام أبي محمد الخشاب أنه قال: أنعمتُ التفتيشَ والتنقيرَ فلم أقعْ علىٰ أكثرَ من ستينَ قصيدةٍ أولُها (بانتْ سعاد).

قال: وحدّث أبو بكر ابنُ الأنباريّ في «أماليه» ببغداد قال: سمعتُ أبا العباس الأموي يقول: كان بندارُ بنُ لُرّه الأصبهاني أحفظَ أهل زمانه للشعر، وأعلمَهم به، أنشدني من حفظه ثمانين قصيدةً أولُ كلِّ قصيدةٍ منها (بانتْ سعاد)»!.

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١/ ٣٦٤).

(٣) **انظر**: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: لابن حجر (١/ ١٣٦).

(٤) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: للضبّي (ص/ ٩٣).

أي ما يُعادل عشرينَ صفحةً تقريبًا!![1].

وقال السخاويُّ عن الحافظ العراقي: «حَفِظَ «الإلمامَ» لابن دقيق العيد، وكان ربما حفظ منه في اليوم أربعَ مئةِ سطرٍ! إلىٰ غير ذلك من المحافيظ»[2].

وقال عنه ابنُ قاضي شهبة: «وكان مع ذكائه سريعَ الحفظ جدًا، أخبرني أنه حفظ من «الإلمام» في يومٍ واحدٍ أربع مئة سطر! وأنه حفظ نصفَ «الحاوي» في الفقه في خمسةَ عشرَ يومًا، أو اثنيْ عشرَ! الشكُّ مني»[3].

وجاء أنَّ **محمد بن علي بن أبي العَشائر الحلبي** حفِظ سورة الأنعام في شبابه من مرَّةٍ واحدةٍ!![4]، مع أنّ سورةَ الأنعام من أصعب السُوَر حفظًا.

وذكروا أنَّ **صدرَ الدين محمد بن عمر بن المرحّل** حَفِظ كُتبًا؛ يُقال: إنه كان إذا وُضِعَ بعضُها علىٰ بعضٍ كانت طولَ قامته! وحفظ «المفصَّل» للزمخشري في مئة يوم! و«مقامات الحريري» في خمسين يومًا! و«ديوان المتنبي» في جُمُعَةٍ واحدةٍ!! وكان لا يَمرُّ بشاهدٍ من كلام العرب إلّا حفظ القصيدةَ التي ذلك البيتُ منها!![5].

---

(١) الدرر الكامنة (١/ ٩٥).

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٤/ ١٧١).
وانظر: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة له (٢/ ١٦٢).

(٣) طبقات الشافعية (٤/ ٣٣).
وانظر: لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ: لابن فهد المكي (ص/ ١٤٨).

(٤) الدرر الكامنة: لابن حجر (٥/ ٣٤١).

(٥) انظر: الوافي بالوفيات (٤/ ١٨٦)، وأعيان العصر وأعوان النصر: للصفدي (٥/ ٥)، وفوات الوفيات: للكتبي (٤/ ١٤)، وطبقات الشافعية: لابن قاضي شهبة (٢/ ٢٣٣)، وشذرات =

ومن العجائب أنّ عليَّ بنَ محمود، بن عليّ بن محمود، بن عليّ بن محمود - ثلاثةٌ علىٰ نسقٍ!- ابنِ العطَّارِ الحرَّانيِّ حَفِظَ ألفيَّةَ العراقيّ في يومٍ واحدٍ!!![1]. وقيل: بل حَفِظَ رُبْعَ الألفيَّة[2] أيْ (٢٥٠) بيتًا![3].

=

الذهب: لابن العماد (٨/ ٧٤).

(١) انظر: الدرر الكامنة: لابن حجر (٤/ ١٥١).

(٢) انظر: إنباء الغِمر بأبناء العُمر: لابن حجر (١/ ٤٦٢)، وشذرات الذهب: لابن العماد (٨/ ٥٨٢).

عَجِيبةٌ: قال الصفديُّ عن أبي العلاء المعرِّي: «كان عَجَبًا في الذكاء المفرط والحافظة، قال أبو سعد السمعاني في كتاب «النسب» ذكر تلميذُه أبو زكرياء التبريزي أنه كان قاعدًا في مسجده بمعرّة النعمان بين يديْ أبي العلاء يقرأ شيئا من تصانيفه، قال: وكنتُ قد أقمتُ عنده سنينَ ولم أر أحدًا من أهل بلدي. فدخل المسجدَ مغافَصَةً (مفاجأةً) بعضُ جيراننا للصلاة، فرأيتُه وعرفتُه، فتغيّرتُ من الفرح، فقال لي أبو العلاء: إِيشْ أصابكَ؟ فحكيتُ له أني رأيتُ جارًا لي بعد أنْ لّم ألقَ أحدًا من أهل بلدي سنينَ. فقال لي: قُمْ فكلِّمْه، فقلتُ: حتىٰ أُتمِّم السَّبْقَ. فقال لي: قمْ أنا أنتظر لك.

فقمتُ وكلمتُه بلسان الأذربية شيئًا كثيرًا إلىٰ أن سألتُ عن كل ما أردتُ، فلما رجعتُ وقعدتُ بين يديه، قال لي: أيُّ لسانٍ هذا؟ قلتُ: هذا لسانُ أذربيجان. فقال لي: ما عرفتُ اللسانَ ولا فهمتُه؛ غير أني حفظتُ ما قُلتما!

ثم أعاد عليَّ اللفظَ بعينه من غير أن يَنقصَ منه أو يَزيدَ عليه جميعَ ما قلتُ! وقال جاري: فتعجّبتُ غايةَ التعجّب؛ كيف حفظ ما لم يَفهمْه؟!!

قلتُ: وهذا معجزٌ؛ فإنه بلغنا عن جماعة من الحفاظ، وما يُحكىٰ عن البديع الهمذاني والأنباري وغير هؤلاء، وهو أمرٌ قريبٌ من الإمكان؛ لأن حفظ ما يفهمه الإنسانُ ويعرف تراكيبَه أو مفرداتِه سهلٌ، وأما أنه يحفظ ما لم يسمعْه ولا يعلم له مفردًا ولا مركّبًا، وهو أقلُّ ما يكون أربعَ مئةِ سطرٍ، من سؤالِ غائبٍ عن أهل بلده سنينَ وجوابِه!!». الوافي بالوفيات (٧/ ٦٣)، ونكْت الهِميان في نُكَت العُميان (ص/ ٧٨).

(٣) انظر المزيد من النماذج في كتابي «نبَأُ الحُفَّاظ».

لكنْ لا ينبغي أن تَقعُدَ بك - أيها الحريصُ - قَصَصُ هؤلاءِ الأفذاذ عن حفظ العلم، حتىٰ ولو عَسُر عليك الحفظُ؛ لأن حفظَ العلم عبادةٌ، والقاعدةُ في العبادات: أنّ الأجرَ علىٰ قدْر المشقّة[(١)].

وأُحبُّ أن أُلفتَ النظر هنا إلىٰ أنّ ممّا يُصعِّبُ الحفظَ، ويُوَعِّرُ مسالكَه، عدمُ مُراعاة **الناحيَة النَّفسية** في الحفظ! فإن الإنسان ربما غفل عن هذا الجانب، وهو مُهم جدًا.

ولهذا راعىٰ العلماءُ هذا الجانبَ - الذي قلَّما يُلتفتُ إليه اليوم - في طريقة الحفظ؛ ألا وهو أنْ يُسجّل الحافظُ المقدارَ الذي يريد حفظَه ويناسب قدرتَه، في ورقةٍ، أو بطاقةٍ، أو دفترٍ صغيرٍ، ثمّ يكرّر عليه حتىٰ يحفظَه. ولا يكتبْ شيئًا جديدًا حتىٰ يستتمَّ حفظَ ما قبله ويتقنَه جيدًا؛ لأنّ الإنسان الذي يَحفظُ مباشرةً من الكتاب، أو يُسجِّلُ شيئًا كثيرًا من المحفوظ؛ غالبًا ما يَقع فيما يلي، أو في بعضه:

أولًا: أنه ربّما مَلَّ مبكّرًا - لاسيّما إذا كان المتنُ طويلًا -؛ نَظرًا لاستثقاله طُولَ المحفوظ، مما يُؤدّي إلىٰ انقطاعه وعدم استمراره.

فإنّ الحافظ عندما يحفظ كلَّ يومٍ من هذا المتن مباشرةً، سوف يستثقلُ طولَ الطريق، وتصبحُ نفسُه غَرْثَىٰ غيرَ منشرحةٍ لهذا العمل؛ لأنه سيشعر كلّما أراد أن يحفظَ أنّ المسافةَ ما زالت شاسعةً؛ وأنه ما زال أمامه أرتالٌ من الصفحات! فيَدِبُّ اليأسُ إلىٰ نفسه، وربما انقطع، وأبو مُرّةَ حَرِيصٌ!

---

(١) انظر ضوابط هذه القاعدة وتفصيلاتها في: مجموع الفتاوىٰ: لابن تيمية (١٠/ ٦٢٠) و(٢٥/ ٢٨١)، ومدارج السالكين: لابن القيم (١/ ١٠٦).

ثانيًا: عدمُ جودة المحفوظ.

فمن طبّق هذه الطريقة، فإنّ حفظَه لا يكون قويًّا في الغالب.

ثالثًا: تراكُمُ المحفوظِ عليه.

إذْ من المعلوم أنّ مُراجعةَ بِضع صفَحاتٍ قليلةٍ أسهلُ من مراجعة كَمٍّ كبيرٍ من الصفحات.

رابعًا: أنه عندما يُسجِّل في أوراقٍ ونحوها؛ فإنه يسهُل عليه اصطحابُها معه في أيِّ مكانٍ، لاسيما إذا كان المتنُ كبيرًا. كما أنه سيكونُ في جديدٍ كلَّ يومٍ.

خامسًا: أنّ هذه الطريقةَ مُوافقةٌ لِما عليه العلماءُ الراسخون - وهذه أهم نقطة -؛ فإنَّ العلماءَ في الغالب ما كانوا يأخذون العِلمَ - كما يُقال اليومَ -: بالمِتر المُكعَّب! وإنما كانوا يأخذونه مسألةً مسألةً، وشيئًا فشيئًا.

فمثلًا: إذا أخذنا مجالسَ الأمالي عند المُحدِّثين، نجدُ أنّ الشيخَ يَعقِد المجلِسَ فيُملي الحديثَ والحديثينِ والثلاثةَ، وربما تَصِلُ العَشَرةَ أو تزيدُ قليلًا، فيكتُبُها الطُّلّابُ، ثم يأتون من الغَد وهي محفوظةٌ. ثم يأخذون غيرَها، وهكذا دوالَيْك... حتىٰ حفظوا مع مرور الوقت مئاتِ الآلافِ من الأحاديث![1].

---

(١) **قال الإمامُ البخاريُّ**: «أحفظُ مئةَ ألفِ حديثٍ صحيحٍ، ومائتيْ ألفِ حديثٍ غيرِ صحيح»! الكامل في ضعفاء الرجال: لابن عدي (١/ ١٣١)، وتاريخ بغداد: للخطيب (٢/ ٣٤٦)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٥٢/ ٦٤).

- **وكان أبو زُرعةَ الرازي** يحفظ ستَّ مئةِ ألفِ حديثٍ! وكان يُقال: كلُّ حديثٍ لا يعرفه أبو زُرعة ليس له أصلٌ. ورُوي عن أحمد بن حنبل أنه قال: «صحَّ من الحديث سبعَ مئةِ ألفِ حديثٍ، وهذا الفتىٰ - يعني أبا زرعة - يحفظ ستَّ مئةِ ألفِ حديثٍ»!! ولذا كان =

وقال شُعبةُ بنُ الحجاج: «اختلفتُ إلىٰ عمرو بن دينار خمسَ مئةِ مرة، وما سمعتُ منه إلا مئةَ حديثٍ!»[(١)].

وبلغني أنّ بعضَ العلماء المعاصرين في المسجد النبوي كان يحفظ كلَّ يومٍ شطرَ بيتٍ من ألفيّة ابن مالك (الخُلاصة)! واستَمرّ في حفظها ما يُقارب ثمانِ سنواتٍ! فكان حفظُه بعدها في غاية الاتقان.

=

أحمدُ يُعظّمُه، وإذا جالسه ترك أحمدُ نوافلَه واشتغل عنها بمذاكرة أبي زرعة! انظر: المدخل إلىٰ كتاب الإكليل: للحاكم (ص/ ٣٥)، وتاريخ بغداد: للخطيب (١٢/ ٣٣)، وطبقات الحنابلة: لابن أبي يعلىٰ (١/ ٢٠١).

- وقال إسحاقُ بنُ راهويه: «أحفظُ سبعينَ ألفَ حديثٍ! وكأني أنظر إلىٰ موضع مئةِ ألفِ حديثٍ!» انظر: تاريخ بغداد: للخطيب (٧/ ٣٦٢)، وسير السلف الصالحين: للأصبهاني (ص/ ١٠٧٥)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٨/ ١٣٨).

- وقال أبو عبد الله بن مخلد: «كان أبو داود سليمان بن الأشعث يفي بمذاكرة مئةِ ألفِ حديثٍ!» سير أعلام النبلاء: للذهبي (١٣/ ٢١٢)، وتهذيب التهذيب: لابن حجر (٤/ ١٧٢).

- وقال الصِّبغي عن أبي عمرو أحمد بن نصر الخفّاف الزاهد: «كنا نقول: إن أبا عمرو الخفّاف يفي بمذاكرة مئةِ ألفِ حديثٍ!» تذكرة الحفاظ (٢/ ١٦٧)، وتاريخ الإسلام: للذهبي (٦/ ٨٩٩)، وشذرات الذهب: لابن العماد (٢/ ٢٣٠).

- وقال أبو العباس بن عُقدة: «أحفظُ مئةَ ألفِ حديثٍ بالإسناد والمتن، وأذاكرُ بثلاثِ مئةِ ألفِ حديثٍ!!» تاريخ بغداد: للخطيب (٦/ ١٤٧).

- وقال محمد بن عمر القاضي البغدادي المعروف بابن الجعابي: «أحفظُ أربعَ مئةِ ألفِ حديثٍ، وأذاكرُ بستِّ مئةِ ألفِ حديثٍ»!! تاريخ بغداد: للخطيب (٤/ ٤٢)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٥٤/ ٤٢٤).

وغيرُهم كثيرٌ.

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٥).

فهذه الطريقة هي الطريقة المُثلىٰ عند الحفّاظ، ولذا قالوا:

«السَّبْقُ حَرْفٌ، والتَّكْرارُ أَلْف!».

وقالوا: «حِفظُ حَرْفيْنْ، خيرٌ من سَماعِ وِقْرَيْن!».

وقالوا: «رأسُ المال مقدَّمٌ علىٰ الرِّبْح!»(١).

ويُشبِهُ هذا، الحفظُ فيما يُسمَّىٰ (الـمَحْضَرَة) حيثُ يأتي الطالبُ ومعه لوحٌ خشبيٌ، فيكتبُ له شيخُه، أو يكتبُ هو سطرين أو ثلاثةً، أو بيتًا أو بيتين، أو نحوها من المحفوظات، فيحفظُها، فإذا ما انتهىٰ منها مَحَاهَا ثم حفظ غيرَها، إلىٰ أنْ يَستتمّ حفظَ المتن كاملًا.

وما زالتْ هذه الطريقةُ معمولًا بها حتىٰ اليوم في بلاد شِنقيط، ودُول المغرب، وإفريقيا، فلا يحفظون القرآنَ والحديثَ والشِّعْرَ ونحوها إلا بهذه الطَّريقة.

فبهذه الطَّريقة يستطيعُ الحافظُ أنْ يَستمِرَّ، وأن يُتقنَ المحفوظَ.

أمَّا بالنِّسبة لِما يُشيعُه بعضُ الناس، وبعضُ مناهج التعليم الحديثة، من عدم جدوىٰ الحفظ، - لاسيَّما في هذا الزمن -، وعُمْدتُهم في ذلك ما اشتهر عن الأستاذ: محمد عبده الـمِصْريّ، المفسِّر، حيثُ قيل له: إن فلانًا يحفظ صحيح البخاري. فقال: زادت نُسخةٌ في البلد!!(٢).

---

(١) لطيفة: قال ابنُ هبيرة: «قِتالُ الخوارج أولىٰ من قتال المشركين، والحكمة فيه أنّ في قتالهم حفظُ رأس مال الإسلام، وفي قتال أهل الشرك طلبُ الربح، وحفظُ رأس المال أولىٰ».
فتح الباري: لابن حجر (١٢/ ٣٠١).

(٢) انظر: أضواء علىٰ السنة المحمدية: لمحمود أبو رَيّة (ص/ ٣٢٩)، ولحظ الألحاظ: للكوثري (ص/ ٣٣٥).

إضافةً إلىٰ قولهم: إنّ الحفظ يُعطِّل الفَهمَ! أو أنَّ الفهم هو المطلوبُ لإيجاد قُدُراتٍ تُواكب العصر! ونحو ذلك من المقولاتِ التي تُزهّد في الحفظ! فهذا كلُّه مردودٌ علىٰ أصحابه.

وتقريرًا للصواب في هذه المسألة فإني أقول: لعلّ السببَ في هذا الإشكال، هو عدمُ التفريق بين أنواع العلوم من حيثُ الثباتُ والتطوّرُ.

فالعلومُ بحسَب ثباتِها وتطورّها تَنقسم إلىٰ **ثلاثة أقسام**:

أولًا: علومٌ متطوّرةٌ، وهي العلومُ المتجدِّدَة التي لا تَقبلُ الرُّكودَ، بل تتطوّر باستمرارٍ، كعلومِ الميكانيكا، وعلومِ الكاتُوب[(١)]، وعلومِ الهندسة، وعلوم الطبّ، ونحوِها من علوم العصر.

فهذه لا يُحفظُ فيها متنٌ، بل إنّ النظمَ فيها ضَرْبٌ من ضُروب المُلَح![(٢)].

---

(١) **فائدةٌ**: **الكَاتُوب**: هو التعريبُ الأوفقُ - عندي - لاسم الجهاز المعروف بـ (الكومبيوتر).
ولقد تدرّجَوا في تعريبِ اسمِه أولَ ما صُنع، فقيل: النظّامَة، ثم الرَّتَّابَة، ثم العقل الإلكتروني، ثم الحاضُون، ثم الحاسب الآلي، ثم الحاسوب، وبه اشتَهرَ!
وأرىٰ أنّ ذلك مرجوحٌ؛ لأنّ عُظْمَ فوائدِه في الكتابة والصفّ والرَّسْم وما إلىٰ ذلك. أمّا الحسابُ وما شابهه؛ فهو جزءٌ يسيرٌ من وظائفه.
بل لا يستخدمُه لهذا الغرض إلا فِئامٌ قليلٌ من الناس، كالمهندِسين، والرياضيّين، والفِيزيائيّين.
وهذا هو رأيُ طائفةٍ من محقّقي اللغويّين أيضًا؛ منهم العلّامةُ: عبدُ الله الطيّب، والدكتورُ: إبراهيمُ عوض، وغيرُهما. والله أعلم.

(٢) بلغني أنَّ أحد الأطبّاء في بلاد الشام نَظَمَ ما يتعلّق بطبّ النساء والولادة!!
وهو من أصعب التخصّصات في علم الطبّ؛ فلعلّه نظَمَه لأجل ذلك، وعلىٰ كلٍّ فهي كائِنةٌ نادِرةٌ!

أما ما وُجد من ذلك عند بعض المتقدِّمين، فهو بحسب ما استقرّ عليه الأمرُ عندهم، لأنّ العلومَ الطبيعيةَ، وعلمَ الطبِّ[1]، والهندسةِ،

---

(١) مِن الأنظامِ البديعةِ في الطبِّ:

- «**الأرجوزةُ في الطبّ**»: للحسين بن عبد الله بن سينا (ت ٤٢٨هـ)، وهي مطبوعةٌ ضمن كتاب: «من مؤلفات ابن سينا الطبية» وتقع في (١٣٣٧) بيتًا، وهي منظومةٌ سَلِسَةٌ عَذبةٌ بديعةٌ.

قال في مستَهلِّها:

بصنعةِ اليدَيْنِ واللسانِ ... الفصلُ بينَ الحيِّ والإنسانِ

فأشرفُ الناسِ إذنْ أحسنُهُمْ ... صُنْعًا، وفي مقالةٍ ألسنُهُمْ

والشعراءُ أُمراءُ الألسُنِ ... كما الأطبّاءُ ملوكُ البدنِ

هذا يَسُنُّ النفسَ بالفَصاحهْ ... وذا يَطِبُّ الجسمَ بالنَّصاحهْ

وهذه أُرجوزةٌ قد اكتملْ ... فيها جميعُ الطبِّ عِلْمًا وعملْ

- منظومة: «**حافظ المزاج، ولافظ الأمشاج بالعلاج**»: لأبي القاسم بن أحمد بن عيسىٰ الفشتالي المعروف بالغول (ت١٠٥٩هـ). وهو عبارةٌ عن منظومةٍ رجزيةٍ تقع في نحو ألفٍ وخمس مئة بيتٍ، مرتبة علىٰ أربعة وعشرين بابًا، فيها الحديث عن وجع الرأس والشقيقة والزكام وجَرَب الرأس وداء الثعلبة....، وختم بالباب الرابع والعشرين الذي تحدث فيه عن أنواع الأشربة والمربَّيات والأدهان والمقادير والأوزان.

يقول في مقدمة المنظومة:

وبعدُ؛ فاعلمْ أنّ علمَ الطِّبِّ ... عِلمٌ شريفٌ للخبيرِ الطَّبِّ

لأنه مُنعِّشُ الأبدانِ ... للعَونِ في عبادة الديّانِ

فصُغْتُ فيه دُرَرًا يتيمَهْ ... لم يَحْوِها طالبُها بقِيمَهْ

=

والرياضيّاتِ[(١)]، ونحوِها، لم تكنْ متطوِّرةً عندهم بهذه السرعةِ الهائلةِ التي

=

أدويــــــةً وُجودُهـــــا معـــــــروفُ يُــــدركُها الشــــريفُ والمشـــــروفُ

وكلُّهـــــــا في قُطْرنــــــا ميسَّـــــرُ إلا يســـــــيرًا أصـــــلُه يُيَسَّـــــرُ

ســــميتُه بـــــ «حـــافظِ المـــزاجِ ولافـــظِ الأمشـــاجِ بـــالعلاجِ»

- «المنظومة الشقرونيّة»: للطبيب محمد عبد القادر بن العربي المعروف بابن شقرون المكناسي، كان حيًا سنة (١١٤٠هـ).

وتقع هذه الأرجوزة في (٧٠٤) بيتًا، نظمها جوابًا لسؤال من تلميذه الشيخ صالح بن المعطي. وهي مطبوعةٌ ضِمنَ «المجموع الكامل للمتون».

وقد ضمّنها شرحَ فوائد المآكل والمشارب المتداولة بين الناس. ومنها قولُه فيما يتعلق بأكل اللحم:

خيـرُ الشِّـواءِ مـا علـىٰ الجَمْـرِ شُـوِيْ بـــلا دُخـــانٍ في قَضِـــيبٍ يَلْتَـــوِيْ

يَفـــتحُ للصِّـــحّة ألـــفَ بـــابِ وهـــو الـــذي يُعـــرَفُ بالكَبَـــابِ!

(١) للتوسُّع انظر: بحث «منظومات العلم الرِّياضي»، المنشور في (حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر) العدد السابع، ١٤٠٤هـ للدكتور: جلال شوقي.

وبحث «من تراثنا المنظوم في الرياضيّات» المنشور في (مجلة الدارة - دارة الملك عبد العزيز - بالرياض) السنة العاشرة، العدد الثالث، عام ١٤٠٥هـ للباحث نفسه.

لطيفة: نَظَمَ الأستاذُ أحمد عُرابي الأحمد - من سُوريا - ألفيةً في الرياضيّات والجَبْر! تقعُ في (١٠٩٠) بيتًا! وقد نُشرتْ عام (١٤٣٨هـ)، وهي منظومةٌ سَلِسَةٌ عَذْبةٌ رُغمَ وُعُورةِ العلمِ الذي نُظمتْ فيه! فلِلّه دَرُّه من ناظمٍ متمكِّن. وقد قال في خاتِمتها:

والحمـــــدُ لله الـــــذي أَتَمّـــــا ألفيّـــةً كانـــتْ لـــديَّ حُلْمـــا

أبياتُهـــا تســـعونَ فـــوقَ الألـــفِ ولا أَراهـــا بكثيـــرٍ تَكفـــي

ومـــا حـــوتْ إلا عنـــاوينَ لمـــا يَضُـــمُّ عِلـــمُ الجَبْـــرِ عنـــدَ العُلَمـــا

=

يَعيشُها عصرُنا!

ثانيًا: علومٌ ثابتةُ الأصول مُتجدّدةُ الفروع والجُزئيات. كالفقه مثلًا؛ فإن الفقهَ أصولُه ثابتةٌ، لكنه حادثُ الجزئيات، كثيرُ النوازل والمستجدّات. ولذلك أُنشئت المجامعُ الفقهيةُ لمعالجة هذه النوازِل المُستجدَّة.

فهذا القسمُ إنما يُحفظُ منه مسائِلُه الأُصولُ وقواعدُه فحسْب؛ لأنه لا يُمكن أن يَحفظَ الإنسانُ جميعَ الجُزئياتِ والمستجدِّاتِ؛ إذْ لو رامَ ذلك للزِمَه حفظُ آلافِ الصفحات! وعشراتِ الآلاف من الأبيات!!

فابنُ عبد القوي له منظومةٌ داليّةٌ في فقه الحنابلة، سمّاها: «عقد الفرائد وكنز الفوائد»، نظم فيها «المقنع»، طُبعت في مجلدين، تقع في: ثلاثةَ عشرَ ألف وتسع مئة وستة وستين بيتًا! قال عنها الشيخُ عبدُ الكريم الخضير - كما في شرحه لمختصر الخرقي -: «مِن أعظم ومِن أبدع ما نُظم في هذا الفنّ»[(١)].

ونَظَمَ ضياءُ الدين علي بن سليم الأذرعي «التنبيه» في فروع الشافعية في: ستةَ عشر ألف بيتٍ![(٢)].

ونَظَمَ ابنُ عَرَبْ شاه المسائلَ الخلافيةَ في الفقه، وسمّاه «دلائل الإنصاف»، في: أزْيَدَ من خمسةٍ وعشرينَ ألفَ بيتٍ!![(٣)]، وغيرها.

=

عســـىٰ تكـــونُ أُختُهـــا في الهندسَـــهْ أكثـــرَ إيضـــاحًا لأهـــلِ المدرســـهْ!

(١) وللشيخ العلّامة عبد الرحمن السعدي شرحٌ عليها يقع في ثلاثة عشر مجلدًا سمّاه «تيسير الكريم الواحد»، وهو مطبوعٌ ضمنَ مجموع مؤلفاته - طبعة دار الميمان-.

(٢) انظر: كشف الظنون: لحاجي خليفة (١/ ٤٨٩).

(٣) انظر: كشف الظنون (١/ ٧٥٩)، وهدية العارفين: للبغدادي (١/ ٦٤٠).

=

وحِفظُ هذا الكمّ في العادة شبهُ متعذّرٍ؛ لما فيه من استنفادِ وقتٍ طويلٍ، وانشغالٍ عن حفظ بقيّة العلوم والفنون، وحشْوٍ للحافظة بما غيرُه أولىٰ منه؛ فإنّ الحافظةَ إذا حُشيتْ بهذا الكمّ الكبير فماذا سيبقىٰ فيها لبقيّة الفنون؟!

ولقد أشار ابنُ حزمٍ إلىٰ هذا المعنىٰ بقوله:

مَــن ظــلّ يبغــي فــروعَ علــمٍ بــدْءًا، ولــم يَــدْرِ منــه أصْــلَا

فكلّمـــــا ازدادَ فيـــــه سَـــــعيًا زاد لَعمـــري بـــذاك جهـــلَا!![1]

ثالثًا: علومٌ ثابتةٌ لا تتغيّر. مثلُ علوم الآلة: كالنحو، والصرف، وأصول الفقه، ومصطلح الحديث، والبلاغة، ونحوها.

فهذه العلومُ لا تتبدّل ولا تتغيّر؛ لأنها قائمةٌ علىٰ قواعدَ وقوانينَ ثابتةٍ لا تتغيّر.

فمثلًا: الفاعلُ منذُ امرئِ القيسِ إلىٰ الآنَ مرفوعٌ، فلا يُمكن أن يُثبِتَ

=

فَائِدَة: أحبَّ يحيىٰ بن خالد البرمكي أن يحفظ كتابَ «كليلة ودمنة» فاشتدّ عليه ذلك، فقال له أبانُ بنُ عبد الحميد اللاحقي: أنا أجعلُه شِعْرًا؛ ليخفَّ علىٰ الوزير حفظُه. فنقله إلىٰ قصيدةٍ عَمِلَها مُزدوَجةً، عددُ أبياتها أربعةَ عشرَ ألفَ بيتٍ في ثلاثة أشهر!! فأعطاه يحيىٰ عشرةَ آلافِ دينارٍ! وأعطاه الفضلُ خمسةَ آلافِ دينارٍ! وقال له جعفرُ بن يحيىٰ: ألا ترضىٰ أن أكون راويتَك لها؟ ولم يُعْطِه شيئًا! قال: فتصدّقَ بثلث المال الذي أخذه.

وقد ذكر حمدانُ ابنُه: أنه كان يصلّي ولَوحٌ موضوعٌ بين يديه، فإذا صلّىٰ أخذ اللوحَ فملأه من الشعر الذي صنعه، ثم يعودُ إلىٰ صلاته!

انظر: الأوراق: للصولي (١/ ٤٦) وقد أورد من منظومته هذه (٧٦) بيتًا، وتاريخ بغداد: للخطيب (٧/ ٥١٠)، والمنتظَم في تاريخ الملوك والأمم: لابن الجوزي (١٠/ ٨٧).

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: للشنتريني (١/ ١٧١).

إنسانٌ - مهما بلغ من العلم - أنّ الفاعلَ مجرورٌ مثلًا!

والقياسُ عند الأصوليّين: إلحاقُ فرعٍ بأصلٍ؛ لعلّةٍ جامعةٍ بينهما.

والحديثُ المُعَلُّ عند المحدِّثين: هو ما فيه عِلَّةٌ خَفَيَّةٌ قادحةٌ.

وهكذا دَوالَيْكَ في جميع مصطلحات علوم الآلة.

ويُلحَقُ بهذا القسم ممّا يُحفظُ: النصوصُ من: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والأشعار، والحِكَم، والأمثال، ونحوها.

فهذا القسمُ هو الذي نُنادِي بأعلىٰ صوتٍ بحفظه وإتقانه[١].

ولا يُمكن للراغب - إذا ما أراد أن يكون راسخًا في العلم - إلّا أن يُتقنَ علومَ الآلة؛ لأنها بمثابة المفاتيح لعلوم المقاصد.

ولهذا يُلاحَظُ أنّ كبارَ العلماء في هذا العصر من أهل التحقيق والتدقيق، كالشيخِ محمد الأمين الجَكَني الشنقيطي، والشيخِ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُمَااللَّهُ وغيرِهِما، ما وصلوا إلىٰ ما وصلوا إليه من الرسوخ العلمي، وقوّة الاستنباط، إلا بحفظِهم وإتقانِهم علومَ الآلة.

ثم إنني أقول للذين يُنفِّرون من الحفظ: إنّ الحفظَ سابقٌ علىٰ الفهم، فالفاهم هو حافظٌ بالضرورة! إذْ لا يوجد علمٌ من العلوم إلا ولابدّ أن يكون فيه محفوظاتٌ سابقةٌ، هي ركائزُه الأساسيَّةُ التي يُنطلَق منها.

---

(١) ليس المرادُ هنا الحفظَ لأجل الحفظ؛ وإنما لما يترتب علىٰ الحفظ من آثار وفوائد، **منها:** حُسْنُ التصرُّف في العلم، وسُرعةُ استحضار المسائل، وفهمُ العلم علىٰ نحوٍ أفضل، وبقاءُ العلم في الصدر طويلًا، وانتقالُ العلم مع حافظه حيثُما حلَّ وأينما ذهب، ولذّةٌ عظيمةٌ يَجدُها الحافظُ لحِفظه، وهذه الأخيرةُ لا تَعدِلُها كنوزُ الأرض!!

فلو ضربْنا مثالًا علىٰ ذلك لعلمٍ من أبعدِ العلوم عن الحفظ، وهو علم الرياضيّات؛ فإنه لابُدّ أن تكون في ذهن الرِّياضيّ قوانينُ ثابتةٌ، ومسلَّماتٌ مقرَّرةٌ مِن قَبلُ، وإلا فكيف سيُجري عمليّاتِه الحسابيّةَ؟! وهذا ضَرْبٌ من ضُرُوبِ الحِفظ، وإنْ كانت العمليّاتُ الحسابيّة نفسُها لا تُحفظُ!

وليس أمرُ العناية بالحفظ خاصًا بالمسلمين فحسب، بل هو موجودٌ أيضًا عند علماء الغَرْب[١] من غير المسلمين، عِلْمًا بأنَّ بعضَ المناهج التعليميّة الـمُعاصِرة (التي زهَّدَتْ في الحفظ) إنما أُخذتْ من الغَرْب!! وأكتفي هنا بذكرِ مثالَيْن:

فالمؤرّخُ الإنجليزيُّ (اللُّورد ما كُولي)[٢] كان يَستظهرُ كثيرًا من الكُتُب،

---

(١) قال العلّامةُ المعلّمي في معرِض دفاعه عن إمامِ المغازي ابنِ إسحاق: «فأمّا نقلُه عن اليهود والنصارىٰ وتسميتُه إيَّاهم أهلَ العلم الأوَّل، فلا عَيبَ فيه». آثار الشيخ العلامة المعلّمي (٢٤/ ٢٣٦).

(٢) تُوماس بابنجتون ماكولي المعروف بـاللورد ماكولي (١٨٠٠ - ١٨٥٩ م) سياسيٌّ ومؤرخٌ وشاعرٌ بريطاني.

وهو صاحبُ الخِطاب الشهير الخطير، الذي ألقاه في البرلمان الإنكليزي، في الثاني من شباط سنة (١٨٣٥م)، وقد جاء فيه: **«لقد سافرتُ في الهند طُولًا وعَرْضًا ولم أرَ شخصًا واحدًا يتسوّل أو يسرق! لقد وجدتُ هذا البلد ثريًا لدرجةٍ كبيرةٍ، ويتمتع أهلُه بقِيمٍ أخلاقيةٍ عاليةٍ، ودرجةٍ عاليةٍ من الرُّقيّ، حتىٰ إنني أرىٰ أننا لن نهزم هذه الأمة، إلّا بكسر عمودها الفقري، وهو تراثُها الروحيُّ والثقافيُّ!!**

ولذا أقترح أن يأتي نظامٌ تعليميٌّ جديدٌ ليَحُلّ مَحلّ النظام القديم؛ لأنه لو بدأ الهنود يعتقدون أن كل ما هو أجنبيٌّ وإنجليزيٌّ جيدٌ، وأحسنُ مما هو محليٌّ، فإنهم سيفقدون احترامَهم لأنفسهم وثقافتهم المحليّة، وسيُصبحون - كما نريدهم أن يكونوا - أمةً تمّ الهيمنةُ عليها تمامًا!!!».

=

وكان يهتمُّ بالحفظ كثيرًا[١].

والأديبُ الرّوائيُّ (أنْدريْه فارْنو) كان يحفظ هو وأصدقاؤه رواية (اِيمييني) لجانْ دِيتانْ عن ظَهر قلبٍ![٢].

والحاصِلُ: أنه منذُ أن قال محمدُ بنُ هبة الله المكِّي (المتوفَّىٰ بعد سنة ٥٧٠ هـ) في منظومته «حدائق الفصول»:

ومنـــه مـــا تنقســـمُ الأجســـامُ ... فـــاحفظْ فكُـــلُّ حـــافظٍ إمـــامُ

أو عَصْريُّه محمدُ بنُ علي الرَّحَبِي (ت ٥٧٧ هـ) في منظومته: «بُغية الباحث عن جُمَل المواريث»:

والثُّلُثـــانِ وهمـــا التَّمـــامُ ... فـــاحفظْ فكُـــلُّ حـــافظٍ إمـــامُ[٣]

وحتىٰ اليوم، فإنّ الحافظَ إمامٌ بلا جدالٍ[٤].

=

وقد استطاع ماكولي تطبيق فلسفته، حيث تمَّ في العام نفسه تحويلُ التعليم في المدارس الهندية إلىٰ نظامٍ إنكليزيٍّ خالصٍ!! راجع: (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة).

(١) الفنون الصغرىٰ: لابن عقيل الظاهري (ص/ ١٦٥).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) لا أدري أيُّهما أسبقُ للشطر الثاني؟! لأنهما متعاصران! أم أنه ضَرْبٌ من تواردِ الخواطِر، ووقوعِ الحافِرِ علىٰ الحافِرِ!

(٤) قال أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري: «**القاعدةُ عند القدماء أن كلَّ حافظٍ إمامٌ. فلما جاءت التربيةُ الحديثةُ زهّدتنا في الحفظ، فأضرّتْ بنا إضرارًا شديدًا**» الفنون الصغرىٰ - السِّفْر الخامس - (ص/ ١٦٥).

قلتُ: بل أصبح لقبُ الحافظِ مَثْلَبَةْ، بعد أن كان مَنْقَبَةْ!! والله المستعان.

ويقول ابنُ أبي الحَديد في نظمه «الفصيحَ» لثعلب:

وبعــدُ: فــالعلمُ إذا لــم يَنْضَــبِطْ بالحِفْظِ لم يَنفعْ، ومَنْ مَارَىٰ غَلِطْ

وقال ابنُ الجزري في «طيّبة النشر في القراءات العشر»:

وَبَعْـدُ: فَالإِنْسَـانُ لَـيْسَ يَشْـرُفُ إِلاَّ بِمَـــا يَحْفَظُـــهُ وَيَعْـــرِفُ

وقال أبو سعيد الحاكم المعروف بابن دُوسْت:

عليك بالحفظ دون الجمع في الكُتُبِ فــإن للكُتْــب آفــاتٌ تُفرِّقــها:

المــاءُ يُغرِقُهــا، والنــارُ تَحرقُهــا والفأرُ يَخرقُها، واللِّصُّ يَسرِقُها![1]

كما ذمُّوا الذي لا يحفظ علمَه، فمن ذلك قولُهم:

اِســتودعَ العلــمَ قِرْطاسًــا فضــيَّعَهُ فبئسَ مُستَودَعُ العلمِ القَراطِيسُ[2]

---

(١) مجاني الأدب في حدائق العرب: لرزق الله شيخو (٣/ ١٤١).

(٢) لَطِيفَة: لعلّ مما يُستلطفُ هنا ويؤكّد معنىٰ هذا البيت، قصةُ الإمام الغزالي وهو راجعٌ من جُرجان إلىٰ طُوس، قال: «قُطِعتْ علينا الطَّرِيقُ، وَأخذ العيّارون (اللصوصُ) جَمِيع مَا معي ومضوْا، فتبعتُهم فَالْتَفت إليَّ مُقدَّمُهم وقال: ارْجعْ وَيحكَ وَإِلَّا هَلَكْتَ. فَقلتُ له: أَسأَلك بِالَّذِي ترجو السَّلامَةَ منه أن تردَّ عليَّ تعليقتي فقط فما هي بشَيْءٍ تنتفعون به. فقال لي: وما هي تعليقتُك؟! فَقلتُ: كتبٌ فِي تِلك المِخْلاة، هَاجَرتُ لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها. فضحِك، وقال: كيفَ تَدّعِي أَنَّك عرفتَ علمهَا وقد أخذناها مِنْك فتجرّدتَ من مَعْرفَتهَا وبقيتَ بلا عِلمٍ!! ثمَّ أَمر بعضَ أَصْحَابه فَسلّم إِلَيّ المخلاةَ!
قال الْغَزالِيُّ: فقلتُ: هذا مُستَنْطَقٌ أنطقهُ اللهُ؛ لِيُرشدَني به فِي أَمْرِي. فَلَمَّا وافيتُ طُوس، أَقبلتُ علىٰ الاشْتِغَال ثلاثَ سِنِين حتىٰ حفظتُ جميعَ ما علّقتُه، وصرتُ بحيثُ لو قُطعَ عليّ الطريقُ لم أتجرّدْ من عِلْمي!!» طبقات الشافعية الكبرىٰ: للسبكي (٦/ ١٩٥).

وقولُهم:

إذا لــم تكُــن حافظًــا واعيًــا ... فجمعُــك للكُتْــب لا ينفــعُ

وقال أبو العتاهية:

مَــنْ مُــنِحَ الحفــظَ وَعَــىٰ ... مَــنْ ضَــيَّعَ الحفــظَ وَهِــمْ!

وكان لأبي بكرٍ الصوليِّ بيتٌ مملوءٌ كتبًا قد صفّها، وجلودُها مختلفةُ الألوان، كلُّ صِنفٍ من الكتب لونٌ؛ فصِنفٌ أحمرُ، وصِنفٌ أخضرُ، وصِنفٌ أصفرُ، وغيرُ ذلك. وكان يقول: هذه كلُّها سماعي، وإذا احتاج إلىٰ مراجعة شيءٍ منها قال: يا غلامُ هاتِ الكتابَ الفُلانيَّ! فقال فيه أبو سعيد العُقيليّ يذمُّه؛ لعدم حِفظِه ما فيها:

إنمــا الصــوليُّ شيــخٌ ... أعلــمُ النــاس خِزانَــهْ!

إنْ تَسَــلْ عــن مُشْــكِلاتٍ ... طَلَبًــا منــه إبانَــهْ

قــال: يــا غِلمــانُ هــاتوا ... رُزْمَــةَ العِلــم فُلانَــهْ!![1]

فالحفظُ إذن ضرورةٌ لا بُدّ منها في **التأصيل العلميّ**، ولذا قال الشيخُ محمدُ بنُ الدِّنَّاهِ الْأَجْوَدِيُّ:

وَالْعِلْــمُ دُونَ حِفْظِــهِ لَا يُــدْرَكُ ... مَهْمَــا سَــعَىٰ فَــرْدٌ إِلَيْــهِ يَسْــلُكُ

---

(١) انظر: معجم الأدباء: لياقوت (٦/ ٢٦٧٧)، وإنباه الرواه علىٰ أنباه النحاه: للقفطي (٣/ ٢٣٥)، ووفيات الأعيان: لابن خلّكان (٤/ ٣٦٠).

فَالْقَلْبُ لَا يَفْقَهُ إِلَّا مَا اسْتَقَرْ ... مِنَ الْمَبَانِي وَالْمَعَانِي وَالْعِبَرْ
وَالْحِفْظُ لَازِمٌ لِمَن تَعَلَّمَا ... فِي قَوْلِ كُلِّ الْحُكَمَاءِ الْعُلَمَا
وَمَن يَخَلْ عِلْمًا بِدُونِهِ حَصَلْ ... فَذَاكَ وَاهِمٌ؛ فَعَنْهُ لَا تَسَلْ!
فالعلمُ إنْ حُفظَ زَانَ ونَفَعْ ... وأخْصَبَ الفِكْرَ، ولِلمرءِ شَفَعْ

وقال بديعُ الزمان الهمذاني في (المقامة العِلْميّة)[١] عن العلم، منوِّهًا بأهمية حفظه: «**وَجَدْتُهُ شَيْئًا لا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْغَرْس، وَلَا يُغْرَسُ إِلَّا في النَّفْس. وَصَيْدًا لَا يَقَعُ إِلَّا في النَّدْر، وَلا يَنْشَبُ إِلَّا في الصَّدْر. وَطَائِرًا لا يَخْدَعُهُ إِلَّا قَنَصُ اللَّفْظ، وَلاَ يَعْلَقُهُ إِلَّا شَرَكُ الحِفْظ....**» إلىٰ آخر ما قال.

ومن عبارات العلماء في ذلك:

- «مَنْ حَفِظَ المتُون، حَازَ الفُنون»!
- و«مَنْ حَفِظَ الأُصول، بلَغَ الوُصُول»!

ولا يُعكِّر علىٰ كلامي هذا ما ذكره ابنُ خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المُقدِّمة»[٢]؛

(١) مقامات بديع الزمان الهمذاني (ص/ ٢٤٢).

(٢) قال في الفصل السادس والثلاثين من الباب السادس (ص/ ٦٠٩): «الفصل السادس والثلاثون: في أن كثرةَ الاختصاراتِ الموضوعةِ في العلوم مُخِلَّةٌ بالتعليم.
ذهب كثيرٌ من المتأخِّرين إلىٰ اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يُولَعون بها، ويُدوِّنون منها برنامجًا مختصرًا في كلِّ علمٍ، يشتمل علىٰ حصر مسائله وأدلتها، باختصارٍ في الألفاظ وحَشوِ القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن. فصار ذلك مُخلًّا بالبلاغة، وعسيرًا علىٰ الفهم.
وربّما عمدوا إلىٰ الكتب الأمهات المطوَّلة في الفنون للتفسير والبيان، فاختصروها تقريبًا =

لأنّ ابنَ خلدون إنما ذمَّ المُختصراتِ المُغْرِقةَ في الإيجاز، التي تَضِيعُ الأوقاتُ في تفكيك عباراتِها، وتحليل ألفاظِها! بدليل أنه قد ذُكر في ترجمته أنه حَفظ الكثيرَ من المنظومات العلمية، ومنها ألفيَّة الشَّاطِبي الصُغرىٰ والكُبرىٰ في القراءات، وغيرُها.

نعمْ، الشاعرُ وحدَه هو مَن قد يتأثّرُ – نوعًا مّا – بحفظ المنظومات العلمية؛ لأن النَّظمَ إذا تشبَّع به الذِّهنُ وكثُرَ تَردادُه، أثّر ذلك علىٰ أسلوبِ الشاعرِ وعلىٰ شاعريّةِ مُفرداتِه! **ولذا قال القائلُ:**

=

للحفظ، كما فعله ابنُ الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابنُ مالك في العربية، والخَوَنْجيُّ في المنطق وأمثالُهم.

وهو فسادٌ في التعليم، وفيه إخلالٌ بالتحصيل؛ وذلك لأن فيه تخليطًا علىٰ المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعدّ لقبولها بعدُ، وهو من سوء التعليم كما سيأتي.

ثم فيه مع ذلك شغلٌ كبيرٌ علىٰ المتعلّم بتتبّع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم، بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة استخراج المسائل من بينها؛ لأنَّ ألفاظَ المختصرات نجدها لأجل ذلك صعبةً عويصةً، فينقطع في فهمها حظٌّ صالحٌ من الوقت، ثم بعد ذلك كلِّه فالمَلَكَةُ الحاصلةُ من التعليم في تلك المختصرات – إذا تمَّ علىٰ سداده، ولم تَعْقُبْهُ آفةٌ – فهي مَلَكَةٌ قاصرةٌ عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطوّلة؛ لكثرة مايقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدیْن لحصول المَلَكَة التامّة. وإذا اقتُصر علىٰ التكرار قصَّرت المَلَكَةُ؛ لقِلّته، كشأن هذه الموضوعات المختصرة. فقَصَدُوا إلىٰ تسهيل الحفظ علىٰ المتعلّمين، فأركبوهم صَعْبًا يَقطعُهم عن تحصيل الملَكَات النافعة وتمكُّنها، ومَنْ يهدي اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضْلِلْ اللهُ فلا هاديَ له. والله سبحانه وتعالىٰ أعلم».

– وبنحو هذا قال الحَجْوي الثعالبي في كتابه الفِكْر السامي (٢/ ٣٩٨) في فصلٍ سمّاه: «غوائل الاختصار وتاريخ ابتدائه»، فراجعْه إن شئتَ.

كما تقدّم كلامُ العلّامة ابنِ بدرانَ في المقدّمة.

إذا أنتَ لم تُحسِنْ سِوىٰ النَّظْمِ وَحْدَهُ فقُلْ: أنا نَظَّامٌ ولَستُ بشاعرِ!

كما أنّ تعاطي علمٍ مّا قد يؤثّر علىٰ متعاطيه، ففي مقدِّمة ابن خلدون[(١)] قال: «أخبرني صاحبُنا الفاضلُ أبو القاسم بنُ رضوان كاتبُ العَلَامة بالدّولة المرينيّة، قال: ذكرتُ يومًا صاحبَنا أبا العبّاس بنَ شعيب كاتبَ السّلطان أبي الحسن، وكان المقدَّمَ في البَصَر باللّسان لعهده، فأنشدتُه مَطلعَ قصيدةِ ابنِ النّحْويّ ولم أنسبْها له، وهو هذا:

لـم أدْرِ حِـين وَقَفْـتُ بـالأطلالِ ما الفَرْقُ بينَ جَدِيدِها والبالي؟

فقال لي علىٰ البديهة: هذا شِعرُ فقيهٍ! فقلتُ له: ومِن أين لك ذلك؟ فقال: مِن قوله: ما الفرقُ؟ إذْ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب! فقلتُ له: للهِ أبوكَ! إنّه ابنُ النّحْوي[(٢)]»[(٣)].

---

(١) (ص/ ٦٥٧).

(٢) ابنُ النَّحْوي: هو يوسفُ بنُ محمد بن يوسف، أبو الفضل القَيْرَوانيّ (ت ٥١٣ هـ). روىٰ عن أبي الحسن اللَّخْميّ صحيحَ البخاري، وعن أبي عبد الله المازَري. وكان عارفًا بالفقه وأصول الدين، وله تصانيفُ، وكان لا يرىٰ التّقليد، روىٰ عنه: القاضي موسىٰ بنُ حمّاد، وغيرُه. وعاش ثمانين سنةً، وله رحلةٌ إلىٰ الأندلس. انظر تاريخ الإسلام: للذهبي (١١/ ٢١٣).

(٣) قلتُ: يُشبه هذا ما يُسمّىٰ عند أهل البلاغة (**التوجيه**) وهو: أنْ يَحتملَ الكلامُ وجهين من المعنىٰ احتمالًا مطلقًا، من غير تقييد بمدحٍ أو غيره.
قال السيوطيُّ في «عُقود الجُمان»:

ومِنْـهُ تَوْجِيـهٌ بِـأَنْ يُـوَافِي مُحْـتَمِلًا وَجْهَـيْنِ بِـاخْتِلاف

=

وبالمناسبة، **فإنّ أفضلَ وقتٍ للحفظ** - بالتجربة - هو ما كان بعدَ نومٍ، سواءٌ أكان نومَ ليلٍ كوقت السَّحَر وبعدَ الفَجْر، أو نومَ نهارٍ كبعدَ الظُّهْر أو العَصْر؟[1]، حيثُ يكون الذهنُ وقتَها يَقِظًا صَافيًا نَشيطًا.

=

كَقَوْلِ مَنْ قَالَ لأَعْوَرَ: أَلَا ... يَا لَيْتَ عَيْنَيْهِ سَوَاءً جُعِلا

انظر: مفتاح العلوم: للسكّاكي (ص/ ٤٢٧)، وتحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: للعَدواني (ص/ ٢٦٨)، وعقود الجمان: للسيوطي (ص/ ١٠٥)، والطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: للحُسيني (٣/ ٧٤).

- ومن أمثلته قولُ ابن نصر الله المصري:

وبقلبي من الهُموم: مَديدٌ ... وبَسيطٌ ووَافرٌ وطَويلُ!

لمْ أكنْ عالمًا بذاك إلىٰ أنْ ... قَطَّعَ القلبَ بالفِراقِ الخليلُ!

فهذه - كما هو ظاهرٌ - مُصطلحاتٌ عَرُوضيّةٌ!

- ومثلُه قولُ ابن العفيف التلمساني يَصفُ ممدوحَه:

لِحاظُك أسيافٌ ذكورٌ فما لها ... كما زعموا مثلَ الأراملِ تَغزِلُ؟

وما بالُ بُرهانِ العَذارِ مُسَلَّمًا ... ويَلزمه دَوْرٌ، وفيه تَسلْسُلُ؟!

فالبرهانُ، والتسليمُ، والدَّوْرُ، والتسلسُلُ، كلُّها مُصطلحاتٌ جَدَليةٌ!

(١) قال ابنُ الجوزي: «ينبغي لطالب العلم أن يكون جُلُّ هِمّته مصروفًا إلىٰ الحفظ والإعادة؛ فلو صحَّ صرفُ الزمان إلىٰ ذلك، كان الأولىٰ، غيرَ أن البدن مَطيّةٌ، وإجهادُ السَّيْر مَظِنّةُ الانقطاع.
ولمّا كانت القُوَىٰ تَكِلُّ، فتحتاجُ إلىٰ تجديدٍ، وكان النسخُ والمطالعةُ والتصنيفُ لا بدّ منه، مع أنّ المهمَّ الحفظُ، وجب تقسيمُ الزمان علىٰ الأمرين: فيكونُ الحفظُ في طَرَفَيْ النهار، وطَرَفَيْ الليل، ويُوزَّعُ الباقي بين عمل بالنسخ والمطالعةِ، وبين راحةٍ للبدن، وأخذٍ لِحَظِّهِ.
ولا يَنبغي أنْ يَقَعَ الغَبْنُ بين الشُّرَكَاء؛ فإنه متىٰ أخذ أحدُهُم فوقَ حقّه، أثَّر الغَبْنُ، وبانَ أثرُهُ!».
صيد الخاطر (ص/ ٣٥٣).

وأفضلُها علىٰ الإطلاق وقتُ السَّحَرِ(١)، لاسيّما في ليالي الشِّتاءِ الطويلة.
وبعضُ المُتقدِّمين كان يَحفظ قبلَ النوم، ولكلٍّ وِجهةٌ هو مُولِّيها.

---

(١) قال الخليلُ بنُ أحمد الفراهيدي: «أصفىٰ ما يكونُ ذِهنُ الإنسان في وقتِ السَّحَر» وفيات الأعيان: لابن خلكان (٢/ ٢٤٥).
- وجاء في كتاب صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا: للقلقشندي (٢/ ٣٢٠): «قال أبو تمام الطائيّ في وصيّته لأبي عُبادةَ البحتريّ مُرشِدًا له للوقت المناسب لذلك: تخيّرْ الأوقاتَ وأنت قليلُ الهُموم، صِفرٌ من الغُمُوم، واعلمْ أنّ العادةَ في الأوقات إذا قَصَدَ الإنسانُ تأليفَ شيءٍ أو حِفظَه أن يختار وقتَ السَّحَر؛ فإن النفسَ تكون قد أخذتْ حظَّها من الراحة، وقِسْطَها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَلُ الغِذاء، وصفا الدّماغُ من أكثر الأبْخِرة والأدْخِنة، وسكنتْ الغَماغِم، ورَقّتْ النسائِم، وتغنّتْ الحمائِم.
وخالفَ ابنُ أبي الأصبع في اختيار وقت السَّحَر، وجَنَحَ إلىٰ اختيار وسَط الليل؛ أخْذًا من قول أبي تمّام في قصيدته البائية:

خُـذْها ابنـةَ الفِكْـرِ المهـذَّب في الـدُّجىٰ والـلّيـــلُ أســـودُ رُقْعَـــةِ الجِلْبَـــابِ

مفسِّرًا للدُّجىٰ بوسَط الليل، محتجًّا لذلك بأنه حينئذٍ تكون النفسُ قد أخذتْ حظَّها من الراحة، ونالتْ قِسْطها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَلُ الغِذاء، فيكونُ الذِّهنُ حينئذٍ صحيحًا، والصدرُ مُنشرِحًا، والبدنُ نشيطًا، والقلبُ ساكنًا. بخلاف وقت السَّحَر فإنه وإنْ كان فيه يَرِقُّ النسيمُ، وينهضمُ الغذاءُ، إلّا أنه يكون قد انتبه فيه أكثرُ الحيوانات، الناطقُ وغيرُه، ويَرتفعُ معظمُ الأصوات، ويَجري الكثيرُ من الحرَكَات، ويَنقشعُ بعضُ الظّلماء بطلائع أوائل الضوء.
وربما انهضمَ عن بعض الناس الغِذاءُ فتحرَّكتْ الشهوةُ لإخلاف ما انهضمَ منه وخرج من فَضَلاتِه، فكان ذلك داعيًا إلىٰ شُغْل الخاطر، وباعثًا علىٰ انصراف الهمِّ إلىٰ تدبير الحَدَث الحاضر، فيتقسَّمُ الفِكْرُ، ويَتذَبْذبُ القلبُ، ويتفرَّقُ جميعُ الهَمِّ، بخلاف وسَط الليل؛ فإنه خالٍ من جميع ذلك».
وانظر العمدة: لابن رشيق (٢/ ٧٤٩).



أنواعُ المحفوظات

تتنوّع المحفوظاتُ العِلميةُ إلىٰ أنواعٍ كثيرةٍ؛ لاعتباراتٍ عديدةٍ، لكنّها تعود في مُجْملها إلىٰ نوعين:

الأول: النثرُ.

كالقرآن، والحديث، والمتون المنثورة، والنثر الأدبيّ: كالأمثال، والحِكَم، والمقامات، ونحوها.

الثاني: النَّظْمُ.

وهذا يُحفظ منه شيئان:

١- **النَّظمُ التعليميُّ**، وهذا ينقسم إلىٰ قسمين:

- المنظوماتُ العِلميَّةُ في الفنون.
- الضوابطُ العِلميَّةُ الجُزئيَّةُ لبعض المسائل.

٢- **الشِّعرُ البديعُ**، سواءٌ أكان قصائدَ أم شواهدَ.

وسوف أذكرُ هنا - بشيءٍ من البسْط والإيضاح - بعضَ القواعد والفوائد المتعلّقة بأهمّ الأنواع السابقة.

أوّلًا: القرآنُ الكريمُ:

ينبغي لطالب العلم - سواءٌ أكان صغيرًا أم كبيرًا - أوَّلَ ما يَبدأُ الطلبَ، أنْ يحفظ القرآنَ الكريمَ؛ لأنه كلامُ الله، وحفظُ كلام الله مُقدَّمٌ علىٰ حِفظ كلام غيرِه.

فليس سائغًا ولا مقبولًا عند صاحب الرأي الرّجيح والفهم الصحيح، أنْ يبدأَ بحِفظِ كلامِ الناسِ قبلَ حفظِ كلامِ الله! لاسيّما والقرآنُ كتابُ العلمِ الأولُ، وهو أصلُ علومِ الدين كلِّها.

قال الخطيبُ البغدادي: «ينبغي للطالب أن يبدأَ بحفظ كتاب الله ﷻ؛ إذْ كان أجلَّ العلوم، وأولاها بالسَّبْق والتقديم»[١].

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: «أمّا طلبُ حفظ القرآن: فهو مقدَّمٌ علىٰ كثيرٍ مما تسمِّيه الناسُ علمًا: وهو إما باطلٌ، أو قليلُ النفع. وهو أيضا مقدَّمٌ في التعلّم في حقّ مَن يريدُ أنْ يتعلَّمَ علمَ الدين من الأصول والفروع، فإنّ المشروعَ في حقِّ مثل هذا في هذه الأوقاتِ أن يبدأَ بحفظ القرآن؛ فإنه أصلُ علوم الدين، بخلاف ما يفعله كثيرٌ من أهل البدع من الأعاجم وغيرهم، حيثُ يَشتغلُ أحدُهم بشيءٍ من فُضُول العلم: من الكلام، أو الجدال والخلاف، أو الفروع النادرة والتقليد الذي لا يُحتاجُ إليه، أو غرائب الحديث التي لا تَثبتُ ولا يَنتفعُ بها، وكثيرٌ من الرياضةِ التي لا تقوم عليها حجّةٌ، ويتركُ حفظَ القرآن الذي هو أهمُّ من ذلك كلِّه»[٢].

وقال ابنُ جَماعة الكناني في أنواع آداب طالب العلم في دروسه:

«**النوعُ الأولُ**: أن يبتدئَ أولًا بكتاب الله العزيز فيُتقنَه حفظًا ويجتهدَ علىٰ إتقان تفسيره وسائر علومه، فإنه أصلُ العلوم وأُمُّها وأهمُّها»[٣].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ١٠٦).

(٢) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٢/ ٢٣٥).

(٣) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص/ ١٦٧).

وقال ابنُ خَلدون: «القرآنُ أصلُ التعليم الذي ينبني عليه ما يحصُلُ بعدَه من المَلَكَات. وسببُ ذلك أنّ تعليمَ الصِّغَر أشدُّ رسوخًا، وهو أصلٌ لما بعدَه؛ لأنّ السابقَ الأولَ للقلوب كالأساس للمَلَكَات. وعلىٰ حَسَب الأساس وأساليبه يكون حالُ ما ينبني عليه»[(١)].

وعلىٰ هذا دَرَجَ السلفُ، فقد كانوا يأمرون أولادَهم بحفظ القرآن أوّلًا، فيختِمونَه قبل العاشرةِ غالبًا، ثم ينصرفون بعد ذلك لسماعِ الحديثِ وغيرِه من العلومِ، كما نصَّ عليه غيرُ واحدٍ من العلماء[(٢)].

---

(١) المقدمة (ص/ ٦١٤).

(٢) منهم: الحافظُ ابنُ عبدِ البرّ، فقد قال: «طلبُ العلم درجاتٌ ومَناقِلُ ورُتَبٌ، لا ينبغي تعدِّيها. ومَن تعدّاها جملةً فقد تعدّىٰ سبيلَ السلف رَحِمَهُمُاللَّهُ، ومن تعدّىٰ سبيلَهم عامدًا ضَلّ، ومن تعدّاه مجتهدًا زَلّ.

فأولُ العلم: حفظُ كتاب الله عَجَّلَ وتفهُّمُه، وكلُّ ما يُعِينُ علىٰ فهمه فواجبٌ طلبُه معه....

والقرآنُ أصلُ العلم، فمن حفظه قبل بلوغه، ثم فَرَغَ إلىٰ ما يستعين به علىٰ فهمه من لسان العرب كان ذلك له عونًا كبيرًا علىٰ مراده منه، ومن سُنن رسول الله ﷺ، ثم ينظر في ناسخ القرآن ومنسوخه وأحكامه، ويقف علىٰ اختلاف العلماء واتفاقهم في ذلك، وهو أمرٌ قريبٌ علىٰ مَن قرّبه اللهُ عَجَّلَ عليه، ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله ﷺ، فبها يصل الطالبُ إلىٰ مراد الله عَجَّلَ في كتابه، وهي تَفتحُ له أحكامَ القرآن فَتْحًا». جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٢٩) فما بعد.

وقال النوويُّ: «أولُ ما يَبتدئ به حفظَ القرآن العزيز؛ فهو أهمُّ العلوم، وكان السلفُ لا يعلِّمون الحديثَ والفقهَ إلا لمن حفظ القرآن» المجموع شرح المهذب (١/ ٣٨).

وقال ابنُ خَلدون: «اعلمْ أنّ تعليمَ الولدان للقرآن شِعارٌ من شعائر الدين، أخذ به أهلُ الملة ودَرَجُوا عليه في جميع أمصارهم؛ لما يسبق فيه إلىٰ القلوب من رُسوخِ الإيمانِ وعقائدِه من آياتِ القرآنِ وبعضِ متونِ الأحاديثِ» المقدّمة (ص/ ٦١٤).

=

قال حفصُ بنُ غِياث: أتيتُ الأعمشَ فقلتُ: حدِّثْني، قال: أتحفظُ القرآنَ؟ قلتُ: لا، قال: اذهبْ فاحفظْ القرآنَ، ثمّ هَلُمَّ أحدِّثكَ. قال: فذهبتُ فحفظتُ القرآنَ، ثم جئتُه فاسْتقْرَأني (اختبرني)، فقرأتُه، فحدَّثَني[(١)].

ونقل الميمونيُّ أنّ رجلًا سألَ الإمامَ أحمد: أيُّما أحبُّ إليك: أبدأُ ابني بالقرآن أو بالحديث؟ قال: بالقرآن، قلتُ: أُعلِّمه كلَّه؟ قال: إلّا أنْ يَعسُرَ فتُعلِّمَه منه، ثم قال لي: إذا قَرَأَ أوّلًا تعوَّد القراءةَ ثمّ لزِمها[(٢)].

وقال الإمامُ ابنُ خزيمة: «استأذنتُ أبي في الخروج إلىٰ قُتيبة (يعني بن سعيد الثقفي مولاهم)، فقال: اقرأْ القرآنَ أوّلًا حتىٰ آذنَ لك، فاستظهرتُ القرآن، فقال لي: امكثْ حتىٰ تصلِّيَ بالختمة، ففعلتُ، فلمّا عيَّدنا أذِنَ لي، فخرجتُ إلىٰ مَرو، وسمعت بمَرو الرَّوْذ من محمد بن هشام، فنُعِيَ إلينا قُتيبةُ!»[(٣)].

وقال أبو عبيد بنُ حَرْبَوَيْه: «مَنَعَني أبي من سماعِ الحديثِ قبلَ أنْ أسْتظهرَ القرآنَ حِفظًا، فلما حفظتُه قال لي: خُذْ المحفظةَ، واذهب إلىٰ فلانٍ فاكتبْ عنه»[(٤)].

=

وبنحو هذا قال البِقاعيُّ في النكت الوفية بما في شرح الألفية (٢/ ٣٦٣)، والعلْمويُّ في المعيد في أدب المفيد والمستفيد (ص/ ١٥٦) وغيرُهم.

(١) المحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي: للرامهُرمزي (ص/ ٢٠٣).

(٢) انظر: طبقات الحنابلة: لابن أبي يعلىٰ (١/ ٢١٤)، والآداب الشرعية (٢/ ٣٣)، والفروع (٢/ ٣٨٠)، والمقصد الأرشد: لابن مفلح (٢/ ١٤٣)، ومعونة أولىٰ النهىٰ: لابن النجار (٢/ ٣٠٢).

(٣) تاريخ الإسلام: للذهبي (٢٣/ ٤٢٤)، وطبقات الشافعيين: لابن كثير (ص/ ٢٢٠).

(٤) فتح المغيث: للسخاوي (٢/ ١٤٢).

وقال عبدُ الرحمن بنُ أبي حاتم الرازي: «لم يَدعْني أبي أشتغلُ بالحديث حتىٰ قرأتُ القرآنَ علىٰ الفضل بن شاذان، ثم كتبتُ الحديثَ»[(١)].

ولذا كان أصحابُ كتب التراجم لا يكادون يَنصُّون في أثناء تراجمهم للعلماء علىٰ حِفظِهم للقرآن، لأنّ هذا هو الأصل عندهم، لكنهم يُسمُّون في المقابل مَن لّم يحفظِ القرآنَ تعجُّبًا واستغرابًا![(٢)].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: لابن عساكر (٣٥/ ٣٦٠)، وطبقات الشافعية الكبرىٰ: للسبكي (٣/ ٣٢٥).

- وعلىٰ هذا النَّهْج سار مفتي الديار السعودية سابقًا العلّامةُ / محمدُ بنُ إبراهيم آلُ الشيخ (ت ١٣٨٩هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد ذكروا عنه أنه كان إذا جاءه الطالبُ لطلب العلم، سأله: هل حفظتَ القرآنَ؟ فإن كان حافظًا سمح له بالجلوس مع الطلاب، وإن لم يكن حافظًا قال: انطلقْ فاحفظْ القرآنَ، ثم تعالَ فاجلسْ مع إخوانك.

- ومَشَىٰ عليه أيضًا الإخوةُ في مشروع (حُفَّاظ الوَحيين) الذي يُشرِفُ عليه أخونا الشيخُ الحافظُ/ يحي بن عبد العزيز اليحي، وفّقه اللهُ تعالىٰ وجميعَ العاملينَ معه، فلا يَبدأُ الطالبُ لديهم بحفظِ السنةِ، حتىٰ يستَتِمّ حفظَ القرآن الكريم.

(٢) ممّن ذكروا أنه كان لا يحفظُ القرآنَ من العلماء:

- العلّامة محمد بن عمر الواقدي. قال الخطيب البغدادي: «كان الواقديُّ مع ما ذكرناه من سعة علمه وكثرة حفظه، لا يحفظ القرآن». تاريخ بغداد (٤/ ١١).

- الحافظ عثمان بن محمد بن أبي شيبة. انظر تاريخ الإسلام (١٧/ ٢٧١).

- الإمام أبو عمرو بن العلاء، رُغم إمامته في العربية وغيرِها. انظر سؤلات الآجرّي أبا داود (ص/ ١٦٥).

- السيد ركن الدين حسن بن شرف شاه الحسيني الأسترابادي صاحب التصانيف. قال الذهبي: «كان لا يحفظ القرآنَ إلّا بعضَه». العبر في خبر من غبر (٤/ ٤١).

- صفيّ الدين الهندي، الفقيه الشافعي الأصولي، الذي انتُدب لمناظرة شيخ الإسلام ابن تيميّة!! كان لا يحفظ القرآن. الدرر الكامنة (٥/ ٢٦٢).

=

لكنْ هذا لا يتعارضُ مع حِفظ غيرِه معَه، كالاشتغال بحفظ المنظُومات العلميَّة مثلًا، لا سيّما لمن استطاع أن يُوفِّقَ بينها، فيجعلَ للقرآن وقتًا، ولغيره وقتًا. أو لمن لم يشتغلْ بطلب العلم إلا حالَ كِبَره. وإنما المذمومُ تقديمُ غيرِه عليه.

وإليك بعضَ القواعد التي ينبغي مُراعاتُها لِمنْ أراد حِفظَ القرآن الكريم:

أولًا: لا بُدّ من تخصيصِ وَقتٍ يَوميٍّ مُعيَّنٍ لحفظ القرآن.

وهذا التخصيصُ يُحفِّزُ الذَّاكِرةَ لانتظار تلك الساعة التي يَحفظُ فيها ويُراجِع! وهذا أمرٌ معروفٌ مجرَّبٌ عندَ الحُفّاظ.

ثانيًا: لا بُدّ من الحِفظ علىٰ رَسْمٍ واحدٍ للمُصحف لا يتغيَّر؛ لأن هذا

=

- إسماعيل بن خليفة الحسباني، الفقيه الشافعي، كان لا يحفظ القرآنَ مع تفرّده بالإفتاء في عصره! إنباء الغمر (١/ ١٣٨).

وغيرهم.

- بل إنّ العلّامة والرّحّالة الشهير/ محمد بن ناصر العبودي - وهو من المعاصرين - قد قال في كتاب معجم أُسَر بُريدة (١٠/ ٢٢٦) عن الشيخ عمر بن سليم (ت ١٣٦٢ هـ):

«لا حاجة إلىٰ القول بأنّ الشيخَ عمر بن سليم يحفظ القرآنَ الكريمَ كلَّه كما يحفظ غيرُه سورةَ الفاتحة!

فلا نعرفُ شيخًا وقاضيًا ذا أهمية لا يحفظ القرآنَ الكريمَ، حتىٰ أئمةُ المساجد قَلَّ منهم من لّا يحفظ القرآن الكريم ويصلّي بالناس صلاةَ التراويح والقيام ويتلو القرآن في الصلاة من حفظه.

ولما بلغنا أن إمامًا معروفًا بقلّة الحفظ كان يحمل معه في الصلاة مصحفًا يراجع فيه ما قد يكون غاب عن حفظه من الآيات التي يريد أن يتلوَها، استفظع الناسُ ذلك، وتعجّبوا منه تعجّبَهم من شيءٍ غير مألوف».

يُساعد الذَّاكرةَ التَّصويريَّةَ[١] علىٰ تصوّر مكان الآيةِ من الصفحة.

ثالثًا: مِن المنشّطات علىٰ الحفظ الطريقةُ التي ألمحتُ لها سابقًا، ألا وهي طريقةُ تجزئة المحفوظ.

ويوجَد - بحمد الله - في الأسواق مصاحفُ مقسَّمةٌ، إلىٰ ثلاثة أقسامٍ، وستة أقسامٍ، وعشرة أقسامٍ، وثلاثين قِسمًا.

وهذا لا شكّ أنه يساعد علىٰ الحفظ، فإذا ما حفظ الراغبُ قِسمًا، نشِط لحفظ القِسم الذي يليه... وهكذا، حتىٰ يُتمَّ حفظَ القرآن.

رابعًا: الأوْلىٰ أنْ يحفظَ القرآنَ علىٰ نَسَقِ ترتيبه المعروف، لكنْ لا مانع أن يتخيّرَ الحافظُ من السور، فيحفظُ مثلًا سورةً طويلةً، ثم يحفظُ بعدها سورةً متوسّطةً أو قصيرةً وهكذا؛ لأنَّ هذا أنشطُ علىٰ الحفظ، وأرْوحُ للنفس؛ فإنه إذا تنوَّعت الأساليبُ سَهُلَ علىٰ النفس تقبُّلها؛ لأنّ القلوبَ ترتاحُ إلىٰ التنوُّع، وتسأمُ من الجمودِ علىٰ نَمَطٍ واحدٍ.

وكان الخليفةُ المأمونُ يتنقّل كثيرًا في داره من مكانٍ إلىٰ مكانٍ ويُنشدُ قولَ أبي العتاهية:

لا يُصلِحُ النفسَ إذْ كانت مُدبِّرَةً ... إلا التنقُّلُ من حالٍ إلىٰ حالِ[٢]

---

(١) الذاكرةُ التصويريَّةُ: هي القدرةُ التي يمتلكها الإنسانُ علىٰ تذكُّر الأسماء والأشياء والأحداث والصور، حيثُ تبقىٰ هذه المعلومات في ذاكرته وإن طال به الزمن.
وهناك أيضًا القراءةُ التصويريّةُ: وهي طريقة حديثةٌ لتسريع القراءة، ومعالجة المعلومات، وتحفيز التفكير، والحصول علىٰ استيعابٍ عالٍ للمادة المقروءة في وقتٍ قياسيٍّ.
(٢) أدب الدنيا والدين: للماوردي (ص/ ١٣).

خامسًا: مِن المعلوم أنّ الطرقَ التي ذكرها أصحابُ الخِبرة لحفظ القرآن - في الكتب وغيرها - كثيرةٌ، لكنني أحبُّ أنْ أُرشِدَ هنا إلىٰ طريقتيْن حَسَنتيْن، لعلّي لم أُسبَقْ إليهما، ألا وهما:

الطريقةُ الأولىٰ: الحفظُ علىٰ مقاطعِ المعاني.

بمعنىٰ أنْ يحفظَ عددًا من الآياتِ ذاتِ الموضوع الواحِدِ - وقد تكون ثلاثَ آياتٍ أو أربعًا أو خمسًا أو أكثرَ من ذلك - ثم ينتقلُ للّتي بعدها، وهكذا.

وهذه الطريقةُ هي التي مشَىٰ عليها بعضُ المفسِّرين في تفسير كتاب الله ﷻ؛ حيثُ يفسِّرون الآياتِ الواردةَ في معنىً معيَّنٍ في مساقٍ واحدٍ.

وحِفظُ القرآن علىٰ المقاطع يُساعدُ علىٰ الحِفظِ والفهمِ والتدبّر معًا؛ لأنّ الذي يحفظُ علىٰ الطريقة المعتادة (بالصفحاتِ)، قد يُغفِلُ آياتٍ في الصفحة التالية لها ارتباطٌ من حيثُ المعنىٰ بالصفحة السابقة! بل قد لا يَتمُّ المعنىٰ إلّا بها؛ كأنْ تكونَ جوابَ شرطٍ، أو قَسَمٍ، أو استفهامٍ، أو ما أشبهَ ذلك. وهذا واقعُ كثيرٍ من طَبْعات المصاحف المتداوَلَة اليومَ[(١)].

والحفظُ علىٰ مقاطع المعاني نافعٌ لمن رامَ حفظَ القُرآن؛ لسببيْن:

١- أنه يُيسّرُ عمليَّةَ الحفظ والمراجعة والفهم.

---

(١) لقد مَنَّ اللهُ عليَّ فأعدتُّ ترتيبَ المُصحفِ كلِّه علىٰ المعاني، بحيثُ يَبدأُ كلُّ معنىً جديدٍ مِن أوّلِ السطر، مع شرح غريب الكلمات علىٰ هامش الصفحة.

وهذه الطريقةُ تُيسِّرُ علىٰ القارئِ الحفظَ المُتقَنَ، والفهمَ الدقيقَ، والتدبُّرَ التَّامَّ لما يَقرأُ. ولذا سمّيْتُه «مُصْحَفَ المتَدَبِّرين».

فليتَ بعضَ دُورِ النشرِ تتبنّىٰ طباعتَه وإخراجَه للناسِ؛ ليُفِيدوا منه. واللهُ الموفِّق.

٢- أنه يُسهِّلُ عمليَّةَ الاستشهاد فيما لو أراد أن يَستشهِد بآيةٍ أو آياتٍ علىٰ معنًىٰ من المعاني.

الطريقةُ الثانيةُ: تنجيزُ الحفظِ، وتأخيرُ المراجعة.

بمعنىٰ أنْ يَحفظَ المقطعَ المرادَ حفظُه، ويُكرّرَه كثيرًا طِوالَ اليوم، وفي النوافل، وفي أعقاب الصلواتِ الخمسِ.... حتىٰ يَثبُتَ تمامًا، ثم ينتقلُ في اليوم التالي للّذي يليه، وهكذا حتىٰ يُتِمَّ حفظَ القرآن، بحيثُ يَصرِفُ جُهدَه كلَّه للحفظ دون المراجعة، وينبغي أن لّا يزيدَ حفظُه للقرآن عن سنةٍ واحدةٍ ما أمكنَ.

ثم يعودُ بعد ذلك علىٰ المحفوظِ بالمراجعةِ المتدرِّجةِ، بحيثُ يُراجِعُ كلَّ يومٍ ربعَ جُزءٍ حتىٰ يُتمَّ المصحفَ، ثم نصفَ جُزءٍ حتىٰ يُتمَّ المصحفَ... وهكذا يزيدُ شيئًا فشيئًا، حتىٰ يصلَ به الحالُ إلىٰ أنْ يَختمَ كلَّ أسبوعٍ.

فإنْ خشيَ أن لّا يَستجمِعَ المحفوظَ، فليشتغلْ بمراجعة ما حفظَ كلّما أتمَّ خمسةَ أجزاءٍ أو عشرةٍ.

فهذه طريقةٌ وتلك طريقةٌ، فلْيتخيرْ الحافظُ ما يُناسِبُه منهما.

ومِن أهل الخِبرةِ مَن يَرىٰ أنه لا بُدّ من الرُّجوع إلىٰ «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» لمحمد فؤاد عبد الباقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو إلىٰ الكتب التي أُلّفتْ في متشابهِ القرآنِ؛ لضبط الآيات المُتشابهات وإتقان حفظها.

- وأُحبّ هنا أن أدفعَ شُبهةً قد يُلبِّسُ بها إبليسُ علىٰ طلّاب العلم، ألا وهي أنه ربما زهّد في حفظ القرآن، بحجّة أنّ الحافظَ قد ينساه بعد ذلك؛ فيقعُ في الإثم والحَرَج!!

ولا أدري متىٰ كان الشيطانُ التَّيَّاه، ناصحًا لعباد الله؟!

وهذه الشبهةُ مما قد يَصُدُّ عن حفظ كتاب الله؛ فيَدَعُ الحافظُ حفظَ القرآن بسببها تأثُّمًا!

وهذا الواردُ الشيطانيُّ لا ينبغي أن يَرِد علىٰ طالب العلم أبدًا؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قد وضع قاعدةً مهمّةً هنا، ألا وهي قولُه: «تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ؛ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا»[(١)].

فتعاهدُ القرآن إذا بذل الإنسانُ فيه وُسْعَه ثمّ نُسِّيَ بعد ذلك، فإنه معذورٌ، ولا إثمَ عليه ولا حرجَ؛ لأن النسيانَ من طبيعة الإنسان.

وقد كان صاحبُ الوحي ﷺ يَنْسىٰ، كما جاء في الحديث: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم أَنْسَىٰ كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي»[(٢)].

ونسيَ ﷺ آيةً فسَمِعها من رجل فتذكَّرها[(٣)].

أمّا ما ورد من الأحاديث في توعُّد مَن نسيَ شيئًا من القرآن فكُلُّها ضعيفةٌ، مثلُ حديث: «مَا مِن امرئٍ يَقرَأُ القرآنَ، ثم ينساهُ إلّا لقيَ اللهَ يومَ القيامةِ أجْذَمَ»[(٤)].

وحديث: «عُرِضَتْ عليّ ذُنوبُ أُمَّتي، فلم أَرَ ذَنْبًا أعظَمَ من سُورةٍ من القُرآنِ أو آيةٍ أُوتِيها رجلٌ ثمَّ نَسِيَهَا»[(٥)].

***

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح برقم (٥٠٣٣)، ومسلم في الصحيح برقم (١٧٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح برقم (٣٩٢)، ومسلم في الصحيح برقم (١٢١١).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح برقم (٤٧٥١)، ومسلم في الصحيح برقم (١٧٨٨).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٢/ ٥٩٩)، وغيرُه.

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (١/ ٣٤٦)، وغيرُه.

ثانيًا: السُّنّةُ النَّبويّةُ:

الاشتغالُ بحِفظ السنّة النبويّة من أفضلِ الأعمال وأجلِّ المطالب؛ لأنها شقيقةُ القرآن، والمصدرُ الثاني من مصادر التشريع. فينبغي لطالب العلم أنْ يستكثِر من حفظِ متونها، واستظهارِ أكبرِ قَدْرٍ منها.

وفي اجتهادي أنه لا يُوجَدُ نصٌّ نثْريٌّ - بعد القرآن - أسهلَ حفظًا من الأحاديث النبويّة؛ لأنَّ كلامَ النبي ﷺ في غاية الفَصَاحة والبَلاغة والوضوح؛ فهو أفصَحُ من نَطَق بـ (الضَّاد)، كما أنه ﷺ قد أُوتي جوامعَ الكَلِم[1].

فأَوْلىٰ كلامٍ يُطلَقُ عليه أنه من السَّهْل الـمُمْتَنِع؛ هو كلامه ﷺ. ولهذا كان العلماءُ يقولون إنّ كلامَ الحسَن البصريّ يُشبه كلامَ الأنبياء[2]؛ لأنَّ كلامَ الأنبياء في مرتبةٍ عاليةٍ لا يمكنُ أنْ يَصلَ إليها أيُّ أحدٍ مهما أوتيَ من البلاغة والبيان.

أمَّا مَن استصعبَ حِفْظَ الحديث، فليس هذا لصُعوبَة الحديثِ نفسِه، وإنما تأتي الصعوبةُ بسبب أمريْن خارجَيْن:

١- الاشتغالُ بحفظِ السَّنِد.

٢- الاشتغالُ بحفظِ تخريجِ الحديثِ وعِلَلِه.

ولعلّ هذا هو السببُ في قول الخطيب البغدادي: «عِلْمُ الحديث لا يَعْلَقُ

---

(١) قال ابنُ قُرْقُول: «كَانَ يَتكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ»، أي: بالموجَزِ من القَول، وهو ما قَلَّت ألفاظُه، واتَّسَعَت معانيه. مطالع الأنوار علىٰ صحاح الآثار (٢/ ١٤٠).

(٢) كان الحسنُ إذا ذُكر عند أبي جعفر الباقر قال: «ذَاكَ الَّذِي يُشْبِهُ كَلامُهُ كَلامَ الأَنْبِيَاءِ». تاريخ الإسلام: للذهبي (٧/ ٥٦)، والبداية والنهاية: لابن كثير (٩/ ٢٩٦).

إلّا بمن وَقَفَ نفسَه عليه، ولم يَضُمَّ غيرَه من العلوم إليه»[١]. يَقصدُ بهذا الذي يشتغلُ بحفظ الحديث سندًا، ومتنًا، وعِلَلًا، ورِجالًا، وطبقاتٍ.... ونحوَ ذلك[٢].

ومثلُه قولُ عبد الله بن محمد الهَرَوي عن علم الحديث: «هذا الشأنُ، شأنُ من لّيس له شأنٌ سِوىٰ هذا الشأنْ!»[٣].

فالاشتغالُ بحفظ الأسانيد والعِلَل وتخريج الأحاديث ونحو ذلك؛ إضافةً إلىٰ أنَّ فيه صُعوبةً؛ فإنه لا يَبقىٰ مع الشخص دائمًا؛ لاسيما بعد الاستكثار من حفظ الأحاديث، ولربما اختلَط عليه الأمرُ في مُقبل أمره، فركَّب إسنادَ حديثٍ علىٰ حديثٍ آخرَ!

فإنْ كان ولا بدّ فليَحفظْ أصلَ السند وهو الصحابيُّ راوي الحديث؛ فإنه كافٍ.

---

(١) الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السامع (٢/ ١٧٣).

(٢) خَرِيدَة: مما يؤكّد هذا الأمر، أنَّ الحاكمَ صاحبَ «المستدرك»، بلَغَه أنَّ الهمَذَانيَّ صاحبَ «المقَامَات» لـمّا وَرَدَ نيسابورَ، تعصّبوا له ولقّبوه بديعَ الزمان، فأُعجبَ بنفسه؛ إذْ كان يحفظ المئةَ بيتٍ إذا أُنشدتْ من مرةٍ واحدةٍ! ويُنشدها من آخرها إلىٰ أولها مقلوبةً! فأنكر علىٰ الناس قولَهم: فلانُ الحافظُ في الحديث، ثم قال: وهل حِفْظُ الحديث ممّا يُذكَرُ؟! فوجّه إليه الحاكمُ جزءً حديثيًّا، وأمهلَهُ أُسبوعًا لِيحفظَه! فردّ إليه الجزءَ بعد أسبوع، وقال: مَنْ يحفظ هذا؟! محمد بن فلان، وجعفر بن فلان، عن فلان! أسامي مختلفةٌ، وألفاظٌ متباينةٌ! فقال له الحاكمُ: فاعرفْ نفسَك، واعلم أنّ هذا الحفظَ أصعبُ ممّا أنتَ فيه! سير أعلام النبلاء: للذهبي (١٧/ ١٧٣) بتصرّف.

(٣) التقييد: لابن نقطة (٢/ ٦٨).

ومِن العجيب صنيعُ مَنْ يتشاغلُ بحفظ أسانيد الصحيحين! فيستهلكُ وقتًا وجُهدًا كبيرَيْن، مع أنّ فائدةَ حفظها قليلةٌ؛ نظرًا لأنَّ أسانيدَ الصحيحين قد جازت القَنْطرة!

وقد يَقضي الإنسانُ في حفظ الكتاب بأسانيده أربعَ سنواتٍ مثلًا! بينما لو حَفِظ الأصلَ مُجرَّدًا لَحفِظَه في سنةٍ أو أقلّ. ولو أنه استغلّ الوقتَ الذي قضاه في حفظ أسانيد ذلك الكتاب في حفظ كتابٍ آخرَ، أو في شرح معاني ما حفظَ، لكان أمثل. **ولهذا قال أبو شامة المَقْدِسي** رَحِمَهُ اللَّهُ : «عُلُوم الحديث الْآنَ ثلاثةٌ:

أشرفُها: حفظُ متونه ومَعْرِفةُ غريبِها وفقهِها.

والثَّاني: حفظُ أسانيدها، ومعرفَةُ رجالها، وتمييزُ صحيحها من سقيمها. وهذا كان مهمًّا وقد كُفِيه المشتغلُ بالعلمِ بما صُنّف وأُلّف من الكتب، فلا فائدةَ تَدْعُو إلىٰ تَحْصِيل ما هو حاصِلٌ.

وَالثَّالِثُ: جَمْعُه وكتابتُه وسماعُه وتطريقُه وطلبُ الْعُلُوّ فيه والرِّحلةُ إلىٰ البُلدَانِ. والمشتغلُ بهذا مُشتغلٌ عمَّا هو الأهمُّ من علومه النافعة، فضلًا عن العمل به الذي هو المطلوبُ الأولُ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلَّا أَنّ هذا لا بَأْسَ به للبطّالين! لما فيه من إبْقَاء سِلْسِلةِ العَنْعَنَةِ المُتّصِلَةِ بأشرف الْبشر ﷺ، فهي من خصائص هذه الْأمّة. ومِمَّا يُزهِّدُ في ذلك أَنّ فيه يَتشاركُ الصغيرُ والكبيرُ، والبليدُ والفاهمُ، والجاهلُ والعالمُ»[1].

---

(١) النكت علىٰ مقدمة ابن الصلاح: للزركشي (١/ ٤١).

- والطريقةُ المُثلىٰ لحفظ الحديث الشريف في نظري هي:

أولًا: إدمانُ[١] قراءةِ الأحاديثِ المرادِ حفظُها، بمعنىٰ أنْ يُكثرَ من قراءتها والنظر في متونها.

وليس بالضرورة أن يكرّرها تكرارًا متواليًا، كما هو الحالُ في القرآن والشِّعر مثلًا؛ لأنَّ القرآنَ لا بُدّ من إقامة ألفاظه بنصّها، والشِّعرُ إذا لم يحفظْه الإنسانُ كما نظمه الشاعر أو الناظم فإنه يَخْتلّ وزنُه، ويَفسُدُ نظمُه.

فعلىٰ الطالب أن يُدمِنَ قراءةَ الأحاديث، بأنْ يأخذ مثلًا كتابًا كـ «صحيح البخاريّ»، أو «صحيح مُسلمٍ»، أو «رياض الصالحين»، أو «بلوغ المرام»، أو غيرِها، ويحدِّدَ بابًا أو عدّة أبوابٍ منها، ويُكرّرها علىٰ مدار الأسبوع، كلَّما انتهىٰ منها كَرَّ عليها من جديدٍ؛ حتىٰ يستظهرَها. ثمّ يَميلُ علىٰ التي تليها وهكذا، حتىٰ ينتهي من الكتاب، ثمّ يعودُ علىٰ الكتاب مِرارًا حتىٰ يُحْكِمَه، ثم يجعلُ له برنامجًا سنويًا يُعيدُ فيه قراءةَ الكتاب في العام مرةً أو مرتين. وهذه الطريقةُ - في نظري - هي التي تُرسِّخ الحِفظَ وتُمتِّنُه.

---

(١) **المرادُ بكلمة الإدمان:** المداومةُ والتكرارُ. وهي كلمةٌ مستعملةٌ في كلام العلماء، فمن ذلك **قولُ ابن الأثير الأديب** (ت ٦٣٧هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنتُ حفظتُ من الأشعارَ القديمةَ والمحدَثةَ ما لا أُحصيه كثرةً، ثم اقتصرتُ بعد ذلك علىٰ شعر الطَّائِيّيْن: حبيبِ بنِ أوس وأبي عبادة البُحتري، وشعر أبي الطيّب المتنبّي، فحفظتُ هذه الدواوينَ الثلاثةَ! وكنتُ أُكرِّر عليها بالدرس مدّةَ سنين، حتىٰ تمكّنتُ من صَوغ المعاني، وصار الإدمانُ لي خُلُقًا وطَبْعًا». الوشْي المرقوم في حَلّ المنظوم (ص/ ١٨١) وسيأتي النصُّ بعدُ بطوله.

وقال الذهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا سبيل إلىٰ أنْ يَصير العارفُ الذي يُزكِّي نَقَلةَ الأخبار ويُجرِّحهم جِهْبِذًا إلا بإدمان الطَّلَب، والفَحْص عن هذا الشَّأن» تذكرة الحفّاظ (١/ ١٠).

وهذه الطريقةُ مُسْتَوحَاةٌ من طريقة العلماء المُتقدِّمين، فقد كانوا يأخذون كتابًا أو كُتُبًا من كُتُب الحديث، ويُكرِّرونها قراءةً أو نَسْخًا مراتٍ كثيرةً:

فهذا الإمامُ أبو الفضل بنُ طاهرٍ القَيْسرانيُّ نَسَخ «صحيحَ مسلمٍ» سبعَ مرَّاتٍ!

وكان الإمامُ أبو القاسم العَيدروسيُّ حافظُ المغرب ممَّن فُتِحَ عليه في حفظِ «صحيح البخاري» والقيامِ عليه نسخًا وفهمًا وقراءةً، وقد جاء عنه أنه نَسَخَ من «صحيح البخاري» ثمانيَ نسخٍ، وربما فعل أكثرَ، أكثرُها في سِفرٍ واحدٍ! ونَسَخَ أيضًا من «صحيح مسلمٍ» تسعَ نسخٍ!

وأبو الحسن علي بن عبد الله العلوي قرأ «صحيحَ مسلمٍ» في ستة مجالس! وكرّره كثيرًا.

وبُرهانُ الدين الحَلبي قرأ «صحيحَ البخاريّ» خمسين مرَّةً!! و«صحيحَ مسلمٍ» عشرين مرَّة!

والفيروزُآبادي قرأ «صحيحَ البخاريّ» خمسين مرَّة! وقرأ «صحيحَ مسلمٍ» مرَّاتٍ كثيرةً!

والحسنُ السَمَرْقنديُّ قرأ «صحيحَ مسلمٍ» علىٰ عبد الغافر الفارسي أكثرَ من ثلاثين مرَّة!

وأبو سعيد البَحِيري قرأ «صحيحَ مسلمٍ» أكثرَ من عشرين مرَّةً! علىٰ عبد الغافر الفارسيّ أحدِ رواةِ الصحيحِ.

وابنُ حجرَ العسقلانيُّ كرّر «صحيحَ مسلمٍ» ما لا يُحصَىٰ.

وعبدُ الكبير الكِتَّانيّ - والدُ الشيخِ العلّامةِ المِفَنِّ عبدِ الحيّ الكِتَّانيّ صاحبِ الكتابِ العُجابِ «فِهْرس الفَهَارس والأثبات» - قرأ كلًّا من «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم» خمسين مرَّة!! وكان يَعرفُ أحاديثَ الكُتُب الستة بألفاظها كما يعرف أحدُنا راحةَ يده! لإدمانه قراءتَها.

ومِن أعجب ما قرأتُ أنَّ القُرطبيَّ الجَدَّ - جدَّ القرطبيِّ المُفسِّر - قرأ «صحيحَ البخاري» سبعَ مئةِ مرَّة!!

ومثلُه أبو بكرٍ غالبُ بنُ عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي الأندلسي - والدُ المفسِّر - كرَّر «صحيحَ البخاري» سبعَ مئةِ مرة!!

قال الكِتَّاني مُعقِّبًا: «مع أن غالبًا المذكورَ عاش (٧٨) سنةً، خُذ منها ما قبل بلوغه إلىٰ وفاته يبقىٰ عندكَ ستينَ سنةً، فعلىٰ هذا كان يقرؤه في كلّ سنةٍ نحوَ عشرِ مراتٍ، في كلِّ شهرٍ مرةً تقريبًا»[١].

فبهذه الطَّريقة - وهي كثرةُ القراءة والتَّكرار - ترْسَخُ الأحاديثُ وتثْبُت.

ولذا رُوي عن ابن معينٍ أنه قال: «لو لم نَكتبْ الحديثَ من ثلاثين وَجهًا ما عَقَلْناه!».

وقال أبو حاتم الرازيُّ: «لو لم نَكتبِ الحديثَ من ستّين وجهًا لما عَقَلْناه!».

وقال إبراهيمُ بنُ سعيد الجوهري: «كلُّ حديثٍ لم يكنْ عندي من مئةِ وجهٍ

---

(١) **انظر** هذه النماذج في: الصلة: لابن بشكوال (٢/ ٤٥٧)، والغُنية في شيوخ القاضي عياض (ص/ ١٩٠)، وتذكرة الحفاظ (٤/ ٤٥)، وتاريخ الإسلام: للذهبي (١١/ ٢٩٥)، وفهرس الفهارس: للكتاني (٢/ ١٠٤٤) فما بعد.

فأنا فيه يتيمٌ!!» يقصدون بذلك الطُرقَ والمتابعاتِ[(١)].

أمَّا الأحاديثُ التي تُعُبِّدْنا بألفاظها كصيغ التشهّد والأذكار ونحوها، فهذه لا بُدّ من حِفظها نصًّا. وأسهلُ طريقةٍ لحفظ أحاديث الأذكار ونحوها هو اللّهَجُ بها كثيرًا، سواءٌ أكانتْ مُطلقةً، أمْ مقيَّدةً بزمانٍ أو مكانٍ أو حالٍ.

ثانيًا: المذاكرةُ مع الأقران، وإعادةُ المحفوظ عليهم؛ فإنَّ حياةَ العلم مذاكرتُه.

ولذا قال علقمةُ: «تذاكروا الحديث؛ فإنّ ذِكرَه حياتُه»[(٢)].

وقال يزيدُ بنُ أبي زياد: «الْتقَىٰ ابنُ أبي ليلىٰ وعبدُ الله بن شدّاد بن الهاد فتذاكرا الحديثَ، فسمعتُ أحدَهما يقول للآخَر: يرحمُك اللهُ فرُبّ حديثٍ أحييتَه في صدري كان قد مات!»[(٣)].

وقال إبراهيمُ النخعي: «مَنْ سَرَّه أنْ يحفظَ الحديثَ فلْيُحدّثْ به، ولو أنْ يحدِّثَ به مَنْ لا يَشتهيه! فإنه إذا فعل ذلك كان كالكتاب في صدره»[(٤)].

---

(١) انظر هذه الأقوال في: المجروحين: لابن حبان (١/ ٣٣)، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢١٢)، وتاريخ بغداد: للخطيب (٦/ ٩٤)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٦/ ٤١١) وتذكرة الحفاظ (ص/ ٤٣٠)، وميزان الاعتدال: للذهبي (١/ ٣٥)، وشرح التبصرة والتذكرة: للعراقي (٢/ ٤٧)، والشذا الفياح: للأبناسي (١/ ٤٠٩)، وفتح المغيث: للسخاوي (٢/ ٣٢٧)، وتدريب الراوي: للسيوطي (٢/ ٥٩٤).

(٢) المحدِّث الفاصل: للرامهرمزي (ص/ ٥٤٦)، والجامع لأخلاق الراوي: للخطيب (٢/ ٢٦٨).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢٧٣)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٣٦/ ٩٤).

(٤) الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢٦٨)، ومعرفة أنواع علوم الحديث: لابن الصلاح (ص/ ٣٦٠)، والشذا الفيّاح: للأبناسي (١/ ٤١١).

وقال أبو مُسْهِرٍ: سمعتُ سعيدَ بنَ عبد العزيز، يُعاتِبُ أصحابَ الأوزاعيّ فقال: «ما لكم لا تجتمعون؟! ما لكم لا تتذاكرون؟!»(١).

وقال عليُّ بنُ المديني: «سِتةٌ كادت تذهب عقولُهم عند المذاكرة: يحيىٰ، وعبدُ الرحمن، ووكيعٌ، وابنُ عيينة، وأبو داود، وعبدُ الرزّاق؛ من شدّة شهوتهم له!»(٢).

وكان إسماعيلُ بنُ رجاء يجمعُ صِبيانَ الكُتّاب ويُحدّثهم؛ كيْ لا ينسىٰ حديثَه!(٣).

وتذاكر وكيعُ بنُ الجرّاح وعبدُ الرحمن بنُ مهدي ليلةً في مسجد الحرام، فلم يزالا حتىٰ أذّن المؤذنُ أذانَ الصبح!(٤).

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢٧٣).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٢٧٤).

(٣) مشاهير علماء الأمصار (ص/ ٢٥٩)، والثقات: لابن حبان (٦/ ٢٩)، ورجال صحيح مسلم: لابن منجويه (١/ ٥٩).

(٤) الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢٧٤).

وللدكتور/ محمد إبراهيم العشماوي كتاب «**فنُّ المذاكرة عند المحدّثين معالمُه وأعلامُه**».

لَطِيفةٌ: مِن عجائب المذاكرات ما ذكره الأستاذُ ابنُ العميد، قال: «ما كنتُ أظنُّ أنّ في الدنيا حلاوةً ألذُّ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها؛ حتىٰ شاهدتُ مذاكرةَ سليمان بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجِعَابيّ بحضرتي، فكان الطبرانيُّ يغلِب الجِعَابيَّ بكثرة حفظه، وكان الجِعَابيُّ يغلِب الطبرانيَّ بفطنته وذكاء أهل بغداد. حتىٰ ارتفعتْ أصواتُهما، ولا يكادُ أحدُهما يَغلِبُ صاحبَه.

فقال الجِعَابيُّ: عندي حديثٌ ليس في الدنيا إلّا عندي، فقال: هاتِه، فقال: حدثنا أبو خليفة، حدثنا سليمانُ بن أيوب.... وحدّث بالحديث. فقال الطبرانيُّ: أنا سليمانُ بنُ أيوب، ومنّي سمع أبو خليفة، فاسمعْ منّي؛ حتىٰ يعلو إسنادُك، فإنك تروي عن أبي خليفة عنّي!! =

ثالثًا: أنْ يجمعَ إلىٰ حفظ الأحاديث قراءةَ الشروح؛ لأنها مما يُرسِّخُ الحفظَ ويثبّتُه.

لكنْ يُفضَّلُ أن لّا يَجمعَها معها في أسبوع القراءة، وإنما في الأسبوع الذي يليه إن كان برنامجُه أسبوعيًا.

- كُتُب السُّنة التي يُنصح الطالب بإدمان مطالعتها:

كتبُ السنة كثيرةٌ، لكنني أقول: إنّ المادةَ المحفوظةَ من الحديث تنقسم إلىٰ **خمسة أقسام**:

الأوّلُ: حِفظُ أصلٍ من الأصول.

كحفظ «صحيح البخاريّ»، أو «صحيح مسلمٍ» مثلًا.

ولا شَكّ أنّ حِفظ الأصل هو الأصلُ؛ لمن استطاع إليه سبيلا.

فصحيحُ البخاريّ مثلًا لمن حفظه، وأدامَ قراءتَه، وضمَّ إليه قراءةَ شرحه العظيم «فتح الباري» الذي يُسمّىٰ (قاموس السنة)، لا شكّ أنه سيخرج بغنائمَ كثيرةٍ، وفوائدَ غزيرةٍ.

الثاني: حِفظُ مُختصرٍ من المختصراتِ المعتَمَدةِ لكتابٍ من الكتب الأصول.

=

فخجل الجِعَابيُّ وغلَبَه الطبرانيُّ.

قال ابنُ العميد: فودِدتُ في مكاني أنّ الوزارةَ والرئاسةَ ليتَها لم تكنْ لي، وكنتُ الطبرانيَّ، وفرحتُ مثل الفرح الذي فرحَ به الطبرانيُّ؛ لأجل الحديث!». جزءٌ فيه ذكر أبىٰ القاسم الطبراني: لابن منده (ص/ ٣٤٤)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٢٢/ ١٦٦)، والتقييد: لابن نقطة (ص/ ٢٨٥)، وتاريخ الإسلام: للذهبي (٨/ ١٤٦).

تنبيه: لا ينبغي أنْ يُظنَّ أنّ المذاكرةَ خاصةٌ بالمحدِّثين، بل هي من المشتَرَك في جميع العلوم والفنون، لكنها عندَ أهل الحديث أظهرُ؛ لشدّة عنايتهم بالحفظ.

كـ «مُختصر صحيح البخاري» للزَّبيدي، أو «مُختصر صحيح مسلم» للمُنْذري.

وهذا هو الجاري عليه العملُ بين الحفّاظ اليوم.

الثالثُ: حِفظُ كتابٍ جامعٍ لعِدَّة أُصولٍ.

والذي أُراه أنفعَ شيءٍ في هذا القسم - وهو الذي اختاره نُخَبُ المُحدِّثين - ثلاثة كتبٍ:

١ - كتابُ «جامع الأصول» لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجَزَري، الذي جمع فيه الكُتُبَ السِّتَّةَ، عدا «سنن ابن ماجه»، فإنه جعل «الموطأ» بدلًا منها.

وهذا الكتابُ هو أعظمُها وأنفعُها، بل قال ياقوتُ الحمويُّ فيه: «أقطعُ قَطْعًا أنه لم يُصنَّفْ مثلُه قَطُّ، ولا يُصنَّفُ!»(١).

فيُدمِن الراغبُ قراءتَه، ويُكثِرُ النَّظَرَ فيه، ويجعلُه سمَيرَهُ وهِجِّيرَاه، فإنه قد جمع عدّةَ مزايا، منها:

أولًا: أنه رتَّب كتابه ترتيبًا بديعًا أشْبَه بـ «المُعجَم المُفهرس» أو «مُعجَم كُنوز السُّنة»، حيثُ رتّبه علىٰ الأبواب، ورتّب الأبواب علىٰ حروف المعجم.

ثانيًا: أنه لم يَجمعْ فيه الأحاديثَ فحسْب، وإنما شرحَ الأحاديثَ، وبيَّن غَريبَها، وذكر شيئًا من فقهها.

ثالثًا: أنَّه يهتمُّ بزيادات الأحاديث التي وردتْ في الروايات، فأحيانًا يَسْرُدُ عشرَ صفحاتٍ أو أكثرَ وهو يقول: زاد فلان، وذكر فلان!

---

(١) معجم الأدباء (٥/ ٢٢٧١).

وهذا مما يَفتقِرُ إليه الذي يَحفظُ من الأصول مباشرةً؛ فإنّ الحديثَ قد يكون في «صحيح البخاري» وله زيادةٌ مثلًا في «سنن الترمذي» أو بالعكس، فابنُ الأثير قد كفانا مؤونة هذا الأمر؛ وذلك بجمعه جميعَ رواياتِ الحديث في الكتب الستة في مكانٍ واحدٍ.

إلىٰ غير ذلك من المزايا.

أو يَحفظُ مختصرَ هذا الكتاب وهو «**تيسيرُ الوصول**» لابن الدَّيْبَع الشيباني، وهو أحسنُ المختصرات لهذا الكتاب.

٢- **كتابُ «مَجْمَع الزوائد»** للحافظ نور الدين الهيثمي: وهذا الكتابُ جمع فيه مؤلِّفُه زوائدَ ستّةِ كتبٍ من الكتب الأصول علىٰ الكتب الستة، هي: مسندُ أحمد، ومسندُ أبي يَعلىٰ، ومسندُ البزَّار، ومعاجمُ الطبرانيِّ الثلاثةُ.

فمَنْ وُفِّقَ للجمع بينه وبين «**جامع الأصول**» فقد أتىٰ - تقريبًا - علىٰ معظَم السُّنة؛ إذْ لا يكاد يُوجدُ حديثٌ إلّا وله أصلٌ في هذه الكُتُبِ الاثنيْ عشر، فإذا ما جمع الحافظُ بين «جامع الأصول» و «مجمع الزوائد» فكأنما حوىٰ هذه الكُتُبَ الأصولَ بين جَنْبَيْه.

فإن تقاصرتْ بالراغب همّتُه، فعليه بكتاب: «**جمع الفوائد من جامع الأصول ومَجْمَع الزوائد**» لمحمد بن سليمان الرُّوْداني الفاسي المغربي، فإنه قد جمع بين الكتابين وحذف الزيادات، وتكلَّم علىٰ الأحاديث تصحيحًا وتضعيفًا.

٣- **كتابُ «المطَالِب العَالية بزوائد المسانيد الثمانية»** للحافظ ابن حجر العسقلاني: وهذا الكتاب جمع فيه مؤلِّفُه زوائدَ المسانيد الثَّمانية بل العشرة علىٰ الكُتُب السِّتة، وهي: مُسنَدُ الحُميْدي، والطيَالسي، وابن أبي عمر العَدَني، ومُسدَّد، وابن مَنيع، وأبي بكر بن أبي شَيبة، وعَبد بن حُمَيد، والحارث بن أبي أُسامة. ووقع له شطرٌ من مسند إسحاق بن راهَويه، مع ذِكْر ما فات

الهيثمي من مسند أبي يعلىٰ. فهو كالتتمّة لكتاب الهيثمي «مجمع الزوائد».

فهذه الكتُبُ الثلاثةُ قد جَمَعَتْ مُعظمَ السنة.

وهناك كتبٌ معاصرةٌ جيدةٌ، مثل: كتاب «**معالم السنة النبوية**» لصالح الشامي، وكتاب «**جامع السنة**» لعبد العزيز المقحم.

وهناك كتبٌ جمعتْ بين الصحيحين، ككتاب: «**الجمع بين الصحيحين**» للصَّاغاني، أو الحميدي، أو الإشبيلي، أو صالح الشامي، أو يحيىٰ اليحيىٰ.

أو جمعتْ المتفقَ عليه، ككتاب: «**زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم**» للجكني، و«**اللؤلؤ والمرجان**» لمحمد فؤاد عبد الباقي، ونحوها، فإنَّ هذه الكتبَ مُهِمَّةٌ وجَيِّدةٌ لمن أدْمَن النظرَ فيها.

الرابعُ: حِفظُ كتابٍ جامعٍ للأحاديث غير مُقيَّدٍ بكتابٍ.

مثلُ أنْ يَحفظَ «**الجامع الصغير**» للسُّيوطي، أو «**كنز العُمَّال**» للمتّقي الهندي، أو «**جامع الشَّمْل في حديث خاتم الرُّسْل**» لأطفيّش محمد بن يوسف، وغيرَها من الكتب المشهورة في علم الحديث.

الخامسُ: حِفظُ كتابٍ مختصرٍ في نوعٍ معيّنٍ من العلم، ككتاب «**رياض الصَّالحين**» للإمام لنووي في الآداب، أو كتاب «**بلوغ المرام**» للحافظ ابن حجر في الأحكام[١]، أو كتاب «**بلوغ السعادة**» للشيخ صلاح البدير في العقيدة، وما أشبهَ ذلك.

***

(١) وهو أشْهَرُ وأنْضَرُ كتبِ أحاديثِ الأحكامِ، ولذا قال القائلُ:

حِفـــــــــظُ (زادٍ) و(بُلـــــــــوغْ) كافيـــــــــانِ في نُبـــــــــوغْ!

ثالثًا: النَّظْمُ التَّعليميُّ:

وينقسم إلىٰ قسمين:

أ- المنظوماتُ العِلْميّةُ.

ب- الضوابطُ العِلْميّة للمسائل الجُزْئيّة.

ونبدأُ أولًا بالقسم الأول.

أ- المنظوماتُ العِلْميّةُ:

للمنظومات العلمية أهميّةٌ بالغةٌ في حفظ العلم، لا سيّما للمتفنِّن، وهو الذي يَضرب في كلّ علمٍ بسهمٍ.

ولذا جرىٰ عملُ الطلّاب والأشياخ من قديمٍ علىٰ حفظها والعناية بها، حتىٰ أُلِّفَتْ آلافُ المنظومات في شتىٰ العلوم والفنون!

وهذا اللونُ من النظم يُسمّىٰ **(النظم التعليمي)**، وقد انتشر في العصر العباسي؛ نظرًا لازدهار العلوم، واتّساع المعارف، وزيادة الإقبال علىٰ العلم، ممّا جعل المتعلّمين يشعرون بحاجتهم إلىٰ المنظومات؛ ليَسْهُلَ عليهم حفظُ المعلومات[1].

وذلك لأن حفظها يَضبط القواعدَ العلميَّةَ، ويحفظُها من النِّسيان؛ لأنَّ الإنسان مهما داوم علىٰ عِلمٍ، ومَهما حَرَّر من مباحثَ، فإنه سَينْسىٰ ولو بعد حِينٍ. لكنْ إذا اشتغل بحفظ المنظوماتِ؛ فإنه يستطيع من خِلال هذا النَّظم

---

(١) يُنظر كتاب: حول الشعر التعليمي: للدكتور/ صالح آدم بيلو (ص/ ٢٠٦)، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: للدكتور/ محمد مصطفىٰ هدّارة (ص/ ٣٥٤).

أن يتذكَّر المسائلَ، بحيثُ إذا أجرىٰ الأبيات علىٰ لِسانه استحضر المسألةَ التي يريدُها بسُهولةٍ ويُسْرٍ(١).

صحيحٌ أنَّ المنظوماتِ لا تَجمع جميعَ القواعد والفوائد في الفنّ، لكنها تجمعُ الأصولَ والمسائلَ الأساسيَّة التي إذا حفظها الإنسانُ كَفَتْه وأغْنَتْه.

ويكاد يتّفقُ العلماءُ علىٰ أن المتنَ المنظومَ مقدّمٌ علىٰ المتن المنثور؛ لاعتباراتٍ كثيرةٍ، منها:

أنَّ حِفَظ النظم أسهلُ من حِفَظ النثر؛ لأن حِفَظ النثر لا يخلو من نوع عُسْرٍ كما هو مجرَّبٌ، فهو أسرعُ عُلُوقًا بالذّهن من النثر.

قال ابنُ عبد البر: «مِن الناس مَن يُسرِعُ إليه حِفظُ المنظوم ويتعذَّر عليه المنثورُ»(٢).

وقال السيوطيُّ: «النظمُ أَيْسَرُ للحفظ، وأَسْيَرُ علىٰ الألسنة»(٣).

كما أنّ للمتن المنظوم حلاوةً في السمع لا يَجدُها مَنْ يحفظ المتنَ المنثورَ؛ لأنّ النظمَ أعذبُ من النثر(٤).

---

(١) **يقول الشيخ محمد رجب الخُولي:** «يُعَدُّ النظمُ العِلميُّ من خصائص علماء المسلمين، وهو كالذاكرة الإلكترونية في عصرنا هذا؛ فإنه يُساعدُ علىٰ حفظ العلم وسُرعة استرجاعه؛ بما يَتميَّزُ به من إيقاع موسيقيٍّ، وتتابع في الألفاظ، وتكثيفٍ للدلالة علىٰ معانٍ كثيرةٍ بألفظٍ قليلةٍ». أرجوزة الكاشف المبين عن غلط المحقِّقين (ص/ ٢٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٩٠).

(٣) الحاوي للفتاوي (١/ ١٤٥).

(٤) **قال ابنُ رشيق القيرواني:** «كلامُ العرب نوعان: منظومٌ ومنثورٌ. ولكلٍّ منهما ثلاثُ طبقاتٍ: جيدةٌ، ومتوسطةٌ، ورديئةٌ، فإذا اتفق الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحداهما فضلٌ علىٰ الأخرىٰ، كان الحكمُ للشعر ظاهرًا في التسمية؛ لأن كلَّ منظومٍ أحسنُ =

=

من كلِّ منثورٍ من جنسه في مُعْتَرَف العادة.

ألا ترىٰ أنَّ الدُّرَّ – وهو أخو اللفظ ونَسِيبُه، وإليه يُقاسُ، وبه يُشبَّهُ – إذا كان منثورًا لم يُؤمَنْ عليه، ولم يُنتفعْ به في الباب الذي له كُسِب، ومن أجله انتُخب؛ وإن كان أعلىٰ قدرًا، وأغلىٰ ثمنًا. فإذا نُظم كان أصونَ له من الابتذال، وأظهرَ لحسنه مع كثرة الاستعمال.

وكذلك اللفظُ إذا كان منثورًا تبدَّد في الأسماع، وتدحْرج عن الطباع. ولم تستقرَّ منه إلا المُفْرِطةُ في الُّلطْف، وإن كانت أجملَهْ. والواحدةُ من الألف، وعسىٰ أن لّا تكون أفضلَهْ. فإن كانت هي اليتيمةَ المعروفةَ، والفريدةَ الموصوفةَ، فكم في سَقَط الشعر من أمثالها ونظرائها لا يُعبأُ به، ولا يُنظرُ إليه.

فإذا أخذه سِلْكُ الوزن، وعَقْدُ القافية؛ تألَّفت أشتاتُه، وازدوجتْ فرائدُه وبناتُه. واتخذه الَّلابسُ جمالًا، والمدَّخِرُ مالًا. فصار قِرَطَةَ الآذان، وقَلائدَ الأعناق. وأمانيَ النفوس، وأكاليلَ الرءوس. يُقلَّبُ في الألْسُن، ويُخبَّأُ في القلوب. مصونًا باللُّبّ، ممنوعًا من السَّرقة والغَصْب.

وقد اجتمع الناسُ علىٰ أنّ المنثورَ في كلامهم أكثرُ، وأقلُّ جيِّدًا محفوظًا. وأنّ الشعرَ أقلُّ، وأكثرُ جيِّدًا محفوظًا؛ لأن في أدناه من زينة الوزنِ والقافيةِ ما يقاربُ به جيِّد المنثور.....

وقيل: ما تكلّمتْ به العربُ من جيِّد المنثور أكثرُ مما تكلّمت به من جيِّد الموزون؛ فلم يُحفظْ من المنثور عُشْرُه، ولا ضاع من الموزون عُشْرُه!» العُمدة في محاسن الشعر وآدابه (١/ ١٩).

– **وقد دندن حولَ هذا المعنىٰ أيضًا ضياءُ الدين ابنُ الأثير** في كتابه الوشي المرقوم في حلّ المنظوم (ص/ ١٧٢ – ١٧٤).

– **وخالف في ذلك العلّامةُ القلقشنديُّ** ففضّل في كتابه «صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا» النثرَ علىٰ النظم!

فردّ عليه محقّقُ الكتاب بقوله: «لعل حماسَهُ للنثر واشتغالَه فيه من خلال عمله في ديوان الإنشاء، جعله يتعصّبُ له ويُفضِّلُه علىٰ الشعر، فهو يقول: «والنثرُ أرفع منه درجةً، وأعلىٰ رتبةً، وأشرفُ مقاما، وأحسنُ نظاما؛ إذِ الشعر محصورٌ في وزنٍ وقافيةٍ، يحتاج الشاعر معها إلىٰ زيادة الألفاظ، والتقديم فيها والتأخير.... والكلامُ المنثورُ لا يحتاجُ إلىٰ شيءٍ من ذلك، فتكونُ ألفاظُه تابعةً لمعانيه، ويؤيدُ ذلك أنك إذا اعتبرتَ ما نُقل من معاني النثر إلىٰ النظم وجدتَه قد انحطّت رُتبتُه...«ولعل القلقشنديَّ في غَمْرَة حماسه للنثر لم يلتفت إلىٰ ما في الشعر من سِحرٍ وجمالٍ، فحَجَبَ ذلك عمدًا في بعض المواقف، ثم ما لبث جلالُ الشعر أنْ دفع به إلىٰ الاعتراف به في صفحاتٍ كثيرةٍ من كتابه». **انظر**: صبح الأعشىٰ (١/ ٢٠ و ٨٩).

– وقد ألّفَ المظفّرُ بنُ الفضل بن يحيىٰ، أبو علي، العلوي الحسيني العراقي (ت ٦٥٦هـ)

=

إضافةً إلىٰ أنّ النظمَ أسرعُ في الاستحضار.

كما أنه قلّما يُنسَىٰ، بخلاف النثر. إلىٰ غير ذلك من المرجِّحَات[١].

ولذا قال يحيىٰ بن عبد المعطي الزواوي (ابنُ مُعطي) في «ألفية النحو والصرف»:

لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ حِفْظَ النَّظْمِ ... وَفْقُ الذَّكيِّ وَالْبَعيدِ الْفَهْمِ

لا سيَّما مَشْطورُ بَحْرِ الرَّجَز ... إِذا بُني عَلىٰ ازْدِواجٍ مُوجَزِ

وقال ابنُ أبي الحَديد في نظمه «الفصيحَ» لثعلب:

وبعدُ: فالعلمُ إذا لم يَنْضَبِطْ ... بالحِفظِ لم يَنفعْ، ومَنْ مَارَىٰ غَلِطْ

وأسهلُ المحفوظِ نظمُ الشِّعرِ ... لأنه أحضرُ عند الذِّكْرِ

وقال ابنُ عاصم الغِرناطي في «مُرْتَقَىٰ الْوُصُوْل إِلَىٰ عِلْمِ الأُصُوْل»:

وَالنَّظْمُ مُدْنٍ مِنْهُ كُلَّ مَا قَصَىٰ ... مَذَلِّلٌ مِنْ مُمْتَطَاهُ مَا اعْتَصَىٰ

فَهْوَ مِنَ النَّثْرِ لِفَهْمٍ أَسْبَقُ ... وَمُقْتَضَاهُ بِالنُّفُوْسِ أَعْلَقُ

وقال الإمامُ الصنعانيُّ في «بغية الآمل» الذي نظم فيه «الكافل» في أصول الفقه، للشيخ محمد يحي بهران:

=

كتابَه «نَضْرة الإغريض في نُصْرَة القَريض» وهو مطبوعٌ.

- ولناصر الدين شافع بن علي العسقلاني الكاتب المصريّ (ت٧٣٠هـ) كتاب: «الأحكام العادلة، فيما جرىٰ بين المنظوم والمنثور من المفاضلة». كما في إيضاح المكنون للبغدادي (٣/ ٣٥).

(١) وقد تقدَّمتْ قصّةُ يحي بن خالد البرمكي حينما أراد حفظَ كتاب «كليلة ودمنة»، فشقَّ ذلك عليه، حتىٰ نَظَمَه له أبانُ بنُ عبد الحميد اللّاحقي.

وَقـد نظمـتُ مَـا حـوىٰ مَعْنَـاهُ ... نظمًـا يَلَـذّ للَّـذي يَقْـراهُ
لِأَنّ حفـظَ الـنّظم فِـي الْكَـلَامِ ... أَسْـرعُ مَـا يَعْلَـقُ بالأفهـامِ

وقال في «منظومة بلوغ المرام»:

وبعـدُ فـالنظمُ سـريعُ الحفـظِ ... يَكـادُ أنْ يَسـبقَ قبـلَ اللفـظِ

وقال النابغةُ الغلّاويُّ البكري في منظومته «بـو اطْلَيْحِيَّـهْ» التي نَظَمَها في المعتَمَد من الكتب والأقوال عند المالكيّة:

وإنمـا رغـبتُ فـي النّظـامِ ... لأنـه أحظـىٰ لـدىٰ المَـرامِ
وهـو الـذي تُصـغِي لـه العقـولُ ... وسـيفُ مَـنْ حَصَّـلَه مَسْـلولُ!

وقال محمدُ المامي بن محمد البخاري في نظم «دلائل الخيرات»:

والنثـرُ حِفظـهُ مـن القلائـلِ ... لاسـيما إنْ كـان كالـدَّلائلِ
والـنظمُ قهـرًا داخـلُ الألـبابِ ... بغيـر إذنٍ؛ لانفتـاح البـابِ!

وقال محمدُ بنُ أُبّ الغلّاوي في مقدِّمة منظومته للآجرّومية:

وبعـد: فالقصـدُ بـذا المنظـومِ ... تسهيـلَ منثـورِ ابـنِ آجَـرُّومِ
لمـن أراد حِفظَـه وعَسُـرا ... عليـه أن يَحفـظَ مـا قـد نُثِـرا

وقال السفّارينيُّ في مقدِّمة منظومته «الدُّرَّة المضيَّة في عَقْد أهل الفرقة المرضيَّة»:

وصـار مـن عـادةِ أهـل العِلـمِ ... أن يَعتنُـوا في سَـبْرِ ذا بالنَّظـمِ

لأنـــه يسْــــهُلُ للحِفــــظ كمــــا يَـروق للسَّـمعِ، ويَشْـفي مِـنْ ظَمَـا

وقد يجدُ الذي يحفظ النَّظمَ صُعوبةً في بَدْء الحفظ، لا سيما إذا لم يكن له اهتمامٌ بالشِّعر. لكنْ إذا تمادىٰ به الوقتُ في حِفْظ المنظومات مع الصبر والجَلَد والمثابرة؛ فإنّ النظمَ يُصبح عليه أسهلَ ما يكون، بل ربما ترقّىٰ به الحالُ حتىٰ يَصيرَ - فيما بعدُ - نَظَّامًا!

ومما يُسهِّلُ حفظَ النظم، الحِفظُ في مرحلة مبكّرة من العُمْر، كالحفظ في العشرينيّات وما قبلها؛ فإنّ الحفظَ حينئذٍ يكونُ سَهْلًا، ويصيرُ فيما بعدُ راسخًا؛ لأنّ طالبَ العلم عندما يتمَادىٰ به العُمرُ، ويتقدّم في السِّنِّ، سيحتاج إلىٰ حِفْظه، وحِفْظُ النثر - إضافةً إلىٰ صُعوبته - لا يَثبُت عند الكِبَر. وإنما الذي يثبُتُ - غالبًا - هو النَّظمُ.

ولا بُدّ أن يُراعيَ طالبُ العلم هنا عدّةَ أُمورٍ:

١ - أنْ يبدأَ في الحفظ بالأهمّ فالـمُهمّ.

فيُقـدِّمَ قبـلَ كـلّ شـيءٍ أصـولَ علـوم الآلـة الثلاثـة، وهـي: أصـول الفقـه، ومصطلح الحديث، والنحو.

وينبغـي أن يحفـظَ في كـلّ فـنٍّ مـن هـذه الفنـون الأساسـية متنًـا مطـوّلًا، ويُستحسنُ أن يكون ألفيّةً؛ لاسيّما للمتخصّصين في علوم الشريعة.

ولو أنّ الطالبَ حفِظ في كلّ أسبوعٍ عشرين بيتًا - بمعدّل ثلاثةِ أبياتٍ كلَّ يومٍ - فإنه سيحفظ في كلّ سنةٍ ألفيّةً كاملةً؛ لأنّ السنَةَ فيها خمسون أُسبوعًا. وهذا هو البرنامجُ الأنسبُ - في نظري - للمتوسّطين في قوّة الحفظ.

ولا مانعَ - إذا كان قَويَّ الحفظِ سَرِيعَه - أن يُدرِجَ علومَ الآلة الأُخرىٰ تحت الفنون الثلاثة السابقة في الحفظ، بمعنىٰ أن يحفظَ مع الألفيّة منظوماتٍ أخرىٰ قصيرةً.

فمثلًا: يحفظُ (ألفيَّةَ السُيوطي) في مصطلح الحديث، ويُدخل تحتَها منظومة (سلّم الوصول) للشيخ حافظ الحكمي في العقيدة. أو (منظومة الزمزمي) في أصول التفسير. أو (الجزريّة) لابن الجزري في التجويد. أو (الجوهر المكنُون) للأخضري في البلاغة... إلخ، ويُخصِّص لكلّ واحدةٍ منها عدّةَ أسابيع علىٰ حسب طولها وقِصَرها، فيكونُ قد حفظ في السنة الواحدة ثلاثَ أو أربعَ منظوماتٍ مع الألفيّة.

٢ - ضبطُ المتنِ ضبطًا صحيحًا مُتقَنًا، إمَّا بقراءته علىٰ شيخٍ، أو أنْ يحفظَ من متنٍ مضبوطٍ يُرشِدُه إليه شيخُه.

وهذه القاعدةُ مهمَّةٌ جدًا؛ فإنّ من المُضحِكِ أن يُقْدِم إنسانٌ علىٰ حِفظ قواعدَ ومسائلَ في فنٍ مّا، وهو لا يُحسِنُ النطقَ الصحيحَ لألفاظه ومصطلحاته!

وقد مرَّ معنا قولُ الشيخ محمّذ فال بن مُتّالي التَّندَغي:

كَتْبٌ، إجازةٌ، وحِفظُ الرَّسْمِ ... قِراءةٌ، تدريسُ، أَخْذُ العلمِ
ومَنْ يُقدِّمْ رُتبةً عن المحَلْ ... مِن ذي المراتبِ، المَرَامَ لم يَنَلْ

ومعنىٰ قوله: (كَتْبٌ)، أي أن يضبط المتن ضبطًا صحيحًا.

٣ - أن يستظهر المتنَ كاملًا.

لأنَّ حفظ المتن كاملًا يُوقِفُ الطالبَ علىٰ جميع المسائل في الفنّ، حتىٰ

الأشياء التي قد تَرِدُ في غير أبوابها المتوقَّعَة.

فلو أنّ أحدًا مثلًا بَحَثَ عن معنىٰ تسميةِ الترمذيِّ الحديثَ المنسوخَ مُعَلًّا، فسينصرفُ وَهَلُه مباشرةً إلىٰ أن المسألة في باب النسخ، بينما هي في باب المعلّ! كما قال الحافظُ العراقي في ألفيته «التبصرة والتذكرة»(١):

وَالنَّسْخَ سَمَّىٰ (التِّرْمِذِيُّ) عِلَّهْ ... فَإِنْ يُرِدْ فِي عَمَلٍ فَاجْنَحْ لَهْ

لكنْ لأنه لم يستظهر المتنَ كاملًا، فلن يعرفَ أين ذُكرتْ هذه المسألة؟

وقِسْ علىٰ هذا بقيّةَ الفنون.

فإنْ عَسُرَ عليه حِفظُ المتنِ كلِّه - لطولٍ أو غيرِه - فلْيَحفظْ من المتنِ - علىٰ الأقلِّ - ثلاثةَ أشياء: التعريفاتِ، والتقاسيمَ، والأنواعَ، فإنها أهمُّ شيءٍ في كلّ فنٍّ.

أمّا التعريفاتُ فلِدِقّتها، وأمّا التقاسيمُ والأنواعُ فلأنها قد تكون كثيرةً يصعبُ حفظُها نثرًا، وربما نسيَها بعد حينٍ.

٤- أنْ يَنسخَ القدْرَ المرادَ حفظُه في بطاقاتٍ أو أوراقٍ صغيرةٍ، يصطحبُها معه في حِلِّه وترحاله، وسفره وحضره، ويكرِّرَ البيتَ الواحدَ عشراتِ المراتِ؛ حتىٰ يرسخَ. ثم يأخذُ الذي بعده، وهكذا.

أو يتّخذ دفترًا يكتُب فيه المقدارَ الذي يُريد حفظَه فقط، حتىٰ إذا ما حفظه، كَتَبَ ما بعدَه، وهكذا حتىٰ ينتهي من حفظ المتن(٢).

---

(١) (ص/ ١١٢) من طبعة مكتبة دار المنهاج.

(٢) أُحبُّ أن أُنبّه هنا إلىٰ أمرٍ مهمٍ، ألَا وهو أن لَّا يَكتُبَ الطالبُ إلّا ما يُريدُ حِفظَه فقط، ولا يَقُلْ: =

وهاتان الطريقتان شبيهتان بطريقة الألواح التي تُستخدمُ في (الـمَحْضَرَة) وقد تقدّم الكلامُ عليها.

٥- أن لّا يخلِط المتنَ الذي يُريد حفظَه بشرحٍ أولَ الأمر. خصوصًا علومَ الآلة؛ لأن من خَلَط حِفظ المتن بالشرح فإنَّ حفظَه سيكونُ مَعنويًّا وليس نصّيًّا؛ لأنّ ألفاظَ المتن ستختلط بألفاظ الشرح عند الاستحضار.

إضافةً إلىٰ أنَّ المتن لن يترابط في حافظته كما ينبغي؛ فإذا ما أراد أن يَستشهِد ببيتٍ؛ احتاج أن يتذكّر الشرحَ حتىٰ يَصِل إلىٰ البيت الذي يُريدُ الاستشهادَ به. وهذه عمليَّةٌ تطولُ، فيُصبحُ الحفظُ حينئذٍ واهنًا!

ويزدادُ الأمرُ سوءًا إذا كان المشتغِلُ بالحفظ شاعرًا أو ناظمًا؛ لأن الشاعرَ أو النَّاظِمَ إذا نسيَ كلمةً فإنه سيأتي بكلمةٍ أخرىٰ رديفةٍ لها علىٰ وزنها!

وقد كُنتُ وما زلتُ مُقتنعًا بهذه الطريقة - وهي ألّا يُخلطَ المتنُ بشرحٍ - حتىٰ رأيتُ في كتاب: «ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان»[1] الذي تحدّث فيه مؤلِّفُه عن طريقة الحفظ عند العلماء في القُطْر

=

إني غيرُ مشغولٍ الآنَ فسأكتُب خمسين بيتًا - مثلًا -! كلّا، وإلّا عاد الأمرُ كما كان، ولم يَستفدْ شيئًا!

ولذا نجدُ أنَّ الطالبَ إذا كتب بيتين فقط، فإنه يستطيع أنْ يحفظَها في بُرهةٍ يسيرةٍ، بينما لو كتب معها عشرةَ أبياتٍ مثلًا، فإنه لن يستطيع أن يحفظ البيتين بسهولةٍ؛ لأنَّ النفسَ تَملُّ وتنقبضُ من العدد الكثير المسطور أمامَها.

وقد تقدم الكلامُ عن هذا بالتفصيل عند كلامنا علىٰ أهمية مراعاة **الناحيَة النَّفسية** في الحفظ.

(١) للشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس (ص/ ١٦ - ١٧).

المُورِيتَاني، فذكر ما حاصلُه أنهم يعتمدون في حفظهم علىٰ الكتابة في الألواح، وعلىٰ عدم خَلْط المتن بشرحٍ حتىٰ يَفرُغَ منه، وأنهم يأتون باللَّوحِ الخشبيِّ[(١)]، فيكتُبُ الواحدُ منهم قَدْرًا يسيرًا لا يزيدُ عليه، حتىٰ ذكروا عن بعض الطلاب ممّن عُرفوا بالذكاء والقدرة علىٰ التحصيل أنه كان لا يزيد في حفظه «متن خليل» علىٰ سطرين فقط في اليوم! فقيل له في ذلك، فقال: لأنني عجلانُ لأعودَ إلىٰ أهلي! فقالوا له: إنّ العجلانَ يزيدُ في حصّته! فقال: أريدُ أن أُتقنَ ما أقرأُ حتىٰ لا أحتاجَ إلىٰ إعادة دراسته فأتأخّر!

وممّا ذكره صاحبُ هذا الكتاب أنّ الألفيَّة الواحدة تُقسَّم إلىٰ أربع مَقارئ، والـمَقْرأَةُ عندهم: رُبُعُ الألفيّة، فيبدأ الطالبُ بحفظ (٢٥٠) بيتًا، ولا يقرأُ معها شرحًا، حتىٰ إذا انتهىٰ من حفظها، بدأ بقراءة شرحِها علىٰ الشيوخ، فيشرحُ له الشيخُ تفصيلَ ما حفظه، ثم يأخذُ في الـمَقْرَأَة الثانية حتىٰ يحفظَها كاملةً، ثم يسمع شرحَها، وهكذا دواليكَ حتىٰ ينتهي من الألفيّة[(٢)].

---

(١) مِن اللطائف: أنّ أشهرَ الأجهزة الإلكترونية الذكيّة وأكثرَها شُيوعًا اليوم في أوساط الكبار والصغار، ما يُسمّىٰ: الأجهزة اللّوحية (تابلت)، كالآي باد، والجالكسي تاب، ونحوها، فهل اقتبسَ صُنَّاعُها فِكرتَها من ألواح الكتابة التي كان طلاّبُ المسلمين يحفظون العلمَ فيها؟ ربّما!

(٢) وقال الشيخُ محمودُ بنُ محمد المختار الشنقيطي في مقاله الفائق: (لماذا الشناقطةُ يحفظون؟): «تقسيمُ المتن إلىٰ أجزاء، وهو ما يُعرف بلغة المحاظر (الأقفاف) مفردها: قُفْ. والمشهور في المحاظر أنّ متوسطَ درسٍ أو قُفِّ المتنِ المنظومِ خمسةُ أبياتٍ لا يزيد عليها إلا المبرِّزون الأذكياء.

وأما المتون المنثورة فيتعارف أهلُ المحاظر علىٰ تقسيمٍ شائعٍ بينهم، فمثلًا مختصر العلامة =

والخُلاصةُ: أنّ مَن دَرَسَ علىٰ أحد أهل العلم منظومةً من المنظومات - كألفيَّة العراقي وشرحها (فتح المُغيث) مثلًا - وكان يحفظ المنظومةَ من خلال الشرح، فإنَّه بهذه الطريقة إنما يُخادع نفسَه إذا قال: إنه يحفظ الألفيَّة! والصوابُ أنه إنما يحفظ معانيَ الألفيَّة!

فلا بُدّ إذن مِن حفظ المتن كاملًا مُجرَّدًا عن الشرح، أو يبدأ علىٰ الأقلّ بحفظ المنظومة حتىٰ يَصِل إلىٰ حدٍّ معيَّن كالربع أو الثلث، ثم يبدأ بعد ذلك بقراءة شرح ما حفظ.

٦- التكرار الكثير للمتن المُراد حفظُه حتىٰ يرسخ، خصوصًا إذا كان نثريًا.

ولا ينبغي أن يتكأكأَ أحدٌ عن الحفظ بحُجّة أنه ضعيفُ الحفظ ويحتاجُ إلىٰ تكرارٍ كثيرٍ! فقد وُجد مِن أساطين العلماء مَن كان يُكرّرُ الدرسَ مرَّاتٍ كثيرةً حتىٰ يحفظ.

=

الشيخ خليل عندهم ثلاث مئة وستون قُفًّا، ولا تخفىٰ فائدةُ هذا التقسيم للمتن المراد حفظُه، فيعرف الطالب مواضع الصعوبة من السهولة فيحتاط في المراجعة والتكرار، كما أنّ تخزين المادة في الذاكرة مرتّبةً منتظمةً أيسرُ في استظهارها واسترجاعها.

ويرىٰ الشناقطةُ - وهم مضربُ المثل في قوة الحافظة والذكاء - أنّ (القُفّ) الكثير لا يستطيع استيعابه مع الاحتفاظ به في الذاكرة إلا قِلّةٌ من الحفّاظ؛ ولذلك عمدوا إلىٰ تجزئة كل متنٍ. وسارت عندهم هذه العباراتُ مسار المثل:

(قُفْ أُفْ) أي أنه بمثابة الريح. (أُفْ اسم صوتٍ) يمرُّ عابرًا فلا يستقرّ منه شيء في الذاكرة.

(نُصّ لا بُدّ الُ يخصّ) أي أنّ النصفَ لا يمكن الاحتفاظ به جملةً، فلا بدّ أن يَنسىٰ قارئه بعضَه أو يعجز عن استيعابه أصلًا.

(الثُّلْث يُوتْرَث) أي أنّ ثُلُثَ القُفّ يَعْلَقُ بالذاكرة فلا ينساه قارئُه حتىٰ يموت كأنه يُورَث من بعده». مجلة البيان: العدد (١٣٥) (ص/ ١٠٠).

فهذا إلكِيا الهرَّاسي يقول: كانتْ في مدرسة سَرهَنْك بنيسابور قناةٌ لَهَا سَبْعُونَ دَرَجَة، وَكنتُ إِذا حفظتُ الدَّرْسَ أنزلُ الْقَنَاةَ وأعيدُ الدَّرْسَ في كلِّ درجةٍ مرّةً في الصعُود والنُّزُول! قال: وكذا كنتُ أفعلُ في كل دَرسٍ حفظتُه!

وفي بعض الْكتب أَنه كَانَ يُكَرّر الدَّرْسَ علىٰ كلّ مِرْقاةٍ من مراقي دَرَج المدرسة النظامية بنيسابور سبعَ مَرَّاتٍ، وأنّ المراقيَ كانت سبعينَ مِرقاةً!![1].

وكان الحافظُ أحمدُ بن الفرات الضَبِّي أبو مسعود الرازي يكرِّرُ كلَّ حديثٍ خمسَ مئةِ مرة!![2].

وقال أبو إسحاق الشيرازي: «كنتُ أُعيدُ كلَّ قياسٍ ألفَ مرةٍ! فإذا فرغتُ أخذتُ قياسًا آخرَ علىٰ هذا، وكنتُ أُعيدُ كلَّ درسٍ مئةَ مرةٍ! وإذا كان في المسألة بيتٌ يُستشهد به حفظتُ القصيدةَ التي فيها البيتُ!»[3].

وقال الحُميدي: «أخبرني القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد قال: لما رحلتُ إلىٰ قرطبة؛ قرأتُ علىٰ الحافظ أبي بكر (ابن العربي) ولزمتُه، فسمعني ذاتَ يومٍ أذكر الانصرافَ إلىٰ وطني بالمريّة، فقال لي:

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ: للسبكي (٧/ ٢٣٢).
فعلىٰ الرواية الثانية يكونُ تكرارُه للدرس الواحد (٤٩٠) مرةً في الصعود! ومثلها في النزول!

(٢) قال رجلٌ لأبي مسعود الرازي: إنا ننسىٰ الحديث، فقال: «أيُّكم يرجع في حفظ حديثٍ واحدٍ خمس مئة مرة؟! قالوا: ومَن يقوىٰ علىٰ هذا؟! فقال: لذاك لا تحفظون». طبقات المحدثين بأصبهان: لأبي نعيم (٢/ ٢٥٦).

(٣) المنتظم: لابن الجوزي (١٦/ ٢٢٩)، وتاريخ الإسلام: للذهبي (٣٢/ ١٥٥)، وطبقات الشافعيين: لابن كثير (ص/ ٤٢٧)، وطبقات الشافعية: لابن قاضىٰ شُهبة (١/ ٢٣٩).

ما هذا القَلَقُ؟! أقِمْ حتىٰ يكونَ لك في رحلتك عشرةُ أعوامٍ كما كان لي!». ثم قال: «لم أرحلْ من الأندلس حتىٰ أحكمتُ كتابَ سيبويه، وكنتُ أحفظ بالعراق في كل يومٍ سبعَ عشرةَ ورقةً!». وكان يقول: «عندي مسائلُ ألفيةٌ، دَرَسْتُ في كل يومٍ مسألةً ألفَ مرةٍ بعد أن حفظتُها!!»[(١)].

وهذا أبو الفضل بكر بن محمد بن علي بن الفضل الأنصاري - الذي كان يُقال له: أبو حنيفة الأصغر - سألوه مرةً عن مسألةٍ غريبةٍ، فقال: كَرَّرْتُ عليها أربعَ مئة مرة!![(٢)].

وقال السبكي: «في الرافعي، في القصاص، في مسألة المبادرة، حكىٰ عن الماسَرْجَسي أنه قال: سمعتُ أبا بكر الصِّبْغي يقول: كَرَّرْتُها علىٰ نفسي ألفَ مرةٍ حتىٰ تحقَّقتُها!!»[(٣)].

وقد عابَ ابنُ الجوزي علىٰ بعض متفَقِّهةِ زمانه عدمَ اهتمامهم بتكرار المحفوظ، فقال وهو يتحدّثُ عن نعمة العِلم: «هذه المنحةُ العظيمةُ نفتقر إلىٰ حفظها بدوام الدراسة؛ ليبقىٰ المحفوظُ. وقد كان خلقٌ كثيرٌ من سلفنا يحفظون الكثيرَ من الأمر، فآل الأمرُ إلىٰ أقوامٍ يَفرّون من الإعادة؛ مَيْلًا إلىٰ الكسل، فإذا احتاج أحدُهم إلىٰ محفوظٍ لم يقدرْ عليه.

ولقد تأملتُ علىٰ المتفقّهة أنهم يُعيدون الدرسَ مرتين أو ثلاثًا، فإذا مرّ علىٰ أحدهم يومان نسيَ ذلك! وإذا افتقرَ إلىٰ شيءٍ من تلك المسألة في

---

(١) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: للضبّي (ص/ ٩٣) بتصرف.
(٢) سير أعلام النبلاء: للذهبي (١٩/ ٤١٥).
(٣) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٣/ ١٨٤).

المناظرة لم يَقدِرْ علىٰ ذلك! فذهبَ الزمانُ الأولُ ضائعًا، ويحتاج أن يبتدئَ الحفظَ لما فيه أولًا، والسبب أنه لم يُحْكِمْه»[(١)].

وقد تقدّم معنا آنفًا الكلامُ علىٰ طريقة حِفظ علماء القُطْر الموريتاني.

فبهذا يكونُ الحفظُ راسخًا قويًّا.

٧- ينبغي أن يتخيَّرَ من خِلّانه الجادِّين من يُشاركُه الحفظَ؛ فإنَّ هذا أنْشَطُ له؛ لأنه قد يتثاقلُ وقد يتباطأُ إذا حفظ وَحْده، وربما انقطع! فيتخيَّرُ واحدًا أو اثنين - ولا يزيدُ - ويحفظ معهما؛ فإنَّ ذلك أنْشَطُ للنفس، وأروحُ للفؤاد، وأعْونُ علىٰ الحفظ.

٨- كثرةُ المراجعة للمحفوظ، فيُراجعُ ما حفظه باستمرارٍ، لاسيّما مع تقادم العمر، وإلا تفلّت عليه المحفوظُ وعاد فيه من جديدٍ!

وأنسبُ طريقةٍ عندي، هو أنه إذا انتهىٰ من حفظ المقدار اليوميّ فإنه يعود إليه بالتكرار في اليوم الذي يليه بعددٍ أقلَّ من العدد الأول، وفي اليوم الثالث بعددٍ أقلَّ من سابقه، وهكذا، ثم يَكُرُّ عليه بعد ذلك إمّا كلَّ أسبوعٍ مرةً، وإمّا كلَّ شهرٍ، ولا يزيدُ علىٰ الشهر؛ حتىٰ لا ينساهُ. وقد كان أحدُ أشياخي في النحو يُراجعُ ألفيةَ ابنَ مالكٍ كلَّ شهرٍ مرةً، فكان يَسردُها من حفظه خلالَ خمسٍ وسبعينَ دقيقةً فقط!

كما أن الطالبَ إذا شرع في حِفظ ألفيَّة العراقيِّ (التبصرة والتذكرة) مثلًا، فإنه يُراجِع محفوظَه السابقَ مع المحفوظ الجديد، من أجل الضبْط والربْط،

---

(١) الحثّ علىٰ حفظ العلم (ص/ ٣١).

حتىٰ يَصلَ إلىٰ عددٍ معيَّن، وليكنْ مئةَ بيتٍ مثلًا، ثم يبدأُ بعد ذلك في المئة الثانية، وهكذا، حتىٰ ينتهي من حفظ الألفيّة.

وهذه الطريقةُ نافعةٌ مفيدةٌ، قد جرَّبتُها وجرَّبها غيري؛ فحَمِدْنا آثارَها.

وقد كانتْ كثرةُ المراجعة للمحفوظ ديدنَ أهل العلم علىٰ مرّ العصور، فقد كان مجدُ الدّين الرُّوْذْرَاوَري يكرّر حِفظًا مقاماتِ الحريري، وخُطبَ ابْن نباتة، وديوانَ المتنبي![1].

وكان فضلُ الله ابن محمد بن أحمد بن محمد التميمي يراجع «الوجيز» للغزالي إلىٰ زمن الشيخوخة![2].

وقال العِزُّ بن عبد السلام: «مضتْ لي ثلاثون سنةً لا أنامُ حَتَّىٰ أُمِرَّ أبوابَ الأحكام عَلَىٰ خاطري!»[3].

وكان هبةُ الله بنُ أحمد بن معلّىٰ بن محمد الطرازي الفقيه الأصولي، دائمَ الاشتغال والكتابة مع كِبَر سنّه، وغزارة علمه، وكان يُكرِّر محفوظاتِه[4].

وكان محمدُ بنُ عَليّ بن محمد بن غانِم قد حفظ الْقُرْآن، و«المنهاج»، ومختصر ابْن الْحَاجِب، والحاجبية، وكان يُكرِّر علىٰ محفوظاتِه الليلَ والنهارَ[5].

---

(١) الوافي بالوفيات: للصفدي (١٩/ ٨٦).

(٢) تاريخ الإسلام: للذهبي (١٥/ ٨٤٤)، وطبقات الشافعيين: لابن كثير (ص/ ٩٤٥)، وأعيان العصر وأعوان النصر (٤/ ٤١)، والوافي بالوفيات: للصفدي (٢٤/ ٤٢).

(٣) رَفع الإصْر عن قضاة مِصْر: لابن حجر (ص/ ٢٤١).

(٤) الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية: للقرشي (٢/ ٢٠٤) بتصرّف.

(٥) الوافي بالوفيات: للصفدي (٤/ ١٥٧)، والدرر الكامنة: لابن حجر (٥/ ٣٤٠).

وقال السخاويُّ عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم النَّيْني: «حضر عندي في بعض دروس الألفيّة، وحافظتُه أحسنُ من فاهمتِه! ولم يزل يُكرِّر علىٰ محافيظه!»[(١)].

وقال عن عبد الله بن محمد بن عمر العفيف اليماني: «حَفِظ المنهاجَ، وكان يُكرِّر عليه إلىٰ أن مات»[(٢)].

وقال عن أحمد بن الطيب محمد بن أحمد الناشري: «لم يزلْ يَدْأبُ حتىٰ أُشير إليه بالفضيلة والبراعة في الفقه وأصوله، وفي الفرائض والحساب والعربية والعروض والمعاني وغيرها مع الحرص علىٰ تكرير محافيظه»[(٣)].

٩- أن لّا يتشاغلَ بحفظ مُقدِّمة المنظومة إذا كانت طويلة؛ حِفظًا للوقت. بل يبدأ مباشرةً بالأبواب والفصول، ويُرجئُ حفظَ المقدّمة آخرَ شيءٍ.

فمثلًا: «الدرّة البهيَّة نَظْم الآجُرُّوميَّة» للعِمريطي يقع النظمُ في (٢٥٠) بيتًا، ومقدِّمةُ النظم في (٢٠) بيتًا! و«كفاية الغلام في إعراب الكلام» للآثاري تقع مقدّمتُها في (٣٠) بيتًا! و«الفرائد البهيّة» للأهدل تقع مقدّمتُها في (٣٥) بيتًا!

فالأولىٰ - عندي - تركُ المقدمة، والبدايةُ مباشرةً بحفظ المتن، ثم يعود إلىٰ المُقدِّمة بعد ذلك، أو يحفظُها علىٰ التراخي.

١٠- إذا كان هناك متنان أو أكثرُ في فنٍ واحدٍ، وكلاهما مشهورٌ معتمدٌ،

---

(١) الضوء اللّامع (١/ ١٢١).
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٦٠).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٢٠).

ولا يَدري أيُّها يَحفظُ؟ فإنه يَستخيرُ اللهَ، ويَستشيرُ مشايخَه وإخوانَه ممّن سَبقُوه في هذا المجال، فيأخذُ بما يُرشدونه إليه.

فإنّ بعض الطُلاب يبدأ في حفظ متنٍ مّا دون دراسةٍ وسؤالٍ، فإذا ما وصل فيه إلىٰ مرحلةٍ ليست باليسيرة، نَدِمَ، ورأىٰ أنَّ غيرَه أولىٰ، وأنَّ الاستمرارَ في حِفظه غيرُ مُجْدٍ!

والسببُ في هذا هو عدمُ السؤال، وعدمُ التروّي عند الاختيار! وما أحسنَ قولَ الشاعرِ الحَمَاسيِّ[1] محمدِ بنِ بشير:

قَدِّرْ لِرِجْلكَ قبل الخَطْو موضعَهَا ... فَمَن عَلا زَلَقًا عَن غِرَّةٍ زَلَجَا![2]

---

(١) الحَمَاسيُّ: لقبٌ يُطلق علىٰ الشعراء الذين ذكرهم أبو تمّام في كتابه الجليل: «الحماسة».
وهذا اللقبُ يُعدُّ مفخرةً لهم؛ نظرًا لمكانة أبي تمّام الأدبيّة، وللمكانة العُظمىٰ التي تبوّأها كتابُه بين كتب الأدب العربي.
وإنني أُوصي طلّابَ العلم بالالتفات لهذا السِّفْر النفيس، والاستكثار من القراءة فيه، وحِفظ أكبر قدرٍ من أشعاره؛ فإنّ ذائقةَ أبي تمّامٍ في اختيار شعراء الحماسة واختيار أشعارهم؛ ذائقةٌ عاليةٌ للغاية، حتىٰ قيل: أبو تمام في اختياره أشعرُ منه في شعره! كما ذكر ذلك صاحبُ خزانة الأدب (١/ ٣٤٧)، ومن قَرَأَ عَرَفَ.

(٢) قال التبريزي في شرح البيت: «**الزَّلَق هُنَا**: مَكَان الزَّلَق. **والغِرَّة**: الْغَفْلَة. **وزَلَج**: زلَّ. **وَالْمعْنَىٰ**: تَأملْ مَوضِعَ قدمك قبل أَنْ تضعَها، فَمن مَشىٰ فِي مَكَان الزَّلَق علىٰ غَفلَةٍ مِنْهُ زلَّ». شرح ديوان الحماسة (٢/ ٣٤).
لَطِيفَة: قال علي بن القاسم طارمة: كنتُ مع المعتصم لما غزا الرومَ، فجاءه بعضُ سراياه فأخبره بخبرٍ ساءَه، فركب من فوره، وسار أحَدَّ سيرٍ، وأنا أُسايرُه، فسمع مُنشدًا يُنشد في عسكره:

إنَّ الأمــورَ إذا انســدّتْ مســالكُها ... فالصــبرُ يفــتحُ منهــا كــلَّ مــا ارْتَتَجَــا

=

لكنْ لا ينبغي أن يتحوّل ذلك عند الطالب إلىٰ وسوسةٍ! فيبقىٰ متردّدًا في الاختيار فترةً طويلةً؛ حتىٰ يذهبَ عليه الوقتُ!

وما زلتُ أذكرُ ذلك الطالبَ الذي سألني: أيُّهما يحفظُ في مصطلح الحديث: ألفيّةَ العراقيّ أم ألفيّةَ السيوطيّ؟ فأجبتُه، وبعد عامٍ جاءَ يسألُ السؤالَ نفسَه!!

=

لا تيأسنَّ وإنْ طالتْ مطالبةٌ ... إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترىٰ فَرَجَا

فسُرَّ بذلك، وطابت نفسُه، ثم التفتَ إليَّ وقال: يا عليُّ أتروي هذا الشعر؟ قلتُ: نعم، قال: مَنْ يقوله؟ قلتُ: محمدُ بنُ بشير، فتفاءل باسمه ونسبه، وقال: أمرٌ محمودٌ وبِشرٌ سريعٌ يَعقُبُ هذا الأمرَ! ثم قال: أنشدْني الأبياتَ برُمّتها فأنشدتُه:

مـاذا يكلِّفـكَ الروحـاتِ والـدَّلَجا؟ ... البَـرَّ طـورًا، وطـورًا تركـبُ اللُّجَجَـا

كـم مـن فتًىٰ قصُـرتْ في الـرزق خَطوتُـهُ ... ألفيتـهُ بسـهام الـرزق قـد فَلَجَـا

لا تيأسـنَّ وإن طالـتْ مطالبـةٌ ... إذا اسـتعنتَ بصـبرٍ أن تـرىٰ فَرَجَـا

إن الأمـور إذا انسـدَّتْ مسـالكُها ... فالصـبرُ يفـتحُ منهـا كـل مـا ارْتَتَجَـا

أَخْلِـقْ بـذي الصـبر أن يَحظـىٰ بحاجتـهِ ... ومُـدمنِ القـرعِ للأبـوابِ أن يَلِجَـا

فاطلـبْ لرِجلِـكَ قبـلَ الخطْـوِ موقعَهـا ... فمـنْ عـلا زلقًـا عـن غِـرةٍ زَلَجَـا

فـلا يغرَّنْـك صـفوٌ أنـتَ شـاربُهُ ... فربمـا كـانَ بالتكـديرِ مُمتزِجَـا

لا يُنـتجُ النـاسُ إلا مـن لَقـاحِهمُ ... يبـدو لَقـاحُ الفتـىٰ يومًـا إذا نُتِجَـا

قال: وأصاب من ذلك الوجه ما أحبَّ، وزال ما كَرِهَ، وعاد غانمًا مسرورًا.

انظر: الأغاني: للأصفهاني (١٤/ ٤٢)، والهفوات النادرة: للصابي (ص/ ٢٧٧).

وينبغي أن يُراعَىٰ في المفاضلة بين المتون إذا كانت في درجةٍ واحدةٍ عدّةُ أمورٍ:

١- اختيارُ المتنِ الأكثرِ شُهرةً وشُروحًا في الفنّ.

لا سيّما في القُطْر الذي يَقطُنُه الطالبُ، وفائدةُ ذلك تمرُّسُ المشايخ في ذلك القُطْر علىٰ تدريس ذلك المتن، مما يكون أعْود بالنفع عليه.

٢- اختيارُ المتنِ الأجمعِ لمسائل الفنّ.

٣- اختيارُ المتنِ الأكثرِ سلاسةً ما أمكن.

٤- اختيارُ المتنِ الأوجزِ من حيثُ عددُ الأبياتِ، أو الأسطرِ، أو الصفحاتِ، مع وفائه بالمقصود.

فالسيوطيُّ مثلًا لخّص في ألفيّته النحويّة المسمّاة: «الفريدة» ما في ألفيّة ابن مالك في (٦٠٠) بيتٍ فقط! والباقي - (٤٠٠) بيتٍ - ضمّنها فنونًا أخرىٰ.

وابنُ الجزري له منظومةٌ في مصطلح الحديث سمّاها «الهداية في علم الرواية» قال عنها الشمسُ البديري في «فِهْرِسْتِه»: «ألّف في مصطلح الحديث أرجوزةً؛ خمس مئة بيتٍ، أغزرُ علمًا من ألفيّة الحافظ العراقي»[(١)].

٥- اختيارُ المتنِ المتأخِّر؛ لأنّ المتنَ المتأخِّر غالبًا يحوي ما في المتقدّم ويزيدُ عليه. ولا حرجَ في كونه معاصِرًا إذا كان مُتْقَنًا.

فينبغي أن تُراعَىٰ هذه النقاطُ كلُّها - ما أمكنَ - أو أكثرُها عند المفاضلة بين المتون.

---

(١) فهرس الفهارس والأثبات: للكتاني (١/ ٣٠٤).

- طريقةُ حفظِ المنظوماتِ:

المنظوماتُ تنقسم إلىٰ قسمين:

١- تنقسم مِن حيثُ النَّوع، إلىٰ: صَعْبةٍ وسَهلةٍ.

٢- وتنقسم مِن حيثُ الكَمّ، إلىٰ: طَويلةٍ وقَصيرةٍ.

أمَّا المنظوماتُ الصَّعبةُ: فكألفيَّة ابن مالك، ولاميَّة الأفعال، والشاطبيَّة، والدُّرَّة، والأخيرةُ من أصْعَب المنظومات، ولا يحفظُها إلّا بارعٌ!(١).

وأمَّا المنظوماتُ السَّهلةُ: فكألفيَّةِ السُّيوطي في المصطلح، ومنظومةِ الوَرَقاتِ للعِمْريطي، و«سُلَّم الوُصُول إلىٰ علم الأُصُول»: لحافظ الحكمي. ونحوِها.

والصُعوبةُ والسُهولةُ تأتي أحيانًا من الفنّ نفسه الذي يُنظَمُ فيه، فمثلًا نجدُ السُهولةَ في غالب منظومات السُيوطي، لكنّه لمَّا نظم ألفيَّته في النحو (الفريدة) جاءت صعبةً؛ بسبب صعوبة الفنّ نفسِه.

فإذا كان النظمُ صَعْبًا؛ فأحسنُ طريقةٍ هي حِفْظُ المنظومة بيتًا بيتًا، والتقليلُ قدْرَ الإمكان من المقدار اليوميّ للحفظ؛ حتىٰ يَرْسَخَ.

وهناك طريقةٌ حسنةٌ لترسيخ الحفظ وربْط البابِ بعضِه ببعضٍ، وهي رَبْطُ البيت الأول بالثاني، والثاني بالثالث... وهكذا.

---

(١) سيأتي الكلامُ عن هذه المنظومات بالتفصيل.

وبالمناسبة؛ فإنَّ القرّاءَ هم أئمةُ الحفظِ علىٰ التحقيقِ؛ لأنّ متونَهم أصعبُ المتون علىٰ الإطلاق!

ولذا يَعمَدُ بعضُ النظّامين لما يُسمّىٰ بالتَّضْمين[١]؛ من أجل ربط الكلام

---

(١) التضمينُ عند علماء العَروض هو: تعلّقُ قافيةِ البيتِ بصدرِ البيتِ الذي يليه.

قال العلوي في نظم مُجدِّد العوافي من رَسْميْ العَروض والقوافي (ص/ ٤٦):

وَعِنْـــــدَنَا التَّضْــــــمِينُ أَنْ تُعَلَّقَـــــا ... قَافِيَـــــةٌ بِمَــــا قَفَاهَـــــا مُطْلَقَـــــا

والتضمينُ في الأصل معدودٌ من عيوب القافيةِ، ولذا يُصرِّح بعضُ النَّظّامين بخُلوِّ منظومته منه! والتحقيقُ أنه علىٰ نوعين:

١- قبيح: وذلك إذا كان مما لا يتمُّ الكلامُ إلا به، كالفاعل، والصلة، وجواب الشرط، وخبر المبتدأ، والنواسخ. مثالُه قولُ النابغة الذبياني:

وهُـــمْ وَرَدُوا الجِفــــارَ علــىٰ تمــيمٍ ... وهُـــمْ أصـــحابُ يـــومِ عُكـــاظَ إنِّـــي

شَـــهِدْتُ لهـــم مـــواطنَ صـــادقاتٍ ... شَـــهِدْنَ لهـــمْ بحُسْـــنِ الظـــنِّ مِنِّـــي

فجملةُ (شهدتُ) خبرُ (إنّ) في البيت الذي قبله.

٢- مقبول: إذا كان الكلام يتمّ بدونه، كالتوابع وما أشبهها من الفضلات. مثالُه قولُ امرئ القيس:

وتَعـــرِفُ فيـــهِ مـــنْ أبيـــهِ شـــمائلًا ... ومِـــن خالـــه ومِـــن يزيـــدَ ومـــن حُجُـــرْ

ســــماحةَ ذا، وبِـــــرَّ ذا، ووفـــــاءَ ذا ... ونائـــــلَ ذا، إذا صَـــــحَا وإذا سَـــــكِرْ

فـ (سماحةَ) وما بعدها بدل اشتمالٍ من قوله (شَمائِلا).

قال المرزُباني: «ليس ذا بمعيبٍ عندهم، وإن كان مضمَّنًا؛ لأن التضمينَ لم يَحْلُلْ قافيةَ البيت الأول، مثل قوله: «إني شهدتُ لهم». وقد يجوز أنْ يُوقَفَ علىٰ البيت الأول من بيتيْ امرئ القيس؛ وهذا عند نقّاد الشعر يُسمّىٰ الاقتضاء: أن يكون في الأول اقتضاءٌ للثاني، وفي الثاني افتقارٌ إلىٰ الأول».

انظر: الموشَّح في مآخذ العلماء علىٰ الشعراء: للمرزباني (ص/ ٤١)، والكافي في علميْ العروض والقوافي: للقنائي (ص/ ٢٠٠)، والإرشاد الشافي: للدمنهوري (ص/ ١٦٨).

بعضه ببعض. وذلك مثلُ قولِ الحافظ العراقي في ألفيّته «التبصرة والتذكرة»[١] في تعريف الحديث الحَسَن:

وَالحَسَنُ: المَعْرُوْفُ مَخْرَجًا، وَقَدْ ... اشْتَهَرَتْ رِجَالُهُ، بِذَاكَ حَدْ

(حَمْدٌ). وَقَالَ (التِّرمِذِيُّ): مَا سَلِمْ ... مِنَ الشُّذُوْذِ، مَعَ رَاوٍ مَا اتُّهِمْ

بِكَذِبٍ، وَلَمْ يَكُنْ فَرْدًا وَرَدْ ... قُلْتُ: وَقَدْ حَسَّنَ بَعْضَ مَا انفَرَدْ

فلاحظْ أن الناظم جعل تتمّة البيت الأول في الثاني، وتتمّة البيت الثاني في الثالث وهكذا، فكلُّ بيتٍ يَستدعي الذي يليه، وبذلك تُصبح المنظومةُ مُترابطةً متّصلةً.

والمشتغلُ بحفظ المنظومات يرىٰ أنّ وجودَ (التَّضْمين) في المنظومات مما يُسهِّل عمليّةَ حفظها؛ ولهذا فإنّ من أصعب المنظومات حِفظًا «ألفيَّةُ ابن مالك»! لأنّ كلَّ بيتٍ في الغالب مستقلٌّ عن الذي يليه.

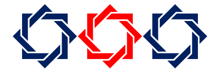
- **أما انقسامُ المنظومات من حيثُ الكمّ**، إلىٰ: طويلةٍ وقصيرةٍ، فإنني أرىٰ أنّ الإنسانَ يستطيع أن يَحفظَ في وقتٍ واحدٍ مَتنيْن: متنًا مطوّلًا، ومتنًا مختصرًا.

فيُدرِجُ المتنَ المختصرَ تحت المتن المطوّل، لاسيّما إذا كان من الفنون الوجيزة؛ كالصَّرْف، والعَروض، والقوافي، والفرائض، والتجويد، ونحوها. مالم يؤدّ ذلك إلىٰ الاضطراب والتشتّت لدىٰ الحافظ، فإن أدّىٰ إلىٰ ذلك فلا يَخلطْ حينئذٍ بينهما.

---

(١) (ص/ ٩٧) من طبعة مكتبة دار المنهاج.

عِلْمًا بأنّ هناك في كلّ فنٍّ – طال أم قَصُر – متونًا مطوّلةً، ومتونًا مختصرةً.
وقد تقدّم الكلامُ قريبًا علىٰ هذه المسألة، فلا نَسترسلُ معها.





أشهرُ المنظومات في العُلوم والفُنون

اهتمَّ العلماءُ غايةَ الاهتمام بنظم العلوم والفنون؛ لتقريبها وتيسيرها علىٰ طُلّاب العلم، فتعدّدتْ تبعًا لذلك المنظوماتُ، حتىٰ بلغتْ العشراتِ وربّما المئاتِ في كلّ فنٍّ!

وإليكَ - أخي الراغب - أسماءَ بعض المنظومات المهمّة[١] في جملةٍ من العلوم والفنون الـمُحتَاج إليها، نبدؤها بعُلومِ المقاصدِ أوّلًا، ثمّ نُتْبعُها بقيّةَ الفنون:

١- المنظوماتُ في العَقِيدَة:

تنافس العلماءُ في نظم المُعتَقَد؛ لأنه أصلُ الأُصُول، وأساسُ القَبُول.

---

(١) اقتصرتُ هنا علىٰ ذِكْرِ المتون المنظومة دون المنثُورة؛ لِمَا ذَكَرْتُ سابقًا من ترجيح النظم علىٰ النثر.

وقد كنتُ هممتُ أنْ أذكرَ المتونَ المنثورةَ في الحاشية عند الكلام علىٰ منظوماتِ كلِّ فنٍّ من الفنون، لكنْ عزفتُ عن ذلك أخيرًا؛ لئلّا يطولَ الكتابُ بسَرْدِها، ولأنّ المتونَ المنثورةَ في كلّ فنّ كثيرةٌ معلومةٌ.

وقد استوعبَ ذِكْرَ جُلِّها مع شروحها وحواشيها فضيلةُ الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم في كتابِه الفَذِّ العُجَابِ: «الدليلُ إلىٰ المتون العلمية»، فليُراجعْه مَن شاءَ، وبالله تعالىٰ التوفيق.

ومِن أشهرِ المنظوماتِ في معتقد أهلِ السنةِ والجماعةِ - الفرقةِ الناجيةِ، والطائفةِ المنصورةِ - جَعَلَنا اللهُ منهم بمنِّه وكرمِه:

١- «**الدُّرَّةُ الـمُضِيَّة، في عقيدة الفِرقة الـمَرضيَّة**» الشهيرة بالعقيدة السفّارينية: للشيخ محمد بنِ أحمد السَّفَّارينيّ.

وتقع في (٢١٠) بيتًا.

وقد شرحها السَّفَّارينيُّ نفسُه في «لوامع الأنوار البهيّة»، وشرحها ابنُ مانع في «الكواكب الدُّريّة»، وشرحها العُثيمين، وغيرُهُم.

٢- «**سُلَّم الوُصُول إلىٰ علم الأُصُول**»: للشيخ العلّامة حافظ الحكمي.

وتقع في (٢٧٠) بيتًا.

وهي منظومةٌ رائعةٌ، شاملةٌ لأبواب التوحيد والعقيدة، سهلةُ الألفاظ والتراكيب، أُوصي بحفظها كثيرًا، لا سيّما لصغار طلّاب العلم والمتوسِّطين.

وقد شرحها المؤلفُ نفسُه في كتابٍ سمّاه «معارج القبول»، وهو شرحٌ نفيسٌ جدًّا[1]، وله عدّة مختصرات، أشهرُها وأنضرُها: مختصرُ الشيخ/

---

(١) إضاءة: ظَهَرَ لي من خلال تتبُّعي لتراث النابغة العلّامة الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أرادَ وَضْعَ منظوماتٍ في شتّىٰ العلوم والفنون مع وَضْعِ شرحٍ لكلّ واحدةٍ منها.
وقد تحقّق له القسمُ الأولُ - وهو النظمُ - حتّىٰ أخبر عن نفسه أنه ربّما نظم في اليوم الواحد - إذا خلا ممّا يُشغِلُ البالَ - (٤٠٠) بيتٍ!! وقد طُبعتْ هذه المنظوماتُ كلُّها ولله الحمدُ.
أمّا القسمُ الثاني - وهو وَضْعُ الشروح - فقد اخترمتْه المنيّة قبلَ تحقّق الأمنيّة؛ لأنه مات شابًّا عامَ (١٣٧٧هـ) وهو ما زالَ بعدُ في الخامسة والثلاثين من العُمُر. فلم يتمكّنْ إلا من شرح «سلّم الوصول» في كتابه العظيم «معارج القبول» فرحمه الله رحمةً واسعةً، وعوّض =

هشام بن عبد القادر آل عُقدة.

٣- «النظمُ الحاوِي لعقيدة الطَّحاوِي»[١]: للشيخ محمود بن نذير الطرازي التُّركستاني (ت ١٤١١ هـ)، المدرِّس بالمسجد النبوي.

وتقع في (٧٣١) بيتًا.

وهي منظومةٌ جيِّدةٌ، نظم فيها عقيدةَ الإمام الطحاوي المشهورة.

٤- «الكافية الشافية، في الانتصار للفرقة الناجية» المشتهرة باسم: (القصيدة النَّونيّة): لشيخِ الإسلامِ الثاني ابنِ قيّمِ الجوزيّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وتقعُ في (٥٨٤٢) بيتًا!

وهي أوفىٰ وأدقُّ وأبلغُ منظومةٍ في بيانِ أصولِ عقيدة السلف الصالح، والردِّ علىٰ مخالفيهم من أهل الأهواء والبدع[٢].

= المسلمين فيه خيرًا؛ فإنه لو عاش إلىٰ زمانِنا هذا لكانَ عالِمَ عصرِه بلا منازِعٍ، ووحيدَ دهرِه بلا مقارِعٍ.

فهْــوَ في الفقــهِ شــاعرٌ لا يُبــارَىٰ ... وهْــوَ في الشــعرِ أوْحَــدُ الفُقهــاءِ

لا إلــىٰ هــؤلاءِ إنْ نســبوهُ ... وَجــدُوهُ، ولا إلــىٰ هَــؤلاءِ!

وقد هيّأ اللهُ - بمنِّه - بعضَ أهل العلم فشرحوا بعضَ تلك الأنظامِ، وبقيَ منها بقيّةٌ، فينبغي لأهل العلم أنْ يبتدروا شرحَها؛ خِدمةً للعلمِ وطلّابِه.

(١) نشرتْه المؤسسةُ العربيةُ للطباعة في جدة ط٢ سنة (١٣٨٤هـ).

وقد قُمتُ بضبطها والتعليق عليها في كُرّاسةٍ لطيفةٍ، يسّرَ اللهُ طبعَها.

(٢) ولقد أضحتْ - بحمد الله - شوكةً في حُلُوقِ المبتدِعة؛ ولذا ألّف تقيُّ الدين السبكي في نقدها كتابَه: «**السيفُ الصَّقِيل في الردّ علىٰ ابن زَفِيل**»!! وألّف الكوثريُّ تعليقةً عليها سمّاها: «**تبديدُ الظلام المخيِّم علىٰ نونيّة ابن القيِّم**»!! كالَ لابن القيم فيها أنواعَ السَّبّ والشتم، بل =

فيا سَعْدَ مَنْ حَفِظَهَا كلَّها إن اسْطاعَ ذلك، أو حَفِظَ أكثرَهَا، أو كثيرًا منها[(١)].

فإن لم يتيسّرْ له ذلك، فليعْتنِ بشروحِها وتقريراتِ العلماءِ عليها[(٢)].

***

٢- المنظوماتُ في علم الفقه:

علمُ الفقه من أشرف العلوم وأعلاها قَدْرًا. والناسُ محتاجون إليه لتصحيحِ عباداتِهم ومعاملاتِهم أعظم من حاجتهم لبقيّة العلوم والفنون. ولذا قال الإمامُ ابنُ الجوزي: «مَن كان ذا هِمّةٍ، ونَصَحَ نفسَه، تشاغَل بالمهمِّ من كلِّ علمٍ، وجعَل جُلَّ شُغْلِه الفقهَ؛ فهو أعظمُ العلوم، وأهمُّها»[(٣)].

وقد سبقَ أنْ ذكرْنا أنّ الفقهَ يُحفظُ منه المسائلُ الأصولُ فحسْب؛ نظرًا

= وكفّره فيها ورماه بالزندقة!! ممّا يدلُّ علىٰ حَنَقِه الشديدِ علىٰ عقيدة أهل السنة والجماعة والمنتسبينَ لها! عامله اللهُ بما يستحقّ.

ورحم اللهُ الإمامَ أبا حاتم الرازيّ إذْ يقول: «**علامةُ أهل البدع الوقيعةُ في أَهل الأثر**»!

(١) ولي انتخابٌ عليها بمقدارِ الخُمُس.

(٢) مِن شروحها: «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد» للعلّامة/ أحمد بن إبراهيم بن عيسىٰ. وشرح الشيخ/ محمد خليل هرّاس. وشرح الشيخ/ ابن عثيمين. وكلُّها بفضل الله مطبوعةٌ.

(٣) صيد الخاطر (ص/ ٤٤٣).

- وقال القلقشنديُّ في رسالته «المفاخرة بين العلوم» علىٰ لسان الفقه: «أنا إمامُ العلوم الذي به يُقتدَىٰ، وعميدُها الذي عليه يُعتمدُ ونجمُها الذي به يُهتدَىٰ؛ فلولا إرشادي لضلّ سعيُ المكلَّفين، ولأمسَوْا في دَيْجاءَ مُدلهمّةٍ فأصبحوا عن ركائب الخير مخلَّفين.

وناهيكَ أنّ من جملة أفرادي، وآحاد أعدادي:- «علمُ الفرائض» الذي حضَّ الشارعُ علىٰ تعلّمه وتعليمه، وأخبر بأنّه نصفُ العلم منبّها علىٰ تعظيم شأنه وتفخيمه، وبالغ في إثبات قواعده وإحكام أُسِّه، فقال: «إنّ الله لم يكلْ قِسمةَ مواريثكم إلىٰ مَلَكٍ مقرَّبٍ ولا نبيٍّ مُرسَل بل تولّاها فقَسَمَها بنفسِه». صبح الأعشىٰ (١٤/ ٢٢١).

لكثرةِ جُزْئيّاتِه، وتَشَعُّبِ تفريعاتِه، وتسلسلِ نوازلِه ومستجدَّاتِه.

والواجبُ علىٰ طالبِ العلمِ أنْ يختارَ المتونَ الفقهيّةَ التي تُعْنَىٰ بالدليل والأثر؛ فإنّ هذا أنفعُ له وأسلمُ[1].

وإليكَ بعضُ المنظوماتِ في ذلك:

١- «**السُّبُلُ السَّويَّة لِفِقهِ السُّنَنِ المَرْويَّة**»: للشيخِ حافظِ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهي منظومةٌ نفيسةٌ جدًا، أُوصِي طلّابَ العلم بحفظِها والعنايةِ بها.

وقد بناها الناظمُ علىٰ القولِ الراجحِ الموافقِ للدليلِ؛ **ولذا قال في مطلعها:**

وَبَعْـــدُ فَالأَدِلَّـــةُ الشَّـــرْعِيَّهْ ... فِـيْ جُمْلَـةِ الفَـرَائِضِ الدِّيْنِيَّـهْ

يَنْبُوعُهَـا هُـوَ الكِتَـابُ المُقْتَفَـىٰ ... وَسُنَّةُ الهَادِي الرَّسُوْلِ المُصْطَفَىٰ

وَهَـــذِهِ أُرْجُـــوزَةٌ يَسِـــيْرَهْ ... جَامِعَـــةٌ لِجُمَـــلٍ كَثِيْـــرَهْ

جَعَلْتُهَـــا إِشَـــارَةً إِلَيْهَـــا ... تَـــدُلُّ كُـــلَّ رَاغِـــبٍ عَلَيْهَـــا

٢- «**منظومةُ بلوغِ المَرامِ مِن أدلّةِ الأحكام**»: للإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، وتلميذه الحسين بن عبد القادر الصنعاني رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

---

(١) قال محدِّثُ الديارِ الشاميّة في عصره العلّامةُ بدرُ الدين الحسني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحديثُ الصحيحُ أصلٌ للأحكام الشرعيّة، فيجبُ أنْ يُبنَىٰ المذهبُ عليه، لا أنْ يَنبَنِي الحديثُ الصحيحُ علىٰ المذهب». مقدّمة محقّق «زاد المعاد»: لابن القيّم (١/ ١١).

وسيأتي مزيدُ بيانٍ لهذا عندَ الكلامِ علىٰ الطريقة المثلىٰ لقراءة كتب الفقه، في نهاية الفصل الثالث: **أصولٌ في المطالعة المفيدة**.

وهي نظمٌ لمعاني كتابِ «بلوغِ الـمَرامِ مِن أدلّةِ الأحكام» للحافظ ابن حجر العسقلاني، أشهرِ كتابٍ من كتبِ أحاديثِ الأحكام.

وقد بدأَها الإمامُ محمدُ بنُ إسماعيل الأمير فنظمَ مِن أوّلِها إلىٰ أثناءِ باب العِدّة من كتابِ الطلاقِ (١٩٤٠) بيتًا، ثمّ ماتَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فتمّمها تلميذُه الحسينُ بنُ عبد القادر الصنعاني من حيثُ وقفَ إلىٰ آخر كتابِ البلوغِ بـ (٦٣٠) بيتًا، فصار مجموعُ أبياتها (٢٥٧٠) بيتًا.

وعليها حاشيةٌ نفيسةٌ للشيخ العلّامة: محمد بن سالم البيحاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣- «**المُوثَّق من عُمْدةِ الموفَّق**»: للعلَّامة محمد سالم بن عبد الودود (عَدُّود) الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وتقعُ في (٣٧٢٢) بيتًا.

وهي منظومةٌ جليلةٌ لكتابِ «عُمدةِ الفقهِ» لموفَّقِ الدينِ بنِ قدامةَ المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي تميَّزَ باقترانِ معظمِ مسائِلِهِ بأدلّتِها من الأحاديثِ النبويّةِ، ونقْلِ الحكم عليها.

كما أضافَ الناظمُ إليه فوائدَ كثيرةً من شرحه «العُدّة» لبهاءِ الدينِ المقدسي، وبعضَ ترجيحاتِ شيخِ الإسلامِ وتلميذِهِ ابنِ القيّم.

- ويلتحقُ بالفقه علمُ الفرائض (المواريث).

وهو بابٌ من أبواب الفقه، إلّا أنّ العلماءَ أفردوه بالتصنيف؛ لأهمّيّته.

ومِن أشهر المنظومات فيه:

١- «**القلائدُ البُرهانيّة**»: نسبةً إلىٰ ناظمها محمد بن حجازي بن محمد الحلبي، المعروف بابن البرهان.

وتقعُ في (١١٢) بيتًا.

وهي منظومةٌ سلسةٌ عذبةٌ، حَوَتْ معظمَ أبواب الفرائض رُغمَ وَجازتها.

ولها شرحٌ لابن سلُّوم النجدي مطوَّلٌ ومختصرٌ، وكذا لابن عثيمين. وكلُّها مطبوعةٌ.

٢- «**بغيةُ الباحث عن جُمَل الموارث**»: المعروفة بـ«الرحَبيّة»؛ نسبةً إلىٰ ناظمها محمد بن علي الرَّحَبي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وتقعُ في (١٧٦) بيتًا.

وهي من أنفع ما صُنِّف في هذا العلم للمبتدئ كما قاله العلّامةُ الشنشُوري.

وعليها شروحٌ وحواشٍ كثيرةٌ جدًّا.

إلّا أنّ المؤلفَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يذكر في منظومته ما يتعلّقُ ببابيْ الردِّ وميراثِ ذَوي الأرحام؛ تبعًا لمذهب الشافعي من عدم القول بالردِّ وعدمِ توريث ذَوي الأرحام؛ لذا قام الشيخُ عبدُ الله بنُ صالح الخُليفي (ت ١٣٨١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنظم ذلك في أحدَ عشرَ بيتًا، ذكرها وعلَّق عليها الشيخُ عبدُ الرحمن بنُ محمد بن قاسم في حاشيته علىٰ «الرحبية»[١].

وللمنظومة «الرحبيّة» تلخيصٌ جيّدٌ يقع في (٨١) بيتًا، للقاضي أحمد بن عبد اللطيف اليحيىٰ، وهو مطبوعٌ.

٣- «**عُمدةُ كلِّ فارِض**»: للشيخ صالح بن حسن الأزهري الحنبلي.

وهي من المطوَّلات في علم الفرائض؛ إذْ تقع في (١١٣٣) بيتًا.

---

(١) انظر الدليل إلىٰ المتون العلمية (ص/ ٤٧٠).

وعليها شرحٌ نفيسٌ مطوَّلٌ للشيخ إبراهيم بن عبد الله الحنبلي، سمّاه «العذب الفائض»، وهو مطبوعٌ.

***

٣- المنظوماتُ في الآدابِ الشرعيّة:

نالتْ الآدابُ الشرعيَّة عنايةً فائقةً من علماء الإسلام، فاستهدفوها بمؤلَّفاتٍ كثيرةٍ جليلةٍ، خاصةٍ: كآدابِ المُحتَسِبينَ، وآدابِ العلماءِ، وآدابِ طلّابِ العلمِ، وما يتعلَّقُ بأعمالِ القلوبِ... ونحوِ ذلك.

وعامّةٍ، وهي ما تتعلّقُ بآداب الإسلام عمومًا.

ومن أشهر المنظومات في ذلك:

١ - «منظومة الآداب الصغرىٰ»: لشمس الدين محمد بن عبد القوي المرداوي (ت ٦٩٩هـ).

وتقع في (٢٦٠) بيتًا.

وهي منظومةٌ داليّةٌ بديعةٌ، من بحر الطويل، ذكر فيها الناظمُ جُملةً وافرةً من الآداب الشرعيّة.

وقد انتزعَ الناظمُ معظمَ أبياتها من منظومته «الآداب الكبرىٰ»، وأضاف إليها بعضَ الأبيات.

وهي التي تولّىٰ شرحَها العلّامةُ السَّفَّاريني في كتابه «غذاء الألباب»، وهو مطبوعٌ في مجلّدين كبيرين.

٢- «منظومة الآداب الكبرىٰ»: للمَرْداوي أيضًا.

وتقع في (٩٨٤) بيتًا.

وهي كسابقتها داليّةٌ من بحر الطويل، وهي منظومةٌ جامعةٌ شاملةٌ للآداب الشرعيّة، وقد اعتنىٰ بها وضَبَطَها وأخرجها في حُلّةٍ قشيبةٍ الشيخُ محمدُ بنُ ناصر العَجمي وفّقه اللهُ.

٣- «عُدّةُ الطلَب بنظْمِ منهج التلقِّي والأدب»: للشيخ العلّامة: عبد الله بن محمد (سفيان) الحَكَمي.

وتقع في (١١٤٥) بيتًا! ولعلَّها أطولُ منظومةٍ في آداب طلب العلم.

وهي منظومةٌ متينةٌ فريدةٌ جامعةٌ، عَقَدَهَا الناظمُ في فضل العلم وآداب الطلب والتحصيل - كما هو ظاهرٌ من عُنوانها -.

وقد ذكر أنه اعتمد في جُلّ مادّتها علىٰ كتاب «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة الكناني، وزاد عليه من المصادر الأخرىٰ[(١)].

***

٤- المنظوماتُ في عُلومِ القُرآنِ وأُصولِ التفسيرِ:

أغلبُ المنظوماتِ في هذا اللّون من العلم تَجْنَح إلىٰ نظم مفردات غريب القرآن وشرحها ونحو ذلك؛ لذا تطول جدًّا حتىٰ تصل آلافَ الأبيات!

لكنْ هناك منظوماتٌ عُنيتْ بمباحث علوم القرآن وأصول التفسير المعروفة، لعلّ من أشهرها:

١- «منظومة التفسير»: لعبد العزيز بن علي المكيّ المعروف بالزمزمي[(٢)] (ت ٩٧٦هـ).

---

(١) صدرتْ طبعتُها الأولىٰ في حُلّةٍ فاخرةٍ تليقُ بها عام (١٤٣١هـ).

(٢) وسبب النسبة أن جدّه الأعلىٰ عليُّ بنُ محمدٍ اشتغل بِخدمةِ بئر زمزم، فقيل له: الزَّمزميُّ.

وقد عقد بها ما في «النُّقاية» للسيوطي مما يتعلَّقُ بالتفسير وعلومه، كما قال في مقدمتها:

أَفْرَدْتُهـا نَظْمًـا مِـن «النُّقَايَـهْ» مُهَـذَّبًا نِظَامَهـا في غَايَـهْ

وهي منظومةٌ ليست بالطويلة، لكنها شهيرةٌ في الفنّ. وعليها عِدّةُ شروحٍ وحواشٍ[1].

٢- «المنظومة الرجبيّة في مهمّات العلوم القرآنية»: للشيخ عبدالله رجب موسىٰ، وهو معاصرٌ من علماء الأزهر.

وعدد أبياتها (٣٣٠) بيتًا تقريبًا.

وهي منظومةٌ تحتوي علىٰ مهمّات علوم القرآن وأصول التفسير، كباب الوحي، والمكي والمدني، وأول ما نزل وآخر ما نزل، وأسباب النزول، وغير ذلك من علوم القرآن.

٣- «المفتاح للتفسير»: لعبدالله بن محمد فودي الصكتي النيجيري (ت ١٢٤٥هـ).

وهي ألفيّةٌ نظم فيها الناظمُ ما اشتمل عليه كتابُ «النُّقَايَة» وكتابُ «الإتقان» للسيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعليها شرحٌ للتُّرْمُسي.

***

(١) انظر بقية الكلام عليها في كتاب الدليل إلىٰ المتون العلمية: لعبد العزيز بن قاسم (ص/ ٨٩- ٩٠).

٥- المنظوماتُ في علم القِراءات:

علمُ القراءاتِ علمٌ جليلٌ، تميّزت به الأمّةُ الإسلاميةُ عن سائر الأمم.

لكنّ منظوماتِها تُعدُّ الأصعبَ علىٰ الإطلاق بين المنظومات؛ لكثرةِ رُموزِها، ودِقّةِ لُغُوزِها، لذا وَصَفَهُ مَنْ وَصَفَهُ من علماء الإسلام بأنه علمٌ كثيرُ التَّعَب، قليلُ الجَدْوىٰ[١].

---

(١) قال ابنُ فهْدٍ الحسينيّ عن الحافظ العراقي: «انهمَكَ في علم القراءات، حتىٰ نهاه عن ذلك قاضي القضاة عزّ الدين بن جماعة، فقال له: إنه علمٌ كثيرُ التعب، قليلُ الجَدْوىٰ، وأنت متوقِّدُ الذِّهن، فينبغي صرفُ الهمّة إلىٰ غيره. وأشار عليه بالاشتغال في علم الحديث، فأقبل حينئذٍ عليه، وطلب بنفسه». لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ (ص/ ١٤٤).
وانظر: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (٢/ ١٦٢)، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٤/ ١٧٢).
- وقال الشمسُ البُديري في «فِهْرِسْتِه» عن ابن الجزَري: «إنّ سببَ اشتغاله بالحديث بعد أن كان مُكِبًّا علىٰ علم القراءات، أنّ بعضَ أشياخه قال له ذاتَ يوم: إنّ علمَ القراءات كثيرُ التعب، قليلُ الجَدْوىٰ، وأنتَ ذهنُك رائقٌ، وفهمُك فائقٌ، ومَنْ كان هكذا فعليه بعلم الحديث، فاجتهدَ فيه حتىٰ حفظ مئةَ ألفِ حديثٍ بأسانيدها! وألّف في مصطلح الحديث أرجوزةً؛ خمس مئة بيتٍ، أغزرُ علمًا من ألفية الحافظ العراقي». فهرس الفهارس والأثبات: للكتاني (١/ ٣٠٤).
قلتُ: كلاهُما له وجهٌ؛ فإنّ طالبَها يدأبُ ويتعبُ في تحصيلها زمنًا طويلًا، حتىٰ إذا ما حَصَّلَها وأتْقَنَها - بعدَ لَأْيٍ وعَنَتٍ - كانت النتيجةُ جلوسَ الواحد بعدَ الواحد بين يديه مدةً مديدةً من الزمن؛ طلبًا للإجازة فيها؟! علىٰ حين أننا نرىٰ الفنونَ الأُخرىٰ تُحصَّل في زمنٍ أقلَّ، وبجُهدٍ أيسرَ، ثمّ ما إنْ ينتصبُ مُحصِّلُها للإفادة، حتىٰ يجتمع في حَلْقته مئاتُ الطلّابِ، وربّما الآلافُ!
كما أنّ عُظْمَ فائدتها يتعلّق بالألفاظ واختلاف النطق والأداء، أما المعاني والأحكامُ - وهي الأهمُّ - فهي قليلةُ التولُّجِ فيها، والله أعلم.

ومِن أشهر منظوماتها:

١ - «حِرْزُ الْأَمَانِي وَوَجْهُ التَّهانِي» المعروفة بالشاطبيّة: للإمام الشاطبي.

وعددُ أبياتها (١١٧٣) بيتًا، علىٰ رَوِيّ الّلام.

نَظَمَ الشاطبيُّ فيها القراءاتِ السبعَ المتواترةَ عن الأئمةِ: نافعٍ، وابنِ كثيرٍ، وأبي عمرو، وابنِ عامرٍ، وعاصم، وحمزةَ، والكسائيِّ.

والشاطبيّةُ من أوائل القصائد التي نُظمتْ في علم القراءات، إن لم تكن أوَّلَها علىٰ الإطلاق.

وهي قويّةُ السّبْك، مُحْكمةُ البناء، رَصينةُ العبارة. حتىٰ قال عنها ابنُ الجزري: «مَنْ وَقَفَ علىٰ قصيدتيْه (اللّاميّة والرّائيّة)، عَلِم مقدارَ ما آتاه اللهُ في ذلك. خصوصًا اللّاميّة التي عَجَزَ البلغاءُ مِن بعده عن معارضتها، فإنه لا يَعرِفُ مقدارَها إلّا مَنْ نظم علىٰ منوالها، أو قابل بينها وبين ما نُظم علىٰ طريقها.

ولقد رُزق هذا الكتابُ من الشهرة والقبول ما لا أعلمه لكتابٍ غيره في هذا الفنّ، بل أكاد أن أقولَ: ولا في غير هذا الفنّ؛ فإنني لا أحسِبُ أنّ بلدًا من بلاد الإسلام يخلو منه، بل لا أظنّ أن بيتَ طالب علمٍ يخلو مِن نسخةٍ به!»[١].

---

(١) غاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٢٢).

طَرِيفَة: ذَكر بعضُهم أنّ أحدَ أساتذة القراءات بكلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية، كان يُراجِع الشاطبيّةَ في المسجد النبوي، فمرَّ به أحدُ جُنودِ الأمنِ، فلمّا سمعه يُردِّدُ الأبياتَ؛ ظنّه ساحرًا يقوم بعمل سِحْرٍ للمسجد!! فقبض عليه وسلّمه للشُّرطة! ولم يُنقذْه إلّا تدخُّلُ إدارة الجامعةِ!

ولها شروحٌ كثيرةٌ نيّفت علىٰ الستين!

٢- «الـدُّرّةُ المُضِـيّة، في القـراءات الـثلاث المتمِّمـة للعَشْـر المرْضِـيّة»:

للإمام ابن الجزري.

وتقع في (٢٤١) بيتًا.

وهي كثيرةُ الرموز، شديدةُ التعقيد، وَعِرةُ المسلك![١].

---

(١) انظرْ مثلًا قولَه في باب: الإدْغام الصَّغِير:

وَأَظْهَــرَ إِذْ مَــعْ قَــدْ وَتَــاءِ مُؤَنَّــثٍ ... أَلاَ حُــزْ وَعِنْــدَ الثَّــاءِ لِلتَّــاءِ فُصِّــلَا

وَهَـلْ بَـلْ فَتًـىٰ هَـلْ مَـعْ تَـرَىٰ وَلِبَـا بِفَـا ... نَبَـذْتُ وَكَـاغْفِرْ لِـي يُـرِدْ صَـادَ حُـوِّلَا

أَخَـذْتُ طُلُ أُورِثْتُمْ حِمًىٰ فِدْ لَبِثْتُ عَنْـ ... ـهُمَا وَادَّغِمْ مَعْ عُذْتُ أُبْ ذَا اِعْكِسَنْ حَلَا!

وَيَاسِيْنَ نُـوْنَ ادْغِـمْ فِـدًا حُـطْ وَسِيْنَ مِيْـ ... ـمَ فُزْ يَلْهَثَ اَظْهِرْ أُدْ وَفِي ارْكَـبْ فَشَا أَلَا!

ولذا؛ فإنّ مِن لطيف ما يُستملحُ هنا أنّ ناظمَها لـمّا قال في آخرها:

وَتَـمَّ نِظَـامُ (الـدُّرَّةِ) احْسِـبْ بِعَـدِّهَا ... وَعَـامَ (أَضَـا حَجِّـي) فَأَحْسِـنْ تَفَـؤُّلَا

غَرِيْبَــةُ أَوْطَــانٍ بِنَجْــدٍ نَظَمْتُهَــا ... وَعُظْـمُ اشْـتِغَالِ الْبَـالِ وَافٍ وَكَيْـفَ لَا؟

صُـدِدْتُ عَـنِ الْبَيْـتِ الْحَـرَامِ وَزَوْرِي الْـ ... ـمَقَامَ الشَّـرِيْفَ الْمُصْـطَفَىٰ أَشْـرَفَ الْمَلَا

وَطَــوَّقَنِي الأَعْــرَابُ بِاللَّيْــلِ غَفْلَــةً ... فَمَــا تَرَكُــوا شَــيْئًا، وَكِــدْتُ لأُقْــتَلَا

فَــأَدْرَكَنِيْ اللُّطْــفُ الْخَفِــيُّ وَرَدَّنِــيْ ... عُنَيْــزَةَ حَتَّــىٰ جَــاءَنِي مَــنْ تَكَفَّــلَا

بِحَمْلِــيْ وَإِيْصَــالِيْ لِطَيْبَــةَ آمِنًــا ... فَيَــا رَبِّ بَلِّغْنِــي مُــرَادِيْ وَسَــهِّلَا

قال أحدُ أساتذة علم القراءات مازِحًا: ليتَ الأعرابَ قتلوه وأراحونا!!!

٣- «طَيِّبَة النَّشْرِ فِي الْقِرَاءَاتِ الْعَشْرِ»: للإمام ابن الجزريّ أيضًا.

وتقع في (١٠١٥) بيتًا، من بحر الرجز.

وهي في القراءات العشر الكبرىٰ، جمع فيها الإمامُ ابنُ الجزريّ ما اختَلف فيه القراءُ، وما ورد عنهم من أصحّ الطرق التي انتقاها. ولذا قال في أولها:

وَهـــذِهِ الــرُّوَاةُ عَـــنْهُمْ طُــرُقُ أَصَــــحُّهَا فِي نَشْــــرِنَا يُحَقَّـــقُ
بِـــاثْنَيْنِ فِي اثْنـــيَنِ وَإِلاَّ أَرْبَـــعُ فَهْـيَ زُهَـا أَلْـفِ طَرِيـقٍ تَجْمَـعُ!

وهي أسهلُ ألفاظًا وتراكيبَ من سابقتها.

٤- «الأرجوزةُ المنبّهةُ علىٰ أسماء القرّاء والرواة، وأصول القراءات، وعَقْد الديانات، بالتجويد والدّلالات»: لأبي عمرو الدّاني الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وهذه العُنواناتُ[1] الطويلةُ لأسماء الكتب هي عادةُ معظم الأندلسيّين والمغاربة! -.

---

(١) عُنواناتٌ: جمعٌ صحيحٌ لعُنوانٍ، خلافًا لمن زَعَمَ خَطَأَه من اللغويّين!
فقد نصّ الهرويُّ في إسفار الفصيح (٢/ ٧٠٠) علىٰ أن عنوان يُجمع علىٰ عُنوانات، وعناوين.
كما استعمله طائفةٌ من كبار الكُتّاب والأدباء؛ كالجاحظِ، وأبي الطيّب الوشّاء، وابنِ أبي الإصبع العدواني، وأبي جعفر النحاس، وابنِ السِّيد البطليوسي، والنويري، والقلقشندي، وغيرِهم.
كما صَرَّح بعضُ القدماء بجواز جمْعِ ما لا يَعْقِل جمعَ مؤنثٍ سالِمًا، سواءٌ سُمِع له جمعُ تكسيرٍ أو لا.
وقد لاحظ مجمعُ اللغة المصريُّ أنَّ القدماء قد جمعوا الثلاثيَّ المفردَ المذكّرَ غيرَ العاقل جمعَ مؤنثٍ سالِمًا، مثل: «خان وخانات»، و «ثار وثارات»، وأنَّ المتنبي جمع «بوقًا» علىٰ «بوقات».
كما اعتمد المجمعُ المصريُّ علىٰ ما ذكره سيبويه من مثل: «حمّامات، وسرادقات، وطرقات، =

وتقع في (١٣١١) بيتًا.

وهي منظومةٌ متينةٌ جامعةٌ، تعرّض فيها الناظمُ لمطالبَ مهمّةٍ لا تكاد توجد في غيرها من المنظومات المشابهة، مثل: القول فيمن يُؤخذ عنه، وحقّ العالم علىٰ المتعلّم، والقول فيمن لا يُؤخذ عنه العلمُ، والقول فيمن يُقتدىٰ به ومَن يُترك قولُه.

كما أنه تعرّض لجُملٍ كثيرةٍ ممّا يجبُ اعتقادُه - ربّما غفل عن محلِّها المتخصّصون في العقيدة - سمّاها (عُقُود السنّة)[١] تمتدُّ من البيت رقم (٥٢٩) إلىٰ البيت رقم (٦١١)[٢].

***

٦- المنظوماتُ في فنّ التَّجْوِيد:

فنُّ التَّجْوِيد من الفنون الحسنة التي تساعد علىٰ جمال الأداء، وجودة التلاوة، وتحسين النطق بألفاظ القرآن الكريم، وتَصُونُ اللسانَ عن اللَّحْن في كلام الله ﷻ. كما أنه يساعد علىٰ تَجْلية الفَرْق بين قراءة كتاب الله وقراءة غيره من الكلام[٣].

= وبيوتات»، وما ذكره غيره من مثل: «سجلّات، ومصلّيات، وجوابات، وسؤالات». فاتّجه إلىٰ قياسيّة هذا الجمع وقبوله فيما شاع، مثل: «طلب وطلبات»، و«سَنَد وسندات»، وبخاصة فيما لم يُسْمعْ له جمعُ تكسيرٍ. انظر: معجم الصواب اللغوي: لأحمد مختار عمر (١/ ٥٥١).

(١) العُقُودُ هنا: جمعُ عَقْدٍ، بمعنىٰ اعتقادٍ.

(٢) المنظومةُ حقّقها الأستاذُ: محمد مجقان الجزائري، وفّقه الله. وقد بذل جُهدًا عظيمًا في تحقيقها والتعليق عليها، لكنْ فاته الضبطُ السليمُ لبعض الأبياتِ، كما أنّه قد وقعتْ تصحيفاتٌ في بعض الكلمات، فلْيَتَنَبّهْ لذلك مَنْ رَامَ حِفظَها، ولْيعرِضْها علىٰ شيخٍ متقنٍ؛ لأجل التصحيح.

(٣) أما قولُ ابنِ الجزري في المقدّمة الجزَرِيّة: =

=

والأخـــــذُ بالتجويــــــدِ حَـــــتْمٌ لازِمُ   مَــــنْ لَــــمْ يجـــوِّدْ القُــــرَانَ آثـــمُ

وفي لفظٍ:

....   مَــــنْ لَــــمْ يُصَـــحِّحْ القُـــرَانَ آثـــمُ

فقد اختلف العلماءُ في تفسير مراده في هذا البيت علىٰ خمسةِ آراء:

١- فمنهم مَن حَمَلَه علىٰ ظاهره، وهو وجوبُ الأخذ بجميع أحكامه وقواعده، وتأثيم مَن لم يفعل ذلك!!

٢- وقيل: إنّ ذلك في حقّ مَنْ قَدِرَ علىٰ تصحيح كلام الله تعالىٰ باللفظ الصحيح، العربيّ الفصيح، وعَدَلَ إلىٰ غيره؛ استغناءً بنفسه، واستبدادًا برأيه، واستكبارًا عن الرجوع إلىٰ عالمٍ يُوقِفُه علىٰ صحيح لفظه؛ فإنه مقصِّرٌ بلا شكٍّ، وآثمٌ بلا ريبٍ، وغاشٌّ بلا مِريةٍ.

أمّا مَنْ كان لا يُطاوعه لسانُه، أو لا يجد من يهديه إلىٰ الصواب، فإن الله لا يكلِّف نفسًا إلّا وُسعها.

٣- ومنهم مَن رأىٰ أن المرادَ بالإيجاب هنا الإيجابُ الصناعيُّ، وليس الشرعيُّ. وذلك كقول النحاة: يجب رفعُ الفاعل ونصبُ المفعول به.

٤- ومنهم من ذهب إلىٰ أنه لا يجب الالتزامُ بأحكام التجويد التي فُصّلتْ في كتب التجويد، وإنما هي من باب تحسين القراءة، وبابُ التحسين غيرُ بابِ الإلزام.

قالوا: وقد ثبت من فعل النبي ﷺ ما يُخالف أحكامَ التجويد المتعارَفَ عليها اليوم، ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سُئل كيف كانت قراءةُ النبي ﷺ؟ فقال: كانتْ مَدًّا، ثم قرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» يَمُدُّ ببسم الله، ويَمُدُّ بالرحمن، ويَمُدُّ بالرحيم.

قالوا: والمدُّ هنا طبيعيٌّ لا يحتاج إلىٰ تعمُّده، والنصُّ عليه هنا يدلّ علىٰ أنه فوقَ الطبيعيّ.

٥- ومنهم مَنْ حَمَلَ كلامَه هنا علىٰ القِسْم الواجب منه؛ وهو الذي إذا لم يأخذْ به القارئُ؛ فَسَدَتْ قراءتُه. كالذي يحصلُ بتركه اختلاطُ الحروف في مخارجها وصفاتها، أو إزالةُ بعضِ الحركات عن محلّها، ونحوُ ذلك.

قالوا: فتَرْكُ هذا القسم مع القدرة عليه هو الذي يُوقِعُ في الإثم.

أمّا القسمُ المستحبُّ منه؛ وهو ما يَقتضي تحسينَ القرآن وحُسْنَ تقطيعه، كالوقف في مواضع الوقف علىٰ التمام، أو تحسين الصوت به حتىٰ يكون أرقَّ من صوته العادي، ومراعاة

=

لذا فينبغي مراعاةُ أحكامه دونَ تَكلُّفٍ ولا تَنطُّعٍ[١].

وقد نُظم في هذا الفنّ منظوماتٌ كثيرةٌ، مِن أشهرِها:

١- «**تحفة الأطفال والغلمان في تجويد القرآن**» لسليمان بن حسين بن محمد الجمزوري الشافعي المتوفي بعد سنة (١١٩٨هـ).

وتقع هذه المنظومة في (٦١) بيتًا.

وهي من أشهر المنظومات في الفن، وفيها الغَنَاء للمبتدئين.

وقد شرحها جماعةٌ من العلماء منهم: ناظمُها، وسمّىٰ شرحَه: «فتح الأقفال بشرح متن تحفة الأطفال». والشيخ علي بن محمد بن حسن الملقب بالضباع المصري، والشيخ أسامة عبد الوهاب وسمّاه: «بغية الكمال شرح تحفة الأطفال» وكلُّها بحمد الله مطبوعةٌ[٢].

=

حركات المُدود، فهذا القسمُ مستحبٌّ لا يأثمُ القارئُ بتركه.

ولعلّ هذا القولَ هو الأقربُ للصواب، والعلمُ عند الله.

انظر: شرح طيبة النشر: لابن الجزري (ص/ ٣٥)، وشرح طيبة النشر: للنويري (١/ ٢٤٩)، والفتاوىٰ الحديثية: لابن حجر الهيتمي (ص/ ١٧٤)، ومجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين (٢٦/ ٢٠٦)، والوجيز في حكم تجويد الكتاب العزيز: لمحمد بن سيدي الأمين (ص/ ٥٣) فما بعد.

(١) **قال ابنُ الجزري**: «ليس التجويدُ بتمْضِيغ اللسانِ، ولا بتقْعِير الفَمِ، ولا بتعْوِيج الفَكِّ، ولا بتَرْعِيد الصوتِ، ولا بتَمْطِيط الشدِّ، ولا بتَقْطِيع المدِّ، ولا بتَطْنِين الغُنَّات، ولا بحَصْرَمَة الراءاتِ؛ قراءةٌ تَنفِرُ عنها الطباع، وتمجُّها القلوبُ والأسماع!

بل القراءةُ السهْلَةُ العَذْبَةُ الحُلْوَةُ اللطيفةُ، التي لا مَضْغَ فيها ولا لَوْكَ، ولا تَعَسُّفَ ولا تَكلُّفَ، ولا تَصنُّعَ ولا تَنطُّعَ، ولا تَخرُجُ عن طِباع العرب وكلام الفصحاء بوجهٍ من وجوهِ القراءاتِ والأداءِ». النشر في القراءات العشر (١/ ٢١٣).

(٢) **وانظر** الدليل إلىٰ المتون العلمية: لعبد العزيز بن قاسم (ص/ ١٣٩ - ١٤٠).

٢- «عمدةُ المفيد، وعُدَّةُ الْمُجيد، في معرفة التّجويد»: وتُسمّىٰ «نونيّة السخاوي»، لعلَم الدين السّخاويِّ (ت٦٤٣هـ)، تلميذِ أبي القاسمِ الشّاطبيِّ المقرئ، وليس السخاوي المحدِّث.

وتقع في (٦٤) بيتًا.

وقد نظمها السخاويُّ ليُعارضَ بها قصيدةَ أبي مزاحمٍ الخاقانيّ الشهيرةَ في الفنّ نفسِه، ولذا قال في آخرها:

أَبْرَزْتُهَا حَسْنَاءَ، نَظْمُ عُقُودِهَا دُرٌّ، وَفُصِّلَ دُرُّهَا بِجُمَانِ
فَانظُرْ إِلَيْهَا وَامِقًا مُتَدَبِّرًا فِيهَا؛ فَقَدْ فَاقَتْ بِحُسْنِ مَعَانِيْ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ جَائِرٌ فِي ظُلْمِهَا إِنْ قِسْتَهَا بِقَصِيدَةِ الْخَاقَانِيْ!

٣- «المقدِّمة، فيما يجب علىٰ قارئ القرآن أن يَعلَمَه» المعروفة بالمقدِّمة الجزرية: للإمام ابن الجزري.

نظمها علىٰ بحر الرجز، وهي الأشهرُ في الفنّ.

وعددُ أبياتها مُختلِفٌ بحسب طبعاتها، لكنّ أقلَّه (١٠٧)، وأكثرَه (١١٩) بيتًا.

ويؤيّد الأولَ قولُ الناظم في آخرها:

أبياتُها قافٌ وزايٌ في العَدَدْ مَنْ يُحْسِنِ التجويدَ يَظْفَرْ بالرَّشَدْ

لأنّ حرفَ الزاي في حِسَاب الجُمَّل[1]: بـ ٧، والقاف بـ ١٠٠.

---

(١) حِسَابُ الجُمَّلُ: هو مَا قُطِعَ علىٰ حُرُوف أبي جاد. وهي: (أبجد، هوّز، حطي، كلمُن، =

٤- «السلسبيل الشافي في علم التجويد»: لعثمان بن سليمان مراد علي أغا (ت١٣٨٢هـ)، وهو من الأتراك، لكنه عاش في مصر، وكان يُدرّس القرآنَ في الجامع الأزهر.

ويبلغ عددُ أبيات المنظومة (٢٦٥) بيتًا، وهي شاملةٌ جامعةٌ، لكنْ لا يخلو بعضُ أبياتها من رَكَاكَةٍ.

❋❋❋

٧- المنظوماتُ في علم مُصطلَح الحديث:

١- «طُرْفةُ الطُّرَف، في مُصطلح مَنْ سَلَف»: لمحمد العربي الفاسي (ت١٠٥٢هـ). وتقع في (٥٢) بيتًا.

وهي نظمٌ لمعظم المصطلحات الحديثية المهمّة، وقد أشار إلىٰ ذلك ناظمُها بقولِه في أولِها:

= سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ).

وله طريقان: صغيرٌ وكبيرٌ. فالمعروفُ والمتداوَلُ يقال له: الصغيرُ، أمّا الكبيرُ فيحسِبونه بالبيّنات.

والصغيرُ: هو أنْ يُوضَعَ أمامَ كلّ حرفٍ من حُرُوف أبي جاد رقمٌ، علىٰ ترتيبها هذا، فيُوضَعُ أمام الألِفِ واحدٌ، والباءِ اثنان، والجيمِ ثلاثةٌ.. وهكذا إلىٰ الياء وهي عشرةٌ، ثم الكاف: عشرون، واللام: ثلاثون، والميم: أربعون، ثم كذلك إلىٰ القاف، وهي مئةٌ، ثم الراء: مئتان، والشين: ثلاث مئة، والتاء: أربع مئة، ثم كذلك إلىٰ الغين، وهي أَلْفٌ، وبها الخِتَامُ.

انظر: تهذيب اللغة: للأزهري (١١/ ٧٥)، ومفاتيح العلوم: للخوارزمي (ص/ ٢١٩)، وشمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: للحميري (٢/ ١١٥٩)، وكشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: للتهانوي (١/ ٥٨٢).

وقـد أشـارَ بعـضُ أَعيـانِ الـوَرَىٰ ... بِـنَظمِ ألقـابِ الحـدِيثِ دُرَرَا

فَمـا أَلَـوتُ في ابتِـدارِ مَـا قَصَـدْ ... جُهـدَ مُقِـلٍّ جَـادَ بالـذي وَجَـدْ

مُقتَصِـرًا فيـه علـىٰ الألقـابِ ... واللهَ أسـتَهدِي إلـىٰ الصـوابِ

وقولِه في آخرِها:

وقـدْ تَنَاهَـتْ طُرْفَـةٌ مِـنَ الطُّـرَفْ ... آخِـذَةٌ مِـنَ الـمُهِمّ بِطَـرَفْ

وهي أحسنُ شيءٍ للمبتدئين(١).

وللمنظومةِ شروحٌ عِدّةٌ قديمةٌ ومعاصرةٌ. ولي شرحٌ عليها يسّر اللهُ إتمامَه وطبعَه.

٢- «قَصَبُ السُّكَّر، نظمُ نُخبَةِ الفِكَر»: لمحمد بن إسماعيل الصنعاني (ت١١٨٢هـ)، وعددُ أبياتها (٢٠٣) بيتًا.

وهي نظمٌ سَلِسٌ حسنٌ لـ «نخبةِ الفِكَرِ» للحافظ ابنِ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتنِ المعتمدِ عند المتأخّرين، وهذه المنظومةُ أُوصِي بها المتوسّطين في الفنّ.

والعجيبُ أنّ الصنعاني نَظَمها في يومٍ واحدٍ!! فقد قال في مطلعها:

وبَعـدُ: فَالنُّخْبَـةُ في عِلْـمِ الأثَـرْ ... مُخْتصـرٌ يَـا حَبَّـذَا مِـن مخْتصَـرْ

ألّفهـا الحـافِظُ في حَـالِ السّـفرْ ... وهْـوَ الشّـهابُ بْـنُ عليٍّ بْـنِ حَجـرْ

طالعَتُهـا يومًـا مِـنَ الأيَّـامِ ... فاشْـتقتُ أنْ أُودِعَهـا نِظَـامِي

(١) كما أنها خيرٌ لهم من (البيقونيّة) التي لا تُسْمِنُ ولا تُغْني، معَ ما عليها من ملاحظاتٍ!

فــتمَّ مـــن بُكـــرةِ ذاكَ اليـــومِ — إلــىٰ المسَــا عِنْـد وُفــودِ النــومِ!
مُشْـــتمِلًا عَلَــىٰ الَّــذِي حَــواهُ — فَالْحَمْــدُ للرَّحْمــان لاَ سِـــوَاهُ

٣- «اللؤلـؤُ المكنـونُ، في أحـوال الأسـانيد والمتـون»: للشـيخ العلّامـة حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وتقع في (٣٤٠) بيتًا.

وهي منظومةٌ متينةٌ، فائقةٌ، نَظَمَ فيها الشيخُ حافظٌ أهمَّ ما يحتاجُه طالبُ العلم من علم مصطلح الحديث.

ومن مزايا المنظومة أنه استهلّها بذكر أنواع علوم الحديث علىٰ سبيل الإجمال، ثم فصّلها بعد ذلك في محالّها. فقال في مطلعها:

وَهَــاك تَلْخِيــصَ أُصُــولٍ نَافِعَــهْ — لِحَــلِّ مَــا قَــدْ أَصَّــلُوهُ جَامِعَــهْ
وَلْــتُحْفَظ الأنْــوَاعُ مِنْــهُ مُجْمَلَــهْ — مِــنْ قَبْــلِ أَنْ نَخُوضَــها مُفَصَّــلَهْ

وبعْدَما سَرَدَهَا قال:

.... فَهَــذِهِ أَلْقَــابُ مَــا — يُشْــهَرُ مِنْــهُ، وَالْجَمِيــعُ قُسِّــمَا
وَسَــأُعِيدُ الْكُــلَّ فِــي مَوَاضِــعِهْ — فِــي النَّظْمِ إجْمَـالًا وَتَفْصِـيلًا فَعِـهْ
مُبَيِّنًــــا أَنْوَاعَــــهُ مُعْتَبِــــرَا — جِهَــاتِ تَقْسِــيمَاتِهِ مُحَــــرِّرَا
فَــلا يُمِلَّنَّــكَ مَــا تَكَــرَّرَا — لَعَلَّــهُ يَحْلُــو إذَا تَقَــرَّرَا!

ولها شرحٌ جيّدٌ للدكتور/ حافظ بن محمد الحكمي سمّاه: «المسلك الواضح المأمون»، وهو مطبوعٌ.

وهي كسابقتها فيها الغُنيةُ والكفايةُ للمتوسّطين.

٤- «**التبصرةُ والتذكرةُ**»: للحافظ العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٨٠٦ هـ)، وهي ألفيّتُه المشهورة في المصطلح، التي لخّص فيها مقدّمةَ ابنِ الصلاح «**معرفةَ أنواع علوم الحديث**» - الكتابَ العمدةَ في الفنّ - وزاد عليها. **قال في مطلعها:**

نَظَمْتُهَا تَبْصِرَةً لِلْمُبْتَدِيْ تَذْكِرَةً لِلْمُنْتَهِي والْمُسْنِدِ
لَخَّصْتُ فيهَا ابْنَ الصَّلاحِ أَجْمَعَهْ وَزِدْتُهَا عِلْمًا تَرَاهُ مَوْضِعَهْ

فالذي يَحفظُ «التبصرة والتذكرة» كأنه قد حَفِظ (مقدِّمة ابن الصَّلاح) منظومةً؛ لأنَّ الحافظَ العراقيَّ حوىٰ أصولَ (مقدِّمة ابن الصَّلاح) في ألفيّته وزاد عليها.

وألفيَّةُ العراقيّ هي الأشهرُ في الفنّ، وهي التي يدور عليها أكثرُ الشروح، لا سيما ذلك الشرحَ الموسوعيَّ الذي لم يُصنَّفْ في الفنِّ مثلُه: «**فتحُ المُغيثِ**» للسَّخاوي.

٥- «**نظمُ الدُّرَر في علم الأثر**»: للحافظ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ).

وهي ألفيّةٌ رائعةٌ، جامعةٌ، سَلِسَةٌ، كثيرةُ المزايا، جَمّةُ المحاسن.

وهي أشْمَلُ من ألفيَّة العراقي؛ ففي دراسةٍ لبعض الباحثين، خَلَصَ فيها إلىٰ أنَّ الإضافات العِلميَّة لألفيَّة السُيوطي علىٰ ألفيَّة العراقي تبلغ (٢٧٠) إضافةً! وأمّا الكلمات وأشطار الأبيات والأبيات الزائدة فتبلغ (٤٨٠) إضافةً!

ولذا قال السيوطي في أولها:

وهذهِ أَلْفيَّةٌ تَحكِي الدُّرَرْ منظومةٌ ضَمَّنْتُها عِلْمَ الأَثَرْ

فائِقَــــــةٌ أَلْفيَّـــــةَ العِرَاقِــــــي فِــي الجَمْـعِ والإِيجـازِ وَاتِّسَـاقِ

واللهُ يُجْــرِيْ ســابِغَ الإِحْســانِ لِــيْ وَلَــهُ ولِــذَوِيْ الإِيْمَــانِ

فهي بلا شكّ أشملُ من ألفيّة العراقي وأجمعُ؛ وهذه هي العادةُ المطّردةُ في كلّ العلوم والفنون غالبًا؛ وهي أنّ المتأخّرَ يستفيدُ من المتقدّم، ويستدركُ ويزيدُ عليه، وإلّا فما الفائدة من نظمه إذا لم يُضفْ جديدًا؟!

لكنْ تبقىٰ ألفيَّةُ العراقيّ - برُغم ذلك - هي الأشهرُ في الفنّ.

وخلاصةُ القول: فإنني أنصحُ مَنْ لم يكن مُتخصِّصًا في الفنّ ورغب في حفظ ألفيّةٍ في مصطلح الحديث؛ أن يحفظ ألفيّةَ السيوطي. أمّا المتخصِّصُ فإنني أرىٰ أن يحفظ ألفيّةَ العراقي، ويضمّ إليها حِفْظَ الزياداتِ التي في ألفيّة السيوطي[1]، لاسيّما ما زاده من الأبواب والفصول، والله الموفّق[2].

***

(١) تمَّ تمييزُ هذه الزيادات بوضْعها داخلَ قوسيْن هلاليّيْن في طبعات ألفيّة السيوطي.

(٢) لطيفة: من العجائب أنّ السيوطيَّ نظم ألفيتَه هذه في خمسة أيامٍ فقط! فقد قال في خاتمتها:

نَظَمْتُهَــا فِــي خَمْسَــةِ الأَيَّــامِ! بِقُــدْرَةِ الْمُهَـيْمِنِ الْعَــلاَّمِ

خَتَمْتُهَــا يَــوْمَ الْخَمِيسِ الْعَاشِـرِ يَــا صَـاحِ مِـنْ شَـهْرِ رَبِيعِ الآخِـرِ

مِـنْ عَـامِ إِحْـدَىٰ وَثَمَـانِينَ الَّتِـي بَعْــدَ ثَمَــانِ مِئَــةٍ لِلْهِجْـرَةِ

نَظْـمٌ بَـدِيعُ الْوَصْـفِ سَـهْلٌ حُلْـوُ لَــيْسَ بِــهِ تَعَقُّــدٌ أَوْ حَشْــوُ

فَــاعْنَ بِهَــا بِــالْحِفْظِ وَالتَّفْهِيمِ وَخُصَّـهَا بِالْفَضْـلِ وَالتَّقْـدِيمِ

٨- المنظوماتُ في السِّيرةِ النبويّةِ والتاريخِ:

اهتمَّ العلماءُ غايةَ الاهتمامِ بالسيرةِ النبويّةِ والمغازي[(١)]، وتفنَّنَوا في نظمها

---

(١) ومِمّا جاء عنهم في ذلك:

- كان محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «يا بَنيَّ، سَلوني عن مشاهد النبي ﷺ ومواطنه، فإني لم أتخلّفْ عنه في غزوةٍ قَطُّ، إلّا واحدةً في تبوك، خلَّفني علىٰ المدينة. وسلوني عن سراياه، فإنه ليس منها سَريةٌ تخفىٰ عليّ، إما أنْ أكون فيها، أو أنْ أعلَمها حين خَرَجَتْ».

- وقال الإمامُ الزهريُّ: «في علم المغازي علمُ الآخرة والدنيا».

- وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقّاص، قال: «كان أبي يعلِّمنا مغازيَ رسول الله ﷺ ويَعَدُّها علينا، وسراياهُ، ويقول: يا بَنِيَّ، هذه مآثرُ آبائكم، فلا تَضَيّعوا ذِكْرَها».

- وقال عليُّ بنُ الحسين زينُ العابدين: «كُنّا نُعَلَّمُ مغازي النبي ﷺ وسراياه، كما نُعَلَّمُ السورةَ من القرآن».

- وأمر عمرُ بنُ عبد العزيز في خلافته عاصمَ بنَ عمر بن قتادة بن النعمان الأنصاري (ت١٢٠هـ) أن يجلسَ في مسجد دمشق، فيحدِّثَ الناسَ بمغازي رسول الله ﷺ ومناقب أصحابه. وقال: «إنّ بني مروان كانوا يكرهون هذا وينهون عنه، فاجلسْ فحدِّثْ الناسَ بذلك»، ففعلَ.

- وقال الشافعيُّ: «مضىٰ أبو يوسف القاضي ليسمعَ المغازيَ من ابن إسحاق أو من غيره، فأخلَّ بمجلس أبي حنيفة أيامًا، فلما أتاه، قال له أبو حنيفة: يا أبا يوسف، مَن كان صاحبَ راية جالوت؟ قال له أبو يوسف: إنك إمامٌ، وإن لّم تُمسِكْ عن هذا سألتُك والله علىٰ رءوس الملأ أيُّما كانت أولًا بدرٌ أم أُحدٌ؟ فإني أعلم أنك لا تدري أيُّهما كان قبلُ! فأمسك عنه».

- وقال ابنُ كثير: «هذا الفنُّ مما ينبغي الاعتناءُ به والاعتبارُ بأمره والتهيّؤُ له».

انظر ما تقدم في: الطبقات الكبير: لابن سعد (٧/ ٤١٥)، والجامع لأخلاق الراوي: للخطيب (٢/ ١٩٥)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٥٥/ ٢٧٠)، والبداية والنهاية: لابن كثير (٥/ ٢١)، والمحاضرات والمحاورات: للسيوطي (ص/ ٣٠٦)، وسبل الهدىٰ والرشاد: للصالحي (٤/ ١٠)، وإنسان العيون: للحلبي (١/ ٥)، وشرح الزرقاني علىٰ المواهب اللدنية (٢/ ٢٢٩).

وسببُ ذلك ما قاله الخطيبُ البغدادي: «تتعلّق بمغازي رسول الله ﷺ أحكامٌ كثيرةٌ، فيجب كَتْبُها والحِفظُ لها». الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٩٥).

ما بين مُطوِّلٍ ومُوجِزٍ، كما أنّ بعضَهم قد رتّبَ منظومتَه على حسبِ السنين، وبعضُهم رتَّبها على الأبوابِ والحوادثِ، وبعضُهم زاوَجَ بينهما.

وقد تقدَّم الكلامُ عن السيرةِ النبويّةِ وأقسامِها، فلا نُكَرِّرُ.

بيْدَ أني أُشير هنا إلى أنّ أهمَّ ما ينبغي الاعتناءُ به من التاريخ ثلاثةُ أشياء، وهي مطلوبةٌ شرعًا:

١ - تاريخُ الأنبياء.

لقوله تعالى بعد أنْ ذكر طائفةً من الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

فأمر نبيَّه ﷺ بالاقتداء بهديهم، فغيرُه من باب أولى.

٢ - سيرةُ نبيِّنا محمدٍ ﷺ.

٣- تاريخُ الخلفاء الراشدين.

لقوله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» أخرجه أحمدُ وغيرُه(١).

وإليكَ أهمَّ المنظوماتِ في السيرةِ والمغازي والتأريخِ:

١ - «**بواعِثُ الفِكْرةْ في حوادث الهِجْرةْ**»: للحافظ المؤرّخ الأديب محمد بن عبد الله القيسي، الشهير بابن ناصر الدين الدمشقي.

---

(١) مسند أحمد (٢٨/ ٣٧٥) ح (١٧١٤٥).

وهي منظومةٌ وَجيزةٌ لكنها شاملةٌ، جعلَها ناظمُها علىٰ بحر الطويل وقافية الميم، ورتّبها علىٰ السنين، ولي شرحٌ عليها يسَّر اللهُ طبعَه.

ومنها قولُه في أوّلها:

سِنُو هِجْرةِ المختارِ فيها حَوادِثٌ	فَخُذْ نثرَها مِن كلِّ عامٍ وأَحْكِمِ
مُصَلَّىٰ قُبَا في أوَّلٍ، ثمّ مسجدًا	بنىٰ، وبيوتًا، والصّلاةَ فأتْمِمِ
وحِلْفٌ، أذانٌ، جُمْعةٌ، ماتَ أسْعَدٌ	بَراءٌ، وعبدُ اللهِ أسْلَمَ فاسْلَمِ

٢- «الأُرجوزةُ المِيئِيَّة، في ذِكْر حالِ أشْرفِ البرِيَّة»: للقاضي علي بن علي بن أبي العِزّ الحنفي.

وتقعُ في (١٠٠) بيتٍ كما هو ظاهرٌ من اسمِها.

وهي منظومةٌ حُلْوةٌ لطيفةٌ، رتَّبها ناظمُها علىٰ الحوادث والسنين.

٣- «القصيدة اللّاميّة في تاريخ خلفاء الدولة الإسلاميّة»: لابن أبي العِزّ أيضًا.

وتقع في (١٣٤) بيتٍ.

وقد بدأ الناظمُ بالخلفاء الراشدين وانتهىٰ إلىٰ سنة (٧٦٠ هـ).

وهي منظومةٌ عجيبةٌ علىٰ رويّ اللام، استعمل في ذِكر تواريخها حساب الجُمَّل[١]. وله شرحٌ متوسِّطٌ عليها، وهو مطبوعٌ.

٤- «إِنَارَةُ الدُّجَىٰ في مَغازِي خَيْرِ الْوَرَىٰ»: للعَلاَّمَةِ أحمد بن محمد البَدَوِيّ الشِّنقِيطِيّ.

---

(١) تقدّم التعريفُ به.

وهي منظومةٌ متوسِّطةُ الطول، ذكر فيها الناظمُ مغازيَ النبيّ ﷺ. وعليها شرحٌ للشيخ القاضي حسن بن محمّد المشّاط رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

٥- «ذَاتُ الشِّفَا في سِيرةِ النبيِّ ثمّ الخُلَفَا»: للحافظ محمد بن محمد بن الجَزَرِي.

وعددُ أبياتِها (٥١٥) بيتًا.

وهي منظومةٌ سَهْلَةٌ سَلِسَةٌ رائقةٌ، رتّبها ناظمُها علىٰ السنينِ والأبوابِ.

وهي كما هو واضِحٌ من اسمها في سيرة النبيِّ ﷺ والخلفاء الأربعة الراشدين مع الحسنِ بنِ عليٍ رضوانُ الله عليهم. إلا أنه ذَيَّلها بذكر شيءٍ من تاريخِ الدولةِ العثمانيّة التي عاصَرَهَا.

والعجيبُ أنّ الناظمَ نظمها في يومٍ واحدٍ!! فقد قال في مطلعها:

نظمتُهـــا في غايـــةِ اختِصـــارِ مُـــرْتَجِلًا، لعـــلَّ في نهـــارِ!

٦- «الدُّرَرُ السَّنيَّة في نظم السِّيرة الزَّكيَّة»: للحافظِ زَيْنِ الدينِ العِراقي.

وتقع في (١٠٣٢) بيتًا.

رتّبها ناظمُها علىٰ الأبواب. وهي أشهرُ منظوماتِ السيرة علىٰ الإطلاق، حيثُ انتشرَتْ في الآفاق، واحتفلَ بها الأئمّةُ الحُذّاق. يَظهرُ ذلك من كثرةِ شروحهم لها، واهتمامهم بها.

وقد بذل فيها ناظمُها جُهدًا كبيرًا، يتبيّنُ ذلك في وَفرةِ مصادرِه، ودِقّةِ تواريخه للغزوات والأحداث.

---

(١) طبع في القاهرة، دار المدني، عام ١٣٨٤هـ.

وهي منظومةٌ رائعةٌ، وإن لّم يَخْلُ بعضُ أبياتِها من مُؤاخذتٍ وضَروراتٍ في اللغة والعَرُوض!

وقد أملاها ناظمُها في المدينة النبويّة، في الروضة النبويّة الشريفة، علىٰ طائفةٍ من المحدِّثين، إبّان تقلُّده القضاء والإمامة والخطابة بها سنة (٧٨٨ هـ) حيثُ جاورَ بالمدينة ثلاثَ سنين.

٧- «**أشِعّةُ الأنوار علىٰ مرويَّاتِ الأخبار**»: للعلّامةِ المُصْلِح: محمد بن سالم البيحاني (ت ١٣٩١ هـ).

وتقع في (٤٢٦٦) بيتًا!

وقد مكثَ الناظمُ في نظمها سبعَ سنوات إلا شهرين؛ لعدم تفرُّغه لها، ولكونِه كفيفَ البصر ولا تتأتّىٰ له الكتابةُ إلا بعد حضورِ الكاتبِ، كما صرَّح بذلك في شرحه لها [١].

وقد ابتدأها عامَ (١٣٧٥ هـ) وفرغ منها عامَ (١٣٨٢ هـ).

وهي منظومةٌ جليلةُ القدْر، حسنةُ الترتيب، سهلةُ التراكيب. نظم فيها البيحانيُّ السيرةَ النبويّةَ العَطِرةَ والتاريخَ الإسلاميَّ إلىٰ عصره! مع اهتمامه بتاريخ اليمنِ بلدِهِ.

كما حشَّاها بشرحٍ نفيسٍ للغاية، طُبع معها.

***

---

(١) (ص/ ٤٩٥).

٩- المنظوماتُ في أصولِ الفقهِ:

علمُ أصول الفقه علمٌ ضروريٌ لطالب العلم الشرعيّ عمومًا، وللمتفقّه خصوصًا. قال ابنُ بَدران: «اعلم أنه لا يمكن للطالب أن يصيرَ متفقّهًا ما لم تكن له درايةٌ بالأصول، ولو قرأ الفقهَ سنينًا وأعوامًا، ومن ادّعىٰ غيرَ ذلك كان كلامُه إمّا جَهلًا وإما مُكابرةً»[1].

ومِن أشهر المنظومات في هذا الفنّ:

١- «تسهيلُ الطُّرقات، في نظم الوَرَقَات»: لشرف الدين العِمْرِيطِي.

وتقع في (٢١١) بيتًا.

وهي منظومةٌ سَهلةٌ، عَذبةٌ - كما هي عادةُ العِمْرِيطِي في سائر منظوماته -، وهي أنسبُ شيءٍ للمبتدئين.

وقد نَظَم فيها العِمْرِيطِي متنًا من أشهر المتون عند الأصوليّن، ألا وهو متنُ (الورَقات) للإمام الجُويني، الأصلُ المُعتَمَدُ عند المُتقدِّمين، كما أنَّ (جَمْع الجَوامِع) للسُّبْكي هو الأصلُ المُعتَمَدُ عند المتأخِّرين.

٢- «وسِيلَة الحُصول، إلىٰ مهمّات الأصول»: للشيخ حافظ الحكمي.

وتقع في (٦٤٠) بيتًا.

وهي منظومةٌ فائقةٌ رائعةٌ بديعةٌ، زاد من بهائها أنها علىٰ المنهج السلفيّ، وليست علىٰ منهج المتكلّمين كما هو حالُ غالب المنظومات في أصول الفقه!

---

(١) المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص/ ٢٦٧).

وقد شرحها شرْحًا حسنًا الشيخُ زيدُ بنُ محمد المدخلي في «الجهد المبذول في تنوير العقول»، وهو مطبوعٌ.

٣- «مُرْتَقَىٰ الْوُصُوْل إِلَىٰ عِلْمِ الأُصُوْل»: للإمام محمد بن عَاصم الغِرْنَاطِي.

وتقع في (٨٤٨) بيتًا.

وهي منظومةٌ سَلِسَةٌ، سَهْلَةٌ، جامعةٌ. قرَّب فيها ناظمُها أصولَ الفقه، ويسّره لطالبيه. وقد أشار إلىٰ ذلك الناظمُ فقال في مطلعها:

لِـذَا اسْـتَعَنْتُ اللهَ في تَيْسِيْرِ ... عِلْمِ أُصُوْلِ الْفِقْهِ بِالتَّقْرِيْرِ

في هَذِهِ الأُرْجُوْزَةِ الْمَشْطُوْرَهْ ... فَهْيَ عَلَىٰ تَأْصِيْلِهِ مَقْصُوْرَهْ

حَاشَيْتُهَا مِنْ لُغَةٍ وَمَنْطِقِ ... حِرْصًا عَلَىٰ إِيْضَاحِ أَهْدَىٰ الطُّرُقِ

إِلاَّ يَسِيْرًا مِنْ مُقَدِّمَاتِ ... تُفِيْدُ في مَسَائِلٍ سَتَاتِي

٤- «الكوكَبُ السَّاطِعُ، نظمُ جمْع الجوامع»: لجلال الدين السيوطي.

وتقع المنظومةُ في (١٤٨١) بيتًا.

وهي نظمٌ بديعٌ مُحْكَمٌ لكتاب (جمع الجوامع) للسُّبكي الذي لخَّصه مؤلِّفه من مئة مُصنَّفٍ في الأصول!

قال ناظمُها:

وهذه أُرْجُوْزَةٌ مُحَرَّرَهْ ... أَبْيَاتُهَا مِثْلُ النُّجُومِ مُزْهِرَهْ

ضَمَّنْتُهُ (جَمْعَ الْجَوَامِعِ) الَّذِي ... حَوَىٰ أُصُولَ الْفِقْهِ والدِّيْنَ الشَّذِي

إِذْ لَمْ أَجِدْ قَبْلِيَ مَنْ أَبْدَاهُ نَظْمًا، وَلاَ بِعِقْدِهِ حَلَّاهُ
وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ قَدْ أُلِّفَا كَمِثْلِهِ، وَلاَ الَّذِي بَعْدُ اقْتَفَىٰ

وهيَ أشملُ وأسْلَسُ وأمتنُ من ألفيّة «مَرَاقي السُّعود»[١].

❊❊❊

---

(١) انظر مثلًا قولَه في معاني صيغة افعل:

فِي صِيْغَةِ افْعَلْ: لِلْوُجُوْبِ تَرِدُ والنَّدْبِ، والْمُبَاحِ، أَوْ تَهَدُّدُ
والإذْنِ، والتَّأْدِيْبِ، إنْذَارٍ، وَمَنْ إرْشَادٍ، إنْعَامٍ، وتَفْوِيْضٍ، تَمَنْ
والْخَبَرِ، التَّسْوِيَةِ، التَّعْجِيْبِ وَلِلْدُّعَا، التَّعْجِيْزِ، والتَّكْذِيْبِ
ولاحْتِقَارٍ، واعْتِبَارٍ، مَشْوَرَهْ إهَانَةٍ، والضِّدِّ تَكْوِيْنٍ تَرَهْ
إرَادَةِ امْتِثَالٍ، التَسْخِيْرِ وَهْيَ حَقِيْقَةٌ لَدَىْ الْجُمْهُورِ

فقد جمع في أبياته القليلة هذه ستةً وعشرين معنىً لـ (افعلْ)! مع السَّلاسِة والعُذُوبة والإحكام.
- أمّا «مَرَاقي السُّعود» - المشتهرةُ عند متأخّري المغاربة ولاسيّما علماء القُطْر الموريتاني - فإنني لا أُوصي بحفظها؛ لركاكتِها، واستغلاقِها، وضعفِ تراكيبها.
وما كان لها أنْ تَشتهِرَ وتَنتشِرَ في قُطْرِنَا لولا كثرةُ استشهاد العلّامة/ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بها في مصنَّفاته ودروسه، وإلا فـ (الكوكبُ الساطعُ) أفضلُ منها بكثير.
وقد حدّثني الشيخُ أحمدُ الحُذيفي نقلًا عن شيخه العلّامة/ محمد سالم ولد عَدُّود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنّ منظومة «الكوكب الساطع» تتميّز عن «مَرَاقي السُّعود» بأمور:
١- أنها أوسعُ منها وأشملُ وأوعبُ.
٢- أنه نظم فيها «جمعَ الجوامع»، الذي هو مطابقٌ لاسْمه بالاتفاق، وعليه دارتْ قُطْبُ رَحا كثيرٍ من الأصوليّين، مع التزام السيوطيِّ ألفاظَ الأصل ما لَم يضطرّه النظمُ.
٣- أنّ السيوطيَّ أكثرُ التزامًا بمصطلحات الأصوليين في نظمه من صاحب «مَرَاقي السُّعود».
٤- أنّ ألفاظَها وتراكيبَها أسهلُ من ألفاظِ وتراكيبِ «مَرَاقي السُّعود».

١٠- المنظوماتُ في القواعد الفقهيَّة:

القواعدُ الفقهيَّةُ مُهِمَّةٌ لطالب العلم والعالِم والمفتي؛ لأنها تجمع شَتَاتَ المسائل، في عباراتٍ مكثّفةٍ وجيزةٍ.

وهذه يَغفُلُ عنها طلّابُ العلم كثيرًا! لذا يقول الشيخ السَّعْدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منظومته للقواعد الفقهيَّة:

فاحرصْ علىٰ فهمِك للقواعدِ ... جامعةِ المسائلِ الشَّواردِ
فترتقي في العلم خيرَ مُرتقىٰ ... وتقتفي سُبْلَ الذي قد وُفِّقا

وقال تلميذُه الشيخُ ابنُ عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منظومة أصول الفقه وقواعده:

وَبَعْدُ فَالْعِلْمُ بُحُورٌ زَاخِرَهْ ... لَنْ يَبْلُغَ الْكَادِحُ فِيهِ آخِرَهْ
لَكِنَّ فِي أُصُولِهِ تَسْهِيلَا ... لنَيْلِهِ، فَاحْرِصْ تَجِدْ سَبِيلَا
اِغْتَنِمِ الْقَوَاعِدَ الْأُصُولَا ... فَمَنْ تَفُتْهُ يُحْرَمِ الوُصُولَا

بل إنّ الفقهَ كلَّه مبنيٌّ علىٰ خمس قواعد! قال الأهدلُ في منظومته «الفرائد البهية»:

الفقهُ مبنيٌّ علىٰ قواعدِ ... خمسٍ، هي: الأمورُ بالمقاصدِ
وبعدَها: اليقينُ لا يُزالُ ... بالشَّكِّ، فاستمعْ لما يُقالُ
وتَجْلُبُ المشقّةُ التيسيرا ... ثالثُها، فكُنْ بها خبيرا
رابعُها فيما يُقالُ: الضررُ ... يُزالُ، قولًا ليس فيه غَرَرُ

خامسُـهـا العــادةُ قــلْ: محَكَّمَــهْ فهــذه الخمــسُ جميعًــا مُحكَمَــهْ

بـل بعضُـهم قـد رَجَـعَ الفقـهَ إلـىٰ قاعـــــدةٍ واحـــــدةٍ مُكَمِّـــــلَا

وهْـيَ اعتبـارُ الجَلْـبِ للمصـالحِ والــــدَّرْءِ للمفاســـدِ القبــائحِ

بـلْ قـالَ: قـدْ يَرجـعُ كلُّـهُ إلـىٰ أوّلِ جُـــزْأيْ هـــذه! وقُـــبِلَا

- ومِن أحسنِ ما نُظم فيها:

١- منظومةٌ في القواعد الفقهية: للشيخ عثمان بن سند المالكي البصري (ت١٢٤٢هـ).

وتقع في (٤٣) بيتًا.

وقد حقّقها وخدَمها خِدمةً جيّدةً أ.د. فهمي أحمد القزّاز.

ورغم وَجازتها إلا أنها مفيدةٌ جدًا.

٢- منظومةُ القواعد الفقهية: للعَلاَّمةِ عبد الرحمن السعدي.

وتقع في (٤٩) بيتًا.

وهـي منظومـةٌ مختصـرةٌ لكنهـا نافعـةٌ ذائعـةٌ، ولهـا شـروحٌ عِـدِّةٌ مطبوعـةٌ ومسموعةٌ، ولا تخلو بعضُ أبياتِها من رَكاكةٍ.

٣- منظومةُ أصول الفقه وقواعده: للعَلاَّمةِ محمد بن صالح العثيمين.

وعددُ أبياتها (١٠٣) بيتًا.

وهي منظومةٌ رَصينةٌ، مفيدةٌ، نَظَم فيها الشيخُ طرفًا صالحًا من قواعد أصول الفقه، والقواعد الفقهيّة.

وللناظم عليها شرحٌ جيدٌ مطبوعٌ.

- **منظومةُ «الفرائد البهية في نظم القواعد الفقهية»**: للعَلاَّمةِ أَبِي بكرِ بنِ أبي القَاسمِ الأَهدَلِ.

وتقع في (٥٢٤) بيتًا.

وهي نظمٌ فائقٌ لقواعد الفقه التي في كتاب «الأشباه والنظائر» للإمام السيوطي، **وفي هذا يقول الناظم:**

لخَّصـــتها بعـــون ربـــي القـــادرِ	**مـــن لجَّـــة «الأشـــباهِ والنظـــائرِ»**
مصـنَّفِ الحَبْـرِ السـيوطيِّ الأجـلّ	**جـــزاه خيـــرًا ربُّنـــا عـــزَّ وجـــلّ**

ولها شرحٌ حَفيلٌ اسمُه «المواهبُ السَّنِيَّة، شرحُ الفرائد البهية، في نظم القواعد الفقهية» للشيخ عبد الله بن سليمان الجرهزي الشافعي.

وعلىٰ هذا الشرح حاشيةٌ نفيسةٌ لمحمد ياسين الفاداني، واسمُها «الفوائدُ الجَنِيَّةُ».

ولها شروحٌ أخرىٰ.

علىٰ أنه يُمكن أن يُستَخلَصَ من منظومة «الفرائد البهية» مئةٌ وخمسون بيتًا تقريبًا هي لُبُّها وزُبدتُها، وذلك بأخذ عِدّةِ أبياتٍ من أوائل كلِّ بابٍ، وهي كافيةٌ إن شاء الله تعالىٰ؛ لأنّ الباقيَ أمثلةٌ وتفريعاتٌ.

❊❊❊

١١- المنظوماتُ في علمِ النحْوِ:

عِلمُ النحو عِلمٌ شَريفٌ مُنيفٌ[١]، وهو رأسُ علوم العربيّة[٢] قاطبةً؛ لذا

---

(١) قال الراغبُ الأصفهاني: «النحوُ نِصابُ العلم ونِظامُه، وعَمُودُه وقِوامُه، ووَشْيُ الكلام وحُلّتُه، وجمالُه وزِينتُه». محاضرات الأدباء (١/ ٥٥).

- وقال المعلِّمي: «عِلمُ النحو - لا شكَّ - مفتاحٌ لكلِّ عِلْم، ومَنْ عرفه كان لها سِلْم، وهو مصباحُ الفهْم، وحجابٌ عن الوهْم» ثم ذكر قانونًا مُهمًّا للمُعلِّمين في الطريقة المثلىٰ لتعليمه. انظر آثار الشيخ المعلّمي (٢٤/ ٤٠٩).

(٢) فائدة: اختلف العلماءُ في علوم العربيّة عددًا ونوعًا:

- فقال ابنُ خلدونَ عن علوم اللسان العربي: «أركانُه أربعةٌ: وهي اللغةُ، والنحوُ، والبيانُ، والأدب». المقدمة (ص/ ٦٢٤).

- ونقل السيوطيُّ عن الأندلسيِّ في شرح بديعيّة رفيقه ابن جابر قولَه: علومُ الأدب ستةٌ: اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع.

قال: فالثلاثةُ الأُولُ لا يُستشهدُ عليها إلّا بكلام العرب نظمًا ونثرًا؛ لأنّ المعتبرَ فيها ضبطُ ألفاظهم. والعلومُ الثلاثةُ الأخيرةُ يُستشهدُ عليها بكلامِ العربِ وغيرِهم؛ إذْ هو أمرٌ راجعٌ إلىٰ العقل، ولذلك قُبِل من أهل هذا الفن الاستشهادُ بكلام البحتري وأبي تمام وأبي الطيب وأبي العلاء، وهلمَّ جَرًّا.

قلتُ: (القائلُ السيوطي): وقد اتّجه لي من هنا بحثٌ فقهيٌ، وذلك أن النوويَّ ذكر في «شرح المهذب» وغيرِه أنّ الاشتغالَ بأشعار العرب من فروض الكفاية؛ لأنها يُستشهدُ بها في علوم العربية التي هي من آلات علوم الشرع، بخلاف أشعار المولَّدين، فالاشتغالُ بها ليس كأشعار العرب، بل إنْ كان فيها ما يُذمُّ شرعًا فمكروهٌ، وإلا فمباحٌ.

ولا شكّ أنّ علومَ البلاغة الثلاثة هي من أعظم آلات الشرع، بل ذُكِرَ أنّ كمالَ الإيمان متوقفٌ عليها؛ لتوقّف إدراك إعجاز القرآن - الذي هومعجزةُ النبيِّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - علىٰ معرفتها، وقد تقرّر أنّ أشعارَ المولَّدين حجةٌ فيها، فلْتكنْ كأشعار العرب من هذه الحيثيّة.

انظر: نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (١/ ٤٥٦)، وشرح عقود الجمان: كلاهما للسيوطي (ص/ ٧ - ٨)، وخزانة الأدب: للبغدادي (١/ ٥).

=

=

- **وقال ابنُ الأنباريِّ:** «علومُ الأدب ثمانيةٌ: النحو، واللغة، والتصريف، والعروض، والقوافي، وصنعة الشعر، وأخبار العرب، وأنسابهم. وألحقنا بالعلوم الثمانية عِلْمين وضعْناهما؛ وهما: علم الجدل في النحو، وعلم أصول النحو، فيُعرفُ به القياسُ وتركيبُه وأقسامُه، من قياس العلّة، وقياس الشَّبَه، وقياس الطَّرْد، إلىٰ غير ذلك، علىٰ حدّ أصول الفقه؛ فإنّ بينهما من المناسبة ما لا يخفىٰ؛ لأن النحوَ معقولٌ من منقول؛ كما أن الفقه معقولٌ من منقول، ويَعلم حقيقةَ هذا أربابُ المعرفة بهما». نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء (ص/ ٧٦).

- **وقال الزمخشريُّ:** «اعلمْ أنَّ أصنافَ العلوم الأدبية ترتقي إلىٰ اثنيْ عشرَ صِنفًا: **الأول**: علم اللغة. **والثاني**: علم الأبنية. **والثالث**: علم الاشتقاق. **والرابع**: علم الإعراب. **والخامس**: علم المعاني. **والسادس**: علم البيان. **والسابع**: علم العروض. **والثامن**: علم القوافي. **والتاسع**: إنشاء النثر. **والعاشر**: قَرْض الشعر. **والحادي عشر**: علم الكتابة. **والثاني عشر**: المحاضرات». القِسْطاس في علم العروض (ص/ ١٥ - ١٦).

- **وقال الجارَبَرْدي** في حاشيته علىٰ الشافية: «علومُ الأدب: علومٌ يُحترَزُ بها عن الخَلَل في كلام العرب لفظًا أو كتابةً. وهي علىٰ ماصرّحوا به اثنا عشر، منها أصولٌ، وهي العمدة في ذلك الاحتراز، ومنها فروعٌ.

أمّا الأصولُ:

فالبحثُ إمّا عن المفردات من حيثُ جواهرُها وموادُّها، فعلمُ اللغة.

أو من حيثُ صورُها وهيئاتُها، فعلمُ التصريف.

أو من حيثُ انتسابُ بعضها إلىٰ بعض بالأصالة والفرعية، فعلمُ الاشتقاق.

وإمّا عن المركّبات علىٰ الإطلاق:

فإمّا باعتبار هيئاتها التركيبية وتأدّيها لمعانيها الأصلية، فعلمُ النحو.

أو باعتبار إفادتها لمعانٍ مغايرةٍ لأصل المعنىٰ، فعلمُ المعاني.

أو باعتبار كيفية تلك الإفادة في مراتب الوضوح، فعلمُ البيان.

وإمّا عن المركّبات الموزونة:

فإمّا من حيثُ وزنُها، فعلمُ العروض.

أو من حيثُ أواخرُ أبياتها، فعلمُ القافية.

وأمّا الفروعُ:

فالبحثُ فيها إمّا أن يتعلقَ بنقوش الكتابة، فعلم الخط.

=

=

أو يختصُّ بالمنظوم، فالعلمُ المسمىٰ بقَرض الشعر. أو بالمنثور، فعلمُ إنشاء النثر من الرسائل والخطب. أو لا يختصُّ بشيءٍ منها، فعلمُ المحاضرات، ومنه التواريخ». انظر: الدليل إلىٰ المتون العلمية: لابن قاسم (ص/ ٢١).

وقد نظمَها طائفةٌ من العلماء، فمن ذلك:

- قولُ النواجي:

خُــذْ نَظْــمَ آدابٍ تَضَــوَّعَ نَشْــرُها فَطَــوىٰ شَــذَا المنثــورِ حــين يضــوعُ

لُغَــةٌ، وصَــرْفٌ، واشْــتِقاقٌ، نَحْوُهــا عِلْــمُ المعــانىٰ، والبيــانُ، بــديعُ

وعَــروضُ، قافيــةٌ، وإنشــا، نظمُهــا وكتابــةُ التــاريخِ لــيس يَضــيعِ

انظر: إضاءة الراموس: للفاسي (١/ ٢٢٤)، والقصر المبني علىٰ حواشي المغني: للأبياري (ص/ ٢٧)، والمطالع النصرية للمطابع المصرية: للهوريني (ص/ ٣٠) وقد وهم الأخيرُ في نسبة الأبيات للفاسي.

- وقال الشيخ حسن العطّار:

نَحْــوٌ، وَصَــرْفٌ، عَــرُوضٌ، بعــدهُ لُغَــةٌ ثُــمَّ اشْــتِقَاقٌ، وَقَــرْضُ الشِّــعْرِ، إنْشَــاءُ

كــذا المعــانِي، بَيَــانُ، الْخَــطِّ، قَافِيَــةٌ تَــارِيخُ، هَــذَا لِعِلْــمِ الْعُــرْبِ إحْصَــاءُ

حاشية العطّار علىٰ شرح الجلال المحلي علىٰ جمع الجوامع (٢/ ٤٢٢).

وقال بعدَها: «وبلوغُها إلىٰ هذا الحدّ تسامحٌ في العدّ كما لا يخفىٰ؛ فإنّ قرضَ الشعر من فوائد علم العروض. والإنشاءُ ثمرةٌ مترتبةٌ علىٰ معرفة مجموعهما. والتاريخُ ليس بعلمٍ بل هو نقلٌ محضٌ. والاشتقاقُ داخلٌ في علم الصرف علىٰ ما تحرَّر، وقد بيّنتُ ذلك في حواشي لاميّة الأفعال. والبلاغةُ ثمرةٌ مترتبةٌ علىٰ مجموعيْ علم المعاني والبيان، مع مقدِّماتها من النحو والصرف واللغة.

واشتراطُ معرفة البلاغة في المجتهد لا يخلو عن شيءٍ؛ لرجوعها إلىٰ المخاطبات، علىٰ أن الاجتهادَ تحقَّقَ قبل تدوينها، والذي يظهرُ أن المحتاجَ إليه في الاجتهاد هو: النحوُ، والصرفُ، والبيانُ، لا غير، تأمّلْ».

=

فلا بُدّ لطالب العلم من دراسته والعناية به؛ لأنه مفتاحٌ لفهم القرآن والسنة؛ كما قال الخليلُ بنُ أحمدَ:

فاطلبْ النحوَ للقُرَانِ، وللشِّعْـ ـرِ مُقِيمًا، والمسنَدِ المرْوِيِّ

كلَّ ذي الجهلِ بالفُنونِ يُعادِيـ ـها ويُزْرِي منها بغيرِ الزَّرِيِّ(١)

وقال العِمْرِيطي:

وَبَعْدُ: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا اقْتَصَرْ جُلُّ الْوَرَىٰ عَلَىٰ الْكَلَامِ المَخْتَصَرْ

وَكَانَ مَطْلُوبًا أَشَدَّ الطّلَبِ مِنَ الْوَرَىٰ حِفْظُ اللِّسَانِ الْعَرَبِي

كَيْ يَفْهَمُوا مَعَانِيَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الدَّقِيقَةِ المَعَانِي

=

- وقال السُّجاعي: «العربيةُ منسوبةٌ للعرب، وهي علمٌ يُحترز به من الخلل في كلام العرب، وهو بهذا المعنىٰ يشمل اثني عشرَ علمًا، جمعها بعضُ أصحابنا في قوله:

صرفٌ، بيانٌ، معاني، النحوُ، قافيةٌ شِعرٌ، عَروضٌ، اشتقاقُ، الخطُّ، إنشاءُ

محاضراتٌ، وثاني عَشْرِها لغةٌ تلك العلومُ لها الآدابُ أسماءُ

حاشيته علىٰ قطْر الندىٰ (ص/ ٧).

- وقال آخرُ:

نحوٌ، وصرفٌ، عَروضٌ، ثم قافيةٌ وبعدها لغةٌ، قَرْضٌ، وإنشاءُ

خَطٌّ، بيانٌ، معانٍ، معْ محاضرةٍ والاشْتقاقُ، لها الآدابُ أسماءُ

القواعد الأساسية: للهاشمي (ص/ ١٢).

(١) معجم الأدباء: للحموي (٣/ ١٢٦٢).

وَالنَّحْـــوُ أَوْلَـــىٰ أَوَّلَا أَنْ يُعْلَمَـــا ... إِذِ الْكَـــلَامُ دونَـــهُ لَـــنْ يُفْهَمَـــا[١]

لذا عدّ بعضُ المحقِّقينَ علمَ النحو وبعضَ علوم العربيّة الأخرىٰ من علوم الشريعة[٢]؛ لأنها كالمقدِّمة لها.

---

(١) الدرّة البهية نظم الآجرومية (ص/ ٣).

(٢) قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: «تعلُّم العربية التي يتوقَّف فهمُ القرآن والحديث عليها فرضٌ علىٰ الكفاية» الرد علىٰ المنطقيّين (ص/ ١٧٨) بتصرفٍ يسيرٍ.

- وقال الشاطبيُّ: «الصوابُ أن ما لا ينبني عليه عملٌ؛ غيرُ مطلوبٍ في الشرع.

فإن كان ثَمّ ما يَتوقف عليه المطلوبُ؛ كألفاظ اللغة، وعلم النحو، والتفسير، وأشباه ذلك؛ فلا إشكال أن ما يتوقَّف عليه المطلوبُ مطلوبٌ، إمّا شرعًا، وإمّا عقلًا» الموافقات (١/ ٦٦).

- وقال ابنُ خلدون بعد أنْ ذكر علومَ اللسان العربي (اللغة، والنحو، والبيان، والأدب): «ومعرفتُها ضروريةٌ علىٰ أهل الشريعة، إذْ مأخذُ الأحكام الشرعية كلِّها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونَقَلَتُها من الصحابة والتابعين عَرَبٌ، وشَرْحُ مشكلاتها من لغتهم، فلا بدّ من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علمَ الشريعة. وتتفاوتُ في التأكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام، حسبما يتبين في الكلام عليها فنًا فنًا.

والذي يتحصَّلُ أنّ الأهمَّ المقدَّم منها هو النحوُ، إذْ به يتبين أصولُ المقاصد بالدلالة، فيُعرف الفاعلُ من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجُهل أصلُ الإفادة». المقدمة (ص/ ٦٢٤).

- وقال الصنعانيُّ: «علمُ اللغة بأنواعه هو عمدةُ علوم الاجتهاد، وبالتبحّر فيه وعدمِه تتفاوت النُّقّادُ». إرشاد النقّاد إلىٰ تيسير الاجتهاد (ص/ ٩٣).

- وقال محمد بن عبدالله العلوي الشنقيطي عن علم العَروض ومعرفة أشعار العرب في «نظم مجدِّد العَوافي» (ص/ ٢):

وَبَعْـدُ: فَـالعَرُوضُ مِـنْ خَيْـرِ الأَرَبْ ... لأَنَّـــهُ مِيـــزَانُ أَشْـــعارِ العَـــرَبْ

وَتِلْـــكَ آلَـــةُ عُلُـــومِ الشَّـــرْعِ ... فَشَـــرُفَ الفَـــرْعُ فَفَـــرْعُ الفَـــرْعِ

- وقال الشيخُ عبدُ الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح حديث «مَن يُرِد الله به خيرًا يفقهه في =

ومن ألطف ما قيل في الحثّ علىٰ تعلّم النحو؛ قولُ العلّامة محمد بن حنبل بن الفال البُوحَسَني:

حَلْــيُ الفتــىٰ إعرابُــهُ لا مالُــهْ ولا نِجــــارُهُ ولا جَمالُـــــهْ

=

الدين»: «الفقه في الدين يشمل الفقه في أصول الإيمان، وشرائع الإسلام والأحكام، وحقائق الإحسان.... وكذلك يدخل في هذا: تعلُّم جميع الوسائل المعينة علىٰ الفقه في الدين كعلوم العربية بأنواعها». بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار (ص/ ٣٢).

- وقال أيضًا: «الأمورُ النافعةُ في الدين ترجع إلىٰ أمرين: علمٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ.

أما العلم النافع: فهو العلم المزكّي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين. وهو ما جاء به الرسولُ ﷺ من حديثٍ وتفسيرٍ وفقهٍ، وما يُعينُ علىٰ ذلك من علوم العربية بحسَب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان». المصدر نفسه (ص/ ٣٥).

وانظرْ كتابًا حافلًا في هذا المقصد، ألا وهو «**روضة الإعلام بمنزلة العربيّة من علوم الإسلام**» لابن الأزرق الغرناطي (ت ٨٩٦هـ) بتحقيق: سعيدة العلمي، وهو في جزئين كبيرين، من منشورات كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس.

لطيفة: قال أبو حيان في كتاب «محاضرات العلماء»: «حدثنا القاضي أبو حامد أحمدُ بنُ بشرٍ؛ قال: كان الفراءُ يومًا عند محمد بن الحسن، فتذاكروا في الفقه والنحو، ففضّل الفراءُ النحوَ علىٰ الفقه، وفضّل محمدُ بنُ الحسن الفقهَ علىٰ النحو، حتىٰ قال الفراءُ: قلّ رجلٌ أنْعَمَ النظرَ في العربية وأراد عِلمًا غيرَه إلّا سهُل عليه، فقال محمد بن الحسن: يا أبا زكريا قد أنعمتَ النظرَ في العربية وأسألُك عن بابٍ من الفقه، فقال: هاتِ علىٰ بركة الله تعالىٰ، فقال له: ما تقولُ في رجل صلّىٰ فسها في صلاته، وسجد سجدتيْ السهو فسها فيهما؟ فتفكّر الفراءُ ساعةً ثم قال: لا شيءَ عليه، فقال له محمدٌ: لِمَ؟ قال: لأنّ التصغير عندنا ليس له تصغيرٌ، وإنما سجدةُ السهو تمامُ الصلاة وليس للتمام تمامٌ!! فقال محمدُ بنُ الحسن: ما ظننتُ أنّ آدميًا يَلِدُ مِثلَك». معجم الأدباء: لياقوت الحموي (١/ ١٧).

وانظر: تاريخ بغداد: للخطيب (١٤/ ١٥٢)، ووفيات الأعيان: لابن خلكان (٦/ ١٧٩)، والموافقات: للشاطبي (١/ ١١٨) وفيه انتقادٌ لجواب الفرّاء.

كُــلُّ فتــىً شــبَّ بــلا إعــرابِ فهُــوَّ عِنــدي مَثَــلُ الغُــرُابِ!
وإن رأيتَــــه لخَــــوْدٍ عاشِــــقَا فقـل لهـا: اتّقـيْ الغُـرابَ الناعِقَـا!
لا انتفعـــتْ بالأكـــلِ والشَّـــرابِ مـن آثـرتْ مـالًا علىٰ إعـرابِ![1]

(١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص/ ٣١٨).
ومثلُه قولُ الطائع البُوحسني (ت ١٣١٤هـ):
رُدُّوا إلـيكم جِمـاحَ الفَهـمِ إذْ جَمحـتْ بـالنحوِ؛ كـيْ تَرْأَبـوا مَثْـأَىٰ لُغَـىٰ العَـرَبِ
فـالنحوُ تثقيـفُ نُطْـقِ الُّلسْـنِ إذْ نطقـتْ والشـعرُ خِرِّيـتُ معنـىً شـاردٍ غَـرِبِ
لا تنسـوْا الضّـحْكَ مـن جُـوذا إذا نَطقـتْ بِرفـعِ مُـنخفِضٍ أو خَفْـضِ مُنتصِـبِ!
الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (ص/ ٣٤٣).
تحذير: يَشيعُ علىٰ ألسنة بعضِ المتفكِّهينَ قولُهم: سَكِّنْ تَسلَمْ!
وهذا غلطٌ بيِّنٌ، وليس فيه من السلامة شيءٌ! إذِ الكلامُ لا يُمكنُ أنْ يُفهمَ بغير إعرابٍ. ولله درُّ العلّامة ابن خلدون حيث يقول: «علمُ النحو أهمُّ من اللغة، إذْ في جهله الإخلالُ بالتفاهم جملةً، وليستْ كذلك اللغةُ!» المقدّمة (ص/ ٦٢٤).
وسأذكرُ لكَ مثاليْن؛ ليتّضحَ لك الأمرُ:
الأول: لو قلتُ لك: أعرِبْ «ما أحْسَنْ زَيْدْ» بتسكين أواخِره! فإنك لن تسطيعَ ذلكَ؛ لأنَّ إعرابَه، ومِن ثَمَّ معناهُ، سيختلفانِ باختلاف الحركات المتعاقبة علىٰ أواخِره!
فيُمكنُ أنْ يكونَ: «ما أحْسَنَ زَيدًا»، فيكونُ تعجُّبًا من حُسْنِه.
ويُمكنُ أن يكونَ: «ما أحْسَنَ زَيدٌ»، فيكونُ نفيًا لإحسانه.
ويُمكنُ أن يكونَ: «ما أحْسَنُ زَيدٍ»، أيْ: أيُّ شيءٍ فيه أحسنُ من غيره؟
والثاني: جملةُ: «أحمدْ أكرمْ الناسْ»! فإنها تتقلَّبُ علىٰ ضُبُوطٍ كثيرةٍ ومعانٍ متعدِّدةٍ؛ جَرَّاءَ ذلك!
وسوفَ أذكرُ لك بعضَ ما تُضبَطُ به، لكنّني لنْ أُطيلَ ببيان حال كلِّ جملةٍ منها – كما في المثال الأول – تدريبًا لذِهنِكَ، وامتحانًا لفهمِكَ!
=

ومن أشهر المنظومات في علم النحو:

١ - «الدُّرَّة البهيَّة نظم الآجُرُّوميَّة»: لشرف الدين العِمْرِيطي (ت بعد سنة ٩٨٩هـ)، وتقع في (٢٥٤) بيتًا.

وهي نَظْمٌ لمتنِ (الآجُرُّميَّة) أشهرِ متنٍ نثريٍّ في النحو العربي؛ لذا قال الناظم في مطلعها:

وَالنَّحْــوُ أَوْلَــىٰ أَوَّلًا أَنْ يُعْلَمَــا ... إذِ الْكَــلامُ دونَــهُ لَــنْ يُفْهَمَــا

وَكَــانَ خَيْــرُ كُتْبِــهِ الصَّــغِيْرَهْ ... كرَّاسَــةً لَطِيفَــةً شَــهِيرَهْ

فِي عُرْبِهَــا وَعُجْمِهَــا والــرُّومِ ... أَلَّفَهَــا الْحَبْــرُ (ابْــنُ آجُــرُّومِ)

وَانْتَفَعَــتْ أَجِلَّــةٌ بِعِلْمِهَــا ... مَـعْ ما تَـرَاهُ مِـنْ لَطِيفِ حَجْمِهَا

وهي كافيةٌ تمامَ الكفاية للمبتدئين.

وقد شرح هذه المنظومةَ جماعةٌ من العلماء منهم:

الشيخ إبراهيم بن محمد البيجوري في كتابه: «فتح رب البرية علىٰ الدرة البهية نظم الآجرومية»، وهو مطبوع[(١)].

=

«أحْمَدُ أكرمُ الناسِ» - «أحْمَدُ أكرمَ الناسَ» - «أحْمَدَ أكرمَ الناسُ» - «أحْمُدُ أكرمَ الناسِ» - «أحْمَدُ، أكرِمْ الناسَ» - «أ حَمَدَ أكرمُ الناسَ؟» - «أ حُمِدَ أكرمُ الناسِ؟»!!!

ولها تقليباتٌ أخرىٰ عَزَفْتُ عنها لحال الطول.

فاطْوِ من دِماغك بالكلِّية قالةَ العَجَزَةِ: (سَكِّنْ تَسلَمْ)، إنْ أردتَ أنْ تَسْلَمَ!!

وانظر الصاحبي: لابن فارس (ص/ ٥٥).

(١) وهناك نظمٌ آخر مشهورٌ - لا سيّما عند المغاربة - للآجرومية، للشيخ عبيد ربه الشنقيطي. وهو في (١٥٢) بيتًا.

=

٢- «مُلْحةُ الإعراب»: لإمام العربيّة في زمانه القاسم بن علي الحريريّ (ت ٥١٦هـ).

وتقع في (٣٧٧) بيتًا.

وهي منظومةٌ بَديعةُ السَّبْك، سَهلةُ الحِفظ، رشيقةُ العبارة، واضحةُ الإشارة. يَسَّرَ فيها الحريريُّ عِلمَ النحوِ العَسِرِ، وحبَّبه لطلّاب العلم. ولا غَرْوَ؛ فهو صاحبُ «المقامات الأدبيّة»!

وممّا زاد المنظومةَ بهاءً وجمالًا تلك الأمثلةُ اللطيفةُ الظريفةُ التي يُمثّل بها للقاعدة! والتي تَعْلَقُ بالذهن عُلُوقًا لا يَنْفكُّ![1].

=

وقد شرح هذه المنظومة الشيخُ زايدُ الأذان بن الطالب أحمد الشنقيطي في كتاب سماه: «مصباح الساري شرح منظومة عبيد ربه الشنقيطي علىٰ المقدمة الآجرومية في النحو».

(١) من ذلك قولُهُ:

والأمـرُ مبنـيٌّ علـىٰ السُّكُونِ ... مِثالُـهُ: احـذَرْ صَفْقَةَ المَغبُـونِ!

وإنْ أَمَـرتَ مَـنْ سَـعىٰ ومَـن غَـدَا ... فأسـقِطِ الحَـرفَ الأخيـرَ أبَـدَا

تقـولُ: يَـا زيـدُ اغـدُ فِـي يـومِ الأحَـدْ ... واسـعَ إِلَـىٰ الخَيـراتِ لُقِّيـتَ الرَّشَـدْ

وَإِن يكُـن أمـرُكَ للمُؤنَّـثِ ... فقُـلْ لهَـا: خَـافي رِجَـالَ العَبَـثِ!

وقِـفْ علـىٰ المنصـوبِ منـهُ بـالألفْ ... كمِثـلِ مَـا تَكتُبُـهُ لَا يَختَلِـفْ

تَقـولُ: عَمـرٌو قـد أضَـافَ زيـدا ... وخَالـدٌ صَـادَ الغَـدَاةَ صَـيدا!

وتُسـقِطُ التَّنـوينَ إنْ أضَـفتَهْ ... أو إنْ يَكُـنْ بـاللامِ قَـدْ عَرَّفتَـهْ

=

وإنني أقولُ: لو أنَّ حالِفًا حَلَفَ بين الرُّكْن والمقام أنّ «مُلْحة الإعراب» هي ألطفُ المنظومات علىٰ الإطلاق! لرجوتُ أن لَّا يحنث!

=

مِثَالُهُ: جَاءَ غُلامُ الوَالي وأقبَلَ الغُلامُ كَالغَزَالِ!

ونَوِّنِ المُنكَّرَ المَنقُوصَا فِي رفعِهِ وجَرِّهِ خُصُوصَا

تقولُ: هَذَا مُشْتَرٍ مُخَادِعُ! وافزَعْ إِلَىٰ حَامٍ حِمَاهُ مَانِعُ!

واجرُرْ بـ(كَمْ) مَا كنتَ عنهُ مُخبِرَا مُعَظِّمًا لِقَدرِهِ مُكَثِّرَا

تقولُ: كَمْ مالٍ أفَادَتْهُ يَدِيْ وَكَمْ إمَاءٍ مَلَكَتْ وأَعبُدِ!

وقَدِّمِ الأخبارَ إِذْ تَستَفهِمُ كقولِهِم: أينَ الكَرِيمُ المُنعِمُ؟

ومثلُهُ: كيفَ المريضُ المُدْنَفُ؟ وأيّها الغَادي: متَىٰ المُنصَرَفُ؟

وَوَحِّدِ الفعلَ مَعَ الجَمَاعَهْ كقولِهِم: سَارَ الرّجالُ السّاعَهْ

وإنْ تَشَأْ فَزِدْ عليهِ التّاءَ نحوُ: اشتَكَتْ عُرَاتُنَا الشّتاءَ!

والنّصبُ للمفعولِ حُكمٌ وَجَبَا كقولِهم: صَادَ الأميرُ أرنَبَا!

وَرُبمَا أُخِّرَ عنهُ الفَاعِلُ نحوُ: قَدِ استَوفَىٰ الخَرَاجَ العَامِلُ

لكنَّ فعلَ الشكِّ واليَقِينِ يَنصِبُ مفعولينِ فِي التَّلقينِ

تقولُ: قَدْ خِلتُ الهِلالَ لائحَا وقَدْ وجَدتُ المُستَشَارَ ناصحَا

وَمَا أظنُّ عامِرًا رفيقَا وَلَا أرَىٰ لِي خَالِدًا صَديقَا!

إلىٰ غير ذلك من الأمثلة اللطيفة التي ساقَني جمالُها للاستطراد سَوْقًا!!

وما أحراها بقول الناظمِ[١]:

تَكـــادُ مِـــن عُذُوبــةِ الألفـــاظِ ... تَشْـــرِبُها مَســـامعُ الحُفّـــاظِ!

وهذه المنظومةُ كافيةٌ شافيةٌ في القَدْر الـمُحتَاجِ إليه من هذا الفنّ، والله أعلم[٢].

٣- «الخُلاصَة»، المعروفة بألفيَّة ابن مالك: لجمال الدين، محمد بن عبد الله بن مالك الطائي (ت٦٧٢هـ).

وتقع في (١٠٠٢) بيت.

---

(١) البيت لأبي الفتْح بن عبد السلام المِالكيّ المغْرِبِي، نزيل الشام. كما في ريحانة الألبّا: للخفاجي (ص/ ١٧٤).

(٢) لطيفة: قال السبكيُّ في طبقات الشافعية الكبرىٰ (٩/ ٣٠٠): «أخذ شاعرُ عصرِنا الشيخُ جمالُ الدين ابن نُبَاتَةَ أكثرَ أبيات «مُلْحة الإعراب» للحريري فضمَّنها وجعلها قصيدةً امتدح به الشيخَ الإمامَ الوالدَ» ثم ذكرها بتمامها. ومنها قولُه:

يـــا لائمًـــا مَلامُـــه يَطـــولُ ... اسْـــمَعْ هُـــدِيتَ الرُّشْـــدَ مـــا أقـــولُ

كلامَـــكَ الفاســـدَ لســـتُ أتّبِـــعْ ... حَـــدُّ الكـــلامِ مـــا أفـــادَ الـــمُستمِعْ

أفـــدي غـــزالًا مثّلـــوا جمالَـــهْ ... في مثـــلِ: قـــد أقبلـــتِ الغزالَـــهْ

مـــا قـــال مُـــذْ مُلِّـــكَ قلبـــي واسـترقْ ... كقـــولهم: رُبَّ غـــلامٍ لـــي أبَـــقْ

للقمـــرينِ وجهُـــه مَطـــالعُ ... فهـــي ثـــلاثٌ مـــا لهـــنّ رابـــعُ

لِأحـــرُفِ الحُسْـــنِ علـــىٰ خَدَّيْـــه خَـــطْ ... وقـــال قـــومٌ: إنهـــا الّـــلامُ فقـــطْ!

وهذه الألفيّة هي أشهرُ الألفيّات علىٰ الإطلاق، حتىٰ صارت عَلَمًا بالغَلَبَة! فإذا قيل: فلانٌ يحفظ الألفيّة، لم ينصرف الذهنُ إلّا إلىٰ ألفيّة ابن مالك!

وقد جمع الناظمُ فيها خلاصةَ مسائل النحو، وأغلبَ مباحث الصَّرْف، في إيجازٍ مُحكمٍ، مع الإشارة أحيانًا إلىٰ مذاهب العلماء، وبيان ما يختارُه من آراء.

وكان الناظمُ قد اختصرها من منظومته الكبرىٰ «الكافية الشافية» التي بلغ عددُ أبياتها (٢٧٥٠) بيتًا ونيّفًا، كما أشار إلىٰ ذلك في خاتمة «الخلاصة» بقوله:

وما بِجَمْعِهِ عُنِيتُ قد كَمَلْ ... نظمًا علىٰ جُلِّ المهمّات اشْتَمَلْ

أحصىٰ من «الكافية» الخُلاصَهْ ... كما اقتضىٰ غنىً بلا خَصَاصَهْ

ولعلّ هذا هو السببَ في وُعورة أبياتها، وصلابة تراكيبها، وصعوبة فهمها! لكنَّ مفتاحَ فهمها هو حفظُها! كما كان شيخُنا حمادٌ الأنصاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول لبعض الطلّاب: «احفظْ ألفيةَ ابن مالك في النحو؛ فإنك إذا حفظتَها فهمتَها وإن لم تحفظْها لم تفهمْها»[(١)].

ولها شروحٌ وحواشٍ كثيرةٌ مشهورةٌ.

٤- «كِفاية الغُلام في إعراب الكلام»: لزين الدين شعبان بن محمد الآثاري (ت ٨٢٨ هـ).

---

(١) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (٢/ ٥٨٧).

وهي ألفيّةٌ فائقةٌ، ذاتُ تقسيماتٍ وتبويباتٍ بديعةٍ، وفيها أشياءُ لم يُسبقْ إلىٰ نظمها، وقد أثنىٰ عليها علماءُ عصره، كجلالِ الدين البُلْقيني وغيرِه[(١)].

وأهمُّ مزايا هذه الألفية اعتناءُ الناظم بالأبيات الحاصرة[(٢)]، كقوله مثلًا في العِلل المانعة من الصرف:

عَرِّفْ وَصِفْ واعْدِلْ وأَنِّثْ واجْمَعِ   اِعْجِمْ وَزِنْ رَكِّبْ وزِدْ أَلْحِقْ تَعِي[(٣)]

فانظر كيف جمع عشرَ عِللٍ في بيتٍ واحدٍ! وعلىٰ هذا فقِسْ.

٥- «الفريدة» في النحو والتصريف والخطّ: لجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ).

وهي ألفيّةٌ سلسةٌ، بديعةٌ، سهلةُ التراكيبَ، نظمها السيوطيُّ في ثلاثة أيام!!

وهي أسهلُ من ألفيّة ابن مالك. وينسحب عليها الكلامُ الذي سبق في الموازنة بين ألفيّة العراقي والسيوطي في مصطلح الحديث.

وقد ذكر السيوطيُّ في مقدّمة شرحه لها المسمّىٰ «المطالع السعيدة» أنه لخّص فيها ألفيّةَ ابن مالك في (٦٠٠) بيت، وزاد عليها (٤٠٠) بيت، فيها

---

(١) من اللطائف أنّ الناظمَ مدح ألفيتَه هذه بقصيدةٍ طويلةٍ، منها قولُه:

فلا تَعْجَبَنْ لي في حَلاوةِ نَظْمِها   فناظمُها شَعْبانُ سُكّرُهُ مِصْرِي!!

(٢) الأبياتُ الحاصِرةُ: هي الأبياتُ التي تجمعُ أشياءَ كثيرةٍ، يَصْعُبُ حِفظها نثرًا أو يَتعذَّرُ، فيَعْمَدُ الناظمُ لجمعها في بيتٍ أو بيتين أو أكثر؛ لِيسهُلَ حِفظُها.
وستأتي الإشارةُ إليها عند الكلام علىٰ الضوابط العِلْميّة للمسائل الجُزئيّة.

(٣) كفاية الغلام في إعراب الكلام (ص/ ٤٧).

قواعدُ وفوائدُ وضوابطُ، ولذا قال في مطلعها:

فائقــــةً ألفيّـــةَ ابــــنِ مالـــك لكونهـــا واضـــحةَ المســـالكِ
وجَمعِهـا مـن الأصـول مـا خَلـتْ عنـه، وضـبطِ مُرْسَـلاتٍ أُهملـتْ

وقد جاء فيها قسمُ التصريف في (٢٣٥) بيتًا، والخطّ في (٢٣) بيتًا.

- وهناك منظومةٌ أخرىٰ للسيوطي سمّاها «الوفيّة باختصار الألفيّة» طُبعتْ قريبًا، لخّص فيها ألفيّةَ ابن مالك في (٦٣٥) بيتًا.

وقد كتبها السيوطيُّ علىٰ ظهر السفينة وهو متوجِّهٌ للحجّ! وقال في خاتمتها:

نَظَمتُهـــا في نَحْــوِ ثُلْثــيْ أصْــلِها ولــنْ تــرىٰ مُختَصَــرًا كمِثْلِهــا
خَتَمتُهـــا بظَهــرِ بَحْــرِ القَلْــزَمِ مُســـافرًا للبلـــدِ المحـــرَّمِ

***

١٢ - المنظوماتُ في علم الصَّرْف:

عِلمُ الصرفِ عِلْمٌ شريفُ النسَب، دقيقُ المأخذ، وَعْرُ المسلَك؛ لا يُتقنُه أيُّ أحدٍ!

لذا جاء في «بهجة المجالس»[١] لابن عبد البرّ، قال: «كان أبو مسلم مؤدِّبُ عبد الملك بن مروان، قد نظر في النحو، فلما أحدث الناسُ التصريفَ لم يُحسِنْه، وهجا أصحابَه فقال:

---

(١) (١/ ٦٩).

قد كان أخذُهُمُ في النّحو يُعجبُني حتّىٰ تَعاطَوْا كلامَ الزِّنْجِ والرُّومِ!
لّما سمعتُ كلامًا لستُ أعرفُه كأنّه زَجَلُ الغِرْبانِ والبُومِ!
تَركتُ نحوَهُمُ واللهُ يَعصِمُني مِن التّقحُّم في تلك الجَراثِيمِ!»

وفي أهميّته قال شيخُنا العلّامةُ حمّادُ الأنصاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : «إنّ علمَ الصرف يساعد علىٰ فهم معاني القرآن، ومَن لّم يتعلّمْه يَختلّ فهمُه للقرآن الكريم»[(١)].

وهو قرينُ عِلْم النحو؛ لذا ينبغي لطالب العلم أنْ يجتهدَ في تحصيله، كاجتهاده في تحصيل النحو سواءً بسواء، بل من العلماء مَن يرىٰ تقديمَه علىٰ علم النحو في التحصيل؛ وذلك لأنه يُفيدُ معرفةَ الكلمة أصولًا وزوائدَ قبل تركيبها، والنحوُ يُفيدُ معرفةَ حركة الحرف الأخير حالَ التركيب، وما كان كذلك كان أولىٰ بالتقديم في التعليم.

ومن أشهر المنظومات فيه:

١- لاميّة الأفعال: لجمال الدين، محمد بن عبد الله بن مالك الطائي (ت٦٧٢هـ).

وتقع في (١١٤) بيتًا من البحر البَسِيط.

تمّم بها الناظمُ ألفيّته في النحو.

وسُمّيت بهذا الاسم؛ لأنها بُنيت علىٰ رويّ اللّام، وأضيفتْ إِلَىٰ الأفعال تَغْليبًا لها؛ لا اخْتِصاصًا بها، وإلا فقد تكلّم عن تصريف الأسماء أيضًا.

---

(١) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (٢/ ٥١٨).

لكن ينبغي أن يَضُمَّ إليها: (الطُّرّة) للحسن بن زين الشنقيطي، وزيادات بَحْرق اليمني عليها؛ لِتكتملَ الفائدة.

وللّاميّة شروحٌ كثيرةٌ معروفةٌ[(١)].

---

(١) لطيفة: ذكر بعضُ الفضلاء أنّ أحدَ الطلّاب الشناقطة كان في الحَرَم يكرّرُ (لاميّة الأفعال) مع (الطُّرّة) للحسن بن زين الشنقيطي، وزيادات بَحْرق اليمني، وكان يقرؤها بسرعةٍ مُفرِطةٍ، فما وصل إلىٰ قولِ الناظِم:

مُضَاعَفًا مُدْغَمًا أَمْ لَا كَـ (حَسَّ بِهِ) وَ(عَضَّ) (مَصَّ) وَ(حَمَّ) (مَلَّهُ مَلَلَا)

وَ(خَبَّ) (صَبَّ) وَ(طَبَّ) (لَجَّ) (بَحَّ) وَ(وَدْ دَ) (بَرَّ) (لَذَّ) وَ(شَلَّتْ كَفُّهُ شَلَلَا)

إلّا وإحدىٰ الجهاتِ المسؤلةِ عن أمنِ الحَرَمِ واقفةٌ علىٰ رأسِه! وتمَّ القبضُ عليه؛ بدعوىٰ أنه يقرأُ طلاسِمَ سِحْرِيّةً؛ لِيَسْحرَ الحَرَم!!!

وما أنقذهُ منهم إلّا مُرورُ شيخٍ استعادَ الطالبَ الأبياتَ، فأعادها عليه، فأقنعَ الأمنَ أنّ هذا متنٌ في علم الصَّرْفِ، فأطلقوهُ وما كادوا يفعلون!!

قلتُ: وممّا يُشبه هذا أنّ الإمامَ أبا حاتمٍ السجسْتانِي اللغويَّ الكبيرَ، لمّا دخل بغدادَ، سُئلَ عن قوله تعالىٰ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، ما يُقَال منه للواحِد؟ فقال: قِ، فقال السائلُ: فالاثنين؟ فقال: قِيَا، قال: فالجمْع؟ قال: قُوا، قال: فاجمعْ لي الثلاثةَ، قال: قِ، قِيَا، قُوا. قال: وفي ناحيَة المسجد رجلٌ جالسٌ معه قِماشٌ، فقال لواحِدٍ: احتفظْ بثيابي حتىٰ أجيءَ، ومضىٰ إلىٰ صاحب الشُّرطة، وقال: إنِّي ظَفرتُ بقومٍ زنادقةٍ يقرءُون الْقُرْآنَ علىٰ صياح الدِّيك!!

قال: فما شَعَرْنَا حتىٰ هجم علينا الأعوانُ والشُّرطةُ، فأخذونا وأحضرونا مجْلِس صَاحب الشُّرطة، فسألَنا، فتقدَّمتُ إليه وأعلمتُه بالْخبر، وقد اجْتمع خلقٌ من خلق الله، ينظرُونَ ما يكون، فعنَّفني وعَذَلَني، وقال: مِثْلُكَ يُطلِقُ لِسانَه عندَ العامَّة بمثل هذا؟! وعَمَدَ إلىٰ أَصحابي فضربهم عشرَةً عشرَةً، وقال: لا تعودوا إلىٰ مثل هذا!

فعاد أبو حَاتِم إلىٰ البصرة سريعًا، ولم يُقِمْ ببغداد، ولم يَأْخُذْ عنه أَهلُها!

انظر: بغية الوعاة: للسيوطي (١/ ٦٠٦)، وطبقات المفسّرين: للداوودي (١/ ٢١٦).

وفي الباب قَصَصٌ أخرىٰ طريفةٌ ذكرتُها في كتابي «ويلٌ للعالِم من الجاهل!» فراجعْها فيه.

٢- «نظم المقصود في علم الصرف»: لأحمد بن عبد الرحيم الطهطاوي (ت١٣٠٢هـ).

وتقع هذه المنظومة في (١١٣) بيتًا.

وهي منظومةٌ لطيفةٌ، سهلةٌ. أُراها أنسبَ شيءٍ للمبتدئين في هذا الفنّ.

وعليها شروحٌ عديدةٌ؛ مطبوعةٌ ومسموعةٌ.

٣- «الترصيف في التصريف»: لعبد الرحمن[١] بن عيسىٰ بن مُرشد، أبو الوَجَاهِة العمريّ الـمُرشديّ، مُفتي الحرم المكيّ (ت ١٠٣٧هـ).

هذا هو الاسمُ الصحيحُ للمنظومة؛ لقول الناظم في مطلعها:

وعنـــدما تـــمّ لهـــا تصـــنيفي ... سمّيتُها: (الترصيف في التصـريف)

وتقع المنظومةُ في أزْيَدَ من (٥٠٠) بيتٍ بقليلٍ؛ لقول ناظمها في آخرها:

وعــدُّ أبيــاتٍ لــه خمــسُ مئــهْ ... فاضـــلةٍ عـــن خُطبـــةٍ وتوطِئَـــهْ

---

(١) فائِدَة: كتابةُ اسمِ (الرحمنِ) بإثبات الألف هكذا (الرحمان) يُعتبر خطأً إذا كان ذلك في القرآن الكريم؛ لأنّ رسمَ القرآن سنةٌ متَّبَعَةٌ، كما قال محمد العاقب الجكني الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منظومته «كشف العمىٰ والريْن، عن ناظريْ مصحف ذي النُّورَيْنِ»:

رَسْـــمُ القُـــرَاْنِ سُـــنةٌ متّبَعَـــهْ ... كمــا نَحَــىٰ أهــلُ المنــاحي الأربَعَــهْ

لأنّـــه إمّـــا بـــأمرِ المصـــطفىٰ ... أو باتّبـــاعِ الراشـــدينَ الخُلَـــفَا

أمّا في غير القرآن الكريم فتُحذف الألفُ من كلمة (الرحمان) إذا كانت معرَّفةً بـ (ألْ)، نحو: عبد الرحمن، فإن لم تُسبَقْ بـ (ألْ) فلا تحذفُ، نحوُ: يا رحمانَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهُما. فليُتنبَّهْ لذلك، والله أعلم.

وللمنظومة عِدّةُ شروحٍ وحواشٍ، منها «فتح الخبير اللطيف» لإبراهيم البيجوري.

وهناك منظوماتٌ أخرىٰ في هذا الفنّ ما بين طويلٍ ومتوسطٍ ووجيزٍ.

***

١٣ - المنظوماتُ في علمِ البلاغةِ:

عِلمُ البلاغة عِلمٌ عظيمُ النفع، جَمُّ الفوائد لطالب العلم الشرعي، لا سيّما المتخصِّص في الدراسات القرآنية.

ولذا قال أبو هلال العسكري: «اعلم - علّمك اللهُ الخيرَ، ودلّك عليه، وقيّضه لك، وجعلك من أهله - أنّ أحقّ العلوم بالتعلّم، وأولاها بالتحفّظ - بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه - علمُ البلاغة، ومعرفةُ الفصاحة، الذي به يُعرف إعجازُ كتاب الله تعالىٰ، الناطقِ بالحقّ، الهادي إلىٰ سبيل الرُّشْد، المدلولِ به علىٰ صدقِ الرسالةِ وصحّةِ النبوةِ، التي رفعتْ أعلامَ الحقّ، وأقامتْ منارَ الدّين، وأزالتْ شُبَهَ الكفر ببراهينها، وهتكتْ حُجُبَ الشكّ بيقينها.

وقد عَلِمْنا أنّ الإنسانَ إذا أغفل علمَ البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمُه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه اللهُ به من حُسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شَحَنَه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف؛ وضمّنه من الحلاوة، وجلّله من رَوْنَق الطَّلاوة، مع سهولة كَلِمِه وجزالتِها، وعذوبتِها وسلاستِها، إلىٰ غير ذلك من محاسنه التي عَجَزَ الخلقُ عنها، وتحيّرت عقولُهم فيها....

وقبيحٌ لَعَمْري بالفقيهِ المؤتَمِّ به؛ والقارئِ المهتَدَىٰ بهديه، والمتكلِّمِ المشارِ إليه في حُسن مناظرته، وتمام آلته في مجادلته، وشدّة شكيمته في حِجَاجِه؛ وبالعربيِّ الصَّلِيب، والقُرشيِّ الصريح، ألّا يعرف إعجازَ كتاب الله تعالىٰ إلّا من الجهة التي يعرفه منها الزِّنْجيُّ والنَّبَطيُّ! أو أن يَستدلّ عليه بما استدلّ به الجاهلُ الغبيُّ!

فينبغي من هذه الجهة أن يقدِّم اقتباسَ هذا العلم علىٰ سائر العلوم، بعد توحيد الله تعالىٰ، ومعرفة عدله، والتصديق بوعده ووعيده، علىٰ ما ذكرنا؛ إذْ كانت المعرفةُ بصحة النبوة تتلو المعرفةَ بالله جلَّ اسمُه»[(١)].

ثمّ بعدَ دراستكَ هذا العلمَ، حاولْ أنْ تطبّقَه عمليًّا؛ وذلك بالارتجال في المحافلِ ومنتديات الناس ومجامعهم، وابدأ شيئًا فشيئًا ولو أمامَ أهلِك في البيت، فإنه مع مرور الوقت سوف يتعوّدُ لسانُك الفصاحةَ والذَّلاقةَ، حتىٰ تصيرَ سجيَّةً لازمةً، ومَلَكَةً راسخةً. ومَنْ جَرَّبَ عَرَفَ.

وقد ذكر الشيخُ حمادٌ الأنصاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لمّا كان يَسكن الرياضَ زاملَه رجلٌ مِصْريٌّ كان آيةً في الفصاحة والأدب، وكان خطيبًا مُفْلِقًا. قال: فسألتُه ذاتَ مرةٍ عن سبب تمكّنه في علم الأدب؟ فقال: نحن المِصْريُّون كنّا إذا تعلّمنا علمَ اللغة والأدب، قُمْنا بتطبيقه. ومِن تطبيقه أنْ يَخرجَ أحدُنا إلىٰ مكانٍ خالٍ، فيتّكئَ علىٰ شجرةٍ، ويقومَ بإلقاء خطبةٍ بصوتٍ مرتفعٍ![(٢)].

---

(١) الصناعتين (ص/ ٩).

(٢) انظر: المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (٢/ ٦١٤).

ومن أشهر المنظومات في علم البلاغة:

١- «**مئة المعاني والبيان**»: لمحِبّ الدين محمد بن محمد بن الشِّحْنَة الحلبيّ (ت ٨١٥ هـ).

وتقع في (١٠٠) بيتٍ، وقد قال في مطلعها:

أَبْيَاتُهَـــا عَـــنْ مِائَـــه لَـــمْ تَـــزِدِ فَقُلْـــتُ غَيْـــرَ آمِـــنٍ مِـــنْ حَسَـــدِ

وهي منظومةٌ لطيفةٌ سهلةٌ عذبةٌ، عليها شروحٌ كثيرةٌ جدًّا، وهي أحسنُ شيءٍ للمبتدئين في الفنّ.

وهي وإن سمّاها ناظمُها «مئة المعاني والبيان»، إلا أنه قد ضمّنها شيئًا من علم البديع أيضًا.

٢- «**الجَوهرُ المَكْنون، في صَدَفِ الثلاثةِ الفنونِ**»: لعبد الرحمن بن محمد الأخضري (ت ٩٨٣ هـ).

وتقع في (٢٩١) بيتًا.

وهو نظمٌ فائقٌ رائقٌ، لخّص فيه الناظمُ «تلخيص المفتاح» للخطيب القزويني، الذي هو من أشهر كتب الفنّ، وقد أشار إلىٰ ذلك بقوله:

وقــد دعــا بعــضٌ مــن الطُّــلابِ لِرَجَــزٍ يَهــدي إلــىٰ الصــوابِ

فجِئتُـــــه برَجَـــــزٍ مُفيـــــدِ مُهَـــــذَّبٍ مُـــــنَقَّحٍ سَـــــديدِ

مُلتَقِطًـــا مِـــنْ دُرَرِ «التلْخـــيصِ» جـــواهرًا بديعـــةَ التخلـــيصِ

ســلكتُ مــا أَبْــدىٰ مِــنَ الترتيــبِ ومــا أَلَــوْتُ الجُهــدَ في التهــذيبِ

سَــمَّيتُهُ بـالجوهرِ المَكْنـونِ ... في صَـدَفِ الثلاثـةِ الفنـونِ

وهي كافيةٌ في هذا الفنّ، لاسيّما للمتوسّطين.

٣- «عُقُودُ الجُمَانْ في عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانْ»: لجلال الدين السُّيُوطِيِّ (ت٩١١هـ). وعددُ أبياتها (١٠٠٦).

وهي ألفيّةٌ رائعةٌ، نظَم فيها السيوطيُّ كتابَ «تلخيص المفتاح» للقزويني، وزاد عليه زياداتٍ كثيرةً، بعضُها من ابتكاراته! ولذا قال الناظمُ في مطلعها:

وَهَـذِهِ أُرْجُـوزَةٌ مِثْـلُ الْجُمَـانْ ... ضَـمَّنْتُهَا عِلْـمَ الْمَعَـانِي وَالْبَيَـانْ

لَخَّصْتُ فِيهَا مَا حَوَىٰ «التَّلْخِيصُ» مَعْ ... ضَـمِّ زِيَـادَاتٍ كَأَمْثَـالِ اللُّمَـعْ

وَفِيـهِ أَبْحَـاثٌ مُهِمَّـاتٌ تَجِـي ... عَـنْ شَـيْخِنَا الْعَلَّامَـةِ الْكَـافِيَجِي

مَـا بَـيْنَ إِصْـلَاحٍ لِمَـا يُنْتَقَـدُ ... وَذِكْـرِ أَشْـيَاءَ لَهَـا يُعْتَمَـدُ

وَضَـمِّ مَـا فَرَّقَـهُ لِلْمُشْـبِهِ ... وَاللهَ رَبِّـي أَسْـأَلُ النَّفْـعَ بِـهِ

ومِن أعجبِ العجبِ أنه نظَم هذه الألفيّةَ في يومين!!! وهذا يدلُّ علىٰ هَضْمه التامّ للعلوم وتبحُّره فيها، كما يدلُّ علىٰ قدرته العظيمة علىٰ النظم(١).

---

(١) لطيفة: قال الشيخُ حمادُ الأنصاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ الحافظَّ السيوطيَّ يُعتبر موسوعةً علميةً كبيرةً، ويَندُرُ عِلمٌ إلّا وقد ألّف فيه كتابًا ماعدا علم الحساب، وقد استُفيدَ منه أكثرَ مما استُفيدَ من غيره، وبعضُ أهل العلم يُطلِقُ عليه الخُيُوطي بدلًا من السُّيُوطي! ويقصدون بقولهم: الخُيُوطي؛ لتمسُّكه بالخُيوط، أي أنه ضعيفٌ! وهو ليس كما زعموا». المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (٢/ ٦١٨).

وهي بحقٍّ كما قال الناظمُ في خاتمتها:

أُرْجُــوزَةٌ فَرِيــدَةٌ فِــي أَهْلِهَــا ... إِذْ لَـمْ يَكُـنْ فِـي فَنِّهَـا كَمِثْلِهَـا

بِكْــرٌ مَنِيــعٌ سِــتْرُهَا لِمَــنْ دَنَـا ... وَمَـنْ أَتَاهَـا خَاضِـعًا نَـالَ الْمُنَـىٰ

زَفَفْتُهَــا لِمَــنْ نُهَــاهُ رَاجِــحُ ... وَمَهْرُهَـا مِنْـهُ الـدُّعَاءُ الصَّـالِحُ

عَلَّـيْ إِذَا صِـرْتُ قَـرِينَ الـرَّمْسِ ... تَنْفَعُنِــي دَعْوَتُــهُ فِــي بُؤْسِــي

وللناظم شرحٌ عليها سمّاه: «حلّ عُقود الجُمان» وهو مطبوعٌ. كما شرَحَها العلّامة عبد الرحمن بن عيسىٰ المرشدي (ت ٩٧٥ هـ) بشرحٍ نفيسٍ، وهو مطبوعٌ أيضًا.

٤- «لآلئُ التِّبيان في المعاني والبديع والبيان»: للدكتور/ حسن إسماعيل عبد الرازق (ت ١٤٢٩هـ) رئيس قسم البلاغة بجامعة الأزهر، والأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود سابقًا.

وتقع في (١٠٢٠) بيتًا.

وهي ألفيّةٌ مُتقَنةٌ بديعةٌ - خلافَ منظوماتِ أكثرِ المعاصِرين المليئةِ بالرَّكَاكَةِ والضَّعْفِ! - جمعَ الناظمُ فيها قواعدَ البلاغة نظْمًا، ومثّل لها شعرًا ونثرًا!

وإني ما زلتُ أتعجّبُ من حُسْن نَظْمه، وجمال سَبْكه، مع كونِه معاصِرًا! وكونِها ألفيّةً! انظر مثلًا قولَه في مطلعِها:

وبعــدُ؛ فالفضــلُ إلــىٰ المتــونِ ... يعـود؛ مهمـا حـزتَ مـن فنـونِ

لأنهــا خُلاصــةٌ عِلميّــهْ ... ينقلُهــا العقــلُ إلــىٰ البَرِيَّــهْ

وهــــذه «لآلـــئُ التبيـــانِ» في «الــنظمِ، والبــديعِ، والبيــانِ»
أودعتُهــــا أمثلـــةً مفيــــدهْ فظهـــرتْ في بابهـــا فريـــدهْ!
لأننــــي أُشـــيرُ بالمثـــالِ للـنصّ؛ مـن شِـعرٍ، ومـن أمثـالِ
معتمِـــدًا علـــىٰ ذكـــاءِ القـــاري مسـتَلهِمًا جميـلَ صـنعِ البـاري
وقــد يكــونُ الــنصُّ لــي ميَــسَّرا بلفظــه، فجــاء أحلــىٰ مظهــرا
واللهَ أرجـــو أن أَرىٰ التوفيقَـــا حـــالفني، ومهَّـــد الطريقَـــا!

***

١٤- المنظوماتُ في اللغةِ واللسانِ العربيّ:

احتفلَ العلماءُ باللّغةِ العربيّةِ ومفرداتِها أيّما احتفالٍ، فكثُرتْ فيها الأنظامُ وتنوّعتْ، ما بينَ مطوَّلٍ ومختَصَرٍ، وعامٍّ في اللغة كلِّها وخاصٍّ بلونٍ معيَّنٍ منها.

وهي خَليقةٌ بهذا، جَديرةٌ به؛ فهي لغةُ القرآن، ولسانُ سيد ولد عدنان ﷺ.

فينبغي علىٰ طالب العلم أنْ يَهتمَّ بكتب اللغة، ويُكثرَ من النظر فيها، ويَستكثرَ من حفظ مفرداتها[١]؛ فذلكَ أحدُ السُّبُل لفهم الكتاب والسنّة حقَّ الفهم.

---

(١) يقول الأستاذُ العلاّمةُ عبدُ العزيز الميمني الراجكوتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أهميّة حفظ مفرداتِ اللغة: «أرشدَتْني دراسةُ «المفصَّل» و«كتابِ» سيبويه إلىٰ الأدب. والبحثُ عن الشَّواهد النَّحويَّة هداني إلىٰ الدَّواوين وشُروحِها.
ثمَّ عرفتُ أنِّي قد ضَلِلْتُ الطَّريقَ في دراسة الأدب.
يَجِبُ أن نحفظَ -أوَّلًا- مُفرَداتِ اللُّغة. بل نحفظُ - قبلَ ذلك - أبوابَ الثُّلاثيِّ المجرَّد، وهذا مِنْ أصعبِ الأُمورِ؛ لأنَّ القياسَ لا يُفيد شيئًا في هذه الأبواب.
=

وكان العلّامةُ أحمدُ بنُ فارسٍ الرازي يحثُّ الفقهاءَ دائمًا علىٰ معرفة اللغة، ويُلقي عليهم مسائلَ، ذكرها في كتابٍ سمّاه كتاب: «**فُتيا فقيهِ العرب**»[(١)]، ويُخجِلُهم بذلك؛ ليكونَ خَجَلُهم داعيًا إلىٰ حفظ اللغة، **ويقول:** «مَنْ قَصَّرَ عِلمُه عن اللغة وغُولِط غَلِطَ»[(٢)].

=
ثُمَّ نَظَرْتُ في الكتب التَّالية، وحَفِظْتُها؛ مِنْ أجل معرفة المفردات اللُّغويَّة: «كفاية المتحفظ»، «فقه اللُّغة» للثَّعالبيِّ، «الألفاظ الكتابيَّة» للهمذانيِّ، «نظام الغَريب»، وغير ذلك.
ثُمَّ بعدَها: «إصلاح المَنطق»، «تهذيب الألفاظ»، وغيرهما». بحوث وتحقيقات عبد العزيز الميمني: لمحمد عُزير شمس (١/ ٢١ - ٢٢).
- **ويقول بعضُ المحقِّقين:** «معرفةُ مفردات اللغة نصفُ العلم؛ لأن كلَّ علمٍ تتوقف إفادتُه واستفادتُه عليها».
وسيأتي في آخر المبحث الثاني: طريق الفَهْم، أن العلّامةَ أبا تراب الظاهري (ت ١٤٢٣هـ) قد حفظ أربعين ألفَ مادّةٍ لغويّة!!

(١) هي رسالةٌ صغيرةُ الحجم عظيمةُ النفع، حقّقها حسين علي محفوظ، ونشرها في مجلة المجمع العلمي بدمشق (مجلد ٢٣/ ١٩٥٨م).
- وقد حذا حَذوَه الحريريُّ في مقاماته الأدبية، فوضع في المقامة الثانية والثلاثين المسمّاة (الطَّيْبيَّة) مسائلَ فقهيَّةً لها تعلُّقٌ باللغة. حرص فيها علىٰ الابتكار، فجاء بمائة فتوىٰ جديدة، لم يَرِدْ منها في (فُتيا فقيه العرب) إلاّ ستُّ فتاوىٰ، استعمل فيها ثلاثةَ ألفاظٍ بالمعاني التي ذهب إليها ابنُ فارس، وهي: البصير بمعنىٰ: الكلب، والدَّرْس بمعنىٰ: الحيض، والربيع بمعنىٰ: النهر، واستعمل ثلاثة الألفاظ الأخرىٰ بدلالاتٍ أخرىٰ.
- **قال العلّامةُ أحمدُ الشرقاوي إقبال:** «وليس ثَمّةَ فُتيا ولا هناك فقيهٌ، ولكنهم سَمَّوا هذا النوعَ من الألغاز بفُتيا فقيه العرب تَظرُّفًا وتَملُّحًا». معجم المعاجم (ص/ ٣٤٩).
وانظر: المجموع شرح المهذّب: للنووي (١/ ٢٤٣)، والمزهر: للسيوطي (١/ ٦٣٧).
(٢) إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة (١/ ١٢٩).
وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا وجد فقيهًا أو متكلِّمًا أو نَحْويًا كان يأمر أصحابَه بسؤالهم إياه، ويناظرُه في مسائلَ من جِنْس العلم الذى يتعاطاه، فإنْ وَجَدَه بارعًا جَدِلًا؛ جَرَّه في المجادلة إلىٰ اللغة، فيغلبُه بها! المصدر نفسه.

وقد عقد في «الصاحبي»[١] بابًا سمّاه: باب القول في حاجة أهل الفقه والفُتيا إلىٰ معرفة اللغة العربية. قال فيه: «أقول: إنَّ العلمَ بلغة العرب واجبٌ علىٰ كل متعلِّقٍ من العلم بالقرآن والسنة والفُتيا بسببٍ، حتىٰ لا غَنَاءَ بأحدٍ منهم عنه. وذلك أن القرآنَ نازلٌ بلغة العرب، ورسولُ الله ﷺ عربيٌّ. فمن أراد معرفةَ ما في كتاب الله جلَّ وعزَّ، وما في سنة رسول الله ﷺ، من كلِّ كلمةٍ غريبةٍ أو نظمٍ عجيبٍ لم يجدْ من العلم باللغة بُدًّا».

وكان شيخُنا العلّامةُ حمّادٌ الأنصاريُّ **يقول:** «إن تعلُّمَ اللغة يَلزم طالبَ العلم»[٢].

ومن أشهر المنظومات فيها:

١- «**نظمُ الفصيح**»: لأبي حامد عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد (ت ٦٥٥ هـ).

وهو منشورٌ[٣]، ويقعُ في نحو (٨٠٠) بيتٍ تقريبًا.

وهو نظمٌ لكتاب «الفصيح» لثعلب.

وكتابُ «الفصيح» من الكُتُبِ العُمَدِ في اللغة ومن أشهرِ دواوينها[٤]؛ فقد

---

(١) (ص/ ٥٠).

(٢) المجموع في ترجمة العلّامة المحدِّث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (٢/ ٥٨٧).

(٣) حقّقه الدكتورُ/ محمد بدوي المختون، ونُشر في مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس والعشرون عام ١٩٧٩م. وكنت قد صوّرتُه منها قديمًا، ولعلّه طُبع بعد ذلك.

(٤) روىٰ محمدُ بنُ الحسن البنّاء عن بعض شيوخه قولَه: «ثلاثةُ مختصراتٍ في ثلاثة علوم لا أعرف لها نظيرًا: الفصيح لثعلب، واللُّمع لابن جنّي، وكتاب الخِرقي، ما اشتغل بها أحدٌ وفهمها كما ينبغي إلا أفلح وأنجح». المنهج الأحمد ٢/ ٦٢.

ذكر العلّامةُ أحمد الشرقاوي إقبال أربعين كتابًا من الكتب التي دارتْ حولَه![1].

٢- «موطَّأةُ الفصيح»: للعلّامة مالك بن عبد الرحمن بن المُرحَّل المالَقي (ت ٦٩٩ هـ).

وتقعُ في (١٣٤٥) بيتًا[2].

وهو نظمٌ لكتاب «الفصيح» لثعلب أيضًا.

ونَظْمُ ابنِ المُرحَّل نَظْمٌ بديعٌ مُتقَنٌ سَلِسٌ، يدلّ على مَلَكَةٍ راسِخَةٍ لدى الناظِمِ، قال في مطلعها:

وبعدُ؛ هذا ما جرىٰ في خاطِري ... مِن غيرِ رأيِ نادِبٍ أو آمِرِ

أنْ أنظمَ «الفصيحَ» في سُلوكِ ... من رجزٍ مُهذَّبٍ مَسْبوكِ

وبعضَ ما لا بُدَّ من تفسيرِهِ ... وشرحِهِ، والقولَ في تقديرِهِ

من غيرِ أنْ أعدوَ ذاك المعنَىٰ ... واللفظَ، إلّا لاضْطرارٍ عَنّا

فالمرءُ قد تنتابُه الضَّرُورَهْ ... فتُصبِحُ النفسُ بها مقهُورَهْ!

رَجوتُ فيه مِن إلهي الأجْرَا ... والذِّكْرَ في عباده والشُّكْرَا

---

(١) معجم المعاجم (ص/ ٧٩ - ٨٦).

(٢) وهو مطبوعٌ ضمنَ «المجموع الكامل للمتون»، من منشورات دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

كما نشرتْه أيضًا دارُ الذخائر للنشر والتوزيع بالرياض، عامَ (١٤٢٤هـ) بتحقيق: الشيخ الفاضل عبد الله بن محمد (سفيان) الحَكَمي. وراجعه وصحّحه وزاد عليه: الشيخ محمد الحسن الدَّدَو الشِّنقِيطي.

٣- نظمُ كتابِ «كِفاية المتحفِّظ ونِهاية المتلفِّظ»: للقاضي شهاب الدين محمد بن أحمد الخُويي (ت ٦٩٣ هـ).

وهو مطبوعٌ متداوَلٌ.

وقد نظم فيه الخُوييُّ كتابَ «كفاية المتحفِّظ ونهاية المتلفِّظ» للإمام إبراهيم بن إسماعيل الطرابلسي المعروف بابن الأجدابي (ت ٤٧٠ هـ).

وهو من الكتب المعتَمَدَة في اللغة. قال مصنِّفُه في مقدِّمته: «هذا كتابٌ مختصرٌ في اللغة وما يُحتاج إليه من غريب الكلام، أودعناه كثيرًا من الأسماء والصفات، وجنّبناه حُوشيَّ الألفاظ واللغات، وأعريناه عن الشواهد؛ لِيَسهلَ حِفظُه ويَقرُبَ تناولُه، وجعلناه مُغْنِيًا لمن اقتصر في هذا الفن، ومُعِينًا لمن أراد الاتّساعَ فيه، وصنَّفناه أبوابًا».

- وهناك ألوانٌ أخرىٰ من فُروع اللغة نَظَمَ فيها العلماءُ، كالمثلَّثات، والمقصور والممدود، والأضداد، وما يُنطقُ بالضاد والظاء من الكَلِم... وغيرِ ذلك من الفروع، التي لو استقصيناها لطال الكتابُ بسرْدها، لكنني أكتفي هنا بذكر المثلَّثات، لأهميتها ولطافتها[١].

---

(١) وانظر للتوسّع: بحث «**المثلّثات اللغويّة، متونها ومنظوماتها حتىٰ نهاية المائة السابعة للهجرة**»، المنشور في (حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر) العدد التاسع، ١٤٠٦ هـ للدكتور: جلال شوقي.

وبحث «**المثلّثات اللغويّة، متونها ومنظوماتها من القرن الثامن إلىٰ القرن الثالث عشر الهجري**»، المنشور في (حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر) العدد العاشر، ١٤٠٧ هـ للباحث نفسه.

والمقصودُ بالمثلَّثات، تلك الكلماتُ التي تتعاقَبُ علىٰ أوّلِها أو وَسَطِها الحركاتُ الثلاثُ (الضمُّ والفتحُ والكسرُ) مع اختلافِ المعنىٰ أو اتّحادِه.

ومِن أشهرِها:

- «**نظمُ المثلّثِ القُطْرُبي**»: المثلّثُ: لمحمد بن المستنير المعروف بقُطْرُب (ت ٢٠٦هـ)، الذي اشتهر في الآفاق رُغمَ وَجَازتِه؛ لكونه أوّلَ مَنْ وضعَ المثلّثَ في اللغة. والنظمُ: لسديد الدين عبد الوهاب بن الحسين البهنسي (ت ٦٨٥هـ)، **أوّلُه:**

يـــا مُولَعًـــا بالغضـــبِ ... والهجْـــرِ والتجنُّـــبِ

هَجْـــرُك قـــد بـــرَّح بـــي ... في جِـــدِّهِ واللعِـــبِ

- «**الإعلام بمثلّث الكلام**» لابن مالك الجيّاني (ت ٦٧٢هـ).

تقع في (٢٧٠٤) بيتًا.

وهي أرجوزةٌ مربَّعةٌ مُحْكَمةُ السبْكِ. **منها قولُه في أولها يصف كتابَه:**

أَحْـوِي بـه أكثـرَ تثليـثِ الكَلِـمْ ... نحـوُ: حَلَمْـتُ، وحَلِمْـتُ، وحُلُـمْ

فَحَـوْزُ هـذا الفـنِّ محمـودٌ مُهِـمْ ... بـه اعتنـىٰ قِـدْمًا أولـو الألبـابِ

❋❋❋

وهـــا أنـــا آتـــي بـــه مُبوَّبـــا ... علـــىٰ الحـــروفِ بيِّنًـــا مرتَّبـــا

مُلَخَّصًـــا، مُخَلَّصًـــا، مُهَـــذَّبا ... ينقـــادُ معنـــاهُ بـــلا اسْتِصْـــعابِ

- «**نيلُ الأرَب في مثلَّثات العرَب**» للشيخ حسن قويدر الخليلي المصري (ت ١٢٦٢هـ).

تقع في (٢٢١٠) بيت.

وهي منظومةٌ جامعةٌ بديعةٌ.

وكلُّها بحمد الله مطبوعةٌ.

هذه هي أبرزُ المنظومات التعليميّة في شتَّىٰ العُلُوم والفُنُون.

***

ب- الضوابطُ العِلْميّةُ للمسائل الجُزئيّة:

هذا هو القسمُ الثاني من أقسام النَّظْم التَّعليميّ، حيثُ أفرَدَ العلماءُ بعضَ الفصول والمسائل بنظمٍ مستقلٍّ؛ نظرًا لأهمّيّتها.

وهذه الفصولُ والمسائلُ إما أنْ يُفرِدوا لها منظومةً كاملةً، وإمّا أنْ يَنظموا فيها عدَدًا من الأبيات؛ قد تَقِلُّ وقد تكثُرُ بحَسَب حال كلّ مسألةٍ.

فمِنَ النوعِ الأوَّلِ:

١- **منظومةُ متشابه القرآن**: لعَلَم الدّين السخاوي.

٢- **منظومةُ معرفة المكيّ والمدنيّ**: لابن الحصّار.

٣- **أُرجوزةُ أقسامِ العِدّة وأحكامِها**: لعبد الله الهبطي.

٤- **نظمُ الاستعارة**: للطيّب بن كيران.

٥- **منظومةُ «التهذيب، لمراتب الرواة عند الحافظ ابنِ حجرَ في التقريب»**: للمؤلِّف. وغيرُها[١].

---

(١) قُمتُ - بفضلِ اللهِ - بجمع طائفةٍ كبيرةٍ من هذه المنظومات من شتّىٰ المصادر، يسّر اللهُ طبعَها بمنّه وكرمه.

أمّا النَّوعُ الثاني: وهو نظمُ المسألة في عددٍ من الأبيات؛ وهو ما يُسمَّىٰ الأبياتَ الحاصرةَ أو الجامعةَ، فهذا كثيرٌ جدًّا، تتعسَّرُ الإحاطةُ به[(١)].

ومِن الأمثلة علىٰ ذلك:

- **قولُ السيوطي في المواضع التي يَتَأَكَّدُ فِيهَا السِّوَاكُ:**

يُسَنُّ اسْتِيَاكٌ كُلَّ وَقْتٍ، وَقَدْ أَتَتْ ... مَوَاضِعُ بِالتَّأْكِيدِ خَصَّ الْمُبَشِّرُ

وُضُوءٌ، صَلَاةٌ، وَالْقُرَانُ، دُخُولُهُ ... لِبَيْتٍ، وَنَوْمٌ، وَانْتِبَاهٌ، تَغَيُّرُ[(٢)]

- **وقولُ ابن النحّاس في عَدِّ موانع الصَّرْف[(٣)]:**

موانعُ الصَّرْف تِسعٌ إن أردتَ بها ... عونًا لتبلغَ في إعرابك الأمَلا

اجْمَعْ، وزِنْ، عادِلًا، أَنِّثْ، بمعرفةٍ ... ركِّبْ، وزِدْ، عُجمةً، فالوصفُ، قد كَمَلا

- **وقولُ بعضِهم في الأشياء التي يُستحبُّ تعجيلُها:**

وَخَمسَةٌ قَد رَوُوا تَعجيلَها حَسنٌ ... وَفي سِواها تأنَّ واسْعَ في مَهَلِ

تَزويجُ كُفؤٍ، وَمَيْتٌ، هاكَ ثالِثَها ... دَفعُ الديونِ، وَتُب لِلَهِ مِن زَلَلِ

وَالخامِسُ: الضَيفُ إِن يَأتِيكَ في نُزلٍ ... فَجُدْ لَهُ بِالقِرىٰ بِالجِدِّ وَالعَجَلِ[(٤)]

---

(١) جَمعتُ - بحمدِ اللهِ - من ذلك شيئًا كثيرًا، يفوقُ ما جَمَعَه كُلُّ الذين ألّفوا قَبْلي في هذا الباب، ولعلّه يكونُ في عِدّةِ مجلَّداتٍ، يسّر اللهُ طبعَه ونشرَه.

(٢) الأشباه والنظائر (ص/ ٤٢٧).

(٣) **انظر**: شرح التصريح علىٰ التوضيح: للشيخ خالد الأزهري (١/ ٨٤).

(٤) آداب الأكل: للأقفهسي (ص/ ٤٩).

- ومن العَجَيب أنَّ العلّامةَ عبدَ الله بنَ عبد الرحمن الدّنُوشَري (ت ١٠٢٥هـ) نَظَمَ اللغاتِ في كلمة (اسم) - وهي ثمانِ عَشرةَ لغةً - في بيتٍ واحدٍ!! هو:

سُمَاءٌ، سُمٌ، واسْمٌ، سُماةٌ، كذا سُمًا وزِدْ سُمَةً، واثْلُثْ أوائِلَ كُلِّهَا!![1]

ومعنىٰ قوله: (واثْلُثْ أوائلَ كُلِّها) أي: اجعلْ الحرفَ الأولَ في كلّ كلمةٍ: مضمومًا، ومفتوحًا، ومكسورًا، فينتُج عن كلّ كلمةٍ منها ثلاثُ لغاتٍ!

ونحوُه قولُ أبي بكر بنِ عثمان ابن العجمي الحلبي:

أُنْمولةٌ، وكذا الأُصْبُوعُ، هَمْزَهَمَا والميمَ والباءَ ثَلِّثْ، حيثُ لا واوُ

يريدُ أنّ في كلٍّ من أُنمُلَة وأصبع عشرَ لغاتٍ، تسعٌ حاصلةٌ من تثليث الأول والثالث، والعاشرةُ بالواو: أُنْمُولَةٌ، وأُصْبُوعٌ![2].

---

(١) حاشية محمد محيي الدين عبد الحميد علىٰ أوضح المسالك (١/ ٣٥).

(٢) الدرر الكامنة: لابن حجر (١/ ٤٤٨).

- وأعجبُ من هذا؛ بيتان من الشِّعْر جَمَعَتْ أسماءَ بحور الشِّعْر الثمانيةَ عشرَ مع أوزانها علىٰ سبيل الرَّمْز!!

وقد أفادني بذلك أستاذي البحّاثة/ محمّد عُزَيْر شَمْس - أحدِ المتمكِّنين في فنِّ العَرُوضِ - حيثُ زعمَ أنّ البيتَ هو:

مُسْ رَجْ، عِلَا رَمَ، عِيلَ هَزْ، وَافِرْ لَتُنْ، كَامِلْ تَفَا،

عُولُنْ تَقَا، رِكْ فَاعِلُنْ، بَسْ مَعْ مُسٍ، مَدْ مَعْ عِلَا

ومعنىٰ البيت: (مُسْ) أي: مستفعلن، و(رَجْ) أي: بحر الرَّجَز. و(عِلَا) أي: فاعِلاتن. و(رَمَ) =

وفي مقامات ناصيف اليازجي «مجمع البحرين» منظوماتٌ كثيرةٌ ونفيسةٌ من هذا القبيل[١].

***

رابعًا: الشعرُ البديعُ:

ينبغي لطالب العلم أنْ يُخصِّصَ طَرَفًا من وقتِه لحفظ روائع الشِّعر العربيّ الفصيح، من قصائدَ ومُقطَّعات، وما يَجري منها مَجرىٰ الحِكَم والأمثال؛ لِتقْوَىٰ ذائقتُه الأدبيّة، ومَلَكَتُه النقديّة، وليَستشهِدَ بها في الدُّروس والمحاضرات والمجالس والأبحاث ونحوِها؛ فإنّ كثيرًا من طلّاب العلم اليومَ لديهم فاقةٌ

=

أي: بحر الرَّمَل... وهكذا دَوالَيْك

ولا أدري من أيِّ بحرٍ أو محيطٍ هذا البيتُ!!

بَيْدَ أنّ هناك بيتًا آخرَ - لم يَحفظْهُ الشيخُ عفا اللهُ عنه! - يجمعُ البحورَ التسعةَ الأخرىٰ! فتكمُلُ البُحُورُ كلُّها وأوزانُها في بيتَيْنِ اثنيْنِ فحسْب!!

وقد تطلّبتُ البيتَ الآخَرَ كثيرًا عَلِّي أظفرُ به؛ فلم أقفْ له علىٰ أثرٍ! فرَحِمَ اللهُ امْرًا صالحًا أرْشَدَنا إليه.

تنبيه: الذي يَنقدحُ في ذِهني - بحسَب السليقة - أنّ هذا بيتانِ وليس بيتًا واحدًا، وأنه هكذا:

مُـــسْ رَجْ، عِـــلَا رَمَ، عِيْــلَ هَــزْ، وَافِــــرْ لَـــــتُنْ، كَامِـــلْ تَفَـــا

عُـــــوْلُنْ تَقَـــــا، رِكْ فَــــاعِلُنْ، بَــسْ مَــعْ مُــسٍ، مَــدْ مَــعْ عِــلَا

وبهذا يستقيمُ الوزنُ العَروضيُّ ويكونُ من مجزوء الرجز، واللهُ أعلم.

(١) قُمتُ بتجريدِها وشرحِها في كتابٍ مستقلٍّ سمّيتُه: «الجامع العزيز، لما استبْطَنَهُ مجمعُ البحرين من روائع الأراجيز» ضمنَ سِلْسِلة (ضَنائِنِ الدَّفائِن).

شديدةٌ في هذا الجانب! ولذا تجدُ مَلَكَاتِهم الأدبيّةَ والنقديّةَ ضعيفةً جِدًّا![1].

---

(١) قال الخطيبُ البغدادي: «في الشعر الحِكَمُ النادرةُ، والأمثالُ السائرةُ، وشواهدُ التفسير، ودلائلُ التأويل، فهو ديوان العرب، والمقيِّدُ للغاتها، ووجوه خطابها؛ فلَزِمَ كَتْبُه للحاجة إلىٰ ذلك». الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٩٧).

- وقال النُّويريُّ في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب (٧/ ٣٢) في فصل: (ذِكْر ما يحتاج الكاتبُ إلىٰ معرفته من الأمور الكُلّية) بعد أن ذَكر عدّةَ أشياء: «ثم حِفظُ أشعار العرب، ومطالعةُ شروحها، واستكشافُ غوامضها، والتوفّرُ علىٰ ما اختاره العلماء بها منها، كالحماسة، والمفضّليّات، والأصمعيّات، وديوان الهذليّين، وما أشبهَ ذلك؛ لما في ذلك من غزارةِ الموادّ، وصحّةِ الاستشهاد، والاطّلاع علىٰ أصولِ اللّغة، ونوادرِ العربيّة؛ وقد كان الصدرُ الأولُ يَعتنون بذلك غايةَ الاعتناء، وقد حُكيَ أنّ الإمامَ الشافعيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يحفظ ديوانَ هُذَيْل!

فإذا أكثرَ المترشِّحُ للكتابة مِن حِفْظِ ذلك، وتدبُّرِ معانيه، سَهُلَ عليه حَلُّه، وظَهرتْ له مواضعُ الاستشهاد به، وساقه الكلامُ إلىٰ إبراز ما في ذخيرة حِفظِه منه، ووضْعِهِ في مكانِه، ونقْلِه في الاستشهاد والتضمين إلىٰ ما كأنّه وُضِعَ له، كما اتّفق للقاضي أبي بكر الأرّجاني في تضمين أنصاف أبيات العرب في بعض قصائده، فقال:

وأَهْدِ إلىٰ الوزيرِ المدحَ يَجعلْ	(لكَ المِرْباعَ مِنها والصَّفَايَا)
ورافِقْ رُفقةً رَحَلوا إليه	(فآبُوا بالنِّهَابِ وبالسَّبَايَا)
وقلْ للرَّاحِلَين إلىٰ ذُرَاهُ:	(ألسْتُمْ خيرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا)؟
ولا تَسلُكْ سِوىٰ طُرُقي فإنّي	(أنا ابنُ جَلَا وطَلّاعُ الثّنَايَا)!

وقال بديعُ الزمان الهمذانيّ: «أنا لِقُرْبِ دارِ مَولايَ **(كما طَرِبَ النشوانُ مالتْ به الخَمرُ)**. ومِن الارتياح إلىٰ لقائِه **(كما انتفضَ العُصْفورُ بَلَّلهُ القَطْرُ)**. ومِن الامتزاج بولائِه **(كما التقتْ الصَّهْباءُ والبَارِدُ العَذْبُ)**. ومِن الابتهاجِ بمزارِه **(كما اهتزّ تحتَ البارِحِ الغُصُنُ الرَّطْبُ)**!».

=

فالشِّعْرُ ديوانُ العرب؛ ولسانُها الناطق[١]، كما قال أبو فِراس الحَمْداني:

=

- وطالِعْ القصيدةَ الشمقمقيّة فقد ذكر ناظمُها ابنُ الونّان، أبياتًا كثيرةً في الحثّ علىٰ حفظِ الشعر، استهلَّها بقولِه:

واعْنَ بقولِ الشعرِ فالشعرُ كَما ... لُ للفتىٰ إنْ لّمْ بهِ يَرْتَزِقِ

فَهِمْ بهِ؛ فإنه لا شكَّ عُنوا ... نُ الحِجَا والفَضْلِ والتَّحَذْلُقِ

- وحدَّثني مَنْ شاهدَ شيخَ شيوخِنا العلّامةَ محمدَ الأمين الشنقيطيّ في المسجد النبوي يطالعُ كتابَ «مصارع العُشّاق» للسرّاج (ت ٥٠٠ هـ) - وهو كتابٌ في الغزل! - في يوم جمعةٍ قبلَ صعودِ الخطيبِ المنبرَ! فلمّا سأله قال: إنه يَحفظُ ما فيه من الأشعار؛ ليستفيدَ منها في تفسير القرآن وغيرِه من العلوم.

- وممّا يؤيّدُ فعلَ الشيخ الشنقيطي، ما جاء عن ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «إذا سألتموني عن عربيّة القرآن، فالتمسوه بالشعر؛ فإنّ الشعرَ ديوانُ العرب». الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٩٨).

وعن يوسف بن مهران، وسعيد بن جبير، أنهما قالا: «كنّا نسمع ابنَ عباس كثيرًا يُسأل عن القرآن، فيقول: «هو كذا وكذا، أمَا سمعتم الشاعرَ يقول: كذا وكذا». المصدر نفسه.

(١) قال ابنُ خلدون: «اعلم أنّ فنَّ الشعر من بين الكلام كان شريفًا عند العرب، ولذلك جعلوه ديوانَ علومهم وأخبارهم، وشاهدَ صوابهم وخطئهم، وأصلًا يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم. وكانت ملكتُه مُستحكِمةً فيهم شأنَ ملكاتِهم كلِّها». المقدمة (ص/ ٦٤٧).

فائدة: قال ابنُ معصوم: «اعلمْ أنّ الشِّعْرَ من خواصّ لغة العرب، ولم يكن في غيرها من اللغات، وما يُذكر أنه كان لليونانيّين شِعْرٌ فليس المرادُ به هذا الشِعْرَ، وإنما كانوا يؤلِّفون الألفاظَ المشتملةَ علىٰ المعاني التي تُورِثُ النفسَ انفعالًا من قَبضٍ أو بَسطٍ، ولا يُراعون وزنًا ولا قافيةً.

وأما ما هو المشهورُ الآنَ من الشِّعْر الذي للفُرْس والتُّرْك ونحوهم، فهو أمرٌ حادِثٌ أخذوا طريقتَه من العرب، وتتبَّعوا أقوالَهم وأوزانَهم، واستخرجوا بأفكارهم بُحُورًا زائدةً. وقد يكون لغير العرب إلىٰ الآنَ أيضًا ألفاظٌ يَتغنَّوْن بها، ويَتصرَّفون فيها بحسب ما يُريدون من الألحان

=

الشّـــعرُ دِيـــوانُ العَـــرَبْ أبَــدًا، وعُنــوانُ النَّسَــبْ
لَــمْ أعْــدُ فِيــهِ مَفَــاخِري ومَــديحَ آبــائي النُّجُــبْ
ومُقَطَّعَــــاتٍ ربّمــــا حَلّيْــتُ مِــنْهُنّ الكُتُــبْ
لا في المـــديحِ ولا الهجـــا ءِ وَلا المُجُــونِ وَلا اللّعِــبْ(١)

وفي صحيح البخاري(٢) عن أبيّ بن كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً».

وقال جابرُ بنُ معدان: «كلُّ حِكْمةٍ لم يَنزلْ فيها كتابٌ، ولم يُبعَثْ بها نبيٌّ، ذَخَرَها اللهُ حتىٰ تَنطقَ بها ألسُنُ الشعراء»(٣).

وقال أبو تمّام:

ولولا خِلالٌ سَنَّها الشِّعْرُ ما دَرَىٰ بُناةُ المعالي كيفَ تُبْنَىٰ المكَارِمُ؟

وقد كان العلماءُ وطلّابُ العلم يَقرؤون دواوينَ الشعراء علىٰ الأشياخ، ويَضْبِطونها عليهم، كما ترىٰ ذلك في كتب المشْيَخَات، والأثْبَات، والفَهَارِس، والبَرامِج، والمعاجم.

بل كان بعضُهم يَسْتظهِرُ دواوينَ الشِّعْرِ! -وليس القصائدَ فحسْب- لا سيّما دواوينُ الشعراء المشهورين؛ كامرئ القيس، وجرير، وأبي تمّام، والمتنبّي،

=

من دون رجوعٍ إلىٰ وزنٍ أو قافيةٍ والله أعلم». أنوار الربيع في أنواع البديع (٢/ ٣٨٤).

(١) ديوان أبي فراس الحمْداني (ص/ ٣٣).

(٢) (٥/ ٢٢٧٦) رقم (٥٧٩٣).

(٣) بهجة المجالس: لابن عبد البرّ (١/ ٣٨).

والمعرّي... ونُظَرائِهم[١].

(١) قال العبّاسي عن أبي تمام: «كان له من المحفوظات ما لا يَلْحقهُ فيه غَيرُه، حتىٰ قيل: إنّه كان يَحفظ أَرْبَعَةَ عشرَ ألف أرجوزةٍ للْعرب غيرَ المقاطيع والقصائد!!» معاهد التنصيص: للعباسي (١/ ٣٨).

ونُقل عنه أنه وَضَعَ المصْحَفَ بين يديه وأقْسَمَ أن لّا ينال طعامًا ولا شرابًا إلّا بعد أن يحفظ ديوانَ مسلم بن الوليد!!

- وكان أبو عبد الله إبراهيمُ بنُ محمد بن عرفة بن سليمان العتكي، الأزدي، الواسطي، المشهور بنِفْطَويه (ت ٣٢٣هـ) يحفظ «نقائضَ جرير والفرزدق»، وشِعرَ ذي الرُّمة!

انظر: تاريخ الإسلام (٧/ ٤٧٣)، وسير أعلام النبلاء: للذهبي (١٥/ ٧٦).

- وكان الدارقطنيُّ يحفظ دواوينَ جماعةٍ من الشعراء! منهم السَّيّدُ الحِمْيَريُّ الشيعيُّ. ولذا نُسِب للتشيّع!

انظر: تاريخ بغداد: للخطيب (١٣/ ٤٨٧)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٤٣/ ٩٧)، والأنساب: للسمعاني (٥/ ٢٧٤).

قال الحافظُ الذهبيُّ في تذكرة الحفاظ (٣/ ٩٩٢) منافِحًا عنه: «ما أبعدَه عن التشيّع»!

- وجاء في ترجمة علي بن محمد بن الحسين، ابن العميد الوزير الشهير (ت ٣٦٦ هـ)، أنه ما أَنشدَ شعرًا قطُّ لم يَحفظْ ديوانَ صاحبه! ولا غُرِّبَ عليه بشعرٍ قديمٍ ولا محدَثٍ ممّن يَستحق أن يُحفظَ شعرُه! وكان يُنشِدُ دواوينَ قومٍ مجهولين! انظر: تجارب الأمم وتعاقب الهِمم: لابن مِسْكَويه (٦/ ٣١٥).

ومِن لطيف خبره ما حدّث به أبو الحسن عليُّ بنُ القاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كنتُ أُرَوِّي ابني أبا القاسم القصائدَ الغريبةَ من دواوين القدماء؛ لأنّ الأستاذَ الرئيسَ (ابنَ العميد) كان يَستنشدُه إذا رآه، وكان لا يخلو إذا أَنشدَه من ردٍّ عليه في تصحيفٍ أو لحنٍ مما يَذهب علينا. فكان ذلك يَشُقُّ عَليّ، وأُحِبُّ أنْ تَصحَّ له قصيدةٌ لا يعرفُها الأستاذُ الرئيسُ أو لا يَردُّ عليه فيها شيئًا!

فأعياني ذلك، حتىٰ وقع إليّ ديوانُ الكُمَيْت وهو مُكْثِرٌ جِدًّا، فاخترتُ له ثلاثَ قصائدَ غريبةً ظننت أنّها ما وقعتْ إلىٰ الأستاذ الرئيس، وحفّظتُه إيّاها، وتوخّيتُ الحضورَ معه. فلما وقع بصرُه عليه قال: هات أبا القاسم أنشدني شيئًا مما حفظتَه بعدي.

=

=

فابتدأ يُنشدُه، فلمّا استمرّ في قصيدةٍ من هذه القصائد قال له: قِفْ، فقد تركتَ من هذه القصيدة عِدّةَ أبياتٍ ثم أنشده إيّاها!! فخَجِلتُ خَجْلةً لم أخجلْ مثلَها!

ثم استزاد، فأنشده القصيدةَ الأخرىٰ، فأَسقَطَ فيها كما أسقَطَ في الأولىٰ، واستدركَه عليه أيضًا!!

قال: فعلمتُ أنّ الرجلَ بحرٌ لا يُنزَفُ، ولا يُؤْبَىٰ (ينقطع) ما عندَه». المصدر نفسه.

- وكان السلطانُ صلاحُ الدين الأيوبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحفظ ديوانَ الحماسة لأبي تمام! **انظر**: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: لابن بدران (ص/ ٢٩٢).

- وكان ابنُ رُشْد الحفيدُ (محمد بن أحمد القرطبي) يحفظ ديوانَ أبي تمام والمتنبّي! **انظر**: تاريخ الإسلام (١٢/ ١٠٤١)، وسير أعلام النبلاء: للذهبي (٢١/ ٣٠٨)، والوافي بالوفيات: للصفدي (٢/ ٨٢).

- وكان شرفُ الدين، أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم بن الحسين الهذباني، الإربلي يحفظ ديوانَ المتنبّي! **انظر**: سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٣٥٥).

- وكان سليمانُ بنُ عَسْكَر بن عَسَاكِر الحبراصي ثمَّ الدمشقي يحفظ ديوَان الصَّرْصَريّ. **انظر**: المقصد الأرشد: لابن مفلح (١/ ٤٢٨).

- وكان عبدُ القاهر بنُ محمد بن عبد الله بن يحيىٰ الوكيل المعروف بابن الشطوي (ت ٥٦٣ هـ) يحفظ ديوانَ المتنبّي! الوافي بالوفيات: للصفدي (١٩/ ٣٤).

- وكان محمدُ بنُ عبد الملك بن زهر الإيادي (ت ٥٩٥ هـ) يحفظ ديوانَ ذي الرُّمّة، وفيه ثلثُ لغة العرب! **انظر**: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٢٦).

- وكان أحمدُ بنُ محمد بن أحمد أبو العباس الرُّعَينيّ الإشبيليّ (ت ٦٠٤هـ) يحفظ ديوانَ «سَقْط الزّنْد» للمعرّي! **انظر**: تاريخ الإسلام: للذهبي (١٣/ ٩٠).

- **وقال الأديبُ نصرُ الله بنُ محمد بن محمد الجزري، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنتُ حفظتُ من الأشعار القديمة والمحدَثة ما لا أُحصيه كثرةً، ثم اقتصرتُ بعد ذلك علىٰ شعر الطائيّيْن: حبيبِ بنِ أوس، وأبي عبادة البحتري، وشعرِ أبي الطيب المتنبي، فحفظتُ هذه الدواوين الثلاثة! وكنتُ أُكرِّرُ عليها بالدرْس مدةَ سنين، حتىٰ تمكّنت من صوغ المعاني، وصار الإدمانُ لي خُلُقًا وطبعًا.

فلا تقنعْ -أيُّها الخائضُ في هذا البحر- إلّا بأنْ تَفعلَ ما فعلتُه، وتَسلكَ ما سلكتُه. إلّا أني لا أنصُّ عليك بحفظ هذه الأشعار الثلاثة بعينها؛ فإنّ في الأشعار كثرةً، ولكلٍّ نظرٌ واجتهادٌ.

=

وإنما ذكرتُ لك ذلك؛ لتعلمَ وُعُورةَ هذه الطريق وطولَها، فتأخذَ للأمر أُهْبتَه، وتُوفِيه رُتبتَه. والله الموفق، وبه الحول والقوة.

وهذا الموضع لا بدّ من إمْحاض النصيحةِ فيه للمُتعلِّم؛ وذلك أني قلّبتُ الأشعارَ تقليبَ السَّماسِرَةِ للمَتَاعِ، ووَزَنتُها بالقِيراط، وكِلْتُها بالـمُدّ والصَّاع. وما عَدَلْتُ إلىٰ الطائِيّيْن إلّا عن نظرٍ، وما آثرتُهم إلّا أخذًا بالعينِ لا بالأثر». الوشْي المرقوم في حَلّ المنظوم (ص/ ١٨١ - ١٨٢).

لطيفة: قال أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيىٰ الحِمْيري ذات يوم لبعض طلّابه وقد تعجّبوا من حفظه ديوانَ المتنبي: «بعيدًا أن تُفلحوا! يَعجبُ أحدُكم من حفظ ديوان المتنبي!! واللهِ لقد أدركتُ أقوامًا لا يَعدُّون مَنْ حفظ كتابَ سيبويه حافظًا ولا يَرونه مجتهدًا!!». المعجب في تلخيص أخبار المغرب: للمراكشي (ص/ ٣٨٠).

وليس أمرُ حفظِ دواوين الشعراء مقصورًا علىٰ المتقدِّمين فحسْب!

- فقد ذكروا عن الأستاذ ناصيف اليازجي (ت١٨٧١م) - وهو من نصارىٰ لبنان - أنه كان يحفظ شِعرَ المتنبي بيتًا بيتًا، لا يُخِلُّ بحرفٍ!

ومن غريب قوّة ذاكرته ما يُروىٰ: أنه كان إذا نظم الشعرَ لا يكتبه بيتًا بيتًا، بل كان ينظم القصيدة في ذاكرته ثم يكتبُها! انظر مقدِّمة كتابي «الجامع العزيز».

- وذَكَر الأستاذُ أحمدُ الزين أنّ الشاعرَ المصريّ إسماعيلَ صبري (ت ١٩٢٣م) كان يحفظُ ديوانَ عمر بن الفارض! انظر: في الأدب الحديث: للدسوقي (٢/ ٣٤٦).

- وكان شِبلي النعماني (ت ١٣٣٢ هـ) يحفظ ديوان «الحماسة» لأبي تمام! انظر: حياة شِبلي: لسليمان الندوي.

- وكان الدكتور/ زكي مبارك (ت ١٩٥٢م) يحفظ ديوانَ المتنبّي كما ذكر عن نفسه! انظر مجلة الرسالة العدد: (٢٥٠) (ص/ ٦٥٣).

- وكان العلّامةُ محمدُ البشير الإبرهيمي (ت ١٩٦٥م) يحفظ المعلَّقاتِ، والمفضَّليّاتِ، وشعرَ المتنبي كلَّه، وكثيرًا من شعر الرَّضي وابنِ الرومي وأبي تمام والبحتري وأبي نواس، كما استظهرَ كثيرًا من شعر جرير والأخطل والفرزدق!! انظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٥/ ١٦٥).

- وكان الأستاذُ المحقّقُ/ عبدُ العزيز الميمني الرّاجَكوتيّ الهنديّ (ت ١٩٧٨م) يحفظُ ديوانَ المتنبّي وحماسة أبي تمّام بتمامِهما!

=

فينبغي للطالبِ أنْ يَحفظَ عُيونَ الشِّعرِ وروائعَه؛ سواء من الدواوينِ مباشرةً أو من كتبِ المختاراتِ الشِّعْريّةِ.

ومِن أفضلِ كتبِ المختاراتِ الشِّعْريّةِ؛ التي أُوصِي بها:

- «**ديوان الحماسة**»: لأبي تمّام، حبيب بن أوس الطائي.
- «**المُختارَاتُ**»: للبَارُودي.
- «**قولٌ علىٰ قولٍ**»: لحسن سعيد الكَرْمي. وهو وإنْ كان ليس من كتب الاختيارات، إلّا أنه قد اشتمل علىٰ أشعارٍ كثيرةٍ بديعةٍ.
- «**الشَّوارِدُ**»: لعبد الله بن خميس.
- «**مَجْمعُ الحِكم والأمثال في الشعر العربي**»: لأحمد قبّش. ويتميّز بذِكْره شعرَ المعاصرين، وتبويباته العَصْريّة.
- «**التمثُّل بالشعر**»: لمحمد بن إبراهيم الحمد. وهو مختصرٌ جيّدٌ، وترتيبه لطيفٌ.

ويُلحَقُ بما تقدَّم، ما رشّحهُ العلماءُ والأدباءُ من القصائدِ للحفظِ[1]،

=

وسُئل مرةً كم تحفظُ من أشعار العرب؟ فقال: نحوَ مئةِ ألفِ بيتٍ!!

انظر: تكملة معجم المؤلفين: لمحمد خير رمضان (ص/ ٣٠٧)، ومقدمة بحوث وتحقيقات عبد العزيز الميمني: لمحمد عُزير شمس (١/ ٧ و٢٢).

- وكان العلّامةُ محمودُ شاكر (ت ١٩٩٧م) يحفظُ ديوانَ المتنبّي كاملًا! ذكر ذلك ابنُه فِهْرٌ.
- وذكروا عن الشيخ ناصر بن إبراهيم رحماني الجزائري (ت ٢٠٠٤م) أنه كان يحفظُ ديوانَ جَرير!

(١) كالمعلَّقات، والمجمهَرات، والمنتقَيات، والمذهَّبات، والمشُوبات، والملْحَمات. انظرها في: جمهرة أشعار العرب (ص/ ٩٥ فما بعد).

=

وكذا الأشعارُ التي يُورِدُها أصحابُ كتب الأدب، ومِن أفضلِها انتقاءً:

- «**العِقْدُ الفريدُ**»: لابنِ عبدِ ربِّه الأندلسي.

وهو من أنفس كتب الأدب.

- «**زَهْرُ الآداب وثمرُ الألباب**»: لإبراهيم بن علي الحُصْري القيرواني.

- «**ديوان المعاني**»: لأبي هلال العسكري.

- «**بهجةُ الـمَجَالِس، وأُنْسُ الـمُجَالِس، وشَحْذُ الذاهِنِ والهاجِس**»: لابن عبد البَرّ القرطبي.

وهو أنظفُ كتبِ الأدب وأنقاها.

- «**ربيعُ الأبرار ونصوصُ الأخبار**»: للزمخشري.

وهو أحسنُ الكتب الأدبيّة - في نظري - علىٰ الإطلاق.

=

- **ومِثْلَ ما قاله أبو بكر الخُوارزمي**: «مَنْ روىٰ حَوْليَّاتِ زُهيرٍ، واعتذاراتِ النابغةِ، وأهاجي الحُطيئةِ، وهاشِميّاتِ الكُمَيْتِ، ونقائضِ جريرٍ، وخَمْريّاتِ أبي نُوَاس! وتشبيهاتِ ابنِ المعتزّ، وزُهديّاتِ أبي العتاهية، ومراثي أبي تمامٍ، ومدائحِ البُحتريِّ، ورَوْضِيّاتِ الصُّنوبريِّ، ولطائفِ كُشَاجِم، ولم يَخْرُجْ في الشعر (أي يُصبحَ شاعرًا متقنًا)، فلا أَشَبَّ اللهُ قَرْنَه!!». مفيد العلوم ومبيد الهموم (ص/ ٤٩٠).

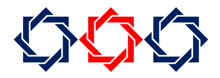
ونقل كلامَه الثعالبيُّ في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (ص/ ٢١٦) وزاد: «وقلائدِ المتنبّي». **وانظر**: مطالع البدور ومنازل السرور: للغُزولي (١/ ٢٣٥).

وطالعْ شرحَها في مقالة: (مقالة الخُوارزمي في الشعراء) للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي، المنشورة في مجلة الرسالة، العدد: (٧٤٢) (ص/ ١٠٣١).

- **قلتُ**: ويمكن أن يُضافَ إلىٰ ما قاله الخُوارزميُّ: حماسيّاتُ عنترة، ورُوميّاتُ أبي فِراس، ووصايا ابنِ عبد القدُّوس، وافتخاراتُ الشريف الرضي، وسيفيّاتُ المتنبّي، ووصفيّاتُ ابن الرومي. والله أعلم.

- «**محاضراتُ الأدباء**»: للراغب الأصفهاني.

هذا ما يتعلّق بجانب الحفظ، وسوف نشرَعُ الآنَ بذكر ما يتعلّق بجانبِ فهمِ العلمِ وإتقانِه، واللهُ الموفّقُ.






وأفضــلُ قَسْــمِ اللهِ للمَــرءِ عقلُــهُ ... فليسَ مـن الخيـراتِ شَـيءٌ يُقارِبُـهْ

إِذا أكمـلَ الـرحمنُ للمَـرْءِ عَقلَـهُ ... فقــدْ كَمُلَــتْ أخْلاقُــهُ ومَآرِبُــهْ

يَعـيشُ الفتـىٰ بالعقـلِ في كـلِّ بلـدةٍ ... علىٰ العقلِ يَجـري عِلْمُهُ وتجارِبُهْ

ومَـنْ كـانَ غَلّابًـا بعقـلٍ ونَجْـدَةٍ ... فـذُو الجَـدِّ في أمـرِ المعيشـةِ غَالِبُـهْ!

فـزِينُ الفتـىٰ في النـاسِ صِـحَّةُ عقلِـهِ ... وإِنْ كـان مَحْصُـورًا عليـهِ مَكاسِـبُهْ

وشِـينُ الفتـىٰ في النـاسِ قِلَّـةُ عَقلِـهِ ... وإِنْ كَرُمــتْ أعْراقُــهُ ومَناسِــبُهْ!

ابنُ دُريْد






المبحثُ الثاني

طريقُ الفَهْمِ



ذكرنا فيما مضىٰ أنّ طرقَ تحصيلِ العلم ثلاثةٌ: طريقُ الحفظ، وطريقُ الفهم، وطريقُ المطالعة.

وسوف نذكر هنا بعضَ القواعد المهمّة التي تساعد علىٰ فهم العلم وهَضْم مسائله.

أولًا: التَصوّرُ الجيّدُ للفنّ قبل الدخول فيه[1].

فمَنْ أراد أن يدخل في فنٍّ مّا، وأراد أن يضبط مسائلَه؛ فلا بُدّ أن يتصوّرَه تصوُّرًا حسنًا، وذلك بفهم أصوله ومقاصده قبل أن يَلِجَ بابَه. كما قال الغزاليُّ عند كلامه في مقدّمة كتابه «المستصفىٰ»[2] عن منهجه فيه: «وأتيتُ فيه بترتيبٍ لطيفٍ عجيبٍ يُطْلِعُ الناظرَ في أول وهلةٍ علىٰ جميع مقاصد هذا العلم، ويُفيدُه الاحتواءَ علىٰ جميع مسارِح النظر فيه؛ **فكلُّ علمٍ لا يَستولي الطالبُ في ابتداء نظره علىٰ مجامعه ولا مبانيه، فلا مَطْمعَ له في الظفَر بأسراره ومباغيه!**».

وهذه كلمةٌ رائعةٌ مهمّةٌ من عالمٍ مِصْقَعٍ مِفَنٍّ.

---

(١) تحدّثتُ عن هذا العنصر بشيءٍ من البسط في كتابي «الإبداع العلمي» (ص/ ٩٠) الطبعة الثانية من نشرة مكتبة دار المنهاج.

(٢) (ص/ ٤).

ومما يُساعد علىٰ تصوُّر الفنّ ما يلي:

١- عَمَلُ الجداول المناسبة للعناصر الأساسيَّة في الفنّ عن طريق تَشْجِيرِها.

وذلك مثل: الجداول التي صنعها أصحابُ «**الجداول الجامعة في العلوم النافعة**»، وكذا الدكتور/ عماد بن علي جمعة في سلسلته الرائعة «**العلوم الإسلاميّة الميسَّرة**».

عِلْمًا بأنّ الدَّارِسَ يَستطيعُ أنْ يُشَجِّرَ العناصرَ الأساسيّةَ للفنِّ - مهما كَثُرتْ - في صفحةٍ واحدةٍ![١].

٢- تقسيمُ الفنِّ نفسِه إلىٰ عدّة أقسامٍ.

وهذا يساعد علىٰ فهم العلم وضبطه تمامًا، سواءٌ للمُتخصِّص أو غير الـمُتخصِّص.

فمثلًا: العقيدةُ؛ تُقَسَّم بحسب أنواع التوحيد الثلاثة: الربوبيّة، والألوهية، والأسماء والصفات. أو بحسب أركان الإيمان الستة، وهو الأنسب.

وفي علم مصطلح الحديث يُقَسَّم إلىٰ عِدّة أقسامٍ، فتُجعَلُ الأبوابُ المتعلّقةُ بالرواية علىٰ حِدَةٍ، والأبوابُ المتعلّقةُ بالدِّرايةِ علىٰ حِدَةٍ، والأبوابُ المتعلّقةُ بالإسناد وضبط أسماء الرجال علىٰ حِدَةٍ... وهكذا.

وفي البلاغة تُقَسَّمُ إلىٰ المعاني، والبيان، والبديع، ويُدرَسُ كلُّ قسمٍ منها استقلالًا[٢].

---

(١) كنتُ أيّامَ الطَّلَبِ -وما زالَتْ طالبًا- أصنعُ تلك الجداولَ في الورقِ اللّوحيِّ المقوَّىٰ الكبيرِ الذي يُسمّىٰ (الوسيلة)، فيَسْهُلُ عليّ تصوّرُ الفنّ والتسلسلُ المريحُ في دراسة أبوابه.

(٢) تنوير: جرىٰ العُرْفُ أنّ البلاغة تنقسمُ إلىٰ هذه الأقسام الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع. =

٣- التفريق بين مبادئ الفنّ ومقاصده، أو وسائله وغاياته.

وكلُّ فنٍّ له مبادئُ ومقاصدُ، ووسائلُ وغاياتٌ مَنْ عَرَفَها سَهُلَ عليه فهمُ الفنّ.

فالنحوُ مثلًا: الغرضُ منه معرفةُ أحوال أواخر الكَلِم حالَ التركيب، والمباحثُ التي تشتملُ عليها غالبُ كتب النحو من الكلام علىٰ أقسام الكلام، والإعراب والبناء... إلخ، هذه من مبادئ الفنّ. أمّا مقاصدُه فتبتدئُ من الكلام علىٰ أحكام الفاعل والمبتدأ والخبر... إلخ.

ومثلُه البلاغةُ، فما يُذكرُ في أوائلها من الكلام علىٰ الفصاحةِ وشروطِها، وأنواع الأسلوب... إلخ، فهذا من مبادئها، وما يلي ذلك من الكلام علىٰ علم المعاني... إلخ، هو من مقاصدها.

وهكذا دواليْك في سائر العلوم والفنون.

٤- دراسةُ مراحل تطوّر الفنّ وما أُلِّف فيه؛ حتىٰ يَجمعَ الطالبُ بين حفظ مسائل الفنّ وبين معرفة تأريخه. فقد يوجد شخصٌ عَلِيمٌ بجُزئيّات الفنّ، لكنه لا يعرف مراحلَ تطوّر الفنّ! ولا الكتبَ المعتَمَدَةَ المُصنَّفَةَ فيه! وهذا يُعدُّ نقْصًا في الحقيقة.

ثانيًا: حُسْنُ اختيار الشيخ الذي يُدرَسُ عليه الفنُّ[(١)].

= لكنها عند التحقيق فنونٌ مستقلّةٌ، ولذا قال السيوطيُّ: «رُزقتُ التَّبحُّرَ في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع؛ علىٰ طريقة العَرَب والبُلَغَاء، لا علىٰ طريقة العَجَم وأهل الفلسفة». حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (١/ ٣٣٨).

(١) أفرد الشاطبيُّ فصلًا نفيسًا في هذا الشأن، صدّره بقوله: «المقدمة الثانية عشرة: مِن أنفع طُرق =

وهذه أهمُّ قاعدةٍ مِن قواعد الفهم؛ فالقراءةُ علىٰ الأشياخ؛ وأخْذُ العلم عنهم؛ من أعظمِ وأسرعِ السُّبُلِ المعينةِ علىٰ فهمِ العلمِ وإدراكِ المَرَام. والأمرُ من بعدُ كما قال أبو حيان الأندلسي[(١)]:

يَظُنُّ الْغَمْرُ[(٢)] أَنَّ الْكُتْبَ تَهْدِي ... أَخَا فَهْمٍ لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ
وَمَا يَدْرِي الْجَهُولُ بِأَنَّ فِيهَا ... غَوَامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الْفَهِيمِ
إِذَا رُمْتَ الْعُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ ... ضَلَلْتَ عَنْ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ
وَتَلْتَبِسُ الْعُلُومُ عَلَيْكَ حَتَّىٰ ... تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ تُوْمَا الْحَكِيمِ![(٣)]

وإليك بعضَ الإضاءاتِ المهمّةِ في ذلك:

١- ضرورةُ أخذِ العلم عن الأكابر الذين قَضَوْا أكثرَ حياتهم في التعليم والتدريس؛ وذلك لاعتباراتٍ كثيرةٍ؛ منها:

= العلم الموصِلَة إلىٰ غاية التحقُّق به: أخْذُه عن أهله المتحقِّقين به علىٰ الكمال والتمام». فراجعْه فإنه مهمّ. الموافقات - تحقيق: مشهور - (١/ ١٣٩ - ١٥٤).

(١) في التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل (٥/ ١٩٨).

(٢) الغَمْرُ: هو من لم يُجَرِّبِ الأمورَ، وجمعه أغْمارٌ. العين (٤/ ٤١٧).

(٣) أشار بذلك إلىٰ قولِ بعضهم:

قَالَ حِمَارُ الْحَكِيمِ تُوْمَا: ... لَوْ أَنْصَفُونِي لَكُنْتُ أَرْكَبْ!
لِأَنَّنِي جَاهِلٌ بَسِيطٌ ... وَصَاحِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّبْ!!

انظر: تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد: لناظر الجيش (٩/ ٤٤٠٩)، والآداب الشرعية: لابن مفلح (٢/ ١٢٥).

أ- ما وَرَدَ عن السلف في الحثّ علىٰ ذلك؛ **قال عمرُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ النَّاسَ بِخَيْرٍ مَا أَخَذُوا الْعِلْمَ عَنْ أَكَابِرِهِمْ، وَلَمْ يَقُمِ الصَّغِيرُ عَلَىٰ الْكَبِيرِ، فَإِذَا قَامَ الصَّغِيرُ عَلَىٰ الْكَبِيرِ فَقَدْ»(١) أي فقد هلكوا.

- **وقال عبدُ الله بن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يَزَال النَّاس بِخَيرٍ ما أخذوا الْعِلْمَ عَنْ أَكَابِرِهِمْ وَعَنْ أُمَنَائِهِمْ، فَإِذَا أَخَذُوا مِنْ صِغَارِهِمْ وَشِرَارِهِمْ هَلَكُوا»(٢).

- **وقال الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما يُؤخذ العلمُ عَنِ الأكابر»(٣).

قال ابنُ قتيبة في تفسير مرادهم: «أي لا يزال الناسُ بخيرٍ ما كان علماؤُهم المشايخَ، ولم يكن علماؤُهم الأَحْداثَ؛ لأنّ الشيخَ قد زالت عنه مُتْعَةُ الشباب، وحِدَّتُه، وعجلتُه، وسَفهُه، واستصحبَ التجربةَ والخِبرةَ، فلا يَدخلُ عليه في علمه الشبهةُ، ولا يَغلِبُ عليه الهوىٰ، ولا يَميلُ به الطَّمَعُ، ولا يَستزِلُّه الشيطانُ استزلالَ الحدَثِ، ومع السِّنِّ الوَقارُ والجلالةُ والهَيْبَةُ. والحَدَثُ قد تَدخلُ عليه هذه الأمورُ التي أُمِنَتْ علىٰ الشيخ، فإذا دخلتْ عليه وأفتىٰ؛ هلَك وأهْلَك»(٤).

---

(١) أخرج هذا الأثر اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٩٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦١٥).

(٢) أخرجه البيهقي في المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (ص/ ٢١٧)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦١٦) والخطيب في الفقيه والمتفقه (٢/ ١٥٥)، وفي نصيحة أهل الحديث (ص/ ٢٨).

(٣) طبقات الحنابلة: لابن أبي يعلىٰ (١/ ١٩٨).

(٤) نصيحة أهل الحديث (ص/ ٣٠).

وقيل: بل المقصودُ بالأصاغر هنا: أهلُ البدع. وقيل: من لا علمَ عندَه. وقيل: مَن لا قَدْرَ لَه.

ب- أنّ كثرةَ المعلومات ليستْ هي المقياسُ في التعليم فحسْب، وإنما المقصودُ - إضافةً لهذا - الخِبْرةُ والذوقُ العِلمي، وهذان لا يحصلان لكل أحدٍ، وإنما لمن مارس الفنّ تعلّمًا وتعليمًا مُدَّةً مَدِيدةً من الزمن، وإلا فالمسائلُ موجودةٌ في بطون الكُتُب!

فالشأنُ إذنْ ليس في حِفظ المسائل فقط، بلْ في معرفة منزَعِها، وتفكيك عباراتها، وتحرير معانيها، وإدراك مراميها، وكلُّ ذلك يحتاج إلىٰ مَلَكَةٍ راسخةٍ، وهذه لا توجد غالبًا إلا عند الأكابر(١).

---

(١) من الأمثلة علىٰ ذلك: ما ذكره السيوطيُّ من أنه جاء ذاتَ مرَّةٍ إلىٰ شيخِه مُحيي الدين الكَافِيَجِي، فقال له الشيخُ: أعْرِبْ (زيدٌ قائمٌ)، فقال: قد صِرْنا في مقام الصِّغار! وَنُسألُ عن هذا؟! فقال لي: في (زيدٌ قائمٌ) مئةٌ وثلاثةَ عشرَ بَحْثًا!! فقال السيوطيُّ: لا أقومُ من هذا المجلس حتىٰ أستفيدَها، فأخرج لي تَذكرتَه فكتبتُها منها! انظر: بُغية الوعاة (١/ ١١٨).

والكَافِيَجِيُّ هذا: هو محمد بن سليمان بن سعد الرومي البرعمي أبو عبد الله الكَافِيَجِي (نسبةً إلىٰ الكافية في النحو؛ لأنه اشتهر بتدريسها).

قال السيوطيُّ: كان الشيخُ إمامًا كبيرًا في المعقولاتِ كلِّها: الكلام، وأصول اللغة، والنحو والتصريف والإعراب، والمعاني والبيان، والجدل والمنطق والفلسفة، والهيئة؛ بحيث لا يَشقُّ أحدٌ غبارَه في شيءٍ من هذه العلوم، وله اليد الحسنة في الفقه والتفسير والنظر في علوم الحديث.... لزمتُه أربعَ عشرةَ سنةً، فما جئتُه من مرةٍ إلا وسمعتُ منه من التحقيقات والعجائب ما لم أسمعْه قبلَ ذلك! بغية الوعاة (١/ ١١٧).

- وألّفَ السيوطيُّ «فتح الجليل للعبد الذليل» في الأنواع البديعيّة التي استخرجها من قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية، فبلغَتْ مائةً وعشرين نوعًا!!

وهو مطبوعٌ. وانظر حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (١/ ٣٤٠).

=

ج- وجودُ الخِصَال التي هي - غالبًا - في الأكابر أكثرُ منها في الأصاغر، كالتواضع، والحِلْم، وعدم الميل إلىٰ هوىٰ النفس عند ظهور الحق.. إلخ، وهذه غالبًا ما تكون قليلةً أو معدومةً في الأصاغر!

ولذا قال إبراهيمُ بنُ حبيبِ بنِ الشهيد: قال لي أبي: «يا بُنيَّ، إيتِ الفقهاءَ والعلماءَ، وتعلّمْ منهم، وخُذْ من أدبهم وأخلاقهم وهَدْيهم؛ فإنّ ذاك أحبُّ إليّ لك من كثيرٍ من الحديث»[(١)].

وعن مالك بن أنس، قال: قال ابنُ سيرين: «كانوا يتعلّمون الهديَ كما يتعلّمون العلمَ»، قال مالكٌ: وبعث ابنُ سيرين رجلًا فنظر كيف هَدْيُ القاسم وحالُه؟![(٢)].

وعن ابن المبارك، قال: قال لي مخلدُ بنُ الحسين: «نحن إلىٰ كثيرٍ من الأدب أحوجُ منا إلىٰ كثيرٍ من الحديث»[(٣)].

وعن الحسن بن إسماعيل، قال: سمعت أبي يقول: «كان يَجتمع في مجلس أحمدَ (بن حنبل) زُهاءَ خمسة آلاف أو يزيدون، أقلُّ من خمسِ مئةٍ يكتبون،

=

- وألّفَ الخطيبُ الإسكافيُّ «تخريج مئتيْ وجهٍ من المعاني في كلمةٍ واحدةٍ من بيتٍ واحدٍ»!! وقد ذكر فيه (٢٠٣) وجهًا في معناها.

والبيتُ هو قولُ الشاعر الحماسي:

(بِيضٌ مَفارِقُنا)، تَغْلي مَراجِلُنا ... نَأْسُوا بأموالِنا آثَارَ أيْدِينا

وقد طُبع الكتابُ بتحقيق الأستاذ: أسامة بن مسلم الحازمي.

(١) الجامع لأخلاق الراوي: للخطيب البغدادي (١/ ٨٠).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٧٩).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٨٠).

والباقون يتعلَّمون منه حُسْنَ الأدب وحُسْنَ السمْت»[١].

وذُكِرَ أنّ أبا حنيفةَ مكث ثلاثةَ أشهرٍ يتحرّىٰ الشيخَ المناسبَ الذي يدرس عليه!

ذلك لأنهم كانوا يعرفون أنَّ طلبَ العلم ليس هو حَشْوُ الذِّهن بالمعلومات فقط، وإنما هو أدبٌ وتربيةٌ وذَوقٌ قبلَ ذلك.

هذا بالإضافة إلىٰ وجُود صِفاتٍ هي في الأكابر أقوىٰ منها في الأصاغر، مثل: قوّةِ الملَكَة، ورسُوخِ القدم، وكثرةِ التمرّس بالمسائل، وطولِ ممارسة الفتوىٰ، وقوةِ النَظَر والفِكْر والاستدلال.. إلخ، ولذا قال شيخ الإسلام ابنُ تيميّة: «ومَن له في الأمة لسانُ صدقٍ عامّ؛ بحيث يُثْنَىٰ عليه ويُحمَدُ في جماهير أجناس الأمة، فهؤلاء هم أئمةُ الهدىٰ ومصابيحُ الدُّجىٰ، وغلَطُهم قليلٌ بالنسبة إلىٰ صوابهم، وعامَّتُه من موارد الاجتهاد التي يُعذَرون فيها، وهم الذين يَتَّبعون العلمَ والعدلَ، فهم بُعَدَاء عن الجهل والظلم، وعن اتِّباع الظنّ وما تَهوىٰ الأنفسُ»[٢].

فلا بُدَّ إذن من انتقاء الشُيوخ الأكابر الذين لهم خبرةٌ طويلةٌ في العلم، والذين قَضَوْا كثيرًا من حياتهم فيه.

٢- الأخذُ عن كل شيخٍ الفنَّ الذي يُحسِنُ.

فلا يَلزم لمن مَهَرَ في فنٍ مّا أن يكون عالمًا بالفنون الأُخرىٰ! وهذا ينبغي

(١) مناقب الإمام أحمد: لابن الجوزي (ص/ ٢٨٨).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٤٣).

أن يكون ملاحَظًا عند طلّاب العلم، إذ ربما وجدتَ طالبَ علمٍ يَطلُب الفقهَ، والعقيدةَ، والتفسيرَ، والحديثَ، والنحوَ، والبلاغةَ، وربما الجغرافيا والفَلَكَ عند شيخٍ واحدٍ!!

وقد يكون عند الشيخ إلمامٌ بذلك كلِّه، لكنه لن يكون قَطْعًا مثلَ عالمٍ أمضىٰ عمرَه كلَّه في تدريس لونٍ واحدٍ من العلم!

وقد كان هذا أمرًا مُتقرِّرًا عند العلماء، قال الشَّعبيُّ: «ما ناظرتُ ذا فنٍّ إلا غَلَبَني، وما ناظرتُ ذا فنُونٍ إلا غَلَبْتُه»[(١)].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام: «ما ناظرني رجلٌ قَطُّ وكان مُفنَّنًا في العلوم إلا غلبتُه، ولا ناظرني رجلٌ ذو فنٍّ واحدٍ إلا غلبني في علمه ذلك»[(٢)].

وكذا قال الإمامُ الشافعيُّ[(٣)].

ذلك لأنَّ تحريرَ صاحب الفنون للمسائل ليس كتحرير صاحب الفنّ الواحد في الدِّقّة والإتقان.

ولذا قالوا: إنَّ كلام السخاويِّ في علوم الحديث مُقدَّمٌ علىٰ كلام السُّيوطيِّ؛ لأنّ السخاويَّ صاحبُ فنٍّ، والسيوطيَّ صاحبُ فنُونٍ![(٤)].

٣- الأفضلُ للطالب أن يدرس علىٰ الشيخ كتابًا قد خَبَرَه وأتقنه حِفظًا، وتدريسًا، وقضَىٰ شطرًا كبيرًا من حياته في تدريس ذلك الكتاب؛ لأنّ قواعده

---

(١) التمثيل والمحاضرة: للثعالبي (ص/ ١٦٨).

(٢) جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر (١/ ٥٢٣)، والإلماع: للقاضي عياض (ص/ ٢٢١).

(٣) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر: للسخاوي (١/ ٢٧٢).

(٤) انظر مقدمة الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف لكتاب تدريب الراوي: للسيوطي (١/ ٩١).

أصبحتْ راسخةَ الجذور في صدره، واضحةَ المعالم في ذهنه.

ولذا وُجد في العلماء والحفّاظ المتقدّمين مَن يكونُ خبيرًا بحديث بَلَدِه، فإذا روىٰ عن غيرهم ضَعُف. أو يكونُ ثقةً في الرواية عن شيخٍ من الشيوخِ قد خَبَرَه، فإذا روىٰ عن غيره ضُعِّفَ فيه... وهكذا.

كما وُجد فيهم مَنْ اشتهر بنسبته إلىٰ كتابٍ معيّنٍ؛ لعنايته به؛ حفظًا ودراسةً وتدريسًا، كالكافِيَجِي، والوَجِيزي، والفَصِيحي، والمِنْهاجي، والتَّعْجِيزي، والكُلِّي، والتَّنْبِيهي!

بل إنّ علاءَ الدين ابن العطّار أخصَّ تلاميذ النووي كان يُلقّبُ بـ (مختصر النووي)![1]؛ لكثرة ملازمته له.

ثالثًا: اختيار الشرح المناسب لمستوىٰ الطالب.

والمرجعُ في ذلك هو الشيخُ نفسُه، فعليه أن يختارَ من الشروحِ الأصلحَ للطالب، وما يُناسبُ قدراتِه ومستواه في الفهم؛ فإنّ لكلّ طالبٍ قُدْرةً واستعدادًا.

رابعًا: وَضْعُ برنامجٍ يوميٍّ محدَّدٍ يُحافظُ عليه الطالبُ، بحيثُ لا يقلُّ عن أربعِ ساعاتٍ؛ وإنْ زاد فهو أفضلُ. ويُتَخَيَّرُ له الأوقاتُ المناسبةُ التي يكون فيها متيقّظًا نَشِيطًا.

خامسًا: الاستعانةُ بالكُتُب والأطروحات العلميّة المعاصرة في فهم مباحث وقضايا الفنّ، لا سيّما التي ألّفها الباحثون المتمكّنون؛ لأنها مُفيدةٌ في تَشْقِيقِ المسائل، وتفصيلِ القضايا، وتوليد المطالب الجديدة.

---

(١) نزهة الألباب في الألقاب: لابن حجر (٢/ ١٦٢).

سادسًا: عدمُ تضييع الوقت في الاشتغال بتحليل ألفاظ المؤلِّف، وتفكيك عباراته، وما مُرادُه بكَيْت؟! وما مَقصودُه بذَيْت؟![1] - وهو ما ذمَّه ابنُ خلدون في «المقدّمة»[2] - إلّا لضرورة فهْم المسائلِ المنطويَةِ تحتَ ألفاظِ المؤلِّف؛ لأنّ الألفاظَ قوالبُ المعاني، لكنْ ما زاد علىٰ ذلك فهو فُضُولٌ.

فعلىٰ الطالب أن يَعمَدَ إلىٰ الغرض المهمّ مباشرةً، وهو فهمُ المسألة وتصوُّرُها، فإذا ما تمّ له ذلك انتقل إلىٰ التي تليها، وهَلُمّ جَرًّا؛ فإنّ الوقتَ عزيزٌ، وتضييعَهُ شديدٌ.

سابعًا: عدمُ تضييع الوقت في الاشتغال بحفظ القائل في كل مسألةٍ؛ لقلّة جدوىٰ ذلك، وصعوبتِه، كما أنه سيُنْسَىٰ ولو بعدَ حينٍ!

بل يَقصِدُ إلىٰ حفظ المسألةِ نفسِها، إلّا في بعض المسائل التي تستدعي ذلك؛ لعلّةٍ راجحةٍ، فيَحفظُ حينئذٍ القولَ والقائلَ.

ثامنًا: الإقبالُ علىٰ الفنّ الذي ترغبُه النفسُ، وعَدمُ قَسْرها علىٰ ما لا تُريد.

لأنّ إكراهَ النَّفْس علىٰ ما لا تريدُه - لا سيّما في العلم - من معوّقات

---

(١) **قال الدكتور/ عياضُ السُّلميُّ:** «لم يَتعبدْنا اللهُ بالاجتهاد في فهم مُعَمَّيات المختصرات، ولا بالاجتهاد في منطوق كلام أحدٍ من خلقه ومفهومه، إلا كلامُ رسوله ﷺ الذي هو حُجّةٌ يجب تأمُّلُها والنظرُ فيها، وَفْقَ ما تقرّر من قواعد الفهم والاستدلال». أصول الفقه الذي لا يَسَعُ الفقيهَ جَهلُهُ (ص/ ٧) وسيأتي كلامُه بطوله.

(٢) في الفصل السادس والثلاثين من الباب السادس (ص/ ٦٠٩)، وقد بوّب للفصل المذكور **بقوله:** «فصلٌ في أنّ كثرةَ الاختصارات الموضوعة في العلوم مُخلّةٌ بالتعليم»، وقد تقدّم نقلُهُ بطولِهِ.

الفهم والإدراك، كما أن الإنسانَ لا يُمكن أن يتألّقَ ويُبدعَ في شيءٍ إذا أُكرهَ عليه! **ولذا قال ابنُ حزم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن مَال بطبعه إِلَىٰ علمٍ مَّا وَإِن كَانَ أدنىٰ من غَيره، فَلَا يَشغلْها بسواه؛ فَيكونُ كغارس النارْجِيل بالأندلس، وكغارس الزَّيتون بالهند، وكلُّ ذَلِك لَا يُنْجِب!!»(١).

وقال ضياءُ الدين ابنُ الأثير: «كثيرًا ما رأينا وسمعنا من غرائب الطِّباع في تعلُّم العلوم، حتىٰ إنَّ بعض النَّاس يكون له نفاذٌ في تعلُّم علمٍ مُشكِلِ المسْلكِ صَعبِ المأخذِ، فإذا كُلِّف تعلُّم ما هو دونه من سَهْلِ العُلوم نَكَصَ علىٰ عَقِبَيه ولم يكن له فيه نَفَاذٌ!

وأغربُ من ذلك أنّ صاحبَ الطبع في المنظوم يُجيد في المديح دون الهجاء، أو في الهجاء دون المديح! أو يُجيد في المراثي دون التهاني، أو في التهاني دون المراثي!

وكذلك صاحبُ الطبع في المنثور؛ هذا ابنُ الحريريِّ صاحبُ «المقامات»؛ قد كان- علىٰ ما ظهر عنه من تنميق «المقامات» - واحدًا في فنّه، فلما حضر ببغداد ووُقِف علىٰ مقاماته، قيل: هذا يُستَصلَحُ لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة، ويَحسُن أثرُه فيه، فأُحضر، وكُلّف كتابةَ كتابٍ، فأُفْحِمَ، ولم يَجْرِ لسانُه في طَويلةٍ ولا قَصيرةٍ!!»(٢).

تاسعًا: الإكثارُ من زيارةِ العلماء، والقُرْبُ منهم، ومطارحتُهم المسائلَ

---

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس (ص/ ٢٢).
(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ٢٧).

المشكلاتِ، والقضايا المعضلاتِ. لا سيّما أثناءَ دراستكَ الفنَّ الذي تَخصّصَ فيه ذلك العالِمُ وتَمَهَّرَ به.

لأنّ مجالسةَ العلماء تُفتِّقُ الذِّهنَ، وتَصْقُلُ العقلَ، وتُرسِّخُ القدمَ، وتُكسِبُ الخِبرةَ، وتُعلّم الصبرَ، وتُحمِّسُ النفسَ، وتَشْحَذُ الهِمّةَ.

كما أنها مفيدةٌ في تحرير العلم، وتحقيق المسائل، وحُسْن النظر، وترتيب الحُجَج، وفهم المراد، وجودة الإيراد. وكلُّ ذلك مفيدٌ في إنضاج الفنون.

عاشرًا: تدارُسُ المسائل مع الأقران، والتباحثُ معهم، ومذاكرتُهم العلمَ.

وهذا يأتي في المرتبة الثانية - بعد مجالسة العلماء - في تيسير فهم العلم، وتسهيل نَيْله. ولذا قالوا: يحتاج طالبُ العلم إلىٰ: المدارسة مع أشياخه، ثم المطارحة مع إخوانه، ثم المباحثة - فيما بعدُ - مع طلّابه.

وكثيرٌ من طُلّاب العلم اليوم يعيش وحدَه في عُزْلةٍ فكريَّةٍ؛ إمَّا كسلًا عن المذاكرة! وإمَّا حسدًا أنْ يُفيدَ غيرَه! وإمّا تكبّرًا أنْ يُجالسَ أقرانَه! وإمّا لغير ذلك من الأسباب، وكُلّ ذلك خَطَلٌ لا يَسُوغُ.

قال الإمامُ النووي: «ولْيكنْ في مذاكراته متحرّيًا الإنصافَ، قاصدًا الاستفادةَ أو الإفادةَ، غيرَ مترفِّعٍ علىٰ صاحبه بقَلْبه، ولا بكلامه، ولا بغير ذلك من حاله، مخاطبًا له بالعبارة الجميلة الليّنة، فبهذا ينمو علمُه، وتزكو محفوظاتُه»[(١)].

وقد حثّ العلماءُ قاطبةً علىٰ العناية بالمذاكرة، فصاح ناصحُهُم:

---

(١) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١/ ٤٨).

مَـــنْ حـــازَ العلـــمَ وذاكـــرَه صـــلُحتْ دُنيـــاهُ وآخرتُـــه

فـــأدِمْ للعلـــمِ مُـــذاكرةً فَحيـــاةُ العلـــمِ مُذاكرتُـــه[(١)]

وقال الآخرُ:

إذَا لَـمْ يُـذَاكِرْ ذُو الْعُلُـومِ بِعِلْمِـهِ وَلَـمْ يَسْـتَفِدْ عِلْمًـا نَسِـيْ مَـا تَعَلَّمَـا

فَكَمْ جَامِعٍ لِلْكُتْبِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ يَزِيدُ مَعَ الْأَيَّامِ فِي جَمْعِهِ عَمَىٰ![(٢)]

وقال الخليلُ بنُ أحمد: «ذَاكِرْ بعِلمِك؛ تَذكُرْ ما عِندَك، وتَسْتفِدْ ما ليسَ عندَك»[(٣)].

وقال عبدُ الله بنُ المعتز: «مَنْ أكثَرَ مذاكرةَ العلماء لم يَنْسَ ما عَلِمَ، واستفاد ما لم يَعلَم»[(٤)].

وقال النوويُّ: «بالمذاكرةِ يثبتُ المحفوظُ، ويتحرّرُ، ويتأكّدُ، ويتقرّرُ، ويزدادُ، بحسب كثرة المذاكرة. ومذاكرةُ حاذقٍ في الفنّ ساعةً أنفعُ من المطالعة والحفظ ساعاتٍ بل أيامًا!»[(٥)].

---

(١) فتح المغيث: للسخاوي (٣/ ٣١٦)، وتحفة الحبيب علىٰ شرح الخطيب: للبجيرمي (١/ ٤٨).
ويُنسب البيتان للحافظ أبي الحجّاج المزّي.

(٢) جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر (١/ ٤٣٠)، وأدب الدنيا والدين: للماوردي (ص/ ٥٢).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي: للخطيب (٢/ ٢٧٣).

(٤) الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح: للأبناسي (١/ ٤١٦).

(٥) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١/ ٤٧).

وكان شيخُنا العلّامةُ حمادُ بنُ محمّد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يقول**: «أُوصي طلبةَ العلم بالبحث عن حلّ المشكلات العلمية، وعن مواصلة الدراسة، والمذاكرة فيما بينهم، والمذاكرةُ يَنتجُ عنها حصيلةٌ عِلميةٌ نافعةٌ، ويحرص علىٰ سؤال أهل التخصّص في كل علمٍ، وعلىٰ تحصيل العلم. وتحصيلُ العلم في وقتنا هذا قليلٌ؛ وذلك بسبب أنّ طلبةَ العلم مغرَّرٌ بهم، فبَدَلًا من المذاكرة ومواصلة الطَّلَب، يَدخلون في أمورٍ لا تنفعُهُم!»(١).

وقد تقدّمتْ بعضُ الأقوال الأخرىٰ عن أهميّة المذاكرة، عندَ حديثنا عن الطريقة المُثلىٰ لحفظ الحديث الشريف.

حادي عشَر: كتابةُ ما يُحرَّرُ من المسائل والمطالب فوْرَ فهْمها وإتقانها؛ **وهذا فيه فائدتان**:

١ - أنّ كتابةَ المسألة لونٌ من ألوان التعلُّم الدقيق.

ولذا يُوصي كبارُ المعلّمين طلّابَهم بكتابة المسألة إذا لم يفهمْها؛ لأنها ستتكشّفُ له أثناءَ كتابتها! وهذا قد جرّبتُه بنفسي فألفيتُه صحيحًا.

وسيأتي مزيدُ كلامٍ عن هذا في المبحث الثالث.

٢ - أن الفهمَ سريعُ الزوال، وهو أشبهُ شيءٍ بوَمْضَة البَرْق!

فإذا لم يُسجِّل الطالبُ ما فهمَه مباشرةً ذهب عليه، وربّما لا يعود إليه أبدًا! لأنّ الفهمَ هبةٌ من الوهّاب، ورِزْقٌ من الرزّاق. **قال العلّامة محمد بن سالم البيحاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفِكرةُ والخاطرةُ إذا لم تُقيَّدْ في حينها قد تَذهبُ،

---

(١) المجموع في ترجمة العلامة المحدِّث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (٢/ ٥٧١).

ويَذهبُ التعبيرُ عنها باللفظِ المستحسنِ لكتابتها وتسجيلها»[(١)].

وسيأتي مزيدُ كلامٍ علىٰ هذا.

ثاني عشَر: نَظْمُ المسائل لمن كانت عنده الملَكَة، لا سيّما ما اشتمل منها علىٰ أقسامٍ كثيرةٍ أو أنواعٍ عديدةٍ.

وهذا مؤشِّرٌ قويٌّ علىٰ دقّةِ فهمِ الناظمِ للمسألة، وعمقِ استيعابِه لها؛ لأنّ الناظمَ لا يتمكّنُ من نظم شيءٍ لم يَفْهَمْه!

ومَنْ نظر في كتب الشروح والحواشي والتقريرات - التي زهّدتنا فيها مناهجُ التعليم الحديثة، واعتبرتْها كُتُبًا صفراءَ لا قيمةَ لها! - وجدَ أنّ العلماءَ قد نظموا مسائلَ كثيرةً؛ من أجْلِ تقريبها وتيسيرها علىٰ طلّاب العلم.

ولهذا يَلَذُّ لي أن أمُرّ علىٰ تلك الشروح والحواشي؛ لألتقطَ منها أشياءَ من تِيكَ النفائسِ والدُّرَر.

ثالث عشَر: لا بدّ للطالب من التحضيرِ الجيّدِ للدَّرْسِ قبلَ الذهاب إلىٰ الشيخ.

حيثُ يشتكي كثيرٌ من طُلّاب العلم ضعفَ فهمِه واستيعابِه للدرس، فيقول: إنني أقرأ علىٰ العلماء والأشياخ لكنني لا أضبِطُ العلم ولا أستوعبُه كما ينبغي.

وهذه آفةٌ منتشرةٌ بين طلّاب العلم؛ حيثُ يأخذُ الواحدُ منهم الكتابَ من مكتبته، ثم يذهب ليقرأ فيه علىٰ الشيخ، فإذا انتهىٰ أرجعه إلىٰ مكانه! فكيف

---

(١) أشعة الأنوار علىٰ مرويات الأخبار (ص/ ٤٩٦).

يَسْطِيعُ من هذا شأنه أن يَضبطَ العلمَ الذي تعلَّمه؟! إنَّ هذا لونٌ من ألوانِ العبثِ وتضييعِ العُمُر.

وعلاجُ هذا هو أنْ يُحضِّر للدَّرس قبل أن يذهبَ للقراءة علىٰ الشيخ، وقد نبّه علىٰ هذا العلّامةُ ابنُ بدرانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بقوله: «اعلم أننا اهْتَدَيْنا - بفضله تعالىٰ - أثناءَ الطلب إلىٰ قاعدةٍ، وهي أننا كنّا نأتي إلىٰ المتن أولًا، فنأخذُ منه جملةً كافيةً للدرس، ثم نشتغلُ بحلِّ تلك الجملة من غير نظرٍ إلىٰ شرحها، ونُزاولُها حتىٰ نظنَّ أنّنا فهمناها، ثم نُقبلُ علىٰ الشرح فنطالعُه المطالعةَ الأولىٰ؛ امتحانًا لفهمنا، فإنْ وجدْنا فيما فهمناه غَلَطًا صحَّحناه، ثم أقبلنا علىٰ تفهّم الشرح علىٰ نمط ما فعلناه في المتن، ثم إذا ظننّا أنّنا فهمناه، راجعْنا حاشيتَه - إنْ كان له حاشيةٌ - مراجعةَ امتحانٍ لفكرنا، فإذا علمنا أننا فهمنا الدرسَ تركنا الكتابَ واشتغلنا بتصوير مسائله في ذهننا، فحفظناه حِفظَ فهمٍ وتصوّرٍ، لا حِفظَ تراكيبَ وألفاظٍ.

ثم نجتهدُ علىٰ أداء معناه بعباراتٍ من عندِنا، غيرَ ملتزمين تراكيبَ المؤلف، ثم نذهبُ إلىٰ الأستاذ للقراءة، وهنالك نمتحنُ فكرَنا في حلِّ الدرس، ونقوِّمُ ما عساه أن يكون به من اعوجاجٍ، ونوفِّرُ الهمةَ علىٰ ما يُوردُه الأستاذُ مما هو زائدٌ علىٰ المتن والشرح.

وكنا نرىٰ أنَّ من قرأ كتابًا واحدًا من فنٍّ علىٰ هذه الطريقة سَهُل عليه جميعُ كتبِ هذا الفنِّ؛ مختصراتِها ومطوّلاتِها، وثَبَتَتْ قواعدُه في ذهنه، وكان الأمرُ علىٰ ذلك»(١).

---

(١) المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص/ ٤٨٩).

وقال ابنُ سيّد الناس عن شيخِه ركنِ الدين ابن القَوْبَع: «كنتُ أنا وشمسُ الدين ابنُ الأكفاني نأخذُ عليه في المباحث المشرقيّة، فأَبِيْتُ ليلتي أُفكِّرُ في الدرس الذي نُصبحُ نأخذُه عليه، وأُجْهِدُ قريحتي، وأُعْمِلُ تعقُّلي وفهمي، إلىٰ أنْ يَظهر لي شيءٌ أَجزم بأنّ المرادَ به هذا، فإذا تكلَّم الشيخُ رُكنُ الدين، كنتُ أنا في وادٍ في بارِحَتي، وهو في وادٍ!»[(١)].

وقد كانت هذه أيضًا طريقةُ تلامذة الشيخ العلّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما ذكر ذلك تلميذُه الشيخُ عبدُ الله بنُ عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)].

رابع عشَر: أن لّا يخلطَ دراسةَ فنّينِ في وقتٍ واحدٍ ما أمكنَه ذلك.

لأنّ هذا قد يشتّتُ الذهنَ؛ فيَضعُفُ حينئذٍ الفهمُ، لا سيّما لمن كان متوسّطَ الذكاءِ والإدراكِ.

ولقد مثّل العلماءُ لمن رامَ دراسةَ فنّين في وقتٍ واحدٍ بولادةِ التوأميْن! إذْ لا سبيل إلىٰ خروجهما معًا في آنٍ واحدٍ، بل لا بدّ أن يسبق أحدُهما الآخرَ، وقد عَقَدَ ذلك الناظمُ بقولِه:

---

(١) الوافي بالوفيات (١/ ١٨٨)، وأعيان العصر وأعوان النصر: للصفدي (٥/ ١٥٢).

(٢) انظر مجموع مؤلفات الشيخ العلّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي - دار الميمان، ط ٢ - (١/ ١٣٩).

تنوير: من الأمور المهمّة أن لّا ينشغلَ الطالبُ أثناءَ شرْح الشيخ بمسارقة النظر إلىٰ كتابه؛ ليُطابقَ ما فيه مع ما يقولُه الشيخُ، فيتشتّتَ ذهنُه، ويتبدّدَ فهمُه، فلا هو استوعبَ كلامَ الشيخ، ولا هو فهِم عباراتِ الكتاب، فضلًا عن مطابقتهما! و﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤].

وإنْ تُـرِدْ تَحصـيلَ فَـنٍّ تَمِّمَـهْ   وعَـنْ سِـواهُ قبـلَ الانتهـاءِ مَـهْ
وفي تـرادُفِ الفنـونِ المنـعُ جَـا   إذْ تَوأمـانِ اجتَمَعَـا لَـنْ يَخرُجَـا![1]

وقال الإمامُ الشافعيُّ لمؤدِّب ولد الخليفة هارون الرشيد: «ولا تُخرِجْهُم من علمٍ إلىٰ غيره حتىٰ يُحْكِمُوه؛ فإنَّ ازدحامَ الكلام في السمع مَضِلَّةٌ للفهم!»[2].

فإن غُلِبَ الطالبُ علىٰ هذه - بسبب أنّ مُعظمَ المدارس والجامعات اليوم تُدرِّس أكثرَ من فنٍّ في اليوم الواحد؛ حيثُ يَدْرُس الطلّابُ أربعةَ أو خمسةَ فنونٍ في اليوم الواحد - فالطريقةُ الصحيحةُ - والحالةُ هذه - أنْ يُركِّزَ الطالب علىٰ فنٍّ أو فنّينِ، يَستفرِغُ فيها جُهْدَه، ويجعلَ الباقي تَبَعًا لها.

خامس عشَر: العنايةُ التامّةُ بالقراءة، ثمّ القراءة، ثمّ القراءة. لا سيّما للطلبة المتقدِّمين في مراحل الطَّلَب[3].

---

(١) السلفية وأعلامها في موريتانيا: للطيب بن عمر بن الحسين (ص/ ١٠٤).
وفي بعض المراجع: «**إذْ تَوأمانِ استبقا لن يَخرُجَا**»، وهو الأليقُ.

(٢) صفة الصفوة: لابن الجوزي (٢/ ٢٥٦).

(٣) قال العلّامةُ ابنُ الطيّب الفاسي: «الأَوْلىٰ لمن حصلتْ له معرفةٌ بالاصطلاح، والقدرةُ علىٰ فهم ما في الكتب، أنْ يَنقطعَ في نفسه، ويُلازمَ النظر». إضاءة الرامُوس (٢/ ٢٨٦).
تنبيه: ما تقدَّم إنما هو في حقّ المتقدّمين في الطلب والتحصيل، أما المتوسِّطون والمبتدؤن فلا ينبغي أن يشتغلوا كثيرًا بمطالعة الكتب - ولاسيما المطوَّلات - إلا بعد التأصيل العلميِّ الجيّد، بل عليهم أن يشتغلوا بالحفظ والتكرار أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر، لأنهم قد يجدون في القراءة راحةً من مَؤُونة الحفظ والتأصيل، وهذا من تلبيس إبليس!
فمن لّم يصبرْ، فلْيجعلْ أوقاتَ النشاط للحفظ والدرْس، والقراءةَ فيما سوىٰ ذلك.

لأنها الطريقُ الأمثلُ لتقوية الفهم، وصقْل الذهن، وشحْذ العقل، وتحصيل العلم، وتوسيع المدارك، واكتساب الخِبْرات، وإثراء الفِكر؛ لأنَّ ثراءَ الأفكار يقوم علىٰ شيئين: عُمْقِ المعرفة، وسَعَةِ الاطِّلاع.

إنّ القراءة هي حياةُ طالبِ العلم، وطالبُ العلم بلا قراءةٍ ليس بشيءٍ!

ولذا يقول أبو عبد الرحمن بنُ عقيلٍ الظاهريّ: «مِن لذّاتِ العلمِ أنْ تَقرأ قائمًا، فقاعدًا، فمُستلقيًا، فمُنكبًّا!»(١).

وكان العلَّامةُ محمودُ شاكر يقول - كما حكىٰ عنه ابنُه فِهْر -: إنَّ وظيفتي الأولىٰ والأخيرةَ أنْ أقرأَ!

وإنّ من الـمُلاحَظ علىٰ كثيرٍ من طلّاب العلم اليومَ أنهم يَكتفون بقراءة المختصراتِ علىٰ الأشياخ، دون أنْ يجعلوا قَدْرًا من الوقت لمطالعة الكتب؛ سواءً في الفنّ نفسه الذي يَقرأ فيه علىٰ الشيخ، أو في غيره! وهذا خطأٌ.

فلو أنّ طالبَ علمٍ قرأ متنًا مختصرًا في الفقه أو في التفسير مثلًا علىٰ شيخٍ واكتفىٰ بذلك، فإنّ تحصيلَه سيكونُ ناقصًا ولا شكّ، بل ينبغي له بعدَ ذلك أنْ يشتغلَ بمطالعة المتوسِّطاتِ والمطوَّلاتِ في تلك العلومِ... وغيرِها.

لذا؛ فاجعلْ نُصْبَ عينيكَ - أيها الطالبُ - دائمًا أصحابَ الهِمَمِ العاليةِ في القراءةِ، وهم كُثُرٌ؛ وقد تقدّم ذِكرُ بعضِهم. لكنّني أكتفي هنا بذِكْرِ نَموذجَيْنِ فقط: قَديمٍ، ومُعاصِرٍ.

---

(١) تباريح التباريح (ص/ ١٥).

فهذا الإمامُ ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وهو من المتقدِّمين (ت ٥٩٧هـ) - يقول عن نفسه: «وإني أُخبِرُ عن حالي: ما أشبعُ من مطالعة الكتب، وإذا رأيتُ كتابًا لم أرَهْ، فكأني وقعتُ علىٰ كنزٍ! ولقد نظرتُ في ثَبَتِ[1] الكتب الموقوفة في المدرسة النِّظَامِيَّة[2]؛ فإذا به يحتوي علىٰ نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثَبَتِ كتبِ أبي حنيفة، وكتبِ الحميدي، وكتبِ شيخِنا عبدالوهاب، وابنِ ناصر، وكتبِ أبي محمد بن الخشّاب - وكانتْ أحمالًا - وغيرِ ذلك من كلِّ كتابٍ أقدِرُ عليه، ولو قلتُ: **إنّي طالعتُ عشرينَ ألفَ مجلَّدٍ، كان أكثرَ!!** وأنا بعدُ في الطَّلَب!

فاستفدتُ بالنظر فيها من مُلاحظة سِيَرَ القوم، وقَدْر هِمَمِهِم، وحفظِهِم، وعباداتِهم، وغرائبِ علومِهم، ما لا يعرفه من لّم يُطالعْ، فصِرتُ أسْتَزْرِي ما الناسُ فيه، وأحتقرُ هِمَمَ الطلّاب! ولله الحمد»[3].

فتأمّلْ هذه القراءاتِ الموسوعيّةَ لدىٰ هذا العَالِمِ العَلَم، كيفَ قرأَ هذا العددَ الهائلَ من الكتبِ وهو بعدُ ما زالَ طالبًا!!

وهـذا الشـيخُ أبـو تـرابٍ الظـاهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهـو مـن المعاصـرين (ت١٤٢٣هـ)- ذُكِرَ في ترجمته أنه قال: «مجموعُ الكتب التي طالعتُ، أو درستُ، نحو ثمانية آلاف كتابٍ، من مختلف العلوم!!».

---

(١) **الثَّبَت**: هو الفِهْرِس، وجَمعُه: أثبات.

(٢) **المدرسةُ النِّظَاميّةُ**: نسبةً إلىٰ الوزير نِظَام المُلْك لأنه الذي بناها، افتُتحتْ في عام (٤٥٩هـ)، وتولّىٰ التدريسَ فيها نخبةٌ من كبار العلماء، منهم: أبو إسحاق الشِّيرازي، والغزَّالي، والشَّاشي القفّال، وغيرُهم. انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لابن الجوزي (١٦/ ٩١).

(٣) صيد الخاطر (ص/ ٤٥٤).

وحسْبُك أنْ تعلمَ أنّه قرأ في اللغة فقط - علىٰ أبيه، أو مطالعةً -: كتابَ «فقه اللغة» للثعالبي، و«الصّحاح» للجوهري، و«لسان العرب» لابن منظور، قرأه ثلاثَ مرّاتٍ! وعلّق عليه، و«تهذيب اللغة» للأزهري، و«تاج العروس» للزبيدي، و«العين» للخليل، و«الجمهرة» لابن دريد، و«مجمل اللغة» لابن فارس، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير، و«الفائق» للزمخشري، و«مقاييس اللغة» لابن فارس، و«أساس البلاغة» للزمخشري!!!

ثم عكف علىٰ الحفظ، فحفظ أربعينَ ألفَ مادةٍ من «القاموس المحيط»!! وعشرةَ آلافِ بيتٍ، سوىٰ القصائد الشهيرة!! كما حفظ خمسينَ ألفَ حديثٍ نبويٍّ!![1].

ولذا تجدُ العلماءَ يُثنونَ علىٰ الشخص بسَعَة الاطّلاع، ويَذمُّونه بقِلّة الاطّلاع[2].

---

(١) انظر: أبو تراب الظاهري، صفحاتٌ من حياته وتأملاتٌ في أدبه: لعبد الكريم بن عبد الله العبد الكريم (ص/ ٣٦ و٤٠ و ١٢٣) ط مكتبة الملك فهد الوطنية.

(٢) من الأمثلة علىٰ ذلك:

- قولُ ابنِ حزمٍ في «الإحكام في أصول الأحكام» - طبعة دار الحديث - (٤/ ٥٦٥): «وهذا مالكٌ يقول في «موطئه»: «إذْ ذَكَر وجوبَ ردّ اليمين علىٰ المدَّعِي إذا نكل المدَّعَىٰ عليه. ثم قال: (هذا ما لا خلاف فيه عن أحدٍ من الناس، ولا في بلدٍ من البلدان)، قال أبو محمد: وهذه عظيمةٌ جدًا، وإنّ القائلين بالمنع من ردّ اليمين، أكثرُ من القائلين بردّها!».

- وقال الزبيدي في تاج العروس من جواهر القاموس (٣/ ٣٢٠): «والتَّعَاجِيبُ: العَجَائِبُ، لا واحد لها من لفظها. وفي «الناموس»: (الأظهرُ أنها الأعاجيب). وهذا يدل علىٰ قِلّة اطّلاعه علىٰ النقل، وقد أسْبقْنا في المطايب ما يفضي إلىٰ العجائب، وقد نبّه علىٰ ذلك شيخُنا في «حاشيته» وكفانا مؤونة الردّ عليه، عفا اللهُ عنهما».

=

وسوف أذكرُ في المبحث التالي بعضَ القواعدِ المهمّةِ للقراءةِ المثمرةِ المفيدة.

=

- **وقال المباركفوري** في تحفة الأحوذي (١/ ٢٤٩): «وأما قولُ صاحب «بذل المجهود»: (قال به جماعةٌ من كُبراء الصحابة منهم عليٌّ وابنُ مسعود وابنُ عمر وابنُ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فتبيّن أن الحديثّ ورد مَوردَ الشهرة والاستفاضة؛ حيثُ عمل به الصحابة وتلقّوْه بالقبول ومِثلُه مما يُنسخ به الكتابُ)، فمبنيٌّ علىٰ قِلّة اطّلاعه؛ فإنه لم يثبت بسندٍ صحيحٍ عن أحدٍ من الصحابة التوضّؤُ بالنبيذ».

- **وقال أيضًا** في (٤/ ٢٦٨): «**تنبيهٌ**: قال صاحبُ «العَرْف الشذي» ما لفظه: (لي بحثٌ في أنّ ابنّ عباس جاء إلىٰ المدينة مع أبيه في السنة التاسعة وأنها عَتَقَتْ قبلها وكانت تخدم عائشة؛ فإنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سألها عن شأن عائشة في قصة الإفك)، قلتُ: قد وقع في هذه الشبهة من قلّة اطلاعه....» إلخ كلامه.

- **وقال صِدّيق حسن خان** في أبجد العلوم (ص/ ٧١١) عن شيخه صدر الدين خان بهادر: «وَلِي الصدارةَ بدِهْلي من جهة البرطانية - حكّام الهند اليوم - فاستمرّ عليها إلىٰ الفتنة، وأخذ الحديث عن الشيخ المهاجر، وله رسالة: «منتهىٰ المقال في شدّ الرحال» قال في «اليانع الجني»: قد تأنّق فيها سلّمه الله تعالىٰ. انتهىٰ. أي: أتىٰ بتحقيقاتٍ رائقةٍ.

قلتُ: هذا غلطٌ بحتٌ، بل زلّ فيها زَلّةً عظيمةً تُنبئ عن قِلّة اطّلاعه علىٰ أدلّة المسألة ومَاجَرَيَاتِها، وقد ردّ عليه فيها بعضُ علماء الهند، ويُغني عن ذلك كلِّه كتابُ «الصارم المنكي» في هذا الباب».

- **وقال مجدِّدُ البيان العربيّ مصطفىٰ الرافعي** في كتابه الماتع «تحت راية القرآن» (ص/ ٩٤) عن الدكتور/ طه حسين: «ولْتعلَمْ إنْ كنتَ لمّا تعلم، أنّ الرجلَ مُفسِدٌ لا مُصلِحٌ، ومُلفِّقٌ لا مُحقِّقٌ، وأنّ مَأْتىٰ ذلك فيه من ضعف اطّلاعه علىٰ مادة التاريخ الأدبيّ، فهو يتوسّعُ بالثرثرة، ومِن نقْص خياله فهو يتزيَّدُ بالشكّ، ومِن انحطاط قوّته البيانيّة فهو يتماسكُ بمحامل الجدل!».




حبيبي من الدُّنيا الكتابُ فليسَ لي ... إلىٰ غيرِه ما بي إليهِ من الفَقْرِ

كلانا لضيقِ الروحِ بالروحِ مانِحٌ ... دُنُوًّا بلا بُعْدٍ، ووَصْلًا بلا هَجْرِ

فكُرسِيُّه حِجْري إذا كنتُ قاعدًا ... وإنْ اضْطَجعْ أفْرِشْهُ مُستَلْقِيًا صَدْرِي!

ربيع الأبرار (٤/٤٥)






المبحثُ الثالثُ

أُصُولٌ في المطالعة المفيدة



مطالعةُ الكتب وقراءتُها أحدُ الطرقِ المهمّة لتحصيلِ العلم، لا سيّما للمتقدِّمين في الطَّلَب.

وبكثرة اطّلاعِ الشخصِ وتنوُّعِ معارفه، تَقْوىٰ مدارِكُه، وتَتَنوَّعُ خِبراتُه، كما مرَّ معنا في آخر المبحث السابق.

قال ابنُ الأزرق: «تَكْثِيرُ التواليفِ لمريدِها من طلبة الْعلم لَا يُقَالُ فيه: إنه عائقٌ عن التَّحْصِيل! بل هو كَفِيلٌ بكمالِهِ، ومِن ثَمَّ قال ابْنُ حزمٍ: «الاستكثارُ من الْكتب من دعائم العلم؛ إِذْ لا يَخْلُو كتابٌ من فائدةٍ وَزِيَادَةِ علمٍ» وَقد كشف الْخَلِيلُ عن فائدةِ جمعِهَا وغاياتِه فقال: «أَقِلُّوا من الْكتب لتحفظوا، وأكثِروا مِنْهَا لِتَعْلَمُوا»[(١)].

وقد مرَّ معنا قريبًا قولُ ابنِ الجوزي: «لو قلتُ: إنّي طالعتُ عشرينَ ألفَ مجلَّدٍ، كان أكثرَ، وأنا بعدُ في الطَّلَب»[(٢)].

وقال الشيخُ العلّامةُ محمدُ البشيرُ الإبراهيميُّ (ت ١٩٦٥م) بعد أنْ عَدَّ الكَسَلَ عن المطالعة إحدىٰ النقائصِ في حياتنا العلمية الحاضرة!: «الحقَّ

---

(١) بدائع السلك في طبائع الملك (٢/ ٣٥٤).
وكلامُ ابنِ حزمٍ في رسالة مراتب العلوم - رسائل ابن حزم - (٤/ ٧٧)، وسيأتي بتمامه.
(٢) صيد الخاطر (ص/ ٤٥٤).

أقولُ: إنّ شبابَنا المتعلّمَ كسولٌ عن المطالعة، **والمطالعةُ نصفُ العلم أو ثُلُثاه**.

فأوصيكم يا شبابَ الخير بإدمانِ المطالعةِ والإكْبابِ عليها، ولْتَكُن مطالعتُكم بانتظامٍ؛ حِرصًا علىٰ الوقت أن يَضِيعَ في غير طائلٍ. وإذا كنتُم تريدون الكمالَ فهذه إحدىٰ سُبُل الكمال»[١].

وقال الشيخُ محبُّ الدين الخطيب (ت ١٣٨٩ هـ): «الطالبُ الذي يُشغَفُ بالمطالعةِ والاطّلاعِ يجني **عسلَ العلم** من كلِّ زهرةٍ يَقعُ عليها»[٢].

وهذه بعضُ الأصولِ والقواعدِ المهمّةِ في القراءةِ؛ ممّا لها تعلُّقٌ ببرنامج **(التأصيل العلمي)** الذي نتحدَّث عنه[٣]؛ لأنّ كثيرًا من طُلّاب العلم اليوم لا يَعرف ماذا يقرأ؟ ولا كيف يقرأ؟ ولا كيف يستفيد ممّا يقرأ؟!

والسببُ يرجع - في ظنّي - إلىٰ عدمِ تعليمِ الأساتيذِ طلّابَهم قواعد ومهاراتِ القراءةِ.

قال الشيخُ محمدُ البشيرُ الإبراهيميُّ: «شبابُنا في حاجةٍ إلىٰ قراءة القديم النافع، والجديد العامر، وفي حاجة إلىٰ الإرشاد الخالص إليهما. ومِن حقِّهم علينا أنْ نُرشدَهم إلىٰ تنظيم القراءة، وأنْ نُبيّنَ لهم ما يُقرأُ وما لا يُقرأُ؛ لأنّ

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (١/ ١٥٤).

(٢) آخر لقاء مع هؤلاء: لمحمد خير رمضان يوسف (ص/ ٣٠).

(٣) عالجتُ موضوعَ القراءةِ أيضًا بالتفصيلِ في:
كتاب: «القواعدُ المنهجيّةُ للقراءةِ التأصيليّة».
وكتاب: «القراءةُ الـمُبَرْمَجَةُ: تَهْيِئَةٌ وتَطْبيقٌ».
وكتاب: «المَراشِد السديدة للقراءة المفيدة».

أوقاتَهم محدودة، ولأنّ دراهمَهم معدودة!»[١].

***

وإليكَ بعضَ تلك القواعدِ والمهاراتِ، من غير مراعاةِ ترتيبٍ معيّنٍ في سَوْقها:

* - اجعلْ القراءةَ هي الأصلَ في حياتك.

بمعنىٰ أنْ تجعلَ وقتَكَ كلَّه للقراءةِ، وما سوىٰ ذلك يكون تَبَعًا! وقد تقدّم معنا قريبًا قولُ أبي عبدِ الرحمن بن عقيلٍ: «مِن لَذّات العلم أن تقرأ قائمًا، فقاعدًا، فمُستلقيًا، فمُنكبًّا!»[٢].

فاجعلْ يا صَاحِ الكتابَ أنيسَكَ وسميرَكَ، واصْطحبْه معكَ في حِلّكَ وتَرْحَالِكَ، وحَضَرِكَ وسَفَرِكَ، وصِحّتكَ ومرضِكَ، وحال الأكْلِ والشربِ، والقِيامِ والقُعودِ، والرُّكوبِ والـمَشْيِ، وعندَ فِرَاشِ النومِ، فمَنْ وَفّىٰ بهذا فهو الذي يَصْدُقُ عليه اسمُ (القارئِ) حقيقةً، وإلّا فَلا تَعُدَّهُ!

ذَكَرَ يحيىٰ بنُ يحيىٰ الليثيُّ - راوي الموطأ - حديثًا يرويه عن يحيىٰ بن أبي كثير، قال: «**لا يُستَطاعُ العلمُ بِراحَةِ الجِسْمِ**». قال: وإنّ رجلًا ممّن بلغه هذا الحديثُ من طلبة العلم (يعني نَفْسَه) ذَكَرَه وهو علىٰ بطن امرأته، قبل أن

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٢/ ٣٩٧).
كما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تجربتَه الثَّريَّةَ مع القراءة، وإرشاد عمِّه له في اختيار ما يقرأ، في مقالٍ رائع نُشر في صحيفة (الأهرام) المصرية، فراجعْه مع التعليق عليه في خاتمة كتابي «**المراشد السديدة للقراءة المفيدة**».

(٢) تباريح التباريح (ص/ ١٥).

يُفْضِي إليها، فأخذَ دَفْترًا من العلم ينظرُ فيه!![١].

وقال الجاحظُ: «سمعتُ الحسنَ اللؤلؤيَّ يقول: غَبَرْتُ[٢] أربعينَ عامًا ما قِلْتُ ولا بِتُّ ولا اتّكأتُ إلاّ والكتابُ موضوعٌ علىٰ صَدْري!»[٣].

وكان الفتحُ بنُ خاقانَ يحملُ الكتابَ في كُمّه أو خُفّه، فإذا قام من بين يديْ المتوكّل ليبول أو ليصلّي، أخرج الكتابَ فنظرَ فيه وهو يمشي، حتىٰ يبلغَ الموضعَ الذي يريدُ، ثم يصنعُ مثلَ ذلك في رجوعه إلىٰ أن يأخذ مجلسَه![٤].

وقال أبو هلال العسكري: «حُكي عن ثعلب أنه كان لا يفارقُه كتابٌ يدرُسُه، فإذا دعاه رجلٌ إلىٰ دعوةٍ شَرَطَ عليه أنْ يُوسِعَ له مقدارَ مِسْوَرَةٍ[٥]، يَضعُ فيها كتابًا ويقرأ!

وكان أبو بكر الخياط النحوي يَدرُسُ جميعَ أوقاته، حتىٰ في الطريق، وكان ربّما سقطَ في جُرُفٍ، أو خَبَطَتْه دابةٌ!

.... وكان بعضُهم يقول: متىٰ تبلغُ من العلم مبلغًا يُرْضِي، وأنت تُؤثِرُ النومَ علىٰ الدرس، والأكلَ علىٰ القراءة؟!»[٦].

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك: للقاضي عياض (٣/ ٣٨٦).
(٢) أي: مَكَثْتُ. قال في العين (٤/ ٤١٣): «غَبَرَ الرجل يَغْبُرُ غُبُورًا أي مكثَ».
(٣) الحيوان (١/ ٥٢ - ٥٣). وعنه اللطائف والظرائف: للثعالبي (ص/ ٦٦).
(٤) انظر: الفهرست: لابن النديم (ص/ ١٤٨)، وتقييد العلم: للخطيب (ص/ ١٣٩)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٤٨/ ٢٢٣).
(٥) المِسْورة: مُتَّكَأٌ من أَدَمٍ، وجمعُهَا الْمَسَاوِر. تهذيب اللغة: للأزهري (١٣/ ٣٥).
(٦) الحث علىٰ طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص/ ٧٧).

وقال ابنُ عقيلٍ الحنبليّ عن نفسِه: «أنا أُقَصِّرُ بغاية جهدي أوقاتَ أكْلي، حتىٰ أختارُ سَفَّ الكَعْكِ وتَحَسِّيهِ بالماءِ علىٰ الخُبزَة؛ لأجل ما بينهما من تفاوت الـمَضْغِ! تَوَفُّرًا علىٰ مطالعةٍ، أو تسطيرِ فائدةٍ لم أدرِكْها فيه»[١].

وقال الثعالبيُّ: «كثيرًا ما أذكُرُني آكُلُ الوَجْبةَ وأنا أنظرُ في كتابٍ جديدٍ وقعَ إليّ، ولا أصبرُ عنه إلىٰ وقت فراغي من الأكل! وسمعتُ أبا نصرٍ سهلِ بنِ المرزبان يقول: كثيرًا ما أفعلُ مثلَ ذلك!»[٢].

وكان أحمدُ بنُ عبد الله المهدي القيرواني آيةً في الدراسة والمطالعة، لا يَكادُ يسقطُ الكتابُ من يده، حتىٰ عند طعامه![٣].

وكانتْ لمحمد بن سُحنون التنوخي سُرِّيّةٌ (جارية) يُقال لها: أمُّ قُدَام. فكان عندَها يومًا، وقد شُغِلَ في تأليف كتابٍ إلىٰ الليل، فحضر الطعامُ، فاستأذنتْه، فقال لها: أنا مشغولٌ الساعةَ. فلمّا طال عليها، جعلتْ تُلْقِمُه الطعامَ، حتىٰ أتتْ عليه. وتَمادىٰ هو علىٰ ما هو فيه إلىٰ أنْ أُذِّنَ لصلاة الصُّبْح! فقال: شُغلْنا عنك الليلةَ يا أمَّ قُدَام، هاتِ ما عندَك! فقالت: قد واللهِ يا سيدي أَلْقَمْتُه لكَ، فقال لها: ما شعرتُ بذلك!![٤].

وقال ابنُ القيّم: «حدَّثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه قال: كان الجدُّ (يعني مجدَ الدين) إذا دخل الخلاءَ يقول لي: اقرأْ في هذا الكتاب وارفعْ صوتَك حتىٰ أسمعَ!

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٣٢٥).
(٢) اللطائف والظرائف (ص/ ٦٦).
(٣) انظر: ترتيب المدارك (٦/ ٢٧٣).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ٢١٥).

وأعرفُ مَن أصابه مرضٌ من صُداعٍ وحُمّىٰ وكان الكتابُ عند رأسِه، فإذا وَجَدَ إفاقةً قرأَ فيه، فإذا غَلَبَ وَضَعَه! فدخل عليه الطبيبُ يومًا وهو كذلك، فقال: إنَّ هذا لا يَحِلُّ لك؛ فإنك تُعِينُ علىٰ نفسِكَ، وتكونُ سببًا لفَوَاتِ مطلوبِك.

وحدثني شيخُنا (تقيُّ الدين ابنُ تيمية) قال: ابتدَأَني مرضٌ، فقال لي الطبيبُ: إنّ مطالعتَكَ وكلامَكَ في العِلم يزيدُ المرضَ، فقلت له: لا أصبرُ علىٰ ذلك، وأنا أحاكِمُكَ إلىٰ عِلمكَ، أليستْ النفسُ إذا فَرِحَتْ وسُرَّتْ قَوِيتْ الطبيعةُ فدفعتْ المرضَ؟ فقال: بلىٰ، فقلتُ له: فإنّ نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوىٰ به الطبيعةُ فأجدُ راحةً! فقال: هذا خارجٌ عن عِلاجِنا، أو كما قال»[1].

وجاء في ترجمة أحمد بن سليمان بن نصر الله بن إبراهيم الشهاب البُلْقاسي (ت ٨٥٢هـ) أنه كان محبًّا للعلم والمذاكرة والمباحثة، غيرَ مُنفَكٍّ عَن التَّحْصِيلِ، بِحَيْثُ إنه كان يُطالِعُ في مَشْيِهِ! ويُقرِئُ الْقراءاتِ في حالِ أكْلِهِ؛ خوفًا من ضيَاعِ وقتِه في غيرِه![2].

وأخبارُ العلماءِ في ذلك كثيرةٌ جدًا، لكنْ حسبُكَ هذه اللّمْحَة.

***

* - إذا قرأتَ كتابًا فاقرأْهُ قراءةَ مُودِّع!

بمعنىٰ: أنْ تقدِّرَ في ذهنك وأنتَ تقرأُ أنك لن تعودَ إلىٰ هذا الكتاب مرّةً

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص/ ٧٠).

(٢) انظر الضوء اللامع: للسخاوي (١/ ٣١١).

أخرىٰ؛ فإنك حينئذٍ سوفَ تسْتوعبُه استيعابًا تامًّا إن شاء الله.

وقد كانتْ هذه طريقةُ العلَّامة الشيخ محمد بن عثمان الحنبلي، المشهور بخطيب دُوما[(١)] (ت ١٣٠٨هـ)، فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول لطلّابه: «لا ينبغي لمن يقرأُ كتابًا أن يتصوّرَ أنه يريدُ قراءتَه مرةً ثانيةً؛ لأن هذا التصوّرَ يمنعُه عن فهم جميع الكتاب، بل يتصوّرُ أنه لا يعود إليه مرةً ثانيةً أبدًا»[(٢)].

❊❊❊

❊ - ابدأْ بالأهمِّ فالمهمِّ فيما تَقرأ.

وهذا يختلفُ من شخصٍ إلىٰ آخر، ومن وقتٍ إلىٰ آخر، ومن بلدٍ إلىٰ آخر.

فلا يَبدأُ الطالبُ بالكُتب الفِكْريّة، وهو لم يتشبّعْ بعدُ من كتب العقيدة! ولا بمسائل البيوع، وهو ليس ممّن يُضاربُ في الأسواق! ولا بمسائل الطلاق، وهو لم يتزوّجْ بعدُ! وإنما يُقدِّم الشيءَ الذي يحتاجه من الأبواب والمسائل أولًا، لا سيّما ما يتكرّر كثيرًا، كمسائل التوحيد والطَّهارة والصلاة.. إلخ.

قال القَطِيعي: «دخلتُ علىٰ أبي عبد الله (أحمد بن حنبل) فقلتُ: أتوضَّأُ بماء النُّوْرَة؟ فقال: ما أُحِبُّ ذلك! قلتُ: أتوضَّأُ بماء الباقِلَّاء؟ قال: ما أُحِبُّ ذلك! قلتُ: أتوضَّأُ بماء الوَرْد؟ قال: ما أُحِبُّ ذلك! قال: فقُمتُ، فتعلَّق بثوبي، ثم قال: إيشْ[(٣)] تقولُ إذا دخلتَ المسجدَ؟ فسكتُّ! فقال: وإيشْ

---

(١) مدينة دُوما هي أهمُّ مدن محافظة ريف دمشق في سوريا ومركزها الإداري، وهي أكبرُ مدن غُوطة دمشق، تبعد عن دمشق حوالي (٩) كيلو مترات.

(٢) المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل: لابن بدران (ص/ ٤٨٨).

(٣) فائدة: إيشْ: كلمةٌ منحوتةٌ من قولهم: (أَيُّ شيءٍ).

=

تقولُ إذا خرجتَ من المسجد؟ فسكتُّ! فقال: اذهبْ فتعلّمْ هذا»[(١)].

وقال ابنُ قُتيبة: «قد يكونُ الرّجلُ متبوعًا في الأدب، قد سَمَق فيه، وأخذ بالحظِّ الأوفىٰ منه، إلّا أنه أغفل شيئًا من الجليل كان أولىٰ به من بعض ما حَفِظَ، فلَحِقَتْهُ فيه النّقِيصَةُ، وتَرجِعُ عليه منه الهُجْنَةُ[(٢)]، كطالبِ غَوامضِ الفقهِ، وقد أغفل أبوابَ الصلوات والفرائض! وكطالب طُرُق الحديث، وقد أغفل متونَها ومعانيَها! وكطالب عِلَل النّحو وتصاريفِه، وهو يَلحَنُ في رُقْعةٍ إنْ كتبَها، أو بيتِ شعرٍ يُنشِدُه!»[(٣)].

وكذلك الحالُ بالنسبة للعلوم والبلاد، فتجدُ مَن يبدأُ بالبلاغة مثلًا، وبلادُه تعُجُّ بالشِّركيّات والبِدَع! أو مَن يَبدأُ بعلمِ الفرائض ويحفظ فيه (الرَّحَبيّة)، وهو لم يحفظْ بعدُ منظومةً في أصول الفقه، أو مصطلح الحديث! وهذا من تقديم المفضول علىٰ الفاضل؛ وسببُه عدمُ فِقه الأولويّات.

***

=

قال ابن دَرَسْتَويه في تصحيح الفصيح وشرحه (ص/ ٣٦): «قد تَلْهَجُ العربُ الفُصَحاءُ بالكلمة الشاذّة عن القياس، البعيدة من الصواب، حتىٰ لا يتكلَّموا بغيرها، ويَدَعوا المُنْقاسَ المطَّرِدَ المختارَ، ثم لا يَجِبُ لذلك أن يُقال: هذا أفصحُ من المتروك.

ومن ذلك قولُ عامة العرب: أَيْشٍ صنعتَ؟ يريدون: أيَّ شيءٍ صنعتَ؟ وقولهم: لا بَشَانِيكَ، يعنون: لا أبًا لِشانِيك. وقولُهم: لا تُبَلْ، أي لا تُبال ياهذا».

وانظر: فقه اللغة: للثعالبي (ص/ ٢٥٠)، وأسرار العربية: للأنباري (ص/ ١٧٦)، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها: للسيوطي (١/ ١٦٥).

(١) طبقات الحنابلة: لابن أبي يعلىٰ (١/ ٤١).

(٢) الهُجْنَةُ: القُبْحُ والعيْب. انظر: الصحاح: للجوهري (٧/ ٦٧)، والمحيط في اللغة: للصاحب بن عباد (٣/ ٣٨٠).

(٣) المعارف (ص/ ٣).

* - كتابُ العِلْمِ الأعظم، وقاموسُهُ الأفْخَم: القُرآنُ الكريمُ.

لذا؛ فهو أجدرُ كتابٍ يُوصَىٰ بقراءتِه، ودوامِ تلاوتِه؛ وإدمانِ النظرِ فيه؛ وهو خِطابُ الله الـمُعجِزُ لجميع الثَّقَلَيْن.

قال السيوطيُّ: «منتهىٰ العلوم في القرآن؛ عَجَزَ عنه الثقلان، قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٨]»[١].

وللهِ دَرُّ القائل:

جَميـــعُ العِلْـــمِ في القـــرآنِ لكـــنْ تَقَاصَـــرُ عنـــه أفهـــامُ الرِّجـــالِ[٢]

---

(١) مشتهىٰ العقول في منتهىٰ النقول (مخطوط) (ل/ ٤).

(٢) يُنسبُ البيتُ لعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقيل: لعبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

انظر: الكافي شرح البزودي: للسِّغْنَاقي (١/ ٢٠٢)، وفصول البدائع في أصول الشرائع: للفَناري (١/ ٩٠)، ومرقاة المفاتيح: لعلي قاري (٩/ ٣٩٧٢).

إضاءة: ممّا يُستأنَسُ به في تثبيت المعنىٰ المذكور في البيت ما يلي:

* سُئل بعضُ الحكماء من بعض العلماء عمّا في كتاب الله تعالىٰ من عِلم الطبّ؟ فقال: كُلُّه في نصف آية، هي قولُه تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف:٣١]، فقال: صدقتَ، وبالحقّ نطقتَ. شرح الشِّفا: لعلي قاري (١/ ٥٥٩).

* ورُوي عن الأصمعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: اجْتَزْتُ ببعض أحياء العرب، فرأيتُ صَبيَّةً معها قِربةٌ فيها ماءٌ وقد انحلَّ وِكاءُ فَمِها. فقالتْ: يا عَمّ، أدركْ فاها، غَلبني فُوها، لا طاقةَ لي بفِيها! فأعنتُها، وقلتُ: يا جارية، ما أفصَحَكِ! فقالتْ يا عمّ، وهل ترك القرآنُ لأحدٍ فصاحةً؟ وفيه آيةٌ فيها: خَبَران، وأمران، ونهيان، وبشارتان! قلتُ: وما هي؟ قالت: قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

=

=

قال: فرجعتُ بفائدةٍ، وكأنّ تلك الآية ما مرّت بمسامعيٰ! لباب الآداب: لأسامة بن منقذ (ص/ ٣٢٩).

* وقال سفيانُ بنُ عيينة: لا تأتونَ بمثلٍ مشهورٍ للعرب إلا جئتُكم به من القرآن. فقال له قائلٌ: فأين في القرآن: (أعطِ أخاكَ تمرةً، فإن لم يقبلْ فأعطه جمرة)؟ فقال في قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ الْآيَة. الفوائد: لابن القيم (ص/ ٨٤).

* وقال الشِّبْلي لأبي بكر بن مجاهد: قد أجمع الناسُ أنك مُقرئُ الوقت، فأين في القرآن: (إنَّ الحبيبَ لا يُعذِّبُ حبيبَه)؟ فسكت ابنُ مجاهد، ثم قال: قل يا أبا بكر، فقرأ له الشبلي قولَه تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المَائدة:١٨]، فقال ابنُ مجاهد: كأني والله ما سمعتُها قطّ! انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٣٩٤)، وتاريخ دمشق (٦٦/ ٥٨ - ٥٩)، وطبقات الفقهاء الشافعية: لابن الصلاح (١/ ٤٨٩)، وطبقات الشافعية الكبرىٰ: للسبكي (٧/ ١١٤).

* وقال أبو نصر الكركانجي: «نِصفُ القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف:٧٤]». معجم الأدباء (٥/ ٢٣٥٩).

* وقيل لبعضهم: أين في القرآن: (الحيطانُ لها آذانٌ)؟ قال: في قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (٢٨/ ١٩٤).

* وقال بعضُ الظرفاء وقد سُئل: أين في القرآن مثلُ قولهم: (الجارُ قبلَ الدار)؟ قال: في قوله تعالىٰ: ﴿ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١]، فعندكَ هو المجاورة، وبيتًا في الجنة هو الدار. البحر المحيط: لأبي حيان (٨/ ٢٩٠).

* وقال الشيخُ العُثيمين: «يُذكرُ أنّ بعضَ أهل العلم أتاه رجلٌ من النصارىٰ يريد الطعنَ في القرآن الكريم، وكان في مَطعمٍ، فقال له هذا النصرانيُّ: أين بيانُ كيف يُصنع هذا الطعام؟! فدعا الرجلُ صاحبَ المطعم وقال له: صِفْ لنا كيف تَصنعُ هذا الطعامَ؟ فوَصَفَه، فقال: هكذا جاء في القرآن! فتعجّب النصرانيُّ. وقال: كيف ذلك؟ فقال: إنّ اللهَ ﷻ يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] فبيَّنَ لنا مفتاحَ العلم بالأشياء بأنْ نسألَ أهلَ الذِّكر بها، أي أهلَ العلم به. وهذا من بيان القرآن بلا شكٍّ، فالإحالةُ علىٰ مَنْ يحصلُ بهم العلمُ هي فتحٌ للعلم». مجموع فتاوىٰ ورسائل ابن عثيمين (٧/ ٥٣).

ولذا يقول الإمامُ الشاطبيُّ: «لا بدّ في كلّ مسألةٍ يُرادُ تحصيلُ عِلمها علىٰ أكمل الوجوه أنْ يُلتفتَ إلىٰ أصلها في القرآن، فإنْ وُجِدتْ منصوصًا علىٰ عينِها أو ذكرِ نوعِها أو جنسِها؛

=

ولذا قيل: إنما سُمِّيَ القرآنُ قرآنًا؛ لأنه جمع أنواعَ العلومِ كلّها[(١)].

وألّف الحافظُ ابنُ رجبٍ كتابًا سمّاه «الاستغناءُ بالقرآن في تحصيل العلم والإيمان»[(٢)].

ولقد أحسن القائلُ:

نِعْـمَ السـميرُ كتـابُ الله إنَّ لـه ... حلاوةً هي أحلىٰ من جَنَىٰ الضَرَبِ

بـه فنونُ المعـاني قـد جُمِعْـنَ فما ... تَفْـتَنُّ مِـن عَجَـبٍ إلّا إلـىٰ عَجَـبِ

أمـرٌ ونهـيٌ، وأمثـالٌ، وموعظـةٌ، ... وحِكمةٌ أُودِعـتْ في أفصحِ الكُتُبِ

لطـائفٌ يَجْتليهـا كُـلُّ ذي بَصَـرٍ ... ورَوضـةٌ يَجتنيهـا كُـلُّ ذِي أَدَبِ[(٣)]

= فذاك، وإلا؛ فمراتبُ النظر فيها متعدِّدةٌ». الموافقات (٤/ ١٩٧).

(١) انظر الإتقان: للسيوطي (٢/ ٣٤١).

(٢) مقدّمة محقّق الذيل علىٰ طبقات الحنابلة: لابن رجب (ص/ ٤٣).

(٣) البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي (١/ ١٢).

- وقال الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن القرآن في «المنظومة الميميّة في الوصايا والآداب العلميّة»:

هُـوَ الكِتَـابُ الـذِي مَـنْ قـام يَقْـرؤُهُ ... كَأَنَّمَـا خَاطَـبَ الـرَّحْمنَ بـالكَلِمِ

هُوَ الصِّـرَاطُ، هُـوَ الحَبْلُ المَتِيْنُ، هو الـ ... ـمِيْزَانُ والعُـرْوَةُ الـوثْقَىٰ لِمُعْتَصِـمِ

هُـوَ البَيَـانُ، هُـوَ الـذِكْرُ الحكِيْمُ، هُـوَ التّـ ... ـتفْصِيْلُ فـاقنَعْ بِـهِ في كُـلِّ مُنْـبَهِمِ

هُـوَ البَصَـائِرُ والـذِكْرَىٰ لِمُـدَّكِّرٍ ... هُـوَ المَـواعِظُ والبُشْـرَىٰ لِغَيْـرِ عَمِـي

هُـوَ المُنَـزَّلُ نُـورًا بَيِّنًـا وهُـدىً ... وهْـو الشِـفَاءُ لِمَـا في القَلْـبِ مِـن سَـقَمِ

=

كما أنّ القرآنَ مُعِينٌ علىٰ غيره من العلوم، فكلّما استكثرَ المرءُ من تلاوته كلّما بورك له في الطلب والتحصيل.

قال عباسُ بنُ عبد الدائم المصري الكناني، عن شيخه إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الدمشقي: «أوصاني وقتَ سفري، فقال: أَكْثِرْ من قراءة الْقُرْآن، ولا تَتركْه؛ فَإِنَّهُ يتيسَّرُ لك الذي تطلبُه علىٰ قَدْر مَا تَقرأُ، قال: فرأيتُ ذلكَ وجرّبتُه كثيرًا، فكنتُ إِذَا قرأتُ كثيرًا تيسَّر لي من سماع الحديث وكتابته الكثيرَ، وإذا لَمْ أقرأْ لَمْ يتيسَّرْ لي!»[1].

ومن وصايا العلّامة محمد البشير الإبراهيمي للطلّاب: «القرآنَ القرآنَ! تعاهَدُوه بالحفظ، وأحْيُوه بالتلاوة، ورَبُّوا ألسنتكم علىٰ الاستشهاد به في اللغة والقواعد، وعلىٰ الاستشهاد به في الدين والأخلاق، وعلىٰ الاستظهار به في الجدل، وعلىٰ الاعتماد عليه في الاعتبار بسُنن الله في الكون»[2].

=

لَكِنَّـــه لأُولِـــي الإِيْمَـــانِ إذْ عمِلُـــوا ... بمَـــا أَتَـــىٰ فيـــه مِـــن عِلْـــمٍ ومِـــن حِكَـــمِ

أَمَّـــا عَلَـــىٰ مَـــنْ تَـــوَلَّىٰ عَنْـــهُ فَهْـــوَ عَمَـــىً ... لِكَوْنِـــهِ عَـــن هُـــدَاهُ المُسْـــتَنِيْرِ عَمِـــي

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٢٠٥).

- وسُئِلَ بعضُ المشتغلين بالتأليف والدعوة من المعاصِرين - في برناجٍ تلفزيوني - عن سبب غزارة إنتاجه مع كثرة أشغاله؟!

فقال: هذا ببركة تلاوة القرآن؛ حيثُ إنني أقرأُ صباحَ كلِّ يوم ثلاثةَ أجزاءٍ مع التدبُّر! تأخذُ من وقتي قرابةَ الساعتين! فيُبارَكُ لي في يومي ذاك. قال: فلمّا وجدتُ بركةَ القرآن في وقتي وأعمالي أخذتُ أزيدُ في وِرْدي، حتىٰ أصبح عشرةَ أجزاءٍ في اليوم! منها أربعةُ أجزاءٍ في الصلاة!

(٢) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٣/ ٢٠٤).

- وقد أدرك عظيمَ نفع القرآن وفائدتَه في العلم والأدب حتىٰ غيرُ المسلمين!!

=

ومِن بركةِ القرآنِ أنَّ صاحبَه يُمتَّعُ بعقلِه مهما طال به العُمْرُ!

قال عبدُ الملك بنُ عُمير: «كان يُقَالُ: إِنَّ أَبْقَىٰ النَّاسِ عُقُولًا قُرَّاءُ الْقُرْآنِ»[(١)].

ويُروىٰ: «أنقىٰ».

وقال محمدُ بنُ كعبٍ القُرَضيُّ: «مَنْ قرأَ القرآنَ مُتِّعَ بعقلِه وإنْ بلغَ مائتيْ سنةٍ!»[(٢)].

فطُوبىٰ لمن جعل له وِرْدًا وافرًا من القرآن يقرأُه كلَّ يومٍ؛ لا يُخِلُّ به أبدًا؛ مهما حصل له من عوائقَ وأشغالٍ.

قال ابنُ جَماعة: «الأَوْلىٰ أنْ يكونَ له منه في كلّ يومٍ وِرْدٌ راتبٌ لا يُخِلُّ به، فإنْ غُلِبَ عليه؛ فيومٌ ويومٌ، فإنْ عَجَزَ؛ ففي ليلتيْ الثلاثاء والجمعة؛ لاعتياد بطالة الأشغال فيهما»[(٣)].

=

فقد ذُكر أنّ أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الحرّاني - وكان علىٰ دين الصابئة عَبَدَة الكواكب - الأديب البليغ، صاحب الترسُّل البديع، كان يحفظُ القرآنَ؛ لأنه يحتاج إليه في الإنشاء. انظر: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٢٣).

وكذا العلّامةُ ناصيفُ اليازجيّ (صاحبُ المقامات الأدبيّة) - وهو نصرانيٌّ - فقد أوصىٰ ولدَه إبراهيم لتقوية براعته في الأدب العربي قائلًا: «إذا شئتَ أنْ تَفُوقَ أقرانَكَ في العلم والأدب، وصناعة الإنشاء، فعليك بحفظ القرآن، ونهج البلاغة». القرآن وليلة القدر: لمحمد الغزالي (ص/ ٢٩).

وقد تقدَّم معنا أنّ ناصيفَ هذا كان يحفظ القرآنَ آيةً آيةً!

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٠) رقم (٢٩٩٥٦)، وابن أبي الدنيا في العُمْر والشيب (ص/ ٧٥) رقم (٨٠).

(٢) صفة الصفوة: لابن الجوزي (١/ ٣٧٤).

(٣) معنىٰ قوله: «لاعتياد بطالة الأشغال فيهما» أيْ أنهما يوما إجازةٍ، فقد كان الثلاثاءُ والجمعةُ يوميْ إجازةٍ في عصر المؤلِّف.

وقراءةُ القرآن في كل سبعة أيامٍ وِرْدٌ حسنٌ، وَرَدَ في الحديث، وعَمِل به أحمدُ بنُ حنبل. ويُقال: مَنْ قرأ القرآنَ في كلِّ سبعةِ أيامٍ لم يَنْسَه قطّ»[1].

لكنْ لا ينبغي أنْ تكونَ قراءةُ القارئِ القرآنَ كقراءةِ أيِّ كتابٍ! بل يقرأُه بتدبّرٍ وتعقُّلٍ؛ حتىٰ يَفقهَ عن الله كلامَه، ويَعِي قَصْدَه ومَرامَه[2].

قال ابنُ القيّم: «قراءةُ سورةٍ بتدبُّرٍ ومعرفةٍ وتفهُّمٍ وجمعِ القلب عليها أحبُّ إلىٰ الله تعالىٰ من قراءة ختمةٍ سَرْدًا، وهذا وإن كَثُر ثوابُ هذه القراءة»[3].

---

(١) تذكرة السامع والمتكلّم (ص/ ٥٢).

(٢) لكنْ لا مانعَ لحافظ القرآن أنْ يخصِّص ختمةً يَسرُدُها سَرْدًا لمراجعة حِفظه، ففي كلٍّ خيرٌ، قال عبدُ الله بنُ أحمد بن حنبل: سمعتُ أبي يقول: «رأيتُ ربَّ العِزّة ﷻ في النوم فقلتُ: يا ربّ ما أفضل ما تقرَّب المتقرِّبون به إليك؟ فقال: «كلامي يا أحمد» فقلتُ: يا ربّ بفهمٍ أو بغير فهمٍ؟ قال «بفهمٍ وبغير فهمٍ» المجالس العشرة الأمالي للحسن الخلّال (ص/ ٥١).

بيدَ أنه ينبغي أنْ يجعلَ معها ختمةً أخرىٰ للتدبُّر والتعقُّل، فقد كان ذلك صنيعُ بعضهم:

- فهذا أبو العباس أحمدُ بنُ محمد بن سهل بن عطاء الأَدَمي كان له في كل يومٍ خَتْمةٌ، وفي شهر رمضان في كل يومٍ وليلةٍ ثلاثُ خَتْمات، وبقي في ختمةٍ يستنبط مُودَعَ القرآن بِضعَ عشرةَ سنةً! فمات قبل أن يختِمها. صفة الصفوة: لابن الجوزي (١/ ٥٣٣).

- **وقال بعضُ السلف:** «لي في كلِّ جمعةٍ ختمةٌ، وفي كلِّ شهرٍ ختمةٌ، وفي كلِّ سنةٍ ختمةٌ، ولي ختمةٌ منذ ثلاثين سنة ما فرغتُ منها بعدُ!». قوت القلوب: لأبي طالب المكي (١/ ٩٢)، وإحياء علوم الدين: للغزالي (١/ ٢٨٢)، والتبصرة: لابن الجوزي (ص/ ٣٨١).

قلتُ: وممّا يُساعدُ في هذا العصر علىٰ ذلك، أنْ يَعمدَ القارئُ إلىٰ تنزيل أكثرَ من مصحفٍ في هاتفه (الجوّال)، فيجعل مصحفًا للحفظ، وآخرَ لمراجعة المحفوظ، وثالثًا للتدبُّر وقراءة التفسير - (هناك عددٌ من المصاحف في التطبيقات مربوطٌ بعدّة تفاسير، مثل مصحف بيت التمويل الكويتي) - ورابعٌ لقراءة السرْد من أجل الختم... وهكذا.

(٣) المنار المنيف (ص/ ٢٩).

وقال في نونيّته:

فتـدبّرِ القـرآنَ إنْ رُمْـتَ الهُـدَىٰ ... فـالعلمُ تحـتَ تـدبُّرِ القـرآنِ

وقال ابنُ جَماعة: «ينبغي له إذا تلا القرآن أن يتفكّرَ في معانيه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، والوقوف عند حدوده»[(١)].

(١) تذكرة السامع والمتكلّم (ص/ ٥٢).

فَائِدَة: ذكر الحافظُ المزيُّ قصةً لطيفةً فيها أعظمُ تحفيزٍ لما ينبغي أن نكون عليه مع كتاب الله تعالىٰ.

فقد روىٰ عن خَلَف بن هشَام البَزَّاز، قال: قال لي سليم بن عيسىٰ: «دخلتُ علىٰ حمزةَ بنِ حبيبٍ الزيّات (أحدُ القُرّاء السبعة) فوجدتُه يُمرِّغ خَدّيْه في الأرض ويبكي، فقلتُ: أُعيذُكَ بالله. فقال: يا هذا استعذتَ في ماذا؟!

فقال: رأيتُ البارحةَ في منامي كأنّ القيامة قد قامت، وقد دُعي بقرّاء القرآن، فكنتُ فيمن حضر، فسمعتُ قائلًا يقول بكلامٍ عذبٍ: لا يدخل عليَّ إلا من عَمِل بالقرآن. فرجعتُ القهقرىٰ، فهَتَف باسْمي: أين حمزةُ بنُ حبيب الزيّات؟ فقلتُ: لبيك داعيَ الله لبيك. فبدَرَني مَلَكٌ فَقَالَ: قل: لبيك اللهم لبيك. فقلتُ كما قال لي، فأدخلَني دارًا، فسمعتُ فيها ضجيجَ القرآن، فوقفتُ أَرْعَدُ، فسمعتُ قائلًا يقول: لا بأسَ عليك، ارقَ واقرأْ. فأدرتُ وجهي فإذا أنا بمنبرٍ من دُرٍّ أبيض، دَفّتاه من ياقوتٍ أصفر، مرقاتُه زبرجردٌ أخضر، فقيل لي: ارقَ واقرأْ. فرقِّيتُ، فقيل لي: اقرأ سورةَ الأنعام. فقرأتُ وأنا لا أدري علىٰ من أقرأ حتىٰ بلغتُ الستينَ آيةً، فلما بلغتُ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:٦١] قال لي: يا حمزةُ ألستُ القاهرَ فوق عبادي؟ قال: فقلتُ: بلىٰ. قال: صدقتَ، اقرأ. فقرأتُ حتىٰ تمّمتُها، ثم قال لي: اقرأ. فقرأتُ «الأعرافَ» حتىٰ بلغتُ آخرها، فأومأتُ بالسجود، فقال لي: حسبُك ما مضىٰ، لا تسجدْ يا حمزةُ.

مَن أقرأك هذه القراءة؟ فقلتُ: سُلَيْمان (يعني الأعمش)، قال: صدقتَ، مَن أقرأ سُلَيْمان؟ قلتُ: يحيىٰ. قال: صدق يحيىٰ، علىٰ مَن قرأ يحيىٰ؟ فقلتُ: علىٰ أبي عبد الرحمن السُّلمي. فقال: صدق أَبُو عبد الرحمن السُّلمي، مَن أقرأ أبا عبد الرحمن السُّلمي؟ فقلتُ: ابنُ عمّ نبيك
=

ويَنبغي الاستعانةُ علىٰ هذا بكتب التفسير؛ فإنها خيرُ معينٍ علىٰ الفهم والتدبّر والعمل، لا سيّما كتبُ التفسير بالمأثور، كتفسير ابن جريرٍ والبغويِّ وابنِ كثيرٍ، ونحوِها.

***

* - العنايةُ التامَّةُ بمطالعة كتب السَّلَف.

فإنها الغِذاءُ والرَّوَاءُ، والهَواءُ والدَّواءُ؛ لأنها جمعتْ العلمَ الصحيحَ، والعقلَ السديدَ، والمنهجَ السليمَ، والنصحَ التامَّ. فرحم اللهُ أهلَها ورضيَ عنهم وأرضاهم.

قال ابنُ الجوزيّ في الحثّ علىٰ قراءة كتب السلف: «سبيلُ طالب الكمال في طلب العلم: الاطلاعُ علىٰ الكتب التي قد تخلّفت من المصنَّفات،

= عَليّ بن أبي طالب. قال: صدق عليٌّ، مَن أقرأ عليًّا؟ قال: قلتُ: نبيُّك ﷺ. قال: ومَن أقرأ نبيّي؟ قال: قلتُ: جبريلُ. قال: مَن أقرأ جبريلَ؟ قال: فسكتُّ، فقال لي: يا حمزة، قلْ: أنتَ. قال: فقلتُ: ما أجْسُرُ أن أقول: أنتَ. قال: قل: أنتَ. فقلتُ: أنتَ. قال: صدقتَ يا حمزة، وحقِّ القرآنِ لأُكرمنَّ أهلَ القرآن؛ سيّما إذا عملوا بالقرآن، يا حمزة القرآنُ كلامي، وما أحببتُ أحدًا كحبِّي لأهل القرآن، اُدْنُ يا حمزةُ. فدنوتُ فغَمَرَ يدَه في الغالية ثم ضمّخني بها، وقال: ليس أفعلُ بك وحدَك، قد فعلتُ ذلك بنظرائك مَنْ فوقكَ، ومَنْ دونكَ، ومَنْ أقرأ القرآنَ كما أقرأتَه لم يُرِدْ به غيري. وما خَبَأتُ لك يا حمزة عندي أكثرُ، فأَعْلِمْ أصحابَك بمكاني من حُبّي لأهل القرآن، وفِعلي بهم، فهم المصْطَفَوْن الأخيارُ، يا حمزةُ وعزّتي وجلالي لا أعذِّبُ لسانًا تلا القرآنَ بالنار، ولا قلبًا وعاه، ولا أُذُنًا سمعتْه، ولا عينًا نظرتْه. فقلتُ: سبحانَكَ سبحانَكَ أيْ ربِّ! فقال: يا حمزةُ؛ أين نُظّارُ المصاحف؟ فقلتُ: يا رب حفّاظهم؟ قال: لا، ولكني أحفظُه لهم حتىٰ يوم القيامة، فإذا أتوْني رفعتُ لهم بكل آيةٍ درجةً!!

أفتلومُني أن أبكيَ، وأتمرّغَ في التراب؟!». تهذيب الكمال (٧/ ٣١٩).

فلْيُكثرْ من المطالعة؛ فإنه يرىٰ من علوم القوم، وعلوّ هِمَمِهِم ما يَشْحذُ خاطرَه، ويُحرّك عزيمتَه للجدّ، وما يخلو كتابٌ من فائدةٍ.

وأعوذ بالله من سِيَرِ هؤلاء الذين نعاشرُهم! لا نرىٰ فيهم ذا همّةٍ عاليةٍ؛ فيَقتدي به المبتدئُ، ولا صاحبَ وَرَعٍ؛ فيستفيدُ منه الزاهدُ!

فاللهَ اللهَ، وعليكم بملاحظة سِيَرِ السلف، ومطالعةِ تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثارُ من مطالعة كتبهم رؤيةٌ لهم، كما قال:

فــاتني أن أرىٰ الــدِّيارَ بطَــرْفي فلعلّي أرىٰ الـدِّيارَ بسَـمْعي!»[١].

وقال شيخُ الإسلام عن السلف: «هم أفضلُ من الخَلَف في كل فضيلةٍ؛ من علمٍ وعملٍ وإيمانٍ وعقلٍ ودينٍ وبيانٍ وعبادةٍ، وأنهم أولىٰ بالبيان لكلِّ مُشْكلٍ. هذا لا يَدفعُه إلّا مَن كابرَ المعلومَ بالضرورة من دين الإسلام وأضلَّه اللهُ علىٰ علمٍ»[٢].

وقال ابنُ عثيمين: «عليك بالأمهاتِ؛ كتبِ السلفِ، فإنها خيرٌ وأبركُ بكثيرٍ من كتبِ الخَلَفِ؛ لأنّ غالبَ كتب المتأخرين قليلةُ المعاني، كثيرةُ المباني، تَقرأ صفحةً كاملةً يمكن أن تلخّصها بسطرٍ أو سطرين! لكنّ كتبَ السلف تجدُها هيّنةً، ليّنةً، سهلةً، رصينةً، لا تجد كلمةً واحدةً ليس لها معنىً»[٣].

---

(١) صيد الخاطر (ص/ ٤٥٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٥٧).

(٣) العلم لابن عثيمين (ص/ ٦٩).

لطيفَة: قال الشيخ حمّاد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جَمَعْنا مكتبةً عامةً بالرياض لطلبة العلم، =

وقد ألّف الحافظُ ابنُ رجب الحنبلي كتابًا في هذا سمّاه: «بيان فضل علم السلف علىٰ علم الخلف» فلْيُراجَعْ فإنه نفيسٌ.

***

* - اِحذرْ كلَّ الحذرِ من كتبِ أهلِ الأهواءِ؛ فإنّها السُّمُّ الزُّعَافُ، والدَّاءُ الدَّوِيُّ!!

مثلَ كُتبِ الفلاسفة والصوفية والمعتزلة والخوارج والعَلْمانيّين والعقلانيّين والملاحدةِ، وغيرِهِم من أهلِ البدعِ والضَّلالِ.

قال أبو عثمان البَرذعي: «شهدتُ أبا زُرْعَة سُئل عن الحارثِ المحاسِبي، وكُتبِه؟

فقلتُ[(١)] للسائل: إيّاكَ وهذه الكُتبَ، هذه كُتبُ بدعٍ وضَلالاتٍ، عليك بالأَثَر، فإنك تجدُ فيه ما يُغْنِي عن هذه الكُتب.

قيل له: في هذه الكُتب عِبرَةٌ.

قال: مَن لم يكن له في كتاب الله عِبرَةٌ، فليس له في هذه الكُتب عِبرَةٌ!

=

وذلك أنا وبعض المشايخ، وسميّناها «مكتبة التيسير»، حيث إنه لم يكن يوجد أيُّ مكتبة علميّة عامّة ولا مكتبة تجاريّة، إنما توجد مكتبة قرطاسيّة لأحد الهنود، فقدَّمْنا نحن معشرَ الطلبة بالرياض للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ لتأسيس مكتبة عامّة، فوافق، وساهم كلُّ واحدٍ منا لتأسيسها، واشترطْنا أن لا يَدخل هذه المكتبةَ إلاّ طالبُ علمٍ! وأنه لا يُوضَعَ فيها إلا كُتُبُ السَّلَف!». المجموع في ترجمة العلامة المحدّث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (١/ ٤٠٢).

(١) كذا في المصدر، ولعلّ الصواب: فقال. وهي كذلك في تاريخ بغداد (٨/ ٢١١)، وتاريخ الإسلام (١٨/ ٢٠٩)، وسير أعلام النبلاء (١٢/ ١١٢)، والآداب الشرعية (٢/ ٨٢).

بَلَغَكُم أنّ مالك بن أنس، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والأئمة المتقدمين صنَّفوا هذه الكُتبَ في الخطَرَات، والوساوس، وهذه الأشياء؟ هؤلاء قومٌ خالفوا أهلَ العلم فأَتَوْنَا مرةً بالحارث المحاسِبي، ومرةً بعبد الرحيم الذَّبِيلي، ومرةً بحاتم الأصمّ، ومرةً بشقيق البلْخي.

ثم قال: ما أسرعَ الناسَ إلىٰ البدع!»[(١)].

وقال ابنُ قُدامة: «مِن السنّةِ هِجْرانُ أهلِ البدعِ ومباينتُهم، وتركُ الجِدال والخصومات في الدِّين، **وتركُ النظرِ في كتب المبتدعة والإصغاءِ إلىٰ كلامهم**، وكلُّ محدَثَةٍ بدعةٌ، وكلُّ مُتَسَمٍّ بغير الإسلام مبتدعٌ؛ كالرافضة، والجهميّة، والخوارج، والقَدَرِيّة، والمرجئة، والمعتزلة، والكرّاميّة، والكُلّابيّة، ونظائرِهم، فهذه فِرقُ الضلالِ وطوائفُ البدعِ، أعاذنا اللهُ منها»[(٢)].

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: «كُرِهَ لمنْ لّا يكون له نقدٌ وتمييزٌ، النظرُ في الكتب التي يكثرُ فيها الكذبُ في الرواية، والضلالُ في الآراء، ككتب أهل البدع.

وكُرِه تلقّي العلم من القُصّاص وأمثالهم الذين يَكثُر الكذبُ في كلامهم، وإنْ كانوا يقولون صِدْقًا كثيرًا»[(٣)].

---

(١) الضعفاء لأبي زرعة الرازي وأجوبته علىٰ أسئلة البرذعي (٢/ ٨١٧).

قال مقيِّدُه عفا اللهُ عنه: انظر إلىٰ كلامه هذا في الحارث المحاسبي، مع أنه من قُدَماءِ المتصوِّفةِ الذين يقالُ لهم: الزُّهّادُ! فما سَتراه يقولُ عن الصوفيّة الذين جاؤا بعدَ ذلك، كابنِ الفارضِ وابنِ عربي وابنِ سبعين، القائلين بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود!! ومَنْ يعتقِدُهم من مُتصوِّفة العَصْر؟!!

(٢) لمعة الاعتقاد (ص/ ٤٢).

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٦٨).

وجاء في «الدرر السنية في الأجوبة النجدية»[١]: «ولْيحذَرْ طالبُ الحق من كتب أهل البدع، كالأشاعرة، والمعتزلة، ونحوهم، فإن فيها من التشكيك، والإيهام، ومخالفة نصوص الكتاب والسنة ما أخرج كثيرًا من الناس عن الصراط المستقيم، نعوذ بالله من الخِذْلان».

وقال العلّامةُ ابنُ عثيمين: «الكتبُ تنقسمُ إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: كتبُ خيرٍ.

القسم الثاني: كتبُ شَرٍّ.

القسم الثالث: كتبٌ لا خيرَ ولا شرَّ.

فاحرصْ أن تكون مكتبتُك خاليةً من الكتب التي ليس فيها خيرٌ، أو التي فيها شرٌّ.

وهناك كتبٌ يقال: إنها كتبُ أدبٍ، لكنها تقطع الوقتَ وتقتُلُه في غير فائدةٍ.

وهناك كتبٌ ضارَّةٌ ذاتُ أفكارٍ معيّنةٍ وذاتُ منهجٍ معيّنٍ، فهذه أيضًا لا تَدخلُ المكتبةَ، سواءٌ كان ذلك في المنهج أو كان ذلك في العقيدة، مثلُ: كتبِ المبتدعةِ التي تضرُّ في العقيدة، والكتبِ الثَّوْريّةِ التي تضرُّ بالمنهج.

وعمومًا كلُّ كتبٍ تضرُّ فلا تَدْخُل مكتبتَكَ؛ لأنّ الكتبَ غذاءٌ للروح، كالطعام والشراب للبدن، فإذا تَغذَّيْتَ بمثل هذه الكتب، صار عليك ضررٌ

---

(١) (٣/ ٣٥٧).

عظيمٌ، واتجهتَ اتجاهًا مخالفًا لمنهج طالب العلم الصحيح»[(١)].

***

*** - ينبغي التفريقُ في مسألة قراءة كتب أهل الضلال (عندَ الحاجةِ لذلك) بين العالِم والجاهل.**

فالجاهلُ الذي لا يُميِّزُ الحقَّ من الباطلِ، لا يجوزُ له النظرُ في تلك الكتب البتّة؛ لأنّ الأمورَ قد تلتبسُ عليه فيَضِلّ؛ والقلوبُ ضعيفةٌ والشُبَهُ خَطّافةٌ[(٢)].

---

(١) مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين (٢٦/ ٣٣٩ - ٣٤٠).

(٢) **كان كبارُ علماء السلف** يخافون علىٰ أنفسهم من سماع شبهاتِ المبتدعة؛ لئلّا يقع في نفوسهم شيءٌ! فما ظنُّكَ بمَنْ دونهم؟!

- **قال أيوبُ السَّختيانيُّ:** «دخل علىٰ محمد بن سيرين يومًا رجلٌ فقال: يا أبا بكر، أَقرأُ عليك آيةً من كتاب الله لا أزيدُ علىٰ أنْ أقرأها ثم أخرجُ. فوضع إصبعيه في أذنيه ثم قال: أُحَرِّجُ عليك إنْ كنتَ مُسْلمًا لما خرجتَ من بيتي. قال: فقال: يا أبا بكر، إني لا أزيدُ علىٰ أنْ أقرأَ ثم أخرج، قال: فقام بإزاره يشدُّه عليه، وتهيّأ للقيام، فأقبلْنا علىٰ الرجل فقلنا: قد حَرَّجَ عليك إلّا خرجتَ، أفيحلُّ لك أنْ تُخرجَ رجلًا من بيته؟ قال: فخرج، فقلنا: يا أبا بكر، ما عليك لو قرأ آيةً ثم خرجَ؟ قال: إني والله لو ظننتُ أن قلبي يثبُتُ علىٰ ما هو عليه ما باليتُ أنْ يقرأَ، ولكني خِفْتُ أن يُلقيَ في قلبي شيئًا أجهدُ أن أُخرجه من قلبي فلا أستطيعُ». البدع والنهي عنها: لابن وضاح (ص/ ٦٠).

- **وقال الأوزاعيُّ:** «لا تُمكِّنوا صاحبَ بدعةٍ من جدلٍ؛ فيورثَ قلوبَكم من فتنته ارتيابًا» المصدر نفسه.

- **وقال سفيانُ الثوريُّ:** «مَن سمعَ ببدعةٍ، فلا يَحْكِها لجلسائه، لا يُلْقِها في قلوبهم».

قال الذهبيُّ مُعقِّبًا: «أكثرُ أئمة السلف علىٰ هذا التحذير، يَروْنَ أنّ القلوبَ ضعيفةٌ، والشُّبَهَ خَطّافةٌ». سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦١).

والآثار عنهم في ذلك كثيرةٌ.

ولذا قال بعضُ الحُكماء: لا تقرأْ كتبَ الباطل حتىٰ تتمكّن من الحقِّ، لا لقوةِ الباطلِ ولكنْ لضعفكَ أنتَ!

قال ابنُ الأزرق الغِرناطي عن كتاب «**قُوت القلوب**» لأبي طالب المكّي: «قال فيه الأستاذُ أبو إسحاق الشاطبي فيما وقفتُ عليه من «أجوبته»: «له آراءُ خالف فيها العلماءَ حتىٰ إنه ربما خالف الإجماعَ في بعض المواضع، لكنْ له كلامٌ حسنٌ في الوعظ، والتذكير، والتحريض علىٰ طلب الآخرة، فلذلك إذا احتاج الطلبةُ إلىٰ كتابه «**قوت القلوب**» طالعوه متحرِّزين، وأما العوامُّ فلا يَحِلُّ لهم مطالعتُه البتَّة».

قلتُ: لقولهم: كلُّ كلامٍ، منه مأخوذٌ أو متروكٌ، إلّا ما كان من كلام النبيِّ ﷺ. وثبت هذا عن مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فالطلبةُ يعرفون ما يُؤخذُ منه، وما يُتركُ، والعوامُّ لا معرفةَ لهم بذلك، فيتعيَّنُ عليهم تركُ النظر في الجميع، لالْتباس الضارِّ بالنافع»[(١)].

وقال الشيخُ محمدُ رشيد رضا عن قراءة كتب المِلَل: «ينبغي منعُ التلامذة والعوامّ من قراءة هذه الكتب؛ لئلّا تشوِّشَ عليهم عقائدَهم وأحكامَ دينِهم، فيكونوا كالغُراب الذي حاول أن يتعلَّمَ مِشْيَةَ الطاووس، فنسيَ مِشْيَتَه ولم يتعلمْ مِشْيَةَ الحَجَل!»[(٢)].

أمّا العالِـمُ المدرِكُ المميِّزُ، فهذا لا بأس أنْ يُطالِعَ تلك الكتبَ لمصلحةٍ تقتضي ذلك، كنقدِها والردِّ عليها، أو تحذيرِ الناسِ منها، أو ما أشبه ذلك.

قال الإمامُ الترمذيُّ: «قد روىٰ غيرُ واحدٍ من الأئمة عن الضعفاء وبيّنوا أحوالَهم للناس.

---

(١) روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام (١/ ١٢٧).

(٢) مجلة المنار (٧/ ٢٥٨).

حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن منذر الباهلي، أخبرنا يعلىٰ بن عبيدٍ، قال: قال لنا سفيانُ الثوريُّ: اتّقوا الكلبيَّ. فقيل له: إنك تَروي عنه! قال: أنا أعرفُ صِدْقَه من كَذِبِه»[(١)].

وقال السِّجْزِيُّ: «ولْيحذرْ تصانيفَ مَنْ تغيَّرَ حالُهم؛ فإنَّ فيها العقاربَ، وربما تعذَّرَ التِّرْياقُ!»[(٢)].

وقال السيوطيُّ: «اعلموا - يرحمكم اللهُ - أنّ من العلم كهيئة الدواء. ومن الآراء كهيئة الخَلاءِ! لا تُذكرُ إلا عند داعية الضرورة»[(٣)].

***

* - مَنْ أرادَ أن يختبرَ عِلمَه، ودِقّةَ تحصيلِه، ورسوخَ قدمِه، ويعرفَ مدىٰ ما وصل إليه من العلم، فلْيُطالِعْ كتبَ الشروح والحواشي؛ فإنها التطبيقُ العمليُّ لقواعد العلم.

كما أنها تُعرِّفُك أقدارَ ومنازلَ العلماء في العلم، حيثُ تشتملُ علىٰ دقائقَ علميةٍ نفيسةٍ، واستدراكاتٍ لطيفةٍ، وتعقّباتٍ فريدةٍ.

كما أنها تشتملُ علىٰ مناقشاتٍ ومباحثاتٍ عميقةٍ من علماءَ أفذاذٍ نحاريرٍ.

وكم وقفتُ أثناءَ مطالعاتي فيها علىٰ ألوانٍ من التحقيقاتِ العلميّةِ العاليةِ.

---

(١) سنن الترمذي (٦/ ٢٣٧) رقم (٤٠٥٧).

وانظر الكامل لابن عدي (٧/ ٢٧٥)، والمجروحين لابن حبان (٢/ ٢٥٦).

(٢) رسالة السِّجزي إلىٰ أهل زبيد (ص/ ٢٣٤).

(٣) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة (ص/ ٥).

ولذا قيل: (مَنْ لم يَقرأْ الحَواشِي، ما حَوىٰ شيْ)![١].

***

* - أفضلُ أنواع القراءة وأعظمُها رُسُوخًا؛ ما كان وَلِيدَ مباحَثَةٍ ونِقاشٍ.

لأنّ المسألة إذا نُوقِشتْ، ثمّ قُرِئَتْ، وبُحِثَ عنها في مظانّها، رَسَختْ رُسوخَ الجبال.

وقد كان هذا دَيْدَنَ العلماءِ قديمًا وحديثًا، فكانوا إذا تباحثوا في مسألةٍ مَّا واختلفوا فيها، طلبوا الكتبَ وقرأوها في مصادِرِها ومظانِّها؛ تحريًّا للصوابِ، ورفعًا للنّزاع، وازديادًا من العلم، ولِتتقرّرَ المسألةُ في أذهانهم وتَرسخَ[٢].

***

* - اعلمْ أنّ القراءةَ مدارسٌ.

وهذا أمرٌ لا يكاد يُدرِكُه كثيرٌ من العلماء، فضلًا عن طُلّاب العلم!

---

(١) أمّا مقولة: (مَن اشتغل بالحواشي ما حَوىٰ شيْ)! - كما في الفكر السامي: للحَجَوي (٢/ ١٨٩) - فهي مقولةٌ صحيحةٌ أيضًا، لكنها في حقّ من اقتصر عليها ولم يحفظْ قبلها متنًا، ويقرأ عليه شرحًا، فتنبَّهْ.

(٢) لطيفة: مِن عجيبِ ما نقلوا عن الشيخ المحدِّث/ محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه في أيامه الأخيرة، كان يقول في نومِه: هاتوا كتابَ العِلل، هاتوا كتابَ كذا، هاتوا كتابَ كذا، هاتوا «الجرح والتعديل»!!

ومرةً قال أثناءَ النوم وهو يُحرِّك يدَه كهيئة الكاتِب: هاتوا «سننَ أبي داود» تَنْحَلّ المشكلة!

وقال ولدُه: ذاتَ مرةٍ أثناءَ نومه تكلَّمَ فجأةً، فقال: هاتِ كتابَ «الترغيب والترهيب» المجلد الأول، فأتيتُه به، فقال: افتحْ، ففتحتُ، قال: عُدَّ: واحد، اثنين، ثلاثة أحاديث، هذه في الطول تقريبًا سواء، قلتُ له: لا، فيه واحد طويل، قال: إمشِ، قلتُ: هذا الحديث الثالث طويل، قال: مَنْ رواه؟ قلتُ: فلان، قال: خلاصْ، أَعِدْ الكتاب!!

وقد وجدتُ بعضَ مَنْ فَقِهَ هذه الطريقة وقرأ بها؛ أصبحَ موسوعةً عِلْميّةً تمشي علىٰ الأرض.

وهذه المدارسُ تنقسم إلىٰ:

* **مدارسَ فِكْرية.**
* **ومدارسَ موضوعيَّة.**

والمدارسُ الفكريَّةُ تنقسم إلىٰ:

- **مدارسَ إقليميَّة.**
- **ومدارسَ زمنيَّة.**

والمدارسُ الإقليميّةُ تنقسم إلىٰ:

مدرسةٍ عامةٍ: كأنْ يهتمَّ القارئُ بالحركةِ العلميةِ في الأندلسِ مثلًا، ويقرأَ عن هذا الموضوع.

ومدرسةٍ خاصةٍ: كأنْ يهتمَّ بالحديث، أو الفقه، أو اللغة، في الأندلس مثلًا، ويقرأ عن هذا العلم فيها.

أمَّا المدارسُ الفِكريةُ الزمنيَّةُ: فمِثْلُ أن يأخذَ مدرسةً فِكريّةً متكاملةً، ويقرأَ جميعَ كتبِ تلك المدرسة، ونتاجِها العلميِّ.

وذلك مثل: مدرسة شيخ الإسلام ابن تيميَّة، فهذه المدرسةُ السلفيّةُ المبارَكةُ؛ مدرسةٌ فِكريّةٌ متكاملةٌ، أخرجتْ شخصياتٍ عِلميّةً عِملاقةً؛ كالحافظِ المِزِّي، والإمامِ ابنِ القيّم، والحافظِ الذَّهبي، والحافظِ ابنِ رجب، والحافظِ ابنِ عبد الهادي، والحافظِ ابنِ كثير، وغيرِهم.

فالذي يَصبِرُ نفسَه علىٰ قراءة مؤلفاتِ شيخ الإسلام ومؤلفاتِ هؤلاء الأعلام؛ سيخرج بفائدةٍ علميّةٍ كُبرىٰ؛ لأنها مدرسةٌ فكريةٌ متكاملةٌ.

ومثلُها مدرسةُ الحافظِ العراقيِّ، حيثُ جمعتْ كوكبةً من العلماء الكبار؛ كابنِ حجرَ العسقلانيّ، وأبي زُرعةَ العِراقيّ، والهيثميّ، والبُوصيريّ، وغيرِهم من المحدِّثين.

ومثلُها مدرسةُ الشيخِ المجدِّدِ محمدِ بنِ عبدِ الوهابِ وأولادِه وأحفادِه أئمّةِ الدعوةِ، وتلاميذِهم[1].

---

(١) **تنوير:** أُحِبُّ أنْ أنبّه طلّابَ العلم هنا، إلىٰ أنّ كتبَ الشيخ العلّامة/ محمد بن صالح بن عُثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تُعدُّ (وحدَها) مدرسةً عِلميةً متكاملَةً شاملَةً!

وذلك لأنها جمعتْ عدّةَ مزايا، منها:

١- أنّ صاحبَها من كبارِ العلماءِ المحقّقين في هذا العصر، بلْ هو من مُجدِّديهِ الأفذاذ.

٢- أنّ أصلَ هذه الكتبِ دروسٌ صوتيّةٌ مفرَّغةٌ، قام الشيخُ أوْ طُلّابُه بمراجعتها وتنقيحها، ممّا جعل عبارتَها سهلةً واضحةً حتىٰ لصغارِ طُلّابِ العلم، بحيثُ يَستطيعُ كلُّ أحدٍ قراءتَها وفهمَها حتىٰ ولو لم يقرأْها علىٰ شيخ.

وإنْ كنتُ ضِدَّ هذا الـمَنْحىٰ من التأليف!

٣- أنها شاملةٌ لجميع العلوم والفُنون، ومعظمِ المتون، بحيثُ لو اقتصرَ عليها أحدٌ لَكفتْه وأغنتْه.

فلا يكادُ يُوجدُ متنٌ مشهورٌ إلّا وقد شَرَحَه الشيخُ.

٤- أنّ لغتَها لغةٌ عِلميّةٌ دقيقةٌ، بخلافِ كثيرٍ من الدروسِ الصوتيّة المفرَّغة التي لا تخلو من كثيرٍ من الحَشْو!

٥- رُخْصُ ثمنِها، وكونُه في متَناوَلِ جمهورِ طُلّابِ العلم، بالنظر لجودةِ طباعتِها وحُسْنِ إخراجِها.

٦- توفُّرُ أُصولها الصوتيّة في قناة الشيخ الفضائيّة، وفي (الانترنت)، وفي التسجيلات، =

أمّا المدارسُ الموضوعيَّةُ فتنقسم إلىٰ قسمين:

مدرسة متخصِّصة: كأنْ يهتمَّ بالحديث، أو الأصول، أو النحو، ونحو ذلك، ويقرأ كلَّ أوْ معظمَ ما أُلِّف في ذلك الفنّ.

مدرسة شاملة: وهو أنْ يَعْمَدَ إلىٰ مكتبةٍ من المكتبات الكبيرة؛ فيقرأَها من أوّلِها إلىٰ آخرِها، مستعينًا علىٰ ذلك بتصنيف ديْوي العَشْري(١)، فيقرأ علىٰ هذا التصنيف من رقم واحدٍ إلىٰ ألفٍ.

وليس معنىٰ هذا أن يقرأ كلَّ ما يُقابلُه في المكتبة من الكتب! فإنّ هذا شِبْهُ متعذّرٍ؛ لاسيّما المكتباتُ الكُبرىٰ العامّة. وإنما المقصودُ أن يَمرَّ علىٰ جميع الكتب؛ لأنَّ أحوالَ الكتب تختلفُ:

فهناك كتبٌ ينبغي استيعابُها قراءةً.

وهناك كتبٌ الغرضُ منها معرفةُ مناهجِها وكيفيّةِ التعاملِ معها عند

= وغيرِها، بحيثُ لو أراد شخصٌ الاستماعَ لشرح الشيخ وتحصيلَ باقي فوائد الدرْس كالأسئلة والمناقشات ونحوِها، فإنه يستطيعُ ذلك. ولا شكّ أنّ هذا أفضلُ من قراءة الكتب فحسْب.

(١) وَضَعَ هذا النظامَ العالمُ الإمريكيُّ (مِلْفِلْ دِيْوِي)، وهو أولُ نظام تصنيفٍ للمكتبات بالمعنىٰ الحديث وأكثرها شهرة في نفس الوقت، وقد صدرتْ الطَبعةُ الأولىٰ منه عام (١٨٧٦م)!

ويقوم هذا النظامُ علىٰ تقسيم المعرفة البشرية إلىٰ عشرة أقسام رئيسةٍ، ويتفرّع كلُّ واحدٍ من الأقسام الرئيسة إلىٰ عشرة شُعَب، تمثّل التفريعاتِ الرئيسةِ للموضوع. كما أن كلَّ شُعبةٍ تتفرّع بدورها إلىٰ عشرة فُروع حسبَ طبيعةِ الموضوع، وهكذا ينقسم كلُّ فرعٍ إلىٰ عشرةٍ، وبذلك يمكن أن يستمرّ التقسيمُ العشريُّ إلىٰ ما لا نهاية. راجعْ (وِيكيبيديا = الموسوعة الحُرّة).

الحاجة إليها؛ كالمعاجم والقواميس والـمَعْلَمَات[(١)].

---

(١) **فائدة: الـمَعْلَمَات:** جَمعُ مَعْلَمَة، بمعنىٰ الكتاب الحاوي لأنواع العلوم والفنون. وهو اسمٌ لما يُطلقُ عليه اليوم (دائرة معارف) أو (موسوعة). وهي أحسنُ كلمةٍ عربيةٍ تؤدِّي معنىٰ اللفظة الإفرنجية: «الأنسكلوبيديا».

ولعلّ مصطلحَ (مَعْلَمَة) أو (جَمْهَرَة) هو الأفصحُ والأكثرُ مُقاربةً من غيره؛ فإنّ وَزْنَ (مَفْعَلَة) من الأوزان التي تدلّ علىٰ المكان الذي يَكثُرُ فيه الشيءُ - كما في معاجم اللغة -، والمكانُ قد يكون وعاءً وقد يكون أداةً، ووعاءُ العلمِ: الكتابُ.

بل جاء في كتاب «فقه النوازل» (١/ ١٠٢) للعلّامة الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ كلمة (موسوعة) ليس لها أصلٌ، وإنما هي اصطلاحٌ قريبُ العهد في صدْر القرن الثالث عشر، وأنها - وهذا من العجائب! - تصحيفٌ أعجميٌّ لكلمة (موضوع)!!

فقد نَقَلَ عن مجلة الأزهر: (لواء الإسلام ٢٦/ ١١٥٨) مقالًا بعنوان: الأدب والعلوم. جاء فيه ما نصُّه: «لطاش كبري زاده كتابٌ باسم: «موضوعات العلوم». ولـمّا كانت إحدىٰ مكتبات القسطنطينية، تُدوِّن فهرسًا لمحتوياتها، أملىٰ أحدُ موظّفي المكتبة بلفظ «موسوعات» العلوم، لأن الأعاجمَ يلفظون الضادَ بقريب من لفظ: الظاء. فسمع الكاتبُ الضادَ: سينًا. فكتب اسم الكتاب «موسوعات العلوم».

وسمع الشيخُ إبراهيمُ اليازجي صاحب مجلة «الضياء» باسم هذا الكتاب وموضوعه فخُيِّل إليه أن كلمة (موسوعات) تؤدِّي معني (دائرة معارف) فأعلن ذلك في مجلّته! وأخذ به أحمد زكي باشا وغيرُه! فشاعت كلمة (موسوعة) و (موسوعات) لهذا النوع من الكتب. وهي تسميةٌ مبنيّةٌ علىٰ الخطأ كما رأيتَ! وكان العلامةُ أحمد تيمور باشا، والكرملي، وغيرهما يرون تسمية دائرة المعارف باسم: (مَعْلَمَة)؛ لأنه أصحُّ، وأرشقُ، وأدلُّ علىٰ المراد منه». اهـ.

وانظر: مجلة المنار (٢/ ٦١)، ومجلة لغة العرب العراقية (٣/ ١٤٦)، ومجلة التراث العربي، العدد ١٣ - ١٤ (ص/ ٧).

ومع ذلك فقد جاء تصويبُ الكلمة في كتاب «معجم الصواب اللغوي» للدكتور أحمد مختار عمر (١/ ٧٤١)، ففيه: «المشهور في مادة (وَسَعَ) أن يقال: وَسَعَ الكتابُ مسائلَ كثيرةً، فالكتابُ هو الواسعُ، والموسوعُ هو المحتَوىٰ أو المضمونُ؛ ويمكنُ تصويبُ إطلاق الموسوعة علىٰ الكتاب نفسه عن طريق المجاز المرسَل لعلاقة المحلِّيّة، أو يكونُ
=

وهناك كُتُبٌ يكفي فيها التَصفُّحُ السريعُ.. وهكذا.

***

* - اِحرصْ علىٰ تكوينِ خِزانةٍ جامعةٍ، تَضُمُّ أشْتاتَ الكتبِ، في جميعِ الفنونِ والمعارفِ.

لأنّ نُزهةَ العالِمِ وطالبِ العلمِ كُتُبُه!

وكلّما كانت الخِزانةُ متنوّعةَ الكتبِ، جامعةً للفنونِ، - كالحديقةِ الغَنّاءِ الكثيرةِ الأزهارِ، المتنوّعة الثمار - كلّما كانت السعادةُ بها أتمّ، والفرحةُ بها أعمّ. وما أحسنَ قولَ القائل:

وَأَلَذُّ مَا طَلَبَ الْفَتَىٰ بَعْدَ التُّقَىٰ … عِلْمٌ هُنَاكَ يَزِينُهُ طَلَبُهْ

وَلِكُلِّ طَالِبِ لَذَّةٍ مُتنزَّهٌ … وَأَلَذُّ نُزْهَةِ عَالِمٍ كُتُبُهْ!

يُسْلِي الْكِتَابُ هُمُومَ قَارِئِهِ … وَيَبِينُ عَنْهُ إِذَا قَرَا نَصَبُهْ

نِعْمَ الْجَلِيسُ إِذَا خَلَوْتَ بِهِ … لَا مَكْرُهُ يُخْشَىٰ وَلَا شَغَبُهْ[1]

وقال الأميرُ أبو العباس الميْكَالي: تذاكرْنا المتنزَّهاتِ يومًا وابنُ دُرَيدٍ حاضِرٌ، فقال بعضُهم: أنزَهُ الأماكن غُوطةُ دمشق، وقال بعضُهم: بل نهر الأُبُلَّة،

=

من باب القَلْب المعنويّ؛ علىٰ أنه قد جاء في «المصباح»: وَسَعَ الله عليه رزقَه، فالرزقُ موسوعٌ، ويمكن القياس عليه فيقال: وَسَعَ المؤلفُ الكتابَ، فالكتابُ موسوعٌ، ويعضدُه ما جاء في «اللسان»: هذا الوعاء يسعه عشرون كيلًا، أي يسع فيه عشرون كيلًا؛ ومن ثَمَّ تكون كلمةُ الموسوعةِ في دلالتها المحدَثَة علىٰ الكتاب الذي حوىٰ معارف موسوعة من الفصيح، وهو ما أقرّه مجمعُ اللغة المصري». والله أعلم.

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٢٣٠).

وقال بعضُهم: سُغْدُ سَمَرْقَنْد، وقال بعضُهم: نَهْرَوَانُ ببغداد، وقال بعضُهم: شِعْبُ بَوَّان[١]، وقال بعضُهم: نُوبَهار بَلْخ.

فقال ابنُ دُرَيْدٍ: هذه مُتنزَّهاتُ العيون، فأين أنتم عن متنزَّهاتِ القلوب؟!

قلنا: وما هي يا أبا بكر؟ قال: «عُيون الأخبار» للقُتَبِي، و«الزّهَرة» لابن داود، و «قَلَق المشتاق» لابن أبي طاهر.

ثم أنشأ يقول:

ومَـــنْ تَـــكُ نُزهتُـــه قَيْنَـــةٌ ... وكـــأسٌ يُحَـــثُّ وكـــأسٌ يُصَـــبْ

فنزهتُنـــا واســـتراحتُنا ... تَلاقِـي العيـونِ، ودَرْسِ الكُتُـبْ[٢]

---

(١) لطيفة: رُوي عن المبرِّد أنه قال: قرأتُ علىٰ شَجرةٍ في شِعْب بَوّان هذه الأبيات:

إذا أشـرفَ المكـروبُ مـن رأسِ تَلْعَـةٍ ... علـىٰ شِـعْبِ بَـوّانٍ أفـاقَ مِـن الكَـرْبِ

وألهـاه بطـنٌ كـالحريرَةِ مَسُّـهُ ... ومُطَّـرِدٌ يجـري مـن البـارِدِ العَـذْبِ

وطِيْـبُ ثِمـارٍ في رِيـاضٍ أرِيضَـةٍ ... علـىٰ قُـرْبِ أغصـانٍ جَنَاهـا علـىٰ قُـرْبِ

فبـالله يـا ريـحَ الجَنـوبِ تَحمَّلـي ... إلـىٰ أرضِ بغـدادٍ سَـلامَ فتـىً صَـبِّ!

وإذا أسفلَ منه مكتوبٌ:

ليـتَ شِـعْري عـن الـذين تَركْنـا ... خلفَنـا بـالعِراقِ هـل يَـذكُرونَا

أمْ لعـلَّ المـدىٰ تَطـاولَ حتّـىٰ ... قَـدُمَ العَهـدُ بعـدَنا فَنَسُـونَا!

البلدان: لابن الفقيه (ص/ ٤٠٨).

(٢) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص/ ١٥٤)، ومعجم الأدباء (٦/ ٢٤٩٨).

ولـمَّا وصف الجاحظُ الكتابَ قال فيه: «نِعْمَ الذُّخْرُ والعُقْدَةُ هو، ونِعْمَ الجليسُ والعُدّة، ونِعْمَ النُّشْرةُ والنُّزهَةُ، ونِعْمَ المشْتَغَلُ والحِرْفة». إلىٰ أنْ قال: «وبعدُ: فمتىٰ رأيتَ بُستانًا يُحمَلُ في رُدْن[1]، ورَوضةً تُقَلُّ في حِجْر؟!»[2].

وقال الخطيبُ البغدادي: «قال بعضُ أهلِ العلم: ينبغي للمرء أن يَذْخَرَ أنواعَ العلوم، وإن لم تكن له بمعلوم، وأن يستكثرَ منها، ولا يعتقدَ الغِنىٰ عنها؛ فإنه إن استغنىٰ عنها في حالٍ، احتاجَ إليها في حالٍ. وإن سئمَها في وقتٍ، ارتاحَ إليها في وقتٍ. وإن شُغِلَ عنها في يومٍ، فَرَغَ لها في يومٍ. وأن لّا يُسرِعَ ويَعجلَ، فيندمَ ويَوجلَ، فربما عَجِلَ المرءُ علىٰ نفسه بإخراج كتابٍ عن يده، ثم رامه فتعذَّر عليه مَرامُه، وابتغىٰ إليه وُصولا، فلم يجد إليه سبيلا، فأتعبَه ذلك وأنصَبَه، وأقلَقَه طويلًا وأرَّقه.

كالذي حُكي عن بعض العلماء، قال: بِعتُ في بعض الأيام كتابًا ظننتُ أني لا أحتاجُ إليه، فلما كان ذاتَ يومٍ هَجَسَ في صدري شيءٌ كان في ذلك الكتاب، فطلبتُه في جميع كتبي فلم أجدْه، فاعتمدتُ أن أسألَ عنه عالمًا عند الصباح، فما زلتُ قائمًا علىٰ رِجْلي إلىٰ الصباح! قيل: فهلّا قعدتَ؟ قال: لطول أرقي، وشدّة قلقي!

---

(١) **الـرُّدْنُ:** مُقَـدَّمُ كُـمِّ القمـيص. انظـر العـين: للفراهيـدي (٨/ ٢١)، والجـراثيم: لابـن قتيبـة (١/ ٣٠٥).

(٢) الحيوان (١/ ٣٨ و٣٩).

وباع آخرُ كتابًا ظنّ أنه لا يَحتاج إليه، ثم إنه احتاجَ إليه، فالتمسَ نسخةً به فلم يجدْها بعاريّةٍ ولا ثمنٍ، وكان الذي ابتاعه قد خرج به إلىٰ بلده، فشَخَصَ إليه، وسأله الإقالةَ وارتجاعَ الثمن منه، فأبىٰ عليه، فسأله إعارتَه لنسْخِ الكلمة منه، فلم يُجبْه! فانكفأ قافلًا، وآلىٰ علىٰ نفسه أن لا يبيع كتابًا أبدًا.

وباع آخرُ كتابًا ظنّ أنه لا يحتاجُ إليه، ثم إنه احتاجَ إلىٰ كلمةٍ منه، فقَصَدَ صاحبَه، وسألَه أن يُكْتِبه تلك الكلمةَ، فقال: والله ما تَكتُبُها إلّا بثمنِ الكتابِ كلِّه! فرَدَّ عليه ثمنَ الكتابِ، وكتبَ تلك الكلمة!

وقيل لآخرَ: ألا تبيعُ من كتبك التي لا تَحتاجُ إليها؟ فقال: إن لّم أحتجْ إليها اليومَ احتجتُ إليها بعدَ اليوم!

واشترىٰ رجلٌ كتابًا فقيل له: اشتريتَ ما ليس من عِلمك؟ فقال: اشتريتُ ما ليس من عِلمي ليصير من عِلمي!

وقيل لآخرَ: ألا تشتري كتبًا تكون عندك؟ فقال: ما يمنعني من ذلك إلا أنني لا أعلم! فقيل: إنما يشتريها من لا يعلمُ حتىٰ يَعلمَ.

وكان آخرُ يشتري كلَّ كتابٍ يراه، فقيل: له إنك لتشتري ما لا تحتاج إليه، فقال: ربما احتجتُ إلىٰ ما لا أحتاج إليه!

وممّا يُعزَىٰ إلىٰ السريِّ بن أحمد الكِنْدي:

لا تُخدَعَنَّ عن العُلوم فإنها ... سُرُجٌ يَزيدُ علىٰ الزمانِ ضِياؤُها
تُنسَىٰ القُرونُ فلا يُشِيدُ بذِكْرِها ... أحَدٌ، ويُذكرُ دائبًا عُلماؤُها
فاحرصْ علىٰ جَمعِ العُلوم فإنها ... رِيُّ القُلوب من الصَّدىٰ وشِفاؤُها

وكان بعضُ القُضاة يشتري الكتبَ بالدَّيْن والقَرْض! فقيل له في ذلك، فقال: أفلا أشتري شيئًا بَلَغَ بي هذا المبلغ؟! قيل: فإنك تُكثِرُ، فقال: علىٰ قَدر الصناعة تكونُ الآلةُ»[(١)].

وقال ابنُ حزمٍ بعد أن أوصىٰ بإنفاقِ المال علىٰ العلم والاستكثار من الكُتُب: «لن يخلو كتابٌ من فائدةٍ وزيادةِ علمٍ يجدُها فيه إذا احتاج إليها، ولا سبيلَ إلىٰ حفظ المرء لجميع علمه الذي يختصُّ به. فإذْ لا سبيل إلىٰ ذلك؛ فالكُتُبُ نِعْمَ الخازنةُ له إذا طُلِبَ، ولولا الكتبُ لضاعتْ العلومُ ولم تُوجَدْ.

وهذا خطأٌ ممّن ذمَّ الإكثارَ منها، ولو أُخذَ برأْيه لتَلِفَتْ العُلومُ، ولَجاذَبَهم الجهّالُ فيها وادّعَوْا ما شاءُوا. فلولا شهادةُ الكتب لاستوتْ دعوىٰ العالم والجاهل!»[(٢)].

❊❊❊

❊ - مِن المهمِّ لطالب العلم قراءةُ كتب الأدب؛ لأنها تُربِّي الـمَلَكَة، وتُحسِّنُ الذائِقة، وتَشْحذُ القَريحَة، وتُثْري الفِكْر، وتبعث علىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيَم.

قال الإمامُ ابنُ عبد البرّ في مقدمة كتابه النفيس «بهجة المجالس»[(٣)]: «إن أولىٰ ما عُنيَ به الطالب، ورغِبَ فيه الراغب، وصَرفَ إليه العاقلُ هَمَّه، وأكَدَّ

---

(١) تقييد العلم (ص/ ١٣٦).

(٢) رسالة مراتب العلوم - رسائل ابن حزم - (٤/ ٧٧).

(٣) (١/ ٣٥ - ٣٦).

فيه عزمَه - بعد الوقوف علىٰ معاني السنن والكتاب - مطالعةُ فنون الآداب، وما اشتملت عليه وجوهُ الصواب، من أنواع الحِكَم التي تُحْيي النفسَ والقلب، وتَشْحذُ الذِّهنَ واللبّ، وتَبعثُ علىٰ المكارم، وتَنهىٰ عن الدنايا والمحارم.

ولا شيءَ أنظمُ لشمل ذلك كله، وأجمعُ لفنونه، وأهدىٰ إلىٰ عيونه، وأعقلُ لشارِده، وأثقفُ لنادره؛ من تقييد الأمثال السائرة، والأبيات النادرة، والفصول الشريفة، والأخبار الظريفة، من حِكَم الحكماء، وكلام البلغاء العقلاء: من أئمة السلَف، وصالحي الخلَف، الذين امتثلوا في أفعالهم وأقوالهم، آدابَ التنزيل، ومعاني سننِ الرسول، ونوادر العرب وأمثالها، وأجوبتها ومقاطعها، ومباديها وفصولها، وما حَوَوْهُ من حِكَم العجَم، وسائر الأمم، ففي تقييد أخبارهم، وحفظ مذاهبهم، ما يبعث علىٰ امتثال طرقهم واحتذائها، واتّباع آثارهم واقتفائها».

وقال الأديبُ البليغُ محمدُ البشيرُ الإبراهيميُّ: «إنّ ما يُربِّي الـمَلَكَاتِ الأدبيةَ الصحيحةَ ويُقوِّمُها الإدمانُ، إدمانُ القراءة المتأنِّية المتدبِّرة لكتب الأدب الحرّة الأصيلة، والاستكثارُ من حفظ الشعر واللغات والأمثال، ومعرفةُ مواردها ومضاربها، والتنبّهُ لمواقع استعمالها من كلام البلغاء، من شعراء وخطباء وكتّاب، ثم ترويضُ القرائح والألسنة والأقلام علىٰ المحاذاة؛ ذلك أدنىٰ أنْ تَستحكِمَ الـمَلَكَةُ، وتنقادَ القريحةُ، فتجري الأقلامُ علىٰ سَدَاد، ويَمُدُّها الفكرُ من تلك المعاني بأمداد، وتُوضَع الكلماتُ في الجمل، في موضع

اللآلئ من العِقْد، وما جاء حُسْنُ العِقْد منظومًا، إلا من حُسْنِه منثورًا، ثم تكونُ الحِكَم والأمثال والنُّكَت كفواصل الجُمان، في العقود الثِّمان»[(١)].

- وقال أيضًا يُوصِي الطلّابَ: «لا تعتمدوا علىٰ حفظ المتون وحدَها، بل احفظوا كلَّ ما يُقوّي مادتكم اللغويّة، ويُنمّي ثروتكم الفكريّة، ويُغذّي مَلَكَتكم البيانيّة»[(٢)].

***

* - ينبغي أنْ تكونَ قراءةُ كتبِ العلمِ قراءةً مُبَرْمَجَة[(٣)].

بمعنىٰ أنْ يتّبعَ القارئُ في ذلك برنامجًا محدَّدًا ما أمكن، مُسترشدًا في ذلك بتوجيهات المتخصّصين من أساتيذَ وزملاء؛ حتىٰ لا يتطوَّحَ هنا وهناك، فيَضِيعَ وقتُه وجُهدُه في قراءةِ كتبٍ ثانويّةٍ ليستْ أصيلةً في بابها، أو يَسقطَ في أَتُونِ كتبٍ ضارّةٍ تُشوِّشُ فِكْرَه، وتُخلْخِلُ عقيدتَه.

ولعلمائِنا المتقدِّمين والمعاصِرين - أثابهم اللهُ - جُهودٌ مشكورةٌ في وضعِ قوائمَ مُقتَرَحةٍ لطلّاب العلم في ترتيب قراءة الكتب[(٤)].

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٣/ ٥٨٠).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٠٤).

(٣) أفردتُ هذا العُنصُر بكتابٍ مستقلٍّ هو: «**القراءةُ المُبَرْمَجَةُ: تَهْيِئَةٌ وتَطْبيقٌ**»، وقد سبقتْ الإشارةُ إليه.

(٤) مِمّن قام بذلك من المتقدِّمين:

الخطيبُ البغداديُّ في كتابه العظيم: «**الجامع، لأخلاق الراوي وآداب السامع**» (٢/ ١٨٤) فما بعد.

وابنُ الصلاح في كتابه «**علوم الحديث**» - تحقيق عِتْر - (ص/ ٢٥١).

والشوكانيُّ في كتابه «**أدب الطلب ومنتهىٰ الأرب**» - ط دار اليمامة - (ص/ ١٧٩) فما بعد،
=

* - الاسْتراحةُ من القِراءةِ تكونُ بالقِراءة!

وذلك كَمَنْ يَقرأُ في كتابٍ من كتب العلم العَسِرَة التي تحتاجُ لتركيزٍ ودِقّة تصوّرٍ، ككُتب: الفقه، والأصول، والنحو، والصَّرف، ونحوِها، فإذا ما تَعِبَ، أخذ كتابًا من كتب: الأدب، أو التاريخ، أو التراجم، فقرأ فيه؛ حتىٰ يَستَجِمَّ، ويُجدِّدَ نشاطَه[١].

وقد كان محمدُ بنُ الحسن الشيباني لا ينام الليلَ، وكان يُزيل نومَه بالماء ويقول: «إنّ النومَ من الحرارة»، وكان يضع عنده دفاترَ كثيرةً، فإذا ملَّ من نوعٍ نظر في آخَرَ، فلمّا سُئِلَ عن ذلك قال: «العلمُ ثقيلٌ، فأنظر في هذا فإذا ثَقُلَ أخذتُ بآخَرَ»[٢].

=

حيث قسّم فيه طبقاتِ طلّاب العلم إلىٰ أربع طبقات.

- ومن المعاصرين ثُلّةٌ، منهم:

ابنُ عثيمين كما في **مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين** (٢٦/ ٣٤١).

وأحمد سالم، في كتابه البديع «**السُّبل المرْضيّة لطلب العلوم الشرعيّة**» - طبع مركز تفكّر للبحوث والدراسات.

ولي نَشْرةٌ متداولَةٌ منذُ زمنٍ باسمِ: «**مكتبة طالب العِلم**». وهي في مطاوي (المكتبة الشاملة)، كما أنها مرفوعةٌ أيضًا علىٰ (الشنكبوتيّة).

(١) **تنوير**: مِن الكتبِ الماتِعةِ التي تجمعُ بين الفائدةِ والاستجمامِ، معَ ما فيها من أفاكِيهَ كثيرةٍ ومضاحيكَ جَمّةٍ:

كتبُ الأحاديثِ الموضوعة! وكتبُ الألقاب! وكتبُ التصحيفات! فإنّ في هذه الكتبِ من اللطائفِ والغرائبِ الشيءَ الكثيرَ.

وهذه الكتبُ مغفولٌ عنها - في هذه البَابَةِ تحديدًا - من قِبَل كثيرٍ من العلماءِ، فضلًا عن طلّابِ العلم!

(٢) **انظر** مفتاح السعادة ومصباح السيادة: لطاشكبري زاده (١/ ٣٦)، وقيمة الزمن عند العلماء: لعبد الفتاح أبو غدّة (ص/ ١٩٠).

وكان القاضي أحمدُ بنُ عمر بن محمد المذحجيُّ الزبيديُّ الشهيرُ بالمزجَّد (ت ٩٣٠هـ)، إِذا سَئِمَ من القراءة والمطالعة استدعىٰ مقاماتِ الحريري، فيطالعُ فيها، وكان يسمّيها: (طَبَق الْحَلْوَىٰ)![1].

وهذا أمرٌ طَبَعِيٌّ في الإنسان، أنْ يَكِلَّ ويَمَلَّ عندَ الأخذ علىٰ نمطٍ واحدٍ، كما قال ابنُ القيّم:

وتَخَلُّلُ الفَتَراتِ للعَزَمَاتِ أمـــرٌ لازِمٌ لطبيعةِ الإنسانِ[2]

وممّا يُؤْثَرُ عن عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قولُه: «أَجِمُّوا هذه القلوبَ، وابتغوا لها طرائفَ الحكمةِ؛ فإنها تَملُّ كما تَملُّ الأبدانُ».

وفي روايةٍ عنه: «إنّ هذه النفوسَ تملُّ، وهذه القلوبُ تَدْثُرُ، فابتغوا لها طرائفَ الحكم وملاهيها»[3].

وفي حديث ابن عَبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه كان يقول إذا أَفَاضَ مَن عِنْده في الحديث بعدَ القرآن والتفسير: «أَحْمِضُوا»[4].

---

(١) انظر: النور السافر عن أخبار القرن العاشر: للعيدروسي (ص/ ١٣٠).

(٢) الكافية الشافية (ص/ ٨٣٦).

(٣) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار: للزمخشري (١/ ٤).

(٤) قال ابنُ قتيبة: قولُه: «أَحْمِضُوا» هو من الحَمْض، والحَمْضُ ما مَلُح من النبْت. والعربُ تُلقِي الابلَ في الخلَّة، وهو ماحَلا من النبْت. فإذا مَلَّته ألقتْها في الحَمْض.
وأراد ابنُ عباس، إذا مللتم من الحديث والفِقْه فَخُذُوا في الأَشْعَار وأخبار العَرَب لتروِّحوا بذلك قُلُوبَكُمْ. ونَحْوُه قولُ الزُّهْرِيّ: «هاتوا من أَشْعَاركُم؛ فإنّ الْأذنَ مَجَّاجةٌ، والنَّفسَ حَمِضَةٌ».
يُريد: أنها تَشْتَهي الشَّيْءَ بعدَ الشيء كما تَشْتَهي الإبلُ الحَمْضَ بعد الخَلَّة. غريب الحديث =

وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ في قوله ﷺ لجابر: «فَهَلّا بِكْرًا تُلاعِبُها وتُلاعِبُكَ»: «هذا كأنه يتشاغل بمباحٍ، وتنفيسٍ، وجِمامٍ من الجِدّ، وتَعمُّلٍ لما يَتقوّىٰ به عَمَلُ النظر في العلم والعبادة، وقد رُوي عن بعض السلف أنه كان إذا أكثرَ النظرَ في مسائل الفقه قال: «أَحْمِضُوا»، ورُوي: «إنّ هذا الدينَ متينٌ، فأوغِلْ فيه برفقٍ؛ فإن المنبتّ لا أرضًا قَطَعَ، ولا ظَهْرًا أبقىٰ». وليس هذا اللعبُ كاللعبِ في قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة:٦٥]»[1].

وقال القاضي عياض في شرحِه حديثَ (أمّ زَرْع): «فيه - أيضًا - جوازُ الحديث عن الأمم الخالية، والأجيال الماضية، بمُلَح الأخبار، وطُرَف الحكايات؛ لتسلية النفس. وكذا ترجم عليه الترمذي في «شمائله»: «باب ما جاء في كلام رسول الله ﷺ في السَّمَر»[2].

وقال الرُّصافيُّ:

وإذا ما اشتغلتَ بالجِدِّ ساعا	تٍ فهازِلْ سُوَيْعةً واسْتَجِمِّ
وتَرَفَّقْ إذا جَهِدْتَ فإنّ الرِّ	فْقَ يُذْكِي الفؤادَ، والعُنْفُ يُعْمِي
ولقدْ يَبْلُغُ العَجُولُ مَدَاهُ	بالتأنّي بُلوغَ خَضْمٍ بقَضْمِ[3]

=

(٢/ ٣٦٦). وانظر: المراح في المزاح: للغزّي (ص/ ٦٩).

(١) الحُجّة للقُرّاء السبعة (٤/ ٤٠٦).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٧/ ٤٧١).

(٣) ديوان الرصافي (ص/ ٥٢٨).

ولذا فإنّ الجاحظَ لمّا رأىٰ أنه أثقلَ علىٰ قُرّاء كتابه «**الحيوان**» بما أورده فيه من الجِدِّ، أفردَ فيه فصلًا مطوَّلًا ذكر في ألوانًا من الطرائف والمضاحيك والأخبار والأشعار؛ يُجِمّهم به![1].

ومِثلُه أبو جعفرٍ النحّاسُ[2].

---

(١) يقع فصلُ الإجمام هذا في (١٤٠) صفحةً! ابتدأه بقوله: «وإن كنَّا قد أمَلْلناك بالجِدِّ وبالاحتجاجاتِ الصحيحة والمرَوَّجة؛ لتَكَثَّرَ الخواطرُ، وتُشْحَذَ العقولُ، فإنّا سننشِّطكَ ببعضِ البَطالات، وبذكرِ العللِ الظَّريفة، والاحتجاجاتِ الغريبة؛ فربَّ شِعرٍ يَبلُغُ بفَرْطِ غباوةِ صاحبه من السرور والضحك والاستطراف ما لا يبلغه حَشْدُ أحَرِّ النوادر وأجمَعِ المعاني...

إلىٰ أن قال: فإنْ كنتَ ممَّن يستعمِل الملالةَ، وتَعْجَل إليه السآمة، كان هذا البابُ تنشيطًا لقلْبك، وجَمامًا لقوَّتك...

وإن كنْتَ صاحبَ علمٍ وجِدٍّ، وكنت مُمرَّنًا موقَّحًا، وكنتَ إلفَ تفكيرٍ وتنقيرٍ، ودراسةِ كتُبٍ، وحِلفَ تبيُّنٍ، وكان ذلك عادةً لك لم يَضِرْكَ مكانُه من الكِتاب، وتَخَطِّيه إلىٰ ما هو أولىٰ بك.

وعلىٰ أنِّي قد عزمتُ - واللّهُ الموفِّق - أنِّي أوشِّح هذا الكتابَ وأفصِّلُ أبوابَه، بنوادِرَ من ضُروبِ الشِّعر، وضروبِ الأحاديث؛ ليخرج قارئُ هذا الكتاب من بابٍ إلىٰ بابٍ، ومن شَكْلٍ إلىٰ شَكْلٍ؛ فإنِّي رأيتُ الأسماعَ تملُّ الأصواتَ المطْرِبَةَ والأغاني الحسنةَ والأوتارَ الفَصيحةَ، إذا طال ذلك عليها. وما ذلك إلاَّ في طريق الراحة، التي إذا طالت أورثت الغفلةَ.

وإذا كانت الأَوائلُ قد سارتْ في صغارِ الكتب هذه السِّيرةَ، كان هذا التَّدبيرُ لِمَا طالَ وكثُر أصلَحَ، وما غايتُنا مِن ذلك كلِّه إلاَّ أن تَستَفيدُوا خيرًا.

وقال أبو الدَّرداء: إنِّي لأُجِمُّ نفسي ببَعْض الباطل، كراهةَ أنْ أحمِل عليها من الحق ما يُمِلُّها». الحيوان (٣/ ٥ - ٧).

(٢) فقد قال في المرتبة السابعة من كتابه عمدة الكُتّاب (ص/ ٣٢٥): «لَقَّبنا هذه المرتبةَ بمرتبة الفهَاهَة، لِمَا قَدَّرْنا أنْ نذكرَ فيها ممّا يُعابُ علىٰ الكُتّاب ومَنْ لحقتْه الفهَاهَةُ، فيكونُ ذلك =

بل إنّ الزمخشريَّ ما ألّف كتابَه «ربيعَ الأبرار» أجلَّ كتب الأدب -عندي-، إلّا من أجل إجمام قُرَّاء تفسيره «الكشّاف»![1].

وتختلفُ عوائدُ كلّ عصرٍ في نوعِ ما يُستجَمُّ به، فلكلّ عصرٍ إجمامُه واستراحتُه!

فقد ذكر شيخُ الإسلام ابنُ تيمية (ت ٧٢٨ هـ) عن علماء عصره أنهم كانوا يَتَلَهَّوْن في أوقات فراغهم بعلم الفرائض والحساب ونحوِ ذلك!!

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كثيرٌ من متأخِّري أصحابنا، يشتغلون وقتَ بطالتهم بعلم الفرائض، والحساب، والجبر والمقابلة، والهندسة، ونحو ذلك! لأنّ فيه تفريحًا للنفس، وهو علمٌ صحيحٌ لا يدخل فيه غلطٌ، وقد جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: إذا لَهَوْتُم فالْهُوا بالرمي، وإذا تحدّثتم فتحدّثوا بالفرائض»، فإن حسابَ الفرائض علمٌ معقولٌ مبنيٌّ علىٰ أصلٍ مشروعٍ، فتبقىٰ فيه رياضةُ العقل، وحِفظُ الشرع، ولكن ليس هو علمًا يُطلَبُ لذاته، ولا تَكمُل به النفسُ»[2].

= مُستجْلِبًا لنشاطِ القارئ وإصغاءِ المستمع، ولعلّ مَن يتصفّحُ هذا الكتابَ يقول: ما هذا مِن صِناعة الكُتّاب، فيَخرجَ إلىٰ الفهاهة! لأنّ معرفةَ كثيرٍ مما يَمُرُّ في هذا الباب يُستَحسَنُ للكاتب معرفتُه، ويُعَدُّ حِفظُه إيّاه من أدبه».

(١) حيثُ قال في مقدِّمة ربيع الأبرار (١/ ٣): «وهذا كتابٌ قصدتُ به إجمامَ خواطر الناظرين في «**الكشاف عن حقائق التنزيل**»، وترويحَ قلوبِهم المتعَبة بإجالة الفِكْر في استخراج ودائع علمه وخباياه، والتنفيسَ عن أذهانهم المكدُودة باستيضاح غوامضه وخفاياه، وأن تكون مطالعتُه ترفيهًا لمن مَلّ، والنظرُ فيه إحماضًا لمن اختلّ.....».

(٢) الردّ علىٰ المنطقيين (ص/ ١٣٦).

=

وجعلَ ابنُ فَرْحُون اليَعمُري المالكي (ت ٧٩٩هـ) إجمامَ النفس في حَلِّ الألغاز الفقهيّة!

فقال: «إنّ طلبَ العلم أشرفُ الاكتساب وأسماه، وطالبُه يحتاج إلىٰ قوةٍ وعزمٍ، وإجمامُ نفسه لابدّ له منه حتمًا. فقد قال علي بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَلُّوا النفسَ ساعةً؛ فإنها تصدأُ كما يصدأُ الحديدُ».

ومِن أحسن ما أَجَمَّ به نفسَه محاضرةُ الطلاّب، بألغاز فروع الأصحاب؛ لأنها تُحِدُّ الأذهان، وتَفتحُ الجَنانَ، وتُفاضِلُ بين الأقران. والعملُ بها ثابتٌ في الصحيح، وهي في البخاريِّ نصٌّ صريح.....»[(١)].

=
وقد بيّن في موضعٍ آخرَ من الكتابِ نفسِه (ص/ ٢٥٥) أن المرادَ المسائلُ العويصةُ التي تُفتِّق الذِّهنَ وتُقوِّيه. فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«النظرُ في العلوم الدقيقة يُفتِّق الذهنَ، ويُدرِّبه، ويُقوِّيه علىٰ العلم؛ فيصير مثل: كثرة الرمي بالنُّشَّاب (النبْل)، وركوب الخيل، تُعِينُ علىٰ قوة الرمي والركوب، وإن لم يكن ذلك وقتَ قتالٍ، وهذا مَقصِدٌ حسنٌ.

ولهذا كان كثيرٌ من علماء السنّة يَرغبُ في النظر في العلوم الصادقة الدقيقة: كالجبر والمقابلة، وعويص الفرائض، والوصايا والدَّوْر؛ لشَحْذ الذهن؛ فإنه علمٌ صحيحٌ في نفسه. ولهذا يُسمَّىٰ الرياضي؛ فإن لفظ الرياضة يستعمل في ثلاثة أنواع:

١- في رياضة الأبدان بالحركة والمشي كما يذكر ذلك الأطباءُ وغيرُهم.

٢- وفي رياضة النفوس بالأخلاق الحسنة المعتدلة والآداب المحمودة.

٣- وفي رياضة الأذهان بمعرفة دقيق العلم والبحث عن الأمور الغامضة».

(١) ذكر المؤلِّفُ هنا حديثَ ابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا المشهور، حينما سألهم رسولُ الله ﷺ عن النخلة. وهو في صحيح البخاري، في كتاب العلم: باب طرح الإمام المسألة علىٰ أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، ح (٦٢).
وجميعُ مَن ألّف في الألغاز والأحاجي يَستشهدُ به.

وقد ألّف العلماءُ في ذلك تواليفَ عديدةً، وهذا النوعُ يُسمّيه الفقهاءُ الألغازَ، وأهلُ الفرائض يُسمّونَه الـمُعَمَّيات، والنحاةُ يُسمُّونَه الـمُعَمّىٰ، واللغويّونَ يُسمُّونَه الأحاجي.

ولم أقفْ للمالكية علىٰ تآليف من هذا النوع يُقتَفىٰ به ويُتّبَع، فقيّدتُ من ذلك ما تُستطرَفُ به المذاكرة، وتُستجلَىٰ به المحاضرة»[١].

***

*** – مِن الأمور المهمّة في عمليّة القراءة؛ أنْ يُناقِشَ القارئُ ما يَقرأُ ويتفاعلَ معه.**

بمعنىٰ أنْ يضعَ في ذهنه أسئلةً ويُحاولَ أنْ يجدَ لها حَلًّا في الكتاب المقروء؛ فإنّ هذا أدعىٰ إلىٰ التركيز فيما يَقرأُ، كما أنه سبيلٌ لفهم أدقَّ للكتابِ.

لكنْ ينبغي أنْ تكونَ تلك التساؤلاتُ مُنضبطةً ومنطقيّةً، لا أنْ تكونَ مثلَ تساؤلاتِ عوَض بن نصْر المِصْري!

فقد نقلوا عنه أنه أخذ كتابَ «الـمُفصَّل» للزمخشريِّ – وهو كتابٌ في النحو – فسأل بعضَ الجماعة عن قول الزمخشريِّ في أوله: «اللهَ أحمدُ»، لأيّ شيءٍ قال: «اللهُ أحمدُ»، وما قال: اللهُ يوسفُ! ولا اللهُ عيسىٰ! أو موسىٰ! أو غيرُ ذلك من الأسماء»؟!!

فحفِظَها عنه الطلّابُ، وصاروا يَسخرون منه ويَتطنَّزون به، ويَضعون

---

(١) دُرّة الغوّاص في محاضرة الخواصّ (ص/ ٦٢-٦٥).

علىٰ لسانه أسئلةً حمقاءَ كسؤالِه هذا!![١].

***

* - تَكرارُ قراءةِ الكتابِ المقروءِ؛ أولىٰ من قراءةِ كتابٍ جديدٍ.

لأنَّ القارئَ لا يكاد يثبتُ في ذهنه من القراءة الأولىٰ للكتاب إلا معالمُ وأشياءُ يسيرةٌ، فإذا ما كَرَّ علىٰ الكتاب ثانيةً، وثالثةً، ورابعةً....؛ فإنّ الكتابَ يرسَخُ ويثبُتُ. لذا قالوا: «التكرار، يولِّدُ الاستقرار».

وقد ثبت بالتجربة أنّ كلَّ قراءةٍ سيظهرُ للقارئِ فيها معانٍ جديدةٌ، كما تترسَّخُ لديه المعاني السابقةُ، قال المُزَنِيُّ: «قرأتُ «الرسالةَ»[٢] خمسَ مائةِ مرة!! ما مِن مرةٍ إلّا واستفدتُ منها فائدةً جديدةً!».

وفي روايةٍ عنه أنه قال: «أنا أنظرُ في «الرسالة» مِن خمسينَ سنةً! ما أعلم أني نظرتُ فيها مرةً إلا واستفدتُ شيئًا لم أكنْ عرفتُه!»[٣].

وقال الشيخُ محمدُ البشير الإبراهيمي عن كتاب «**الأغاني**» لأبي الفرج الأصفهاني: «لا تَسْألْني عن خصائصِه التي أثَّرتْ في نفسي وجَلَبَتْ قِيادي إليه، حتىٰ تركتْني أُجدِّدُ قراءتَه من أوَّله إلىٰ آخره في كلِّ عَقْدٍ من سِنِيِّ عُمْري، وكلَّما قرأتُه تجدَّدتْ آثارُه في نفسي، وتجاوبتْ أصداؤُه بين جوانبي، فبعث

---

(١) انظر خبرَه في: أعيان العصر: للصفدي (٣/ ٧٠٦)، والدرر الكامنة: لابن حجر (٣/ ١٩٩).
وقد استوفيتُ قصّته بتمامها مع توجيه كلام الزمخشريِّ في كتابي الإبداع العلمي (ص/ ١٥٤) من طبعة مكتبة دار المنهاج، فراجعْها إن شئت.

(٢) يعني كتابَ «الرسالة» للإمام الشافعي، أول مؤلَّفٍ في علم أُصول الفقه.

(٣) المجموع شرح المهذب: للنووي (١/ ٩).

فيّ رُوحًا جديدةً! لا تَسْألْني عن ذلك؛ فكلُّ أديبٍ قرأه وكرّر قراءتَه وجد في نفسه من التأثُّر مثلَ ما أَجِدُ، أو فوقَ ما أَجِدُ، وتَجدَّدتْ عندَه صُورةٌ من روعةِ الأدب العربي وجلالِه»[(١)].

وقد ذكر الأديبُ المِصريُّ **عباس محمود العَقَّاد**: فوائدَ كثيرةً لتكرار قراءة الكتاب الواحد عدَّةَ مرَّاتٍ[(٢)].

ومِن تبويبات الإمام البخاريّ في صحيحه[(٣)]: بَابُ مَنْ أَعَادَ الْحَدِيثَ ثَلَاثًا؛ لِيُفْهَمَ عَنْهُ.

وقد كان هذا دَيْدن العلماء قديمًا وحديثًا؛ فقد كانوا يقرأون الكتابَ الواحدَ عشراتِ المرّاتِ! وربّما مئاتِ المرّاتِ! بلْ بلغَ بعضُهُم الألفَ!![(٤)].

لكنْ قد يَمُنُّ المنَّانُ علىٰ بعض الناس بذاكرةٍ واعيةٍ، بحيثُ يَنتقِشُ الكتابُ في ذِهنِه من أولِ مرةٍ، فلا يحتاجُ لمعاودة قراءةِ الكتاب مرةً أخرىٰ!

قال جمالُ الدّين السومري في أماليه: «ومِن عجائب ما وقع في الْحِفْظ من أهل زماننا أنّ ابنَ تيمية كان يمرُّ بالكتاب مطالعةً مرّةً فينتقِشُ في ذهنه، وينقلُه في مصنَّفاته بلفظِه ومعناهُ!»[(٥)].

وذكروا في ترجمة العلّامة اللُّغوي/ ناصيف اليازجي، أنه كان يحفظُ زبدةَ

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٤/ ٣٧٤).

(٢) **انظرها في** كتابه يوميات (٤/ ٦٢٢).

(٣) (١/ ٤٧).

(٤) ذكرتُ نماذجَ كثيرةً من هذا في كتابي «الإبداع العلمي» (ص/ ١١٩) الطبعة الثانية، نشر مكتبة دار المنهاج، فراجعْها فيه.

(٥) الدرر الكامنة: لابن حجر (١/ ١٧٨).

كلّ كتابٍ يقرأُه، فيرسَخُ في ذهنه فلا تذهبُ به الأيامُ! وقلّما طالع كتابًا واحتاج إلىٰ مطالعته مرةً ثانيةً![1].

***

*** - ليس بالضرورة أنْ يَقرأَ القارئُ الكتابَ من كتب الثقافة العامّة - ككتب الأدب، والمذكّراتِ، والرحلات، والمقالاتِ، والمَعْلَمات[2]، ونحوها - كاملًا.**

بل لو انتقىٰ منه ما يحتاجُه من المباحثِ والمطالبِ التي يرىٰ أهميّتَها بالنسبة له، كان ذلك كافيًا.

فلو أنه اختار من مكتبته خمسةً أو ستةً من الكُتُب مثلًا، فتصفَّحَ فهارسَها، ثم قرأ من كلّ واحدٍ منها عدّةَ مباحث، لتحقّقتْ له المتعةُ والفائدةُ.

وهذا يتأكّدُ في حقِّ المشتغلين بالتأليف والتصنيف أكثرَ من غيرهم؛ إذ العمرُ قصيرٌ، والكتبُ عددَ الرمل والحصىٰ!

***

*** - اِقصِدْ إلىٰ ما يُفيدُكَ ويُرقِّيك وتستطيعُ فهمَه واستيعابَه من الكتب.**

بغضّ النظر عن كونه معاصِرًا أو قديمًا؛ إذْ الهدفُ هو اكتسابُ العلم والمعرفة من أقرب طريقٍ.

فلا يُمدَحُ القديمُ لِقِدَمِهِ، ولا يُذمُّ المعاصِرُ لِجِدَّته، وإنما المعيارُ هو تحصيلُ الفوائد وفهمُ المسائل، دون التفاتٍ للوسائل.

---

(١) انظر مقدمة كتابي «الجامع العزيز».

(٢) تقدّم الكلامُ عن هذه التسمية.

قال الدكتور/ عياض بن نامي السلمي: «ما يتخوّف منه بعضُ الغيورين من ابتعاد الناس عن كتب التراث وجهلهم بلغتها وأسلوبها إنْ هم اكتفوا بتلك المؤلفات الحديثة، لا أرىٰ له ما يؤيدُه من النقل ولا من العقل؛ فإنّ النقل إنما جاء بالأمر بالتفقّه في الدين ومعرفة حكم الله جَلَّ وَعَلَا بالطريق الصحيح والعمل به: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢]، «**رحم اللهُ امرًا سمع مقالتي فوعاها فأدَّاها كما سمعها**»، ولم يتعبدْنا اللهُ جَلَّ وَعَلَا بقراءة كتابٍ غيرِ كتابِه، ولا بحفظ كلامٍ سوىٰ كلامِه، ولم يتعبدْنا اللهُ بالاجتهاد في فهم مُعَمَّيات المختصرات، ولا بالاجتهاد في منطوق كلام أحدٍ من خلقه ومفهومه، إلّا كلامُ رسوله ﷺ الذي هو حُجّةٌ يجب تأمُّلُها والنظرُ فيها، وفقَ ما تقرّر من قواعد الفهم والاستدلال.

وأما العقل فإنه يقتضي ضرورةَ البحث عن الحق بأيسر وسيلة وأقربها، وأن لا يُضيع الإنسانُ عمرَه في سلوك الدروب المتعرّجة، مع تمكّنه من الوصول إلىٰ الغاية بالطريق المستقيم.

وليس معنىٰ هذا الكلام الدعوة إلىٰ ترك كتب المتقدمين، والاكتفاء عنها بكتب المتأخرين، وإنما المقصودُ أن لا يظنّ من لم يُسعفْه ذهنُه بإدراك كتب المتقدمين، أنّ الطريقَ أمامَه مُوصَدَةٌ، فيرضىٰ بمرتبة التقليد! بل عليه أن يعرف مما كتبه المُحْدَثُون ما يُمكّنه من الاختيار والترجيح، ويُعينه علىٰ معرفة القول الباطل من الصحيح»[١].

---

(١) أصول الفقه الذي لا يَسَعُ الفقيهَ جَهلُهُ (ص/ ٧).

فينبغي أن يبدأ الطالبُ أولًا بقراءة الكتب المعاصرة في الفنّ؛ لسهولتها ويُسرها في لغتها وأسلوبها وطريقة عَرْضها، فإذا ما فهم المسائلَ جيّدًا وتصوّرَها حقَّ التصوّر، فلا عليه بعد ذاك أن ينطلقَ إلىٰ القراءة في المصادر الأصول غيرَ هيّابٍ ولا وَجِل.

***

*** - ينبغي لطالبِ العلمِ الجادِّ أن يعيشَ عَصْرَه العلميَّ، ولا ينكفئَ علىٰ نفسه.**

وذلك بأن يتابعَ الجديدَ من الكتب، وإصداراتِ دور النشر، والأُطروحاتِ العِلميّة والفِكريّة؛ فإنّ هذا أعونُ له علىٰ الطلب والتحصيل، وأعْوَدُ عليه بالنفع والفائدة.

ولقد ظهرتْ فتنةُ **(الحداثة)**[1] عِندَنا قبل بُرهةٍ من الزمن، وهاجتْ بها الدنيا

---

(١) **الحداثةُ**: مذهبٌ فكريٌ أدبيٌ عَلْمانيٌّ، بُني علىٰ أفكار وعقائد غربيّة خالصة، مثل المارِكْسية والوُجودية والفُرويدية والدارُوينية، وأفاد من المذاهب الفلسفية والأدبية التي سبقته مثل السُّريالية والرَّمْزية ... وغيرها.

وتَهدف الحداثةُ إلىٰ إلغاء مصادر الدين، وما صدر عنها من عقيدة وشريعة، وتحطيم كلِّ القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية؛ بحجة أنها قديمة وموروثة! لِتَبْنى الحياةَ علىٰ الإباحية، والفوضىٰ، والغموض، وعدم المنطق، والغرائز الحيوانية، وذلك باسم الحرية، والنفاذ إلىٰ أعماق الحياة!

والحداثةُ خُلاصةُ مذاهبَ خطيرةٍ مُلحدةٍ، ظهرتْ في أوروبا كالمستقبلية والوُجودية والسُّريالية وهى من هذه الناحية شرٌّ؛ لأنها إملاءات اللّاوعى في غيبة الوعى والعقل، وهى صبيانية المضمون، وعبثية في شكلها الفني، وتمثل نزعة الشرّ والفساد في عداءٍ مستمرٍّ للماضي والقديم، وهي إفراز طبيعي لعزل الدين عن الدولة في المجتمع الأوروبي ولظهور =

وماجتْ، ثمّ خَمدتْ بعد ذلك[1]، وبعضُ طلّاب العلم لم يَشعروا بها!!

وهـذا يـدلُّ علىٰ ضـعف اطّـلاع هـؤلاء، وانعـدام اهتمـامهم بمتابعـة المستجدّات!

وهذا خلافُ ما كان عليه العلماءُ، فهذا عبدُ الله بنُ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لمّا نبَتَتْ نابتةُ **(القَدَريَّة)** في عصره، اهتمَّ للقضيَّة، وأفتىٰ فيها، وحذّر من أصحابها، فعن يحيىٰ بن يعمر، قال: كان أولَ من قال في القدر بالبصرة معبدٌ الجهنيُّ، فانطلقتُ أنا وحميدُ بن عبد الرحمن الحميري حاجّيْن، أو معتمريْن، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألناه عمّا يقول هؤلاء في القدر، فوُفّق لنا عبدُالله بنُ عمر بن الخطاب داخلًا المسجدَ، فاكتنفتُه أنا وصاحبي أحدُنا عن يمينه، والآخرُ عن شماله، فظننتُ أن صاحبي سَيَكِلُ الكلامَ إليّ، فقلتُ: أبا عبد الرحمن! إنه قد ظهر قِبَلَنا ناسٌ يقرؤون القرآنَ، ويتقفَّرون

=

الشك والقلق في حياة الناس، مما جعل للمخدرات والجنس تأثيرهما الكبير.

بدأ مذهبُ الحداثة منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي تقريبًا في باريس علىٰ يد كثير من الأدباء السرياليين والرمزيين والماركسيين والفوضويين والعبثيين، ولقي استجابةً لدىٰ الأدباء الماديين والعلمانيين والملحدين في الشرق والغرب. حتىٰ وصل إلىٰ شرقنا الإسلامي والعربي. **انظر**: الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٨٦٧).

(١) كان السببُ في إخمادها - ولله الحمدُ والمنّةُ - عدّةُ عوامل؛ منها: المقدّمةُ النفيسةُ التي قدّم بها العلّامةُ عبدُ العزيز بنُ باز رَحِمَهُٱللَّهُ كتابَ «الحداثة في ميزان الإسلام» للدكتور/ عوض بن محمد القرني، حيثُ بيّنَ فيها خطورةَ هذا المذهب الهدّام، وحذّر منه، مما كان لها أكبرُ الأثر في دَحْرِ هذا المذهبِ وأربابِه، وهدْمِهِ علىٰ رُؤوس زَبانيتِه وأصحابِه!

العلمَ، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لّا قدرَ، وأنّ الأمر أُنُفٌ، قال: **«فإذا لقيتَ أولئكَ فأخبِرْهُم أنّي بريءٌ منهم، وأنهم بُرآءُ منّي، والذي يحلفُ به عبدُ الله بنُ عمر، لو أنّ لأحدِهم مثلَ أُحُدٍ ذهبًا فأنفقَه، ما قَبِلَ اللهُ منه حتىٰ يُؤمنَ بالقَدَر»**[1].

ومثلُهُ ابنُ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في خبرٍ نقله عنه العلماءُ[2].

---

(١) أخرجه مسلم في الجامع الصحيح (١/ ٢٨).

(٢) عن وهب بن منبه أن ابنَ عباسٍ طاف بالبيت حين أصبح أسبوعًا (يعني سبعةَ أشواط). قال وهب: وأنا وطاووس معه وعكرمة مولاه، وكان قد رقّ بصره فكان يتوكأ علىٰ العصا، فلما فرغ من طوافه انصرف إلىٰ الحَطِيم، فصلىٰ ركعتين، ثم نهض فنهضنا معه، فدفع عصاه إلىٰ عكرمة مولاه، وتوكأ عليّ وعلىٰ طاووس، ثم انطلق بنا إلىٰ غربي الكعبة بين باب بني سَهْم وباب بني جُمَح، فوقفنا علىٰ قومٍ بلغ ابنَ عباسٍ أنهم يخوضون في حديث القَدَر وغيره مما يختلف الناس فيه، فلما وقف عليهم سلّم عليهم فأجابوه فرحّبوا به وأوسعوا له، فكره أن يجلس إليهم، ثم قال: **«يا معشرَ المتكلّمين فيما لا يعنيهم ولا يَرِد عليهم، ألم تعلموا أنّ لله عَزَّ وَجَلَّ عبادًا قد أسكتتهم خشيتُه من غير عِيٍّ ولا بَكَم، وإنهم لَهُمُ الفصحاءُ النُّطَقَاءُ النبلاءُ الألبَّاءُ والعالمون بالله عَزَّ وَجَلَّ وبآياته، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ انقطعت ألسنتُهُم وكُسِرت قلوبُهُم وطاشت عقولُهُم؛ إعظامًا لله عَزَّ وَجَلَّ، وإعزازًا وإجلالًا، فإذا استفاقوا من ذلك استبَقَوا إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ بالأعمال الزكية، يَعدُّون أنفسهم مع الظالمين الخاطئين، وإنهم لأنزاهٌ أبرارٌ، أو مع المقصِّرين والمفرِّطين وإنهم لأكياسٌ أقوياءُ، ولكنهم لا يرضون لله عَزَّ وَجَلَّ بالقليل، ولا يستكثرون له الكثيرَ، ولا يُدِلُّون عليه بالأعمال، متىٰ ما لقيتهم فهم مهتمُّون مخوفون مروّعون خائفون مشفقون وجِلون، فأين أنتم منهم يا معشر المبتَدِعين؟! اعلموا أن أعلمَ الناس بالقدر أسكتُهُم عنه، وأن أجهلَ الناس بالقدر أنطقُهُم فيه»**. قال وهب: ثم انصرف عنهم وتركهم، فبلغ ابنَ عباس أنهم تفرّقوا عن مجلسهم ذلك، ثم لم يعودوا إليه حتىٰ هلك ابنُ عباس. أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٥٢٤)، والبيهقي في القضاء والقدر (ص/ ٢٩٤)، وابنُ عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٨١).

ولمّا ظهرتْ فتنةُ القول بـ (**خلقِ القرآنِ**) كان للعلماء موقفٌ معروفٌ منها... وهكذا.

❋❋❋

❋ – العنايةُ الفائقةُ باقتناء وقراءة كتب معاجم الفنون.

إذْ ما مِن علمٍ ولا فنٍّ إلّا وقد وَضَع فيه أصحابُه – غالبًا – مُعْجمًا يَجمعُ مُصطلحاتِه وموادَّه بشكل مُركَّزٍ مُكثَّفٍ.

وهذه المعاجمُ تسُدُّ مَسَدَّ سائر الكتب في الفنّ غالبًا، ولا يَسُدُّ غيرُها مَسَدَّها.

بلْ لوْ أنّ زاعمًا زَعَمَ أنها تكفي المطَالِعَ في الفنّ؛ لما أبعد النَّجْعَة! ولو أقسمَ علىٰ ذلك لما حنّثْتُه!

ومِن مزايا هذه المعاجم:

١ – أنها تَجمع جميعَ مصطلحاتِ وجُزئيَّاتِ الفنِّ غالبًا.

٢ – أنها تُبرزُ مسائلَ ومصطلحاتٍ كثيرةً تُوجد في غير مظانّها، ربّما لا يهتدي إليها المتخصِّصون في الفنّ!

٣ – أنَّ عبارتَها سهلةٌ واضحةٌ.

٤ – أنّ معلوماتِها مركّزَةٌ مُكَثَّفَةٌ، بل ربما لُخّصتْ في المادة الواحدة اليسيرة عشراتُ الصفحاتِ!

٥ – أنها تَذكُرُ التعريفاتِ والأقوالَ الراجحةَ في الفنّ نفسِه.

٦ – أنَّها مرتَّبةٌ – غالبًا – علىٰ الترتيب الألفبائي؛ ممّا يُسهِّلُ الوصولَ للمعلومة.

ومن هذه المعاجم:

- **معجم علوم القرآن:** لإبراهيم بن محمد الجَرْمي.
- **معجم مصطلحات علم القراءات القرآنية وما يتعلق به:** لعبد العلي المسئول.
- **معجم علوم الحديث النبوي:** لعبد الرحمن الخميسي.
- **معجم لغة الفقهاء:** لمحمد روّاس قلعه جي، وحامد صادق قنيبي.
- **القاموس الفقهي لغةً واصطلاحًا:** لسعدي أبو حبيب.
- **معجم مصطلحات أصول الفقه:** لقطب مصطفىٰ سانو.
- **مُعْجم القواعد العربية في النَّحو والتصريف:** لعبد الغني الدّقَر.
- **مُعْجم البلاغة العربية:** لبدوي طبَانة.
- **المُعْجم الأدبي:** لجَبُّور عبد النور.

وغيرُها.

***

*** - ينبغي لطالب العلم العناية بكتب الـمَعْلَمَات (الموسوعات)[1].**

وهي كتبٌ عظيمةُ النفع جدًّا، تتداخلُ فوائدُها مع فوائد كتب معاجم الفنون، وكلٌّ منهما يُكمِّلُ الآخَر.

وتنقسم هذه الموسوعاتُ إلىٰ قسمين:

١/ موسوعاتٌ متخصِّصةٌ في لونٍ معيّنٍ من العلوم والمعارف.

---

(١) تقدّم الكلامُ عن هذه التسمية.

ومن أهمّ هذه الموسوعات:

* «موسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة»: من إصدار الجمعيّة العلميّة السعوديّة لعلوم العقيدة، وتقع في ستة مجلّداتٍ فاخرةٍ.

وقد قام بإعدادها مجموعةٌ من الباحثين والمختصّين في العقيدة. ورُتّبتْ حسب الترتيب الألفبائي؛ تسهيلًا للوصول للمعلومة بأسرع وقت.

وهي أشملُ وأدقُّ موسوعةٍ ظهرتْ حتىٰ الآن في عقيدة أهل السنة والجماعة.

فجزىٰ الله القائمين علىٰ إعدادها ومراجعتها خيرَ الجزاء؛ فقد سدّتْ فراغًا كبيرًا في المكتبة الإسلامية ولله الحمدُ.

* «الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»: من إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

وهي موسوعةٌ نفيسةٌ، لخّص فيها القائمون عليها مئاتِ الكتب والمقالات، التي كُتبتْ عن الأديان والمذاهب والأحزاب القديمة منها والمعاصرة.

* «الموسوعة الفِقهيّة الميسّرة»: لمحمد روّاس قلعه جي. وتقع في مجلّدين كبيرين.

* «الموسوعة الفقهية الكويتية»: الصادرة عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت، وتقع في (٤٥) مجلّدة من الحجم الكبير!

وهو عملٌ ضخمٌ جبّار، انتفع به العلماءُ والباحثون كثيرًا، فجزىٰ اللهُ القائمين عليها خيرَ الجزاء.

* «موسوعة علوم الحديث وفنونه»: لسيّد عبد الماجد الغَوْري.

وهي موسوعة نافعةٌ دقيقةٌ تقع في ثلاثةِ مجلداتٍ كبارٍ.

* «نَضْرةُ النَّعِيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ»: إعدادُ مجموعةٍ من الباحثين.

وهي موسوعةٌ قيِّمةٌ تقع في (١٢) مجلّدًا من الحجم الكبير. حصل بسببها نفعٌ عظيمٌ؛ حيثُ حُشِدَ فيها نصوصٌ كثيرةٌ من الكتاب والسنة وأقوال العلماء وغير ذلك.

وقد ساهمتْ مساهمةً عظيمةً في مساعدة المحاضرين، والخطباء، والوُعّاظ في الإعداد والتحضير.

٢/ موسوعاتٌ عامةٌ في شتّىٰ المعارف.

وهي كثيرةٌ، ومِن أشهرِها:

- «الموسوعة العربية الميسّرة»: لمجموعةٍ من الباحثين.
- «دائرة معارف القرن العشرين»: لمحمد فريد وجدي.
- «الموسوعةُ العربيةُ العالمية»: وهي أشهرُها وأدقُّها وأكبرُها[١].

***

* - الاهتمامُ باقتناءِ الكُتُبِ الأُمَّاتِ[٢] ومصادرِ الفُنونِ الأصيلة.

---

(١) راجع تفصيل الكلام عن هذه الموسوعات الثلاث في كتابي: «المراشد السديدة للقراءة المفيدة».

(٢) فائدةٌ: الْأُمّ فِي كَلَام الْعَرَب أصلُ كلِّ شَيْءٍ. ومذهبُ بعضِ الُّلغويين أنها تُجمع إذا كانت لما لا يعقل أو من غير الآدميّات: أُمَّات بِغَيْر هَاء، وَأما بَنَاتُ آدم فهنّ أمَّهاتٌ، وَمِنْه قولُ الشَّاعِر: =

فلا ينبغي الاستكثارُ من الـمُلَخَّصَات والكُتيِّبات؛ فإنَّها قليلةُ الجدوىٰ، نَزْرَةُ الفائدة[(١)].

ذكر العُتْبيُّ كتابًا لبعض القدماء فقال: لولا طولُه وكثرةُ ورقه لنسختُه! فقال ابنُ الجهم: لكنِّي ما رغّبني فيه إلاّ الذي زهّدك فيه! وما قرأتُ قطُّ كتابًا كبيرًا فأخْلاني من فائدةٍ، وما أُحصِي كم قرأتُ من صِغارِ الكتب فخرجتُ منها كما دخلتُ![(٢)].

وقال ابنُ الجهم: «إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدْتُه ورجوتُ منه الفائدةَ ورأيتُ ذلك فيه، فلو تراني وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ أنظرُ كم بقيَ من ورقِهِ مخافَةَ استنفاده وانقطاعِ المادَّة من قَلْبِه، وإن كان المصحفُ (الكتاب) عظيمَ الحَجْم كثيرَ الورق كثيرَ العدد فقد تَمَّ عيشي وكَمُلَ سروري!»[(٣)].

اللهمّ إلّا إذا كانت الكُتيِّباتُ ذاتَ موضوعٍ طَريفٍ لم يُسبَقْ أنْ بُحِثَ،

=

لقـــد آليـــتُ أَغْـــدِرُ فِـــي جَـــداعِ وإنْ مُنِّيـــــتُ أُمّـــــاتِ الرِّبـــــاعِ

وقد جُمع بين اللغتين في قول القائل:

إذا الأُمَّهـــــاتُ قَـــــبَحْنَ الوُجُـــــوهَ فَرَجْـــــتَ الظَّـــــلامَ بأُمّاتِكـــــا

انظر: العين: للخليل (٨/ ٤٣٤)، وتهذيب اللغة: للأزهري (٦/ ٢٥١)، والصحاح: للجوهري (٥/ ١٨٦٣)، والقاموس المحيط: للفيروز آبادي (ص/ ١٠٧٦).

(١) كما أنّ الكُتيّبات وإنْ كانتْ زهيدةَ الثمن، فإنها سريعةُ التلَف، عُرْضةٌ للضياع، عَسِرةُ الترتيب في خِزانة الكتب (يَعرفُ ذلك أصحابُ الخزائن!).

(٢) الحيوان: للجاحظ (١/ ٥٣).

(٣) المصدر نفسه.

أو جَمَعتْ أشياءَ مُتفرِّقةً، أو اشتملتْ علىٰ مقصدٍ من مقاصد التأليف التي لا يُؤلِّفُ عاقلٌ إلا فيها[١] - فإنه يحسُنُ اقتناؤها حينئذٍ[٢].

***

* - **العنايةُ بقراءة الكتب التي تتناول موضوعَ العلم، وتبيّنُ معالمَه، وتشرحُ مناهجَه، وتذكُرُ طَرائِقَه وآدابَه.**

فإنها من أعظمِ المُحفِّزاتِ علىٰ القراءة والاطلاع.

ومِن تلك الكتب:

- «**الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع**»: للخطيب البغدادي.
- «**جامع بيان العلم وفضله**»: لابن عبدالبرّ القرطبي.

وهو العُمدةُ في هذا الباب.

---

(١) ذكرتُها بالتفصيل في الطبعة الثانية من كتابي «الإبداع العلمي» (ص/ ٢٩) نشر مكتبة دار المنهاج، فراجعْها ثَمّة.

(٢) **لطيفة**: جاء في ترجمة موفق الدين أسعد بن أبي الفتح المطران: «وبلغ من كثرة اعتنائه بالكتب وغوايته فيها أنه جامعٌ لكثيرٍ من الكتب الصغار والمقالات المتفرّقة في الطب.... واجتمع عنده من تلك الأجزاء الصغار مجلداتٌ كثيرةٌ جدًا، فكان أبدًا لا يُفارق في كُمِّه مجلدًا يطالعُه علىٰ باب دار السلطان أو أين توجّه. وبعد وفاته بِيعت جميعُ كتبه وذلك أنه ما خلّف ولدًا.

وحدثني الحكيمُ عمرانُ الإسرائيليُّ أنه لما حضر بيعَ كتب ابن المطران وجدهم وقد أخرجوا من هذه الأجزاء الصغار ألوفًا كثيرةً أكثرُها بخط ابن الجمالة.... فبلغت في المناداة ثلاثة آلاف درهم واشترىٰ الحكيمُ عمرانُ أكثرَها، وقال لي: إنه حصل الاتفاقُ مع الورثة في بيعها أنهم أطلقوا مع كل جزءٍ منها بدرهمٍ، فاشترىٰ الأطباءُ منهم هذه الأجزاء الصغار علىٰ الثمن بالعدد». عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٣/ ٢٩٣).

- «**تعليم المتعلّم طريق التعلّم**»: للزَّرْنُوجي.
- «**أدب الإملاء والاستملاء**»: للسمعاني.
- «**مفتاح دار السعادة**»: لابن القيّم.

وهو نفيسٌ للغاية.

- «**تذكرة السامع والمتكلّم، في أدب العالم والمتعلّم**»: لابن جماعة.

وهو كتابٌ مَدْرَسِيٌّ جامعٌ نافعٌ.

- «**مفتاح السعادة**»: لطَاشْ كُبري زادَه.
- «**أبجد العلوم**»: لصدّيق حسن خان.
- «**حِلْية طالبِ العلم**»: لبكر أبو زيد.

وغيرُها.

***

*** - يَنبغي اختيارُ الأوقاتِ المناسبةِ، والأماكنِ المُريحةِ لممارسةِ القراءةِ.**

وذلك كالأوقات التي تكون بعد النَّوم؛ فإنَّ الذِّهنَ يكون فيها مُتيقّظًا نَشِطًا. وكالأماكن ذات الهواء العليل والخُضْرة والماء[١].

---

(١) ذكر القلقشنديُّ في كتابه العُجاب: صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا (٢/ ٣٢٠ -٣٢١) أنّ ممّا يُعِينُ علىٰ الإجادة والاتقان خُلُوُّ الفِكْر عن المُشَوِّش، وأرجعَ ذلك إلىٰ أمرين: صفاء الزمان، وصفاء المكان.

أمّا صفاءُ الزمان، فقال عنه: «قال أبو تمام الطائيّ في وصيّته لأبي عُبادةَ البحتريّ مُرشدًا له للوقت المناسب لذلك: تخيّرْ الأوقاتَ وأنت قليلُ الهُموم، صِفرٌ من الغُمُوم، واعلمْ أنّ العادةَ في الأوقات إذا قَصَدَ الإنسانُ تأليفَ شيءٍ أو حِفظَه أن يختار وقتَ السَّحَر؛ فإن النفسَ =

ولذا فإنّ الإمام الذَّهبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما نزل كَفْر بَطْنا في غُوطَة دمشق - وهي منطقةٌ حسنةٌ بديعةٌ(١) - ألَّف أكبرَ مُؤلَّفاته، وأعظمَ مُصنَّفاته: «تاريخَ الإسلام»

=

تكون قد أخذتْ حظَّها من الراحة، وقِسْطَها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَلُ الغِذاء، وصفا الدّماغُ من أكثر الأبخرة والأدخِنة، وسكنتْ الغَماغِم، ورَقَّتْ النسائِم، وتغنّتْ الحمائِم.

وخالف ابنُ أبي الأصبع في اختيار وقت السَّحَر، وجَنَحَ إلىٰ اختيار وسَط الليل؛ أخْذًا من قول أبي تمّام في قصيدته البائية:

خُـذْها ابنـةَ الفِكْـرِ المهـذَّب في الـدُّجىٰ والليـلُ أسـودُ رُقعَـةِ الجِلبـابِ

مفسِّرًا للدُّجىٰ بوسَط الليل، محتجًّا لذلك بأنه حينئذٍ تكون النفسُ قد أخذتْ حظَّها من الراحة، ونالتْ قِسْطها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَلُ الغِذاء، فيكونُ الذِّهنُ حينئذٍ صحيحًا، والصدرُ مُنشرحًا، والبدنُ نشيطًا، والقلبُ ساكنًا. بخلاف وقت السَّحَر فإنه وإنْ كان فيه يَرِقُّ النسيمُ، وينهضمُ الغذاءُ، إلا أنه يكون قد انتبه فيه أكثرُ الحيوانات، الناطقُ وغيرُه، ويَرتفعُ معظمُ الأصوات، ويَجري الكثيرُ من الحرَكَات، ويَنقشعُ بعضُ الظّلماء بطلائع أوائل الضوء.

وربما انهضمَ عن بعض الناس الغذاءُ فتحرَّكتْ الشهوةُ لإخلاف ما انهضمَ منه وخرج من فَضَلاتِه، فكان ذلك داعيًا إلىٰ شُغْل الخاطر، وباعثًا علىٰ انصراف الهمِّ إلىٰ تدبير الحَدَث الحاضر، فيتقسَّمُ الفِكْرُ، ويتذبذبُ القلبُ، ويتفرَّقُ جميعُ الهَمِّ، بخلاف وسَط الليل؛ فإنه خالٍ من جميع ذلك».

ثم قال عن صفاء المكان: «وذلك بأن يكون المكانُ الذي هو فيه خاليًا من الأصوات، عاريًا عن المَخُوفاتِ والمَهُولاتِ والطوارقِ، وأن يكون مع ذلك مكانًا رائقًا مُعْجِبًا، رقيقَ الحواشي، فسيحَ الأرجاء، بَسيطَ الرِّحاب، غيرَ غَمٍّ ولا كَدِرٍ، فإنْ انضمَّ إلىٰ ذلك ما فيه بَسْطٌ للخاطر: من ماءٍ وخُضْرةٍ وأشجارٍ وأزهارٍ وطِيبِ رائحةٍ، كان أبسطَ للفِكْر وأنْجَحَ للخاطِر.

وقد ذهب بعضُهم إلىٰ أنه ينبغي خُلُوُّ المكان من النقوش الغَريبة، والمرائي المُعجِبة؛ فإنها وإنْ كانتْ مما ينشِّطُ الخاطرَ فإنّ فيها شُغْلًا للناظر فيتبعُه القلبُ فيتشتّت!».

(١) قال ياقوتُ الحمويُّ: «الغُوطَةُ كلُّها أشجارٌ وأنهارٌ متّصلةٌ، قَلَّ أن يكون بها مزارعُ للمستَغَلَّات، إلّا في مواضعَ يسيرةٍ. وهي بالإجماع أنْزَهُ بلادِ الله، وأحسنُها منظرًا. وهي إحدىٰ جِنان =

و«سِيَرَ أعلام النُّبلاء» وغيرَهما.

فالأماكنُ الجيِّدةُ تُعينُ علىٰ الفَهم والتَّركيز، وإنْ كان لا يُوصَىٰ بها في الحفظ؛ لأنّ الحفظَ ينبغي أن يكون في مكانٍ غيرِ مُلْهٍ.

***

* - الاهتمامُ بالدَّوريَّات والمجلّات العِلْميّة المحكَّمة.

وهي المجلّاتُ التي تَصدُرُ غالبًا عن الجامعات، والمجامع العلميّة، واللغويّة، والمراكز البحثيّة، ونحوِها.

حيثُ نُلاحِظُ عُزُوفًا من طلّاب العلم - لا سيّما المتقدِّمين منهم في التحصيل - عن الاستفادة من الدَّوريَّات والمجلّات العِلميّة المحكَّمة؛ مع أنَّ فيها كثيرًا من الدِّراساتِ الـمُمَيَّزة، والأبحاثِ المحرَّرة، والتحقيقاتِ الجيّدةِ لكثيرٍ من المخطوطاتِ النفيسة.

ولا يَنبغي أنْ نَغفلَ هنا أيضًا عن المجلّات الأدبية والثقافيّة الرصينة التي كانت تَصدُرُ في القرن الماضي؛ فإنّ فيها من نفائسِ المقالاتِ وغُرَرِ القصائدِ الشيءُ الكثيرُ.

= الأرض الأربع: وهي الصُّغْد، والأُبُلَّة، وشِعْب بَوّان، والغُوطَة، وهي أجلُّها». معجم البلدان (٤/ ٢١٩).

وخالفَ في ذلك ابنُ حَوْقَل، فقال عن الصُّغْد (ويُسمّىٰ السُّغْد أيضًا) إنه أنزهُ الأربعة؛ لأنه ممتدٌّ نحوَ ثمانية أيام، مُشتبِكُ الخُضرة والبساتين، لا ينقطع ذلك في موضعٍ منه، وقد حُفَّتْ تلك البساتينُ بالأنهار الدائمِ جَرْيُها، ومِن وراء الخُضْرة من الجانبين مزارعُ، ومِن وراء المزارع مراعي السوائِم! ثم قال: وهي أزكىٰ بلاد الله وأحسنُها أشجارًا. **انظر**: صورة الأرض: لابن حوقل (٢/ ٤٧٣)، ومسالك الأبصار: للعمري (٣/ ١٦٧)، وصبح الأعشىٰ: للقلقشندي (٤/ ٤٣٢).

وهي مجلّاتٌ كان يَكتبُ فيها كبارُ الكتّاب والأدباء والشعراء، فمَنْ رامَ تقويةَ أسلوبه، وتمتينَ بيانه، وزيادةَ معارفه وثقافته، فعليه بها.

ويقف علىٰ رأس تلك القائمة - من القسم الثاني -:

«**مجلّةُ الرسالة**» التي كان يُصدِرُها الأستاذُ أحمد حسن الزيّات رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

و«**مجلّةُ المنار**» التي كان يُصدِرُها الشيخُ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فهذه المجالُّ[1] تُلحَقُ بتلك؛ لِعِظَمِ نفعها، وكثرةِ فوائدها.

***

*** - الاهتمامُ بالأطاريح الجامعيَّة (رسائلِ الماجستير والدكتوراه) المتميّزة.**

سواءٌ المطبوعةُ منها، أو التي لم تُطبعْ بعدُ؛ لما فيها من العلم والتحقيق، والتحرير والتدقيق، لكثيرٍ من المسائل المهمّة، والقضايا المعاصرة.

وكُلَّما تسنّىٰ ليَ المرورُ علىٰ قسم الرسائل الجامعية في مكتبات الجامعات، أُصبتُ بالدَّهْشةِ، وتَمَلّكَني العَجَبُ، من تلك الموضوعات القيّمة التي كَتَب فيها أصحابُ تلك الرسائل، متسائلًا: كيف أنها لم ترَ النورَ بعدُ؟! وكيف غَفَلَ

---

(١) **المَجَالُّ**: جَمْع مَجَلَّة، وهي الصُّحُف. وفي الحَدِيث قال: «ما مَعَك؟ قال: مَجَلَّة لُقْمان». يَعنِي: كِتابًا فيه حِكْمة لُقْمان، **قال النابغة:**

مجَلَّتُهمْ ذَاتُ الإِلَهِ ودِينُهم ... قَوِيمٌ فما يرجون غَيْرَ العَواقِبِ

أي كِتابُهم وَحْيُ اللهِ تَعالَىٰ.

قال الجَبَّان: يقال: إنَّها مُعَرَّبة، أَصلها بالعِبْرانِيّة مُغْلَىٰ.

وقيلَ: هو من جَلّ؛ لجَلال الحِكْمَة. وهي مصدر كالمَذَلَّةِ، فَسُمِّيَ بها كما سُمِّي بالكِتابِ، أو بِمَعْنَىٰ الجَلال. المجموع المغيث في غريبيْ القرآن والحديث: للمديني (١/ ٣٤١).

عنها أصحابُ دور النشر حتىٰ الآن؟!

فإنْ شُغِلَ الطالبُ عن قراءة الرسالةِ بأكملها؛ فلا أقلّ من أنْ يقرأَ المقدِّمةَ، والخاتمةَ، والنتائجَ، والتوصياتِ.

***

* – القراءةُ أنواعٌ كثيرةٌ، لكنّ أهمَّها ثلاثةُ أنواع:

١ – قراءةُ بَحْثٍ وتَنْبِيشٍ: وهذه قراءةٌ متأنِّيةٌ، يجمعُ فيها القارئُ من بطون المصادر والمراجع ما يُفيدُه في بحثه، ثمّ يعودُ علىٰ ما جمعَه بالتأمُّل والتفكُّر والفَحْص والموازنة؛ لِيصطفي منه الأجودَ والأنسبَ.

وهذه الطريقةُ هي التي تُستخدَمُ عادةً في تأليف الكتب والرسائل.

٢– قراءةُ جَرْدٍ وتقْمِيشٍ: وهذه تكون قراءةً سريعةً تُلتَقَطُ فيها الشواردُ، واللطائفُ، والنظائرُ، والمسائلُ التي في غير مظانِّها من الكتب وغيرِها، وتقيَّدُ.

فيأخذُ المطالعُ كتابًا من الكتبِ الأمَّاتِ، كتفسير ابن جريرٍ مثلًا، أو «جامع الأصول» لابن الأثير، أو «سير أعلام النُّبلاء» للذهبي، أو «البداية والنِّهاية» لابن كثير، وما أشبهَهَا، ويقرؤه قراءةً سريعةً؛ ولا يتوقّفُ عند مباحثه وموادّه، بل يَمُرُّ عليها مرَّ السحاب، يقتنصُ منها الشَّوارِدَ الفَوارِد، ثم يقيّدُها بعدَ ذلك في بطاقاتٍ (كُرُوت)، ولا يفرِّطُ فيها، فقد يحتاجُ إلىٰ البطاقة ولو بعدَ عَشَرَاتِ السِّنين![1].

---

(١) قال ابنُ جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوصي طلّابَ العلم: «ولا يَستقلَّ بفائدةٍ يسمعُها، أو يتهاونُ بقاعدةٍ يضبطُها، بل يبادرُ إلىٰ تعليقها وحِفظها.

=

ولذا؛ فقد سُئل بعضُهم عن الكلام، فقال: «رِيحٌ لا يبقىٰ! قيل له: فما قَيْدُه؟ قال: الكتابةُ؛ لأنّ القَلَمَ ينوبُ عن اللسان، ولا ينوبُ اللسانُ عنه»[(١)].

وقال قتادةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القَلَمُ نعمةٌ من الله عظيمةٌ، لولا القَلَمُ لو يقمْ دِينٌ، ولم يَصلُحْ عَيشٌ»[(٢)].

=

ولتكنْ همتُه في طلب العلم عاليةً؛ فلا يكتفي بقليل العلم مع إمكان كثيرِه، ولا يقنعُ من إرث الأنبياء صلوات الله عليهم بيسيرِه.

ولا يؤخِّرُ تحصيلَ فائدةٍ تمكّن منها، أو يشغلُه الأملُ والتسويفُ عنها، فإنّ للتأخير آفات، ولأنه إذا حصَّلها في الزمن الحاضر، حصَّل في الزمن الثاني غيرَها». تذكرة السامع والمتكلم (ص/ ١٨٩). وانظر: الفنون الصغرىٰ: للظاهري (ص/ ١٨١).

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل: للخازن (٤/ ٤٤٨).

(٢) المصدر نفسه.

- وقال ابنُ القيّم: عن قول الحقّ جلّ وعزّ: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ «أقسم بالكتابِ وآلتِه، وهو (القلم) الذي هو إحدىٰ آياتِه، وأولُ مخلوقاتِه، الذي جرىٰ به قَدَرُه وشَرْعُه، وكُتبَ به الوحيُ، وقُيّد به الدينُ، وأُثبتتْ به الشريعةُ، وحُفِظتْ به العلومُ، وقامت به مصالحُ العباد، في المعاش والمعاد، فوُطِّدَتْ به الممالكُ، وأُمِّنتْ به السبلُ والمسالكُ، وأقام في الناس أبلغَ خطيبٍ وأفصحَه، وأنفعَه لهم وأنصحَه، وواعظًا تَشفي مواعظُه القلوبَ من السقَم، وطبيبًا يُبرئُ - بإذن بارئه - من أنواع الألم، يَكسِر العساكرَ العظيمةَ علىٰ أنه الضعيفُ الوحيدُ، ويَخاف سطوتَه وبأسَه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تُدبَّرُ الأقاليمُ، وتُساسُ الممالك.

والقلَمُ لسانُ الضمير، يُناجيه بما استترَ عن الأسماع، فيَنْسِجُ حُلَلَ المعاني في الطرفين فتعودُ أحسنَ من الوَشْي المرقوم، ويُودِعُها حِكَمَه فتصيرُ مواردُ الفُهوم والأقلام نظامًا للأفهام.

وكما أن اللسانَ بريدُ القلب فالقلمُ بريدُ اللسان، وتَولُّدُ الحروف المسموعة عن اللسان كتولُّدِ الحروف المكتوبة عن القلم. والقلمُ بريدُ القلب ورسولُه وترجمانُه ولسانُه الصامت». التبيان في أيمان القرآن (ص/ ٣٠٢ - ٣٠٣).

وانظر للمزيد: التعريف والإعلام بفضيلة الخطوط والأقلام: للحسن بن محمد الغسّال، =

=

طبع الرابطة المحمدية للعلماء، بالمملكة المغربية.

فائدة: يكادُ يقعُ الاتفاقُ بين الأدباءِ علىٰ أنّ أفضلَ ما قيل في القلم من الشعر؛ **قولُ أبي تمام في مدح محمد بن عبد الملك الزيّات**:

لَـك القلـمُ الأعلـىٰ الـذي بِشَـبَاتِهِ ... تُصـابُ مـن الأمـر الكُلَـىٰ والمفاصِـلُ

لـه الخلـواتُ الّـلاءِ لـولا نَجِيُّهـا ... لمـا احتفلـتْ للمُلْـكِ تلـكَ المحافِـلُ

لُعَـابُ الأفـاعي القـاتلاتِ لُعابُـه ... وأَرْيُ الجنَـىٰ اشْـتارتْهُ أيـدٍ عَواسِـلُ

لـه رِيقَـةٌ طَـلٌّ ولكـنّ وَقْعَهـا ... بآثـاره في الشـرق والغـرب وابِـلُ!

فصـيحٌ إذا اسـتنطقتَه وهْـو راكـبٌ ... وأعجـمُ إن خاطبتَـه وهْـو راجِـلُ

إذا مـا امتطىٰ الخَمْسَ اللِّطافَ وأفرغتْ ... عليـه شـعابُ الفِكـر وهـي حَوافِـلُ

أطاعتْـهُ أطـرافُ الرِّمـاحِ، وقُوِّضـتْ ... لنجـواه تقـويضَ الخيـامِ الجحَافِـلُ

إذا اسـتغْزَرَ الـذِّهْنَ الـذكيَّ وأقبلـتْ ... أعاليـهِ في القِرطـاسِ وهْـي سَـوافِلُ

وقـد رفدتْـه الخِنصـرانِ وسَـدَّدتْ ... ثـلاثَ نواحِيـهِ الـثلاثُ الأنامِـلُ

رأيـتَ جلـيلًا شـأنُهُ وهْـو مُرْهَـفٌ ... ضَـنىً، وسـمينًا خَطْبُـهُ وهْـو ناحِـلُ!

قال الآمديُّ: «ما وصفَ الناسُ القلمَ بأجودَ، ولا أبرعَ، ولا أصحَّ معانٍ وألطفَ من هذا الوصف». الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري (٣/ ٤٧).

وقال أبو الحسن البُنَّاهي المالَقي: «وللناس في القلم أمداحٌ ومقاماتٌ ما بين نظمٍ ونثرٍ، والمقدَّمُ قولُ أبي تمامٍ حبيبٍ في مخاطبته محمدَ بنَ عبد الملك». الإكليل في تفضيل النخيل (ص/ ٣٤٥).

وانظر: العقد الفريد: لابن عبدِ ربّه (٤/ ٢٧٤)، وكنز الكتّاب ومنتخب الآداب: للبونسي (١/ ١٨٢).

فإنْ شقَّ علىٰ القارئ كتابةُ تلك الشوارد في بطاقاتٍ؛ فليصنعْ للنظائر والمتشابهات فِهْرِسًا، يكتبه في دفترٍ خاصٍّ عنده، ويقيّد في كلِّ صفحةٍ عنوانًا جديدًا، فإذا ما وجد معلومةً تتّصل بذلك العنوان أشار إليها في تلك الصفحة، ذاكرًا: اسمَ الكتاب، ورقمَ الجزء والصفحة، والطبعةَ، وسيجتمِع له مع مرور الوقت آلافُ المسائِل، ونفائسُ الحصائِل، وأولُ الغيثِ قَطْرٌ ثمّ ينهمرُ!

ويا حبَّذا لو كان لكلّ فنٍ دفترٌ مُستقلٌّ، فالحديثُ له دفترٌ، والفقهُ له دفترٌ، والتأريخُ له دفترٌ... وهكذا.

وهذه هي طريقةُ العلّامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما حدّثني بذلك عن نفسه(١).

٣- قراءةُ تصفحٍ وتَفتيشٍ: وهذه تكون قراءةً عابرةً، الغرضُ منها فَتْشُ الكتب والدوريّاتِ والـمَجَلّات، وتصفُّحُ أوراقها؛ للوقوف علىٰ معالمها الرئيسة، بحيثُ يُطالِعُ فيها عناوينَ الأبواب والفصول والمباحث والمطالب، وينظرُ في مقدِّماتِها وفهارِسِها.

قال الشيخُ ابنُ عقيلٍ الظاهريّ: «قراءةُ التصفُّح هذه لن تَذهبَ سُدَىً؛ لأنه سيبقىٰ في ذهنك ملامحُ عامةٌ للمباحث التي قرأتَها، فترجِعُ إليها إذا احْتَجْتَها»(٢).

---

(١) وقد أشار إلىٰ ذلك أيضًا في كتابه النفيس حِلية طالب العلم (ص/ ١٧٥) - المطبوع ضمن المجموعة العلمية - حيثُ قال: «اجعلْ لك (كُنَاشًا) أو (مُذكّرةً) لتقييد الفوائد والفرائد والأبحاث المنثورة في غير مظانّها، وإن استعملتَ غلافَ الكتاب لتقييد ما فيه من ذلك، فحَسَنٌ، ثم تنقُل ما يجتمع لك بعدُ في مذكِّرة، مرتِّبًا له علىٰ الموضوعات، مقيِّدًا رأسَ المسألة، واسمَ الكتاب، ورقمَ الصفحة والمجلّد».

(٢) الفنون الصغرىٰ (ص/ ١٨١).

* - اِحرصْ علىٰ تسجيلِ الفوائدِ والشواردِ أوَّلًا بأوّل[١].

لأنّ (العلمَ صيدٌ، والكتابةَ قيدٌ)، كما قال سُحْنونُ بنُ سعيد المالكيّ[٢].

ولذا جاء في الحديث: «قَيِّدُوا العِلْمَ بالكِتَابَةِ»[٣].

وعن أبي كيران، قال: سمعتُ الشعبيَّ، يقول: «إذا سمعتَ شيئًا فاكتبْه ولو في الحائط!»[٤].

وقيل لابن المبارك: إلىٰ كمْ تكتبُ الحديثَ؟ قال: لعلَّ الكلمةَ التي أنتفعُ بها لم أسمعْها بعدُ![٥].

وقال الحسنُ بنُ منصور الجصّاص: قلتُ لأحمدَ بنِ حنبل: إلىٰ متىٰ يكتبُ الرجلُ الحديثَ؟ قال: حتىٰ يموتَ![٦].

وقال القاضي المعافىٰ بن زكريّا: «كنتُ منذ سنينَ كثيرةٍ دعوتُ اللهَ ﷻ وقلتُ: يا سابقَ الفَوْت، وقلتُ في وقتٍ آخَر: يا سابقَ كلِّ فَوْتٍ، وكان عندي أنه

---

(١) هذا العُنصُرُ يَشملُ جميعَ أنواع القراءة، لكنه أليقُ شيءٍ بقراءة: الجَرْد والتقْميش، فتفطّنْ لهذا هُدِيتَ الصوابَ.

(٢) انظر: الفواكه الدواني علىٰ رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١/ ١٥٤).

(٣) رُوي مرفوعًا وموقوفًا، وصحّ من حديث أنس بن مالك وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. انظر تخريجه والكلام عليه في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٥/ ٤٠) رقم (٢٠٢٦).

(٤) رواه زهير بن حرب في العلم (ص/ ٣٤)، والدولابي في الكنىٰ والأسماء (٣/ ٩٣٣) وأحمد في العلل ومعرفة الرجال - رواية ابنه عبد الله - (١/ ٢١٦)، والخطيب في تقييد العلم (ص/ ١٠٠).

(٥) شرف أصحاب الحديث: للخطيب البغدادي (ص/ ٦٨).

(٦) المصدر نفسه.

شيءٌ خَطَرَ لي ولم أكنْ ذاكرًا لهذه الرواية ولا عالمًا بها في الوقت، فاستحسنتُ هذه الدعوةَ ثم وجدتُها عندي فيما سمعتُه وكتبتُه ورويتُه. وحكىٰ لي بعضُ بني الفرات عن رجلٍ منهم، أو مِن غيرهم، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبلَ موته وتوفّي بعد ساعةٍ أو أقلّ منها، فذكرَ له هذا الدعاءَ عن جعفر بن محمد عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، فاستدعىٰ مِحبرةً وصحيفةً فكتبها، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لّا يدع اقتباسَ العلم حتىٰ يموت!»[١].

وقال بديعُ الزمان الهمذاني في كلامه عن العلم: «وَجَدْتُهُ شَيْئًا لا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْغَرْس، وَلَا يُغْرَسُ إِلَّا فِي النَّفْس. وَصَيْدًا لَا يَقَعُ إِلَّا فِي النَّدْر، وَلا يَنْشَبُ إِلَّا فِي الصَّدْر»[٢].

وكان عبدُ الله بنُ الْمُبَارك يُنشدُ:

أَيهَـــا الطَّالِـــبُ عِلْمًـــا ... اِئْـــتِ حَمَّـــادَ بـــنَ زيـــدِ
فَخُـــذِ الْعِلـــمَ بحِلْـــمٍ ... ثـــمَّ قَيِّـــدْهُ بِقَيْـــدِ
وَدَعِ الْبِدْعَـــةَ مِـــنْ آثَـــا ... رِ عَمْـــرِو بْـــنِ عُبَيْـــدِ[٣]

ومما يُنسَبُ للإمام الشافعي:

العِلـــمُ صَـــيدٌ والكِتابـــةُ قَيـــدُهُ ... قَيِّـــدْ صُـــيودَكَ بالحِبـــالِ الواثِقَـــةْ

(١) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (٣/ ٢٢٢).
(٢) مقامات بديع الزمان الهمذاني (المقامة العلميّة) (ص/ ٢٤٢).
(٣) الأبيات في التاريخ الكبير: للبخاري (٣/ ٢٥)، والكامل: لابن عديّ (٦/ ١٧٨)، وذمّ الكلام وأهله: للهروي (٤/ ٢٢٠).

فَمِـنَ الحَماقَـةِ أَنْ تَصـيدَ غَزالَـةً وتَفكَّهـا[١] بَـينَ الخَلائـقِ طالِقـةْ!

ولم أرَ فيما قرأتُ؛ ممّا يَحُثُّ علىٰ انتهازِ الفُرَص، واقتناصِ القُنَص، وعدم التعجُّل، أوْفقَ من هذين البيتين[٢]:

اليـومَ شـيءٌ وغـدًا مِثلُـهُ مِـنْ نُخَـبِ العِلـمِ التـي تُلْـتَقَطْ
يُحصِّـل المـرءُ بهـا حِكمـةً وإنمـا السـيلُ اجتمـاعُ الـنُّقَطْ!

***

* – بادرْ إلىٰ تسجيلِ الخواطر والأفكار التي تمرُّ بذهنك مباشَرةً؛ فإنها سُرْعانَ ما تَتلاشَىٰ وتُنسَىٰ!

وفي هذا يقولُ الإمامُ ابنُ الجوزي في مقدمة كتابه الماتع «صيد الخاطر»: «لما كانت الخواطرُ تجولُ في تصفّح أشياء تَعرِضُ لها، ثم تُعرِضُ عنها فتذهب، كان من أولىٰ الأمور حفظُ ما يخطر؛ لكي لا يُنسىٰ. وقد قال عَلَيهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «قيّدو العلمَ بالكتابة».

---

(١) وردتْ هذه الكلمةُ في معظم المصادر: «وتتركها». وفيها خللٌ من حيثُ الوزنُ العروضيّ. والصوابُ: «وتفكُّها» كما في حاشية إعانة الطالبين: للبكري (٤/ ٥).

(٢) البيتان في إرشاد الطالبين: للأقفهسي (٢/ ٧٦٩)، والعقد الثمين: للفاسي (٢/ ٢٠٦)، وبغية الوعاة: للسيوطي (١/ ١٤).
وهما لبهاء الدّين محمد بن إبراهيم ابْن النّحاس الْحلَبِي النَّحْوِيّ (ت ٦٩٨ هـ) شيخ الديار المصرية في علم اللِّسَان.
ومن غرائبِه: أنه لم يتزَوَّج! وَلم يَأْكُل الْعِنَب قطّ، قال: لِأَنّي أحبُّه؛ فآثرتُ أَن يكون نَصِيبي فِي الْجنَّة!

وكمْ قد خطر لي شيءٌ، فأتشاغلُ عن إثباته، فيذهب، فأتأسفُ عليه! ورأيتُ من نفسي أنني كلما فتحتُ بَصَرَ التفكّر، سَنَحَ له من عجائب الغيب ما لم يكن في حسابٍ، فانثال عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريطُ فيه، فجعلتُ هذا الكتابَ قيدًا لصيد الخاطر»[١].

وقال العلّامةُ ابنُ عُثيْمين: «هناك فوائدُ لا تكاد تَطرأُ علىٰ الذِّهن، أو يَندُرُ ذِكْرُها والتعَرُّضُ لها، أو تكون مُستَجَدَّةً تحتاج إلىٰ بيان الحكم فيها، فهذه اِقتنصْها، وقيِّدْها بالكتابة، ولا تَقلْ هذه معلومةٌ عندي، ولا حاجة أن أقيّدها، لأنها سُرعانَ ما تُنسىٰ، وكم من فائدةٍ تمرّ بالإنسان فيقول هذه سهلةٌ ما تحتاج إلىٰ قيدٍ، ثم بعد فترةٍ وجيزةٍ يتذكّرُها ولا يجدُها. لذلك احرصْ علىٰ اقتناص الفوائد التي يَندُرُ وُقوعُها أو يَتجدّدُ وُقوعُها»[٢].

وقال الأديبُ الكبيرُ علي الطنطاوي في تقديمه لكتاب «صيد الخاطر»: «إنّ الخواطرَ لا تَفْتأُ تمرُّ علىٰ الذهن كأنها الطُّيُورُ التي تَجوزُ سماءَ الحقْل، تراها لحظةً ثم تَفتقِدُها، فكأنّكَ ما رأيتَها، فإذا أنتَ اصْطدتَها وقيّدتَها ملكتَها أبدًا!».

ولقد أحسنَ القائلُ:

قَيِّدْ بِخَطّكَ ما أبداهُ فِكرُكَ مِنْ ... نتائجٍ تُعجِبُ الحُذَّاقَ والفُضَلَا
فما نتائجُ فِكْرِ المرءِ بارزةٌ ... في كلِّ وقتٍ إذا ما شاءَها فَعَلَا[٣]

---

(١) صيد الخاطر (ص/ ٣٥).
(٢) مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين (٢٦/ ٢١٠).
(٣) حاشية إعانة الطالبين: للبكري (٤/ ٦).

* - لِقَيْدِ الصَّيْدِ وتسجيلِ الفوائدِ طُرُقٌ عِدّةٌ، منها:

١ - أنْ يُسجِّلَ القارئُ في فهرسٍ مُستقِلٍّ المسائلَ الشواردَ التي مرَّت به.

فإمّا أن يسجّل المسألةَ كاملةً بنصِّها؛ وقد تيسّر الأمرُ الآن بعد وجود (المكتبةِ الشَّامِلَةِ)[1] ومحرِّكاتِ البحث، والبرامجِ الكاتوبيّة، فيستطيعُ القارئُ أن يصلَ للمعلومة بسرعةٍ، ثم يَنسخَها، ويُلصِقَها عنده في ملفّات (وُوُرْد) يُعِدُّها لذلك.

وإمّا أن يسجِّلَ عنوانَها فقط، وقد تقدّم الكلامُ عن ذلك آنفًا.

(١) كان وجودُ برنامج (المكتبة الشَّامِلة) فَتْحًا عظيمًا علىٰ الباحثين والمؤلِّفين؛ حيثُ ساعدهم ذلك كثيرًا علىٰ إنجاز أبحاثهم ومؤلَّفاتهم، ولذا قلتُ فيها:

مِـنْ نِعَـمِ الـمُقتدِرِ المَـاثِلَهْ:	مَوسُـوعةُ (المكتبـةِ الشَّـامِلَهْ)
فيهـا أُلـوفُ الكُتْـب قـد يُسِّـرتْ	لكـلِّ مَـن يَطلُبُهـا حَاصِـلَهْ
إذا انْبَـرتْ للبحْـثِ عـن كِلْمـةٍ	تخالُهـا فَاهِمـةً عَاقِلَـهْ!
تأتيـكَ بـالمطلوب في لحظـةٍ	نتائجًـا وافـرةً هائِلَـهْ!
بـل زادتْ الرَّوعـةُ إذْ أصـبحتْ	مربوطـةً بـ(الصـورة) الكامِلَـهْ!
قـد قرَّبـت للبـاحثين المـدىٰ	فأصـبحتْ أبحـاثُهم حافِلَـهْ
خاضـوا غِمـار البحـثِ في ظلّهـا	فـاغْتنمَ الفُرْسـانُ والرَّاجِلَـهْ!
مَوسُـوعةٌ صـارتْ لأهـل الحِجَـا	فريضـةً، ليسـتْ لهـم نافِلَـهْ!
فجَمِّلُـوا يـا قَـومُ أبحـاثَكُمْ	بالبحـثِ في (المكتبـةِ الشَّـامِلَهْ)

٢- وهناك فَهْرَسةٌ يُسجّلها علىٰ الغِلافِ الداخليِّ للكتاب، سواءٌ أكان في أول الكتاب أم في آخره، ثم يعود إليها بعد ذلك، وهذه الطريقةُ هي الأكثرُ رَوَاجًا بين جمهرة القُرّاء والباحثين؛ لأنها الأسرعُ، ولأنها الأسهلُ في الرجوع إلىٰ فوائد الكتاب مجموعةً في مكانٍ واحدٍ.

وكان شيخُنا العلّامةُ حمّادٌ الأنصاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «مِن عادتي إذا قرأتُ كتابًا من الكتب أنْ أُفرِدَ ما فيه من الفوائد التي لا يَنتبه إليها كلُّ أحدٍ... ومن عادتي إذا قرأتُ كتابًا أنْ أُقيِّدَ فوائدَه علىٰ جِلْدة الكتاب»[١].

وقد رأيتُ ذلك علىٰ أغلفة كتبِ البحّاثة الشيخ/ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢].

لكنّ الإشكالَ في هذه الطريقة أنها غيرُ مصنَّفةٍ بحسب الموضوعات، ولذا يَحتاج مَن يريدُ التأليفَ في موضوعٍ مّا؛ أن يطوف علىٰ جميع كتبه؛ ليلتقطَ منها ما يتعلّقُ بموضوعه ذاك! وهذا فيه من الصعوبة ما فيه!

اللهمّ إلا أن يَنقلَ ما في الكتاب من الفوائد ويصنِّفَها بعد الانتهاء من قراءَةِ الكتابِ مباشرةً.

***

* - ينبغي للقارئِ عدمُ التَّسليم بكلِّ ما يَقرأُ، مَهْما بلغَ شَأْوُ المؤلِّف!

لأنَّ المؤلِّفَ - مهْما بلغَ من العِلْم - ليس معصومًا من الخطأ والخَطَل، والغفْلة والزَّلَل! فكلُّ بني آدم خطَّاءٌ، والكمالُ لله وحدَه[٣].

---

(١) المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (١/ ٤٣٧).

(٢) كان ذلك إبَّانَ زيارتي قَديمًا لفرْع مكتبتِه التي كانت بالمدينة المنوّرة.

(٣) قال الحافظُ الناجِي: «رُويَ عن إمام القرّاء أبي بكر بن مجاهد - وهو مذكورٌ في «طبقات =

ولذا تجدُ كبارَ المؤلِّفين دائِمي التصحيح والتصويب لِمَا وَضَعُوه في كتبهم ومؤلَّفاتهم من آراءَ واجتهاداتٍ.

قال مَعْمَرُ بنُ راشدٍ: «لو عُورِضَ الكتابُ مائةَ مرةٍ ما كادَ يَسلَمُ من أنْ يكونَ فيه سَقْطٌ، أو قال: خَطَأٌ»[(١)].

وقال المزنيُّ: «قرأتُ كتابَ «الرسالة» علىٰ الشافعيِّ ثمانينَ مرةً، فما مِن مَرَّةٍ إلّا وكان يقفُ علىٰ خطأٍ!! فقال الشافعيُّ: هِيهْ، أبىٰ اللهُ أن يكونَ كتابٌ صحيحًا غيرُ كتابه»[(٢)].

وقال أيضًا: «لو عُورِضَ كتابٌ سبعينَ مرةً، لوُجِدَ فيه خطأٌ، أبىٰ اللهُ أنْ يكونَ كتابٌ صحيحًا غيرُ كتابه»[(٣)].

=

أصحابنا الشافعية» - أنه رأىٰ في المنام ربَّ العِزَّة جَلَّجَلَالُهُ فختَمَ عليه خَتْمتينِ، فلَحَنَ في موضعيْن، فاغتمَّ، فقال سبحانه: **يا ابنَ مجاهد، الكمالُ لي، الكمالُ لي**». عجالة الإملاء (١/ ١٤٢).

(١) جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر (١/ ١٥٨).

(٢) كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي: لعلاء الدين البخاري (١/ ٩). **وانظر** مناقب الشافعي: للبيهقي (٢/ ٣٦).

- وفي تفسير الإمام الشافعي (٢/ ٦٣١) عن ابن أبي حاتم قال: سمعت الربيعَ بنَ سليمان يقول: «قرأتُ كتابَ (الرسالة المصريّة) علىٰ الشافعي نيِّفًا وثلاثين مرةً، فما مِن مرةٍ إلا كان يُصحِّحُه، ثم قال الشافعيُّ في آخِره: أبىٰ اللهُ أن يكون كتابٌ صحيحٌ غيرَ كتابه، ويدلُّ علىٰ ذلك قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ الآية.

- وفي عُجالة الإملاء: للناجي (١/ ١٤١): «ورُوي عنه أيضًا: «كلُّ كتابٍ لا يخلو من اختلافٍ؛ للآية المذكورة». هذا كلامُ الشافعي وناهِيكَ به!».

(٣) مُوضِح أوهام الجمع والتفريق: للخطيب البغدادي (١/ ٦).

وقال عبدُ الله بنُ أحمد بن حنبل: عارضتُ بكتابٍ لأبي ثلاثَ عشرةَ مرةً، فلما كان في الرابعة خرج فيه خطأٌ! فوضعه من يده ثم قال: «قد أنكرتُ أنْ يَصِحَّ غيرُ كتابِ اللهِ ﷻ»(١).

وكتب أستاذُ البلغاءِ القاضي الفاضلُ عبدُ الرحيم البيسانيُّ إلىٰ العمادِ الأصفهانيِّ معتذِرًا عن كلامٍ استدركَه عليه: «إنه قد وقع لي شيءٌ وما أدري أَوَقَعَ لك أم لا؟ وها أنا أُخبرُك به، وذلك أني رأيتُ أنه لا يَكتبُ إنسانٌ كتابًا في يومه إلّا قال في غَدِه: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيْدَ هذا لكان يُستَحْسَن. ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليلٌ علىٰ استيلاء النقْص علىٰ جملة البشر!»(٢).

وقد قيل: «لا يَبعُدُ ذو كمالٍ من نقصٍ، ولا يخلو ذو نقصٍ من كمالٍ، فلا يَمنعْكَ نقصُ الكمال من استفادة كلامِه، ولا يُوعِبْكَ كمالُ النقصِ في الميل إلىٰ نقصِه»(٣).

فإنْ شكَّ القارئُ في شيءٍ؛ عَرَضَه علىٰ كلام الأئمّة الآخَرِين، أو سألَ عنه العلماءَ، حتىٰ يَتجلَّىٰ له وجهُ الصوابِ، ويَتحصَّلَ له بَرْدُ اليقين.

***

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) انظر المقولة في: الإعلام بأعلام البلد الحرام: للنهروالي (ص/ ٤٥٦)، وكشف الظنون: لحاجي خليفة (١/ ١٤)، وإتحاف السادة المتقين: للزبيدي (١/ ٤)، وتحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العِظام: للصبّاغ المكي (١/ ٥٦)، والحِطّة في ذكر الصحاح الستة (ص/ ٣٢)، وأبجد العلوم: لصدّيق حسن خان (ص/ ٥٢).

(٣) تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام (١/ ٥٦).

* - لا يَنبغي تركُ الاستفادةِ من الكتابِ بالكلّيّةِ؛ لِوقوعِ مؤلِّفه في بعضِ الأخطاءِ!

بل عليه أنْ يستفيدَ من الكتاب، ويأخذَ ما فيه من صوابٍ، ويدعَ ما فيه من خطأٍ؛ فالكمالُ عزيزٌ، والكامِلُ مَنْ عُدّت سَقَطَاتُه، والفاضِلُ مَنْ أُحصِيتْ هَفَوَاتُه[1].

وهذه قاعدةٌ نفيسةٌ زَلَّ بسبب عدم فهمها فئامٌ من الناس، ففاتهم خيرٌ كثيرٌ!

قال الحافظُ الذهبي: «الكمالُ عزيزٌ، وإنما يُمدحُ العالِمُ بكثرة مالَه من الفضائل، فلا تُدفنُ المحاسنُ لورطةٍ! ولعلّه رجع عنها»[2].

وقال أيضًا: «أرِني إمامًا من الكِبار سَلِمَ من الخطأ والوهم.

فهذا شعبةُ، وهو في الذِّروة، له أوهامٌ، وكذلك معمرٌ، والأوزاعيُّ،

---

(١) هذه القاعدة تكاد تكونُ موضعَ اتفاقٍ بين جماهير العلماء عبرَ العُصور.
وممّن استشهد بهذا الأصل من العلماء: أبو هلال العسكريُّ في «شرح ما يقع فيه التصحيف» (ص/ ٦)، والرازيُّ في «مناقب الشافعي» (ص/ ١٥٨)، والثعالبيُّ في «يتيمة الدهر» (١/ ١١١) و (٤/ ٢٥٤)، وابنُ الشجريّ في «الأمالي» (٣/ ٢٦٧)، وابنُ الأنباريّ في «نزهة الألباء» (ص/ ٢٠٣)، وابنُ الأثير في «اللباب» (١/ ٩)، وابنُ القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٥٢٢)، والسمينُ الحلبيُّ في «الدرّ المصون» (١٠/ ٣٩٣)، والشاطبيُّ في «الموافقات» (١/ ١٣)، وبرهانُ الدين الناجي في «عجالة الإملاء» (١/ ١٣٩)، وغيرُهم.
ولعلّ أولَ من قال: «الكاملُ مَنْ عُدّت سَقَطَاتُه» الأحنفُ بنُ قيسٍ، كما في مُوضِح أوهام الجمع والتفريق: للخطيب (١/ ١٣)، وأخبار النحويين البصريين: للسيرافي (ص/ ٦١)، ونثر الدرّ: للرازي (٥/ ٣٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٨٥).

ومالكٌ - رحمة الله عليهم -»[(١)].

وقال عن الإمام ابن خزيمة: «ولابن خزيمة عظمةٌ في النفوس، وجلالةٌ في القلوب؛ لعلمه ودينه واتباعه السنة.

وكتابُه في (التوحيد) مجلدٌ كبيرٌ، وقد تأوَّل في ذلك حديثَ الصورة [(٢)].

فليُعذَرْ من تأوَّل بعضَ الصفات، وأما السلفُ، فما خاضوا في التأويل،

---

(١) المصدر نفسه (٦/ ٣٦).

(٢) **حديث الصورة:** أخرجه البخاري في «صحيحه» ١١/ ٢ في أول الاستئذان، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة: باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، وأحمد: ٢/ ٣١٥، وابن خزيمة في «التوحيد» ٤٠ ٣٩ من طريق معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**خلق اللهُ آدمَ علىٰ صورته، طولُه ستون ذراعًا، فلما خلقه، قال: اذهب، فسلِّم علىٰ أولئك، نفرٍ من الملائكة جلوسٍ فاستمعْ ما يحيّونك، فإنها تحيتُك وتحيةُ ذريتك، فقال: السلامُ عليكم. فقالوا: السلامُ عليك ورحمةُ الله.**

فزاده: ورحمةُ الله، فكلُّ من يدخل الجنة علىٰ صورة آدم، فلم يزلْ الخلقُ ينقص بعدُ حتىٰ الآن».

وأخرجه مسلم (٢٦١٢) (١١٥) وأحمد: ٢/ ٤٦٣ و٥١٩، وابن خزيمة ص ٣٧ من طريق قتادة، عن أبي أيوب المراغي، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قاتلَ أحدُكم أخاه فليجتنبْ الوجهَ، فإنّ اللهَ خلق آدمَ علىٰ صورتِه**». (من حاشية محقِّقي سير أعلام النبلاء - ط الرسالة - (١٤/ ٣٧٤).

- **قال الحافظ أبو موسىٰ المدينيُّ** في (مناقب الإمام إسماعيل بن محمد التيمي الملقب: بقِوامِ السنة): «سمعتُه يقول: «أخطأ محمد بن إسحاق بن خزيمة في حديث الصورة، ولا نطعن عليه بذلك، بل لا يُؤخذُ عنه هذا فحسبُ».

قال أبو موسىٰ: أشار بهذا إلىٰ أنه قَلَّ إمامٌ إلا وله زلَّةٌ، فإذا تُرِكَ لأجل زلَّته، تُرِكَ كثيرٌ من الأئمة، وهذا لا ينبغي أن يُفعل». **انظر**: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٨٨)، وجواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية: لابن تيمية (ص/ ١٦٨).

بل آمنوا وكَفُّوا، وفوَّضوا علمَ ذلك إلىٰ الله ورسوله[١]، ولو أنَّ كلَّ مَنْ أخطأ في اجتهاده - مع صحة إيمانه، وتوخِّيه لاتباع الحق - أهدرناه، وبدَّعناه، لقلَّ مَنْ يَسلَمُ من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه»[٢].

وقال الإمامُ ابنُ دقيق العيد: «الحكيمُ مَن يُقِرُّ الْأُمُورَ في نصابها، ويُعْطِي كلَّ طبقَةٍ مَالا يَلِيق إلَّا بها.

وأمَّا السَّهْوُ والغَلَطُ فما أمكن تَأْوِيلُه علىٰ شَيْءٍ يُتَأَوَّلْ، وَمَا وُجِدَ سبِيلٌ واضحٌ إلىٰ تَوْجِيهِه حُمِلَ علىٰ أحسن مَحْمَلْ....

ولكنْ لا نجْعَلُ ذلك ذَرِيعَةً إلىٰ تَرْك الصّواب الجَمّ، ولا نَستحلُّ أَن نُقِيم فِي حقِّ المُصَنِّف شيئًا إلىٰ ارْتِكَاب مركب الذَّمّ. والذنْبُ الواحدُ لا يُهجَرُ له الحبيب، وَالرّوضةُ الحسناءُ لَا تُتْرك لموْضِعِ قبرٍ جَدِيب. والحسناتُ يُذْهِبْنَ السّيّئات، وتركُ المصالح الراجحة للمفاسد المرجوحة من أعظم المبَاآت. والكلامُ يَحمِلُ بعضُه بَعْضًا، ومَن أسخطه تَقْصِيرٌ يسيرٌ فسيقفُ علىٰ إِحْسَانٍ كَبِيرٍ فيرضَىٰ.

ولو ذهبْنا نَترِكُ كلَّ كتابٍ وقع فيه غَلَط، أَو فَرَطَ مِن مُصَنِّفه سَهْوٌ أَو سَقَط. لضاق علينا المجال، وقَصُرَ السِّجال، وجَحَدْنا فضائِلَ الرِّجَال. وفاتنا فوائدُ تُكاثِرُ عَدِيدَ الحَصَا، وفَقَدْنا عوائدَ هِيَ أجدىٰ علينا من تفاريق الْعَصَا.

---

(١) يعني فوّضوا العلمَ بالكيفيّة وليس العلمَ بالمعنىٰ، فالمعنىٰ معلومٌ والكيفُ مجهولٌ كما هو مذهبُ السلف الصالح.

(٢) المصدر نفسه (١٤/ ٣٧٤ - ٣٧٦).

ولقد نفع اللهُ الأمّةَ بكتبٍ طارتْ كلَّ المطار، وجازَتْ أجْوازَ الفَلَوَاتِ وأثْباجَ الْبحار. وما فيها إلّا ما وقع فيه عَيْب، وعُرِف منه غَلَطٌ بغير شكٍّ ولا رَيْب. ولم يَجعلْه النَّاسُ سببًا لرفضِها وهجرِها، ولا توقَّفوا عن الاستضاءة بأنوار الهدايةِ من أُفُقِ فَجْرِها»[١].

وقال الحافظُ ابنُ حجر: «ولو كان مَنْ يَهِمُ من المصنِّفين يُتركُ لَـمَا سَلِمَ أحدٌ»[٢].

وقال الشيخُ بكرُ أبو زيد: «الآراءُ المغلوطةُ لم تكن سببًا في الحرمان من علوم هؤلاء الأجلَّة، بل ما زالتْ مناراتٍ يُهتدَىٰ بها في أيدي أهل الإسلام، وما زال العلماءُ علىٰ هذا الـمَشْرع يُنبِّهون علىٰ خطأِ الأئمة مع الاستفادة من علمهم وفضلهم، ولو سلكوا مسلكَ الهَجْر لهُدِّمت أصولٌ وأركان، ولتقلَّصَ ظِلُّ العلم في الإسلام، وأصبح الاختلالُ واضحًا للعيان، والله المستعان»[٣].

ولعلَّ من أظهرِ الأمثلة علىٰ ذلك **كتابَ «المحلّىٰ»** لابن حزمٍ الظاهريّ.

فقد قال عنه الحافظ الذهبيُّ: «بَسَطَ لسانَه وقلمَه، ولم يتأدّبْ مع الأئمة في الخطاب، بل فَجَّجَ العبارةَ، وسَبَّ وجَدَّعَ، فكان جزاؤُه من جِنْس فعلِه، بحيثُ إنه أعرض عن تصانيفه جماعةٌ من الأئمة، وهجروها، ونفروا منها، وأُحرقتْ في وقتٍ، واعتنىٰ بها آخرون من العلماء، وفتَّشوها انتقادًا واستفادةً، وأخذًا

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ: للسبكي (٩/ ٢٣٥ - ٢٣٦).

(٢) لسان الميزان (١/ ٤٠١).

(٣) تصنيف الناس بين الظنّ واليقين (ص/ ٩١).

ومؤاخذةً، ورأوا فيها الدُّرَّ الثمينَ، ممزوجًا في الرَّصْف بالخَرَز المهين! فتارةً يطربون، ومرةً يعجبون، ومِن تفرُّده يهزؤون!

وفي الجملة فالكمالُ عزيزٌ، وكلُّ أحدٍ يُؤخذُ من قوله ويُتركُ، إلّا رسولَ الله ﷺ».. فلا نغلُو فيه، ولا نجفُو عنه، وقد أثنىٰ عليه قبلنا الكبارُ»[1].

ومثلُه: «مقدّمةُ ابنِ خَلدون» ففيها طائفةٌ من الأغلاط، وكذا كثيرٌ من كتب التفسير، وكتب شروح الأحاديث، وكتب الفقه وأصوله، وكتب اللغة والأدب.

وهذا الأصل - بطبيعةِ الحال - مخصوصٌ بكتب أهل السنة وما نَحَا نَحْوها، أمّا المبتدعةُ والضُّلّالُ ومَنْ شاكلَهم، فلا ينبغي الالتفاتُ لشيءٍ من كتبهم، ففي غيرها العافيةُ والغَنَاءُ!

❊❊❊

❊ - لمعرفةِ مراحلِ تَطوّرِ العلومِ، ونشأتِها، وأبرزِ المؤلَّفاتِ فيها، والتعريفِ بتلك المؤلَّفاتِ، يُرجَعُ إلىٰ الدِّراسات الوَصْفيَّة، وهي الكتبُ التي تُعْنَىٰ بوصْفِ العلومِ، ومراحلِ نشأتِها، وتاريخِها، وتاريخِ أعلامِها.

والتأليفُ في هذا اللَّون من الدراسات من أصعب الأمور؛ لأنَّ التأليفَ فيه يحتاج إلىٰ استقراءٍ تامٍّ للمُصنَّفات في ذلك العلم، ومعرفةٍ دقيقةٍ بروّاده وأعلامه، مع الإلمامِ بقضايا ومسائلِ ذلك العلم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٦ - ١٨٧).

ومِن المؤلَّفات في هذا اللّون:

* **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**: لمحمد بن الحسن الحجْوي الثعالبي (ت ١٣٧٦ هـ).

* **بحوثٌ في تاريخ السُّنة المُشرَّفة**: لأستاذنا الدكتور/ أكرم ضياء العُمَري - حفظه اللهُ تعالىٰ -.

* **البلاغةُ تطورٌ وتاريخٌ**: للدكتور/ شوقي ضيف.

* **نشأةُ النحو وتاريخُ أشهرِ النحاة**: للشيخ محمد الطنطاوي.

وما شابهها.

فهذه الكُتُب التي تُعْنَىٰ بالدِّراسة الوصفيَّة للعلم في غاية الأهميَّة، خصوصًا إذا ما أراد الطالبُ أنْ يقرأَ في علمٍ مّا؛ فإنه من المهمّ أن يقرأَ معه كتابًا في نشأة ذلك العلم؛ حتىٰ يجمع بين تاريخِ العلم وتطوّرِه، وبين مسائلِه ومباحثِه.

***

* **- لمعرفةِ حجمِ وقوّةِ الحركةِ العلميَّةِ في فترةٍ زمنيّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ يُرجَعُ للكتب المرتَّبة علىٰ الطبقات[1]، أو السنين.**

---

(١) **الطبقاتُ**: جمعُ طبقة، والطبقة في الاصطلاح: جماعةٌ اشتركوا في السنّ والإسناد (لقاء المشايخ).

وربما اكتفوا بالاشتراك في التلاقي أو المعاصرة.

وهذا الاصطلاحُ ليس خاصًّا بالمحدِّثين فقط، بل يشمل جميعَ العلماء المختصِّين بفنٍّ معيَّنٍ: كالقرّاء، والفقهاء، والنحاة، واللغويين، والأطبّاء.... وغيرهم.

=

لأنَّ هذه الكتب تُيسِّر السبيلَ للوصول إلىٰ المطلوب؛ حيثُ يَعْمَدُ الباحثُ إلىٰ تحديد الفترةِ الزمنيّةِ المرادِ بحثُها من خلال هذه المؤلَّفات، ثم يقوم بعدَ ذلك بدراستها واستخلاص النتائج منها.

فمِنَ الكتبِ المرتّبةِ علىٰ الطبقاتِ: «سير أعلام النبلاء» للذهبي.

ومِن الكتب المرتّبة علىٰ السنين: «البداية والنهاية» لابن كثير.

***

*** - لمعرفةِ المؤلَّفاتِ الأصِيلَة في علمٍ مّا، ومدىٰ أهميَّتِها، يُرجع لكُتُب المناهج، والموارد[١]، فإن فيها فائدةً عظيمةً؛ لا سيّما للمتخصّصين.**

ففي التفسير مثلًا تُقرأُ كتبُ مناهج المفسِّرين، مثلُ: منهج الطبري في تفسيره، أو القرطبي، أو ابن كثير. وكلُّها قد كُتِبَ فيها.

= بل ويشمل كلَّ من اشتركوا في وصفٍ معيَّنٍ: كالصحابة، والتابعين، وأتباع التابعين... إلخ. وللعلماء في التأليف في هذا اللون من العلم وفي ترتيب الطبقات طرائقُ شتّىٰ، لا تحتمل ذِكرَها هذه الحاشيةُ، فراجعْها في مبسوطاتها. ومن ذلك كتاب بحوث في تاريخ السنة المشرفة للدكتور/ أكرم العُمَري (ص/ ٧٤ و ١٨٠).

ومِن المؤلَّفات في الطبقات: «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد. و«طبقات الصوفية» لأبي عبد الرحمن السلمي. و«طبقات المحدِّثين بأصبهان» لأبِي الشيخ الأصبهاني. و«المعين في طبقات المحدثين» للذهبي. و«معرفة القراء الكبار علىٰ الطبقات والأعصار» له أيضًا. و«طبقات الفقهاء للشيرازي». و«طبقات الأطباء والحكماء» لابن جُلْجُل. «ونزهة الألبّاء في طبقات الأدباء» لابن الأنباري. وغيرُها.

(١) كتبُ الموارد: هي الكتب التي تُعنىٰ بذكر المصادر التي اعتمد عليها عالمٌ مّا من العلماء، سواءٌ في تأليفِه كتابًا معينًا، أو في جميع مؤلَّفاتِه.

ومثلُه الحديثُ، والفقهُ، والتَّوْرِيخُ [(١)]، وسائرُ العلوم.

وكذا كتبُ الموارد، مثلُ:

- كتاب «**مَوارِدِ الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد**»: للدكتور/ أكرم العُمَري.

- وكتاب «**ابن حجر العسقلاني، مصنفاته، ودراسةٌ في منهجه وموارده في كتابه الإصابة**»: للدكتور/ شاكر محمود عبدالمنعم.

- وكتاب «**موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق**»: للدكتور/ طلال بن سعود الدَّعْجاني.

وما شابهَهَا.

***

* **– لمعرفةِ المعالمِ الكبرىٰ الأساسيَّة لعلمٍ مّا، أو مذهبٍ، أو فِرْقةٍ، أو حَرَكةٍ، يُرجَعُ إلىٰ الدراسات التي تناولتْ أبرزَ الشخصيَّات المؤثِّرة فيها.**

فمثلًا إذا ما أردنا معرفة المعالم الكبرىٰ لعِلْم العَرُوض؛ فإننا نرجع إلىٰ الدراسات التي تناولتْ أبرز شخصيَّة فيه؛ وهو الخليلُ بنُ أحمد الفراهيديّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإذا أردنا معرفة ذلك في الفقه الظاهري؛ رجعْنا إلىٰ الدراسات التي تناولتْ ابنَ حزمٍ الأندلسيّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) **التَّوْرِيخُ**: هو التاريخ، وقد سمّىٰ الحافظُ السخاويُّ كتابَه: «الاعلان بالتَّوبِيخ، لمن ذمَّ أهلَ التَّورِيخ».

وإذا أردنا معرفة ذلك في التأصيل لمنهج السلف؛ رجعنا للدراسات التي تناولتْ شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وإذا أردنا معرفة ذلك في علم الاجتماع؛ رجعنا للدراسات التي تناولتْ ابنَ خُلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ..... وهلمَّ جَرًّا.

***

*** - إذا أردتَ معرفةَ قوّةِ علمٍ مّا أو ضعفِه؛ فانظر مدىٰ تأثير ذلك العلم في العلوم الأخرىٰ، أو تأثُّره بها.**

فإنْ كان من الصِّنْف الأول فهو عِلمٌ قويٌّ، وإن كان من الثاني فهو دونَ ذلك، وتتفاوتُ قوّتُه تبعـًا لدرجات التأثُّر والتأثير.

والمرجِعُ في هذا: الدراساتُ التي تُجْرِي الموازناتِ بين العلوم، وكذا الدراساتُ التي تبيّن المسائلَ المشتركةَ بين عِلمٍ وعِلمٍ[1].

فمِن العلوم القويّة التي أثّرت في غيرها من العلوم: علمُ مصطلح الحديث.

فقد ألّف الإمامُ السيوطيُّ كتابَ **«الـمُزْهِر في علوم اللغة وأنواعها»**، وبناهُ علىٰ علم مصطلح الحديث.

---

(١) **مثل:** كتاب **«المسائلُ المشتركةُ بين أصول الفقه وأصول الدين»**: للدكتور/ محمد العروسي عبد القادر.

وكتاب **«المسائل المشتركة بين علوم القرآن وأصول الفقه وأثرها في التفسير»** للدكتور/ فهد بن مبارك الوهْبي.

فهذه الكتبُ يتبيَّنُ من خلالها مدىٰ التأثُّر والتأثير بين العِلْميْن.

وكذا كتابُ «مُصطلَح التاريخ»؛ لأسد رُسْتم، فقد تكلَّم فيه عن علوم الحديث وأثَرِها في علم التاريخ، وكان يرىٰ أنه لا بدّ من تحكيم قواعد علوم الجرح والتعديل وعلوم الحديث التي وضعها المحدِّثون في الروايات التاريخيّة؛ لكي يتسنّىٰ معرفة ما هو صحيحٌ من الروايات؛ مما ليس بصحيحٍ[(١)].

وكتابُ «الحديثُ النبويُّ الشريفُ وأثرُه في الدراسات اللغوية»؛ للدكتور/ محمد ضاري حمّادي.

وكتابُ «مصطلح الحديث وأثرُه علىٰ الدَّرْس اللغوي عند العرب» للدكتور/ شرف الدين علي الراجحي.

***

* - ينبغي الاهتمامُ بالكُتب التي تُؤصِّلُ للعلوم الإسلاميّة، وتُوثِّقُ مواردَها، وتدفعُ عنها الشُّكوكَ والشُّبهاتِ؛ ممّا يساهِمُ في بثِّ الثّقة في نفوس طلّاب العلم والناشئة تجاه علومهم الإسلامية.

ومن المؤلَّفات في ذلك:

- كتابُ «درء تعارض العقل والنقل»: لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- وكتابُ «حُجّيّة السنّة»: للعلّامة عبد الغني عبد الخالق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- وكتابُ «رسالةٌ في الطريقِ إلىٰ ثقافتِنا»: للعلّامة محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) ولأهميّة كتابه «مصطلح التاريخ» فقد درّسه الشيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لطلّابه قديمًا كما جاء في ترجمته، علىٰ الرُّغْم مِن أنَّ مؤلِّفَه نصرانيٌّ!

- وكتابُ «**المعرفةُ في الإسلام مصادرُها ومجالاتُها**»: للدكتور/ عبد الله بن محمد القرني.

وما شَاكَلَها.

***

* - **ينبغي لطالب العلم عند قراءته تفسيرَ القرآن الكريم، أن يهتمّ بالتفاسير التي تُعْنَىٰ بتَحرير المعنىٰ الصحيح للآيات وتبيين الـمُراد منها، وربط بعضها ببعض، واستنباط المسائل والأحكام منها.**

أمّا الكتبُ التي تكتفي بسَرْد الأقوال والمعاني فحسْب دون تحريرٍ وبيانٍ، فهذه لا غَنَاءَ فيها لطالب العلم، وجدواها قليلةٌ.

ومن أفضلِ الكتبِ في هذا المنحىٰ:

تفسير «**جامع البيان**» للطبري، و«**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي، و«**تفسير القرآن العظيم**» لابن كثير، و«**فتح القدير**» للشوكاني، و«**تيسير الكريم الرحمن**» للسعْدي، الذي أعدُّه خُلاصةَ كتب التفسير وروحَها[1].

---

(١) جاء في كتاب بهجة المجالس: لابن عبد البرّ (١/ ٣٧): رُوي عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما أنه قال: «**العلمُ أكثرُ من أن يُحصَىٰ، فخذوا أرواحَه، ودعوا ظُروفَه**».

ولقد أحسن القائلُ، وقيل إنه منصورٌ الفقيه:

قالوا: خُذِ العينَ من كلٍّ فقلتُ لهم: ... في العين فضلٌ ولكنْ ناظرُ العينِ

حرفانِ في ألفِ طُومارٍ مُسوَّدةٌ ... وربما لم تجدْ في الألْفِ حرفينِ

فهذه التفاسيرُ مشهورةٌ رائجةٌ متداوَلَةٌ، وهي غزيرةُ المادّةِ، عميقةُ التحليلِ، دقيقةُ الاستنباطِ.

***

* - ينبغي لطالب العلم عند دراسةِ الفقه، أن يهتَمَّ بالكتب التي تَعتني بالدليل، وتُؤصِّلُ للمسائل، وتَرُدُّ الفروعَ إلىٰ الأصول، وتَذكُرُ مآخذَ الأدلة.

وممّن تميّز بهذا الـمَنْحَىٰ: فُقهاءُ المحدِّثين[1].

---

(١) قال ابنُ الجوزي: «كان المحدِّثون قديمًا هم الفقهاءُ، ثم صار الفقهاءُ لا يعرفون الحديثَ، والمحدِّثون لا يعرفون الفقهَ!». صيد الخاطر (ص/ ٤٤٣).

- وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: «فقهاءُ الحديث أخبرُ بالرسول من فقهاء غيرهم». مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٩٥).

- وقال العلّامةُ اللّكنوي: «مَنْ نظر بنظر الإنصاف، وغاص في بحار الفقه والأصول مُتجنِّبًا الاعتساف، يعلم علمًا يقينيًّا أنّ أكثرَ المسائل الفرعية والأصلية التي اختلف العلماء فيها، فمذهبُ المحدِّثين فيها أقوىٰ من مذاهب غيرهم، وإني كلما أسير في شعب الاختلاف، أجدُ قولَ المحدثين فيه قريبًا من الإنصاف، فلله دَرُّهم، وعلينا شكرُهم، كيف لا، وهم ورثةُ النبيّ ﷺ حقًّا، ونُوّابُ شَرعه صِدْقًا، حشرنا اللهُ في زُمرتهم، وأماتنا علىٰ حبّهم وسيرتهم» إمام الكلام في القراءة خلف الإمام (ص/ ١٥٦).

- وقال العلّامة الفقيهُ الدكتور/ عبد المجيد محمود في أُطروحته الفائقة «الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في القرن الثالث الهجري» (ص/ ٤): «إنّ المُحَدِّثِينَ لم يقتصرْ نشاطُهم علىٰ علوم الحديث، بل كان لهم نشاطٌ فِقْهيٌّ مَلحوظٌ، لا يُخطِئُه مَنْ يَقرأ كُتُبَ السُّنَّةِ قراءةً عابرةً، أمّا مَنْ يقرؤُها قراءةً متأنِّيَةً فاحصةً، فسَيَلْمَسُ هذا النشاطَ، وتتكشَّفُ له أصالتُهم ورسوخُ أقدامهم في الفقه، وتتجلّىٰ له أصولُهم ومناهجُهم».

- وقال في (ص/ ٦٤٥) من الكتاب نفسه: «فِقهُ المحدِّثين ليس فِقْهًا شَكْليًا يَقْصُرُ اهتمامَه علىٰ الألفاظ والصُّوَر، ولكنه يُضيف إلىٰ ذلك اهتمامَه بالبواعث النفسيّة والمقاصد الدينيّة، ومدىٰ الملاءمة بين عاقبة الفعل ومقاصد الدين.

=

فشَمِّرْ - يا طالبَ العلم - في تطلُّبِ كتبِهم ودراستِها عن يَدٍ وأيْدٍ؛ فإنهم هَنَادِسَةُ[١] هذا الأمر، قال عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «سيأتي قومٌ يُجادلونكم بشُبُهاتِ القرآن؛ فخُذوهم بالأحاديث؛ فإنّ أصحابَ السنن أعلمُ بكتاب الله»[٢].

=

وقد أوضحتْ الموازنةُ بين مذهبِ المحدِّثين والمذاهبِ الأخرىٰ في هذا الاتجاه أنّ المذهبيْن الحنفي والشافعي يقفان في الطرف المقابل لمذهب المحدِّثين.

وقد درسْنا تأثيرَ هذا الاتجاه علىٰ سلوك المحدِّثين عند الاستنباط، حيث كانوا وَرِعين وَجِلين. وعلىٰ نظرتهم لموضوعات الفقه حيث أدخلوا فيها أبوابَ العقائدِ والزُّهدِ والأخلاقِ وغيرَها، وعلىٰ اهتمامهم بالنيّاتِ والمقاصدِ ومآلاتِ الأفعالِ، سواءٌ في الألفاظ أو في العُقُود».

- وقال الشيخُ صالحُ العُصَيْمي: «أعدلُ المذاهب وأقواها في دقائق الفقه ومسائلِهِ مذهبُ المحدِّثين؛ لأنهم نهلوا من مَعينِ النبوَّة، واقتبسوا من مشكاةِ الرسالةِ، فعليها وَرَدُوا، وعنها صَدَرُوا». تذكرةُ الحديثيّ والمتفقّه (ص/ ٦).

(١) الهَنَادِسَةُ: جمعُ هِنْدِسٍ. والهِنْدِسُ من الرِّجَالِ: المُجَرَّبُ الجَيِّدُ النَّظَرِ.

وقال الصّاغانيُّ: هو الهِنْدَوْسُ، كفِرْدَوْس. ويُقَال: رَجُلٌ هُنْدُوسُ هذا الأَمْرِ، بالضَّمِّ، أَي العَالِمُ بِه. ويُقَال: هُمْ هَنَادِسَةُ هذا الأَمْرِ، أَي العُلَمَاءُ بهِ. تاج العروس من جواهر القاموس (٩/ ٤٦).

(٢) أخرجه الدارمي في السنن (١/ ٤٩)، والآجري في الشريعة (ص/ ٤٨، ٥٢، ٧٤)، وابن بطة في الإبانة رقم (٨٣، ٨٤، ٧٩٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٢٣)، وابن أبي زمنين في أصول السنة رقم (٧ و٨)، والأصبهاني في الحجة (١/ ٢٠٥، ٣١٢)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ١٠١٠ - رقم ١٩٢٧) وغيرُهم، من طرقٍ بألفاظٍ متقاربةٍ، وهو صحيحٌ.

ومرادُه بشُبُهات القرآن: الآياتُ المتشابهاتُ؛ إذْ ليس في القرآن شُبُهاتٌ كما لا يخفىٰ.

وانظر: الموافقات: للشاطبي (٤/ ٣٢٧).

وإيّاكَ وكتبَ فقهاءِ الرأْي - لا سيّما المتأخِّرين منهم - فإنها مَحشُوَّةٌ بالمسائلِ المرجُوحَةِ، والأقيسةِ الفاسدِةِ، والمخالَفَاتِ الجَمَّةِ للنُّصوصِ![١].

---

(١) قال الإمامُ ابنُ القيّم: «سُنّةُ رسول الله ﷺ أحقُّ أن تُتَّبعَ ويُترك ما خالَفها لأجلها، ولا تُترك هي لأجلِ قولِ أحدٍ كائنًا مَنْ كان.
ولو تُرِكتْ السننُ لِخلاف مَن خالفها لعدم بلوغها له، أو لتأويلها، أو غير ذلك لتُرِك سُننٌ كثيرةٌ جدًا، وتُرِكتْ الحجّةُ إلىٰ غيرها، وقولُ مَنْ يجب اتّباعُه إلىٰ قول مَن لّا يجب اتّباعُه، وقولُ المعصوم إلىٰ قول غير المعصوم! وهذه بليَّةٌ، نسأل اللهَ العافيةَ منها، وأن لّا نلقاه بها يومَ القيامة». زاد المعاد (٥/ ٥٠٢).
- وقال أيضًا: «أعلىٰ الهِمَمِ في طلب العلم، طلبُ علمِ الكتاب والسنة، والفهمِ عن الله ورسوله نفسَ المراد، وعلم حدودِ الـمُنْزَل.
وأخّسُّ هِمَمِ طلّاب العلم، قَصْرُ هِمّتِه علىٰ تتبُّع شواذِّ المسائل، وما لم يَنزِلْ ولا هو واقعٌ، أو كانت هِمّتُه معرفةَ الاختلاف وتتبعَ أقوال الناس، وليس له هِمَّةٌ إلىٰ معرفة الصحيح من تلك الأقوال. وقَلَّ أن ينتفعَ واحدٌ من هؤلاء بعلمه». الفوائد (ص/ ١٥٢).
- وقال الإمامُ الشوكاني: «إنَّ المتصدِّرَ للتصنيف في كتب الفقه، وإن بلغَ في إتقانِه وإتقانِ علم الْأُصُول وسائِرِ الْفُنُون الآلية إلىٰ حدٍّ يتقاصرُ عنه الوَصْفُ، إذا لم يُتقنْ عِلمَ السّنة، ويعرفْ صَحِيحه من سقيمه، ويعوِّل علىٰ أَهله في إصداره وإيراده، كانت مصنفاتُه مَبْنِيَّةً علىٰ غير أساسٍ؛ لأنّ علمَ الفقه هو مَأْخُوذٌ من علم السّنة إلّا القليلَ منه، وهو ما قد صرَّح بحُكمِهِ القرآنُ الكريمُ.
فما يَصنعُ ذُو الْفُنُون بفنونه إذا لم يكن عالمًا بعلم الحديث، مُتقنًا لهُ، مُعوِّلًا علىٰ المصنَّفات المدوّنة فيه؟!!
وبهذه العلَّة تَجِدُ المصنِّفين في علم الفقه، يُعوِّلون في كثيرٍ من المسائِل علىٰ مَحْض الرَّأْي، ويُدوِّنونه في مصنَّفاتهم، وهم لا يَشْعُرُونَ أَنّ في ذلك سُنّةً صحيحَةً يَعرفُهَا أقلُّ طالبٍ لعلم الحديث! وقد كَثُر هذا جِدًّا من المشتغلين بالفقه علىٰ تفاقم شَرِّه، وتعاظُم ضَرَره، وجَنَوْا علىٰ أنفسهم، وعلىٰ الشَّريعة، وعلىٰ المسلمين.
وإذا شَكَكْتَ في شيء من هذا؛ فَخُذْ أَيَّ كتابٍ شِئْتَ من الْكتب المصنَّفة في الفقه، وطالعْه =

ومِن كُتُبِ هذا اللّونِ التي يُوصَىٰ بها:

«الموطأُ» للإمام مالك، و**«الأمُّ»** للإمام الشافعي المطّلبي[(١)]، وصحيحُ البخاري، وسننُ الترمذي[(٢)]، وصحيحُ ابنِ خزيمة، وصحيحُ ابنِ حبان، وكتبُ ابنِ المنذر، وكتبُ ابنِ عبد البرّ - ولاسيّما **«التمهيد»** - وكتبُ ابنِ تيميّة، وكتبُ ابنِ القيّم - ولا سيّما **«زاد المعاد»**، و**«تهذيب سُنن أبي داود وإيضاح**

=

تَجِدِ الْكثيرَ الْوَاسِعَ!» أدب الطلب ومنتهىٰ الأدب (ص/ ١٢٠ - ١٢١).

وانظر إيثار الإنصاف في آثار الخلاف: لسبط بن الجوزي (ص/ ٣٤).

تحذير: لا يلزمُ من تنبيهي علىٰ ما في كتب هؤلاء الفقهاء من المخالفات للنصوص: الوقيعةُ في أصحابها، والقدحُ فيهم، والتشغيبُ عليهم - كما قد يظنّ البعضُ - فإن هذا فِعْلُ الجَهَلَة الأغْمار!

بل يجبُ إجلالُهم، وحِفظُ مكانتهم، والتماسُ المعاذير لهم، وإعمالُ ما سطّره شيخُ الإسلام في كتابه النفيس «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» من القواعد والضوابط في حقّهم. واللهُ الهادي.

(١) **قال يحيىٰ بن منصور القاضي:** «**سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة** وقلتُ له: هل تعرفُ سُنّةً لرسول الله ﷺ في الحلال والحرام لم يُودِعْها الشافعيُّ كتابَه؟ قال: لا». تاريخ مدينة دمشق: لابن عساكر (٥١/ ٣٧٠).

- **وقال محمد بن عبد الله العمري: سمعتُ الجاحظَ يقول:** «نظرتُ في كُتُب هؤلاء النَّبَغَة الذين نبغُوا، فلم أرَ أحسنَ تأليفًا من المطّلبي، كأنّ فاه نَظَمَ دُرًّا إلىٰ دُرٍّ». الكامل في ضعفاء الرجال: لابن عديّ (١/ ٢٠٦).

- **وقال يونسُ بنُ عبد الأعلىٰ:** «كأنّ ألفاظَ الشافعيِّ كُلَّها سُكَّرٌ». المصدر نفسه.

(٢) **قال الدكتور/ نور الدين عِتْر** عن صحيح البخاري، وسنن الترمذي: «هما منارةُ فِقه المحدِّثين». منهج النقد في علوم الحديث (ص/ ٥٣٧).

بل إنني أقولُ: إنّ «صحيحَ البخاريّ» هو في الأصل كتابُ فقهٍ؛ ألا تراهُ يُكرِّرُ الأحاديثَ ويُقطِّعها علىٰ حسب المعاني الفقهيّة المستنبَطَة، حتىٰ لَربّما كرَّرَ الحديثَ الواحدَ عشراتِ المرّاتِ من أجل ذلك! فتأمّلْ.

«**مُشكِلاتِه**» - وكتبُ ابنِ رجب - ولا سيّما «**فتح الباري**»، و«**جامع العلوم والحكم**» -، و«**فتح الباري**» لابن حجر العسقلاني، ونحوُها من كتب فقهاء المحدِّثين.

ومِن الكتب المتأخِّرة:

كتبُ الصنعاني، ككتاب: «**سبل السلام**».

وكتبُ الشوكاني: ككتاب: «**الدَّراري المضيّة**»، و«**نيل الأوطار**» - الذي كان لا يُفارقُ العلّامةَ محمدَ الأمين الشنقيطي حضرًا ولا سفرًا! -.

وكتبُ صِدِّيق حسن خان، ككتاب: «**الروضة النديّة**».

وكتبُ عبد العزيز بن باز، كشروحاته للكتب الستة وغيرِها من كتب الحديث، وشرحِه «**لمنتقىٰ الأخبار**»، وحاشيته علىٰ: «**بلوغ المرام**»، وما اشتملتْ عليه فتاواه.

وكتبُ الألباني، ككتاب: «**تمام المنَّة**»، و«**الثمر المستطاب**»، وما أَوْدَعَه سِلْسلتَيْه: «**الصحيحة**» و«**الضعيفة**» من الفقه[(١)].

وكتبُ العُثيمين، ككتاب: «**فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام**»، وغيرِه من كتبه النافعة.

وكذا شروحُ كتبِ أحاديثِ الأحكامِ، ككتاب: «**مِنْحة العلّام في شرح**

---

(١) **لطيفة:** جاء طالبٌ إلىٰ الشيخ العلّامة محمد بن إسماعيل العمراني اليماني وقال له: سمعتُ أحدَ مشايخ اليمن يقول عن العلّامة الألباني: قد يُحتجُّ به في الحديث، وهو فيه ليس بعالمٍ بل باحثٌ! ولكنه في الفقه وغيرِه من العلوم ليس بحُجَّةٍ!! **فقال الشيخُ العمرانيُّ: الألبانيُّ في الحديث رقمُ واحد، وفي الفقه رقمُ اثنين بعدَ الشوكاني.**

بلوغ المرام» للشيخ عبدالله الفوزان، وهو شرحٌ نفيسٌ للغاية.

وغيرُها.

وقد ظهرتْ كتبٌ معاصرةٌ كثيرةٌ مرتَّبةٌ علىٰ ترتيب كتب الفقه، تُعْنَىٰ بهذا الجانب[١]، أرىٰ أنْ يبدأَ الطالبُ بدراستها أولًا، قبل قراءة الكتب الأصول التي أشرتُ إليها سابقًا (الموطأ وما بعدَه). **ومِن هذه الكتب:**

- «**الوجيزُ في فقه السنة والكتاب العزيز**»: للدكتور/ عبد العظيم بدوي.
- «**اللُّبابُ في فقه السنة والكتاب**»: للشيخ محمد صبحي حلّاق.
- «**صحيحُ فقه السنة**»: للشيخ كمال بن السيد سالم، وهو كتابٌ نفيسٌ، وفيه تحقيقٌ وتحريرٌ بديعٌ[٢].

---

(١) **تنبيه**: هذه المصنَّفاتُ قَطَعَتْ الطريقَ علىٰ أولئك الذين يُشكِّكون في جدوىٰ دراسة الفقه علىٰ طريقة المحدِّثين، بدعوىٰ أنّ هذا فيه تشتيتًا لذهن الطالب! وأنه مجانبٌ للتأصيلِ العلميِّ الدقيق!

وهذا كلُّه غيرُ صحيحٍ؛ فقد أثبتتْ هذه المؤلَّفاتُ أنّ هذا هو الطريقُ الأمثلُ والأيسرُ لدراسة الفقه؛ حيثُ تناولتْ المسائلَ بدِقّةٍ بالغةٍ، ونَصَرَتْ من الأقوال ما قامَ عليه الدليلُ الصحيحُ، من غيرِ التفاتٍ إلىٰ مَنْ قال به، كما هو دَيدَنُ المقلِّدة!... إلىٰ غير ذلك من المحاسن.

وقد بسطتُ الكلامَ علىٰ هذه المسألةِ وغيرِها في كتابٍ مستقلٍّ.

(٢) صدرَ الكتابُ في أربع مجلّدات، كَتَبَ المؤلّفُ المجلَّداتِ الثلاثةَ الأُوَلَ منه؛ أما المجلدُ الرابعُ المشتملُ علىٰ كتب: الحدود، والجنايات والبيوع فليس من تأليفه؛ ولذا جاء دون الثلاثةِ الأُوَلِ بكثيرٍ!

ثمّ إنّ المؤلِّفَ أصدرَ بعدَ ذلك تتمّةَ الكتاب في مجلّدٍ سمّاه: «كَشف الأكِنَّة، عن بحوثٍ لم تُذكرْ في (صحيح فقه السنّة)»، فجاءَ علىٰ نسق مجلَّداته الأُوَلِ في الجودة والاتقان.

- «**تمامُ المنّة في فقه الكتاب وصحيح السنّة**»: للشيخ عادل بن يوسف العزّازي.

- «**الموسوعةُ الفقهيةُ الميسَّرةُ، في فقه الكتاب والسنة المطهّرة**»: للشيخ حسين العوايشة؛ وهو كتابٌ جيدٌ؛ وفيه سؤلاتٌ كثيرةٌ وجّهها المؤلِّفُ للشيخ الألباني - وهذه مِيزتُهُ - إلّا أنّ معظمَه نقولاتٌ مطوّلةٌ من المصادر المتداولَة المعروفة.

- «**السعيُ الحثيثُ إلىٰ فقه أهل الحديث**»: للشيخ محمد لقمان السلفي، وهو أجمعُها وأوفاها؛ وفيه ما ليس في كتب الفقه الأخرىٰ؛ مثل المسائل المعاصرة والنوازل، وهذا أمرٌ مُهِمٌّ يُحمَدُ للمؤلِّف[(١)].

وهذا المسلَكُ هو الذي سيأخذُ بيد الطالب ويُرقّيه في مراقي الفقه شيئًا فشيئًا، حتىٰ يصلَ به في نهاية المطاف إلىٰ مرتبة الترجيح، ثم الاختيار، ثم الاجتهاد إنْ شاء اللهُ تعالىٰ[(٢)].

---

(١) إلا أنّ في الكتاب ركاكةً في الأسلوب؛ فليتَ المؤلِّفَ - وفّقهُ اللهُ - يُعيدُ النظرَ في صياغته.

(٢) **لكنّ الوصولَ إلىٰ مرتبة الاجتهاد** يَحتاجُ لأمريْن اثنيْن ذكرهما العلّامةُ محمدُ بنُ الحسن الحَجْوي الثعالبي (ت ١٣٧٦هـ) في كتابه النفيس الفِكر السامي (٢/ ٤٦١)، **فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**

«**الأول**: عزيمةُ الطالب علىٰ إدراكها، فإذا عَزَمَ، ومَرَّنَ نفسَه علىٰ استقلال فكره، وشَغَلَه بتدبّر كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وتَرَكَ التمرُّنَ علىٰ كلام المتأخِّرين الجامدين، وجعل بَدَلَه التمرُّنَ علىٰ فهمِ الكتاب والسنة، وكلامِ أئمة الاجتهاد مثل مالك وأضرابه، كما كان أهلُ القرون الأولىٰ يفعلون، إذْ كانوا يتمرَّنون علىٰ فهم البخاري وتراجمه وأحاديثه، وأحاديث مسلم، و«الموطأ»، و«الأم» للشافعي، وفقه أبي حنيفة، ومسند أحمد، وأمثالهم، فإذا رجعْنا لِـما كان عليه المجتهدون في كيفية تربية مَلَكَاتهم صِرْنا مجتهدِين مثلَهم.

=

*** - ينبغي لطالب العلم أنْ يعتنيَ كثيرًا بكتب الفتاوىٰ، سواءٌ للعلماء المتقدِّمين، أو المتأخِّرين، أو المعاصِرين؛ وذلك لما تشتمل عليه من فوائدَ كثيرةٍ، منها:**

أنها تحتوي علىٰ دقائق المسائل ولطائف الاستنباطات. كما تتضمّنُ كثيرًا من أحكام النوازل التي لا تكادُ توجدُ في كتابٍ. كما أنها تُساهم مساهمةً فاعلةً في سَدِّ الثغرات في كتب المسائل.

كذلك فإنها تُعتبرُ مِرآةً لعصر المفتي وأحوال الناس العلمية، والثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية... في ذلك الوقت، وهذا ممّا يَغفُلُ عنه كثيرٌ من الدارسين والباحثين.

كم أنها تدرِّبُ الطالبَ علىٰ دِقّة الاستنباط، وعلىٰ فنّ بناء المسائل بعضها علىٰ بعضٍ.

وهي أيضًا ميزانٌ دقيقٌ لتعريف الطالب مرتبتَه من العلم الشرعيّ؛ ذلك لأنّ طالبَ العلم ينبغي أنْ يختبرَ علمَه بالإجابة علىٰ السؤال قبلَ قراءة جواب

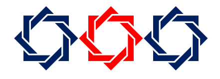
=

الأمر الثاني: رياضةُ النفوس علىٰ الأخلاق الفاضلة وتركُ السفاسِف، لِتُوجَدَ الخَصْلةُ العزيزةُ، وهي النزاهةُ التي تَحْصُلُ بها الثقةُ العامّةُ كما كانت حاصلةً بالمجتهدين، فالذي فُقِد أو كادَ هو الثقةُ، وعليه فإنما يَعِزُّ وجودُ شرطٍ في الاقتداء لا في الاجتهاد، وهو الأمانةُ التي تنشأ عنها الثقةُ.

أما شروطُ الاجتهاد، فليست بصعبةٍ، ورأىٰ بعضُنا من علماء الوقت لا مانعَ مِن توفُّر تلك الشروط فيهم، وفضلُ الله غير مُحَجَّر، بل يجبُ عليهم رفعُ هِمّتهم والنهوضُ لإدراك هذه المرتبة، ونفضُ غُبار الذلّ عن رؤوس أهل العلم.

وعليك أيها الناظرُ المتعطِّشُ أن تنظرَ ما كتبه في «إعلام الموقعين» مناظرةً ثمينةً علىٰ لِسانيْ مقلِّدٍ ومجتهدٍ وأدلتَهما، فانظرْها واستوعبْها ولا بدَّ؛ لِتَرشُدَ إلىٰ الحقّ».

المفتي، فإنْ وافقَ المفتي في الجواب لكنْ زاد عليه المفتي، فهذا جيدٌ لتحصيل الزيادة. وإنْ وافقَ هو المفتي وزاد عليه، فلْيشكرِ اللهَ علىٰ هذه النعمة، ويسأله المزيدَ من فضله. وإنْ أخطأَ في الجواب فعليه أنْ يُراجعَ نفسَه، ويجدّ ويجتهدَ في تمتينِ علمه.






خُذْ بالعظيمِ من الأمورِ ولا يَكُنْ … لكَ في الهُمومِ سِوىٰ هُمومِ رِجالِ

واجْعَلْ خَيالَكَ سَامِيًا فلَطالَما … سَمَتِ الحقيقةُ بامْتطاءِ خَيَالِ

ابْعِدْ مُناكَ علىٰ الدَّوامِ فكُلَّما … دانَ النجاحُ عَلَتْ مُنىٰ الأبطالِ

في كلِّ فنٍّ ليس إدراكُ المدَىٰ … للأدعياءِ وليسَ لِلجُهّالِ

كلَّا، وليستْ في تَوَخّي راحةٍ … قبلَ التمامِ مَظِنَّةٌ لِكَمالِ

إنّي لأسْتَجْلي الفَلاحَ فيَنْجَلي … لي عن مُثابرةٍ وغُرٍّ فِعَالِ

خليل جبران






الفصلُ الثالثُ

أَخَائِرُ الذَّخَائِر، ومَنَائِحُ النَّصَائِح



الفصلُ الثالثُ
أَخَائِرُ الذَّخَائِر، ومَنَائِحُ النَّصَائح

هذه طائفةٌ من أخائرِ الذخائرِ، ومنائحِ النصائحِ، أزفُّها لك يا طالبَ العلم؛ لتَستضيءَ بها في تحصيلِك، وتَستفيدَ منها في تأْصيلِك. فَعَضَّ عليها بالنواجِذ، وخُذْ بأسبابها؛ فإنّك تُفْلِحُ وتُنْجِحُ إنْ شاءَ اللهُ.

قال أبو الأسود الدُّؤَلي:

فما كُلُّ ذي نُصْحٍ بمُؤتيكَ نُصْحَهُ ... وما كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بلَبيبِ

ولكنْ إذا ما اسْتَجْمَعا عندَ واحدٍ ... فحُقَّ له من طاعةٍ بنصِيبِ[1]

وقال بشّارُ بنُ بُرْدٍ:

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ المشُورَةَ فَاسْتَعِنْ ... بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ نَصِيحَةِ حَازِمِ

وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَىٰ عَلَيْك غَضَاضَةً ... فَإِنَّ الْخَوَافِيْ قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ[2]

***

(١) الأغاني: للأصفهاني (١٢/ ٣٥٥).

(٢) أدب الدنيا والدين: للماوردي (ص/ ٣٠٥).

❋ - اِحرصْ علىٰ اسْتقاءِ العلمِ من مصادرِه الأصيلَة، ومنابعِه الصحيحة.

ولا تَمِلْ بك نفسُك ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ؛ فتنقطعَ عن هدفك، وتتنكّبَ عن غايتك! «وقد قيل: مَن أخذ العلمَ من عين العلم ثَبَتَ. ومَن أخذه من جَرَيَانه أخذتْه أمواجُ الشُّبَه، ومالتْ به العباراتُ، واختلفتْ عليه الأقوالُ»[١].

❋❋❋

❋ - إنْ تيسّرتْ لك الرِّحْلةُ في طلب العلم ولقاء الأشياخ - بعدَ أنْ تُحصِّلَ عِلْمَ علماءِ بلدِك[٢] - فبادرْ إليها؛ فإنها من سَنَنِ الأنبياء الأطهار، والصحابة الأبرار، والأئمة الأخيار.

قال القرطبيُّ عن قصّة موسىٰ والخَضِر عليهما الصلاةُ والسلامُ: «في هذا من الفقه رحلةُ العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانةُ علىٰ ذلك بالخادم والصاحب، واغتنامُ لقاء الفُضلاء والعُلماء وإن بَعُدتْ أقطارُهم.

وذلك كان دَأَبُ السلف الصالحْ، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلىٰ الحظّ الراجحْ، وحَصَلُوا علىٰ السعْي الناجحْ، فرسختْ لهم في العلوم أقدامْ، وصحّ لهم من الذِّكْر والأجْر والفضل أفضلُ الأقسامْ. قال البخاريُّ: ورحل جابرُ بنُ عبد الله مسيرةَ شهرٍ إلىٰ عبدِ الله بنِ أُنيْسٍ في حديثٍ»[٣].

---

(١) مدارج السالكين: لابن القيّم (٢/ ٨).

(٢) كما قال العلوي:

والمِصْـرَ لازِمْ مُتْقِنِيـهِ تَسْـعدِ ... وارحـلْ إذا حصَّـلتَ عِلـمَ البلـدِ

رفع الأستار عن محيّا مخدرات طلعة الأنوار: للمشّاط (ص/ ٤٢٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١١).

وتذكّرْ قولَ ابن رُشَيْد الفِهْري[١]:

تَغَــرَّبْ ولا تَجْــزعْ لفُرْقــةِ مــوطنٍ تَفُزْ بالمنىٰ في كلِّ ما شِئتَ مِن حاجِ
فلولا اغترابُ المِسْكِ ما حَلَّ مَفرِقًا ولولا اغترابُ الدُّرِّ ما حَلَّ في التاجِ!

وقولَ الآخَر:

أرىٰ العلــمَ في جُــوعٍ وذُلٍّ وعِفَّــةٍ وبُعْـدٍ عـن الآبـاءِ والأهـلِ والـوطنْ
فلو كانَ كسبُ العلمِ أسهلَ حرفةٍ لما كانَ ذو جَهلٍ علىٰ الأرضِ في الزمنْ!

اللهمَّ إلّا إذا كان العلمُ والعلماءُ متوافِرين ببلدك، وليس وراءَ الرحلة مَطْمعٌ، فلا عليكَ حينئذٍ أن لّا ترحلَ، قال الخطيبُ البغداديُّ: «المقصودُ في الرحلة في الحديث أمران:

أحدُهما: تحصيلُ علوّ الإسناد وقِدَم السماع.

والثاني: لقاءُ الحفّاظ، والمذاكرة لهم، والاستفادة عنهم. فإذا كان الأمران موجودَيْن في بلد الطالب، ومعدومَيْن في غيره، فلا فائدة في الرحلة، والاقتصارُ علىٰ ما في البلد أولىٰ»[٢].

***

* – إذا صَعُبَ عليك شيءٌ من المسائل فاكْتُبْه؛ فإنّ هذا من أعْوَنِ الأشياءِ علىٰ فهمِ المسائل وحَلِّها، كما ثبت بالتجرِبة.

وهذه فائدةٌ عزيزةٌ استفدتُها من بعضِ أشياخي أثناءَ الطلَب، وجرّبتُها

---

(١) درّة الحِجال في أسماء الرجال: لابن القاضي (٢/ ٩٩).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٢٣).

فوجدتُها صحيحةً.

فإذا ما أشكلتْ عليكَ مسألَة، أو رُمْتَ حَلَّ مُعْضِلة، فعليكَ بكتابتِها مَرَّةً، فإنْ تكشّفتْ لكَ فبها ونِعْمتْ، وإلّا فَكَرِّرْ كتابتَها مرارًا؛ فإنها تتبلَّجُ لكَ إنْ شاء اللهُ.

***

❋ – عَوِّدْ قلَمَكَ كتابةَ الخواطرِ، والمذكِّراتِ، والتجارِبِ، حتىٰ ولو كان أسلوبُك رَكيكًا أولَ الأمر؛ فإنه مع التعوّد وكثرة الممارسة سيَقْوَىٰ أسلوبُك شيئًا فشيئًا، حتىٰ تُصبحَ كاتبًا مُجِيدًا.

قال الغزالي: «هذه الأحوالُ قد تُتكلَّفُ مباديها ثم تتحقَّق أواخرُها. وكيف لا يكون التكلُّفُ سببًا في أنْ يصير المتكلِّفُ في الآخِرَةِ طَبْعًا؟!

وكلُّ مَن يَتعلَّمُ القرآنَ أو لا يَحفظُه تكلُّفًا، ويقرؤه تكلُّفًا مع تمام التأمّل وإحضار الذِّهْن؛ ثم يَصيرُ ذلك دَيْدَنًا لِلّسان مُطَّرِدًا، حتىٰ يجريَ به لسانُه في الصلاة وغيرها وهو غافلٌ، فيقرأَ تمامَ السورة، وتثُوبَ نفسُه إليه بعد انتهائه إلىٰ آخرها، ويعلمَ أنه قرأها في حال غفلته!

وكذلك الكاتبُ يكتبُ في الابتداء بجُهدٍ شديدٍ، ثم تتمرَّنُ علىٰ الكتابة يدُهُ، فيصيرُ الكَتْبُ له طَبْعًا، فيكتبُ أوراقًا كثيرةً وهو مُستغرِقُ القلب بفكرٍ آخرَ!

فجميعُ ما تحتمله النفسُ والجوارحُ من الصفات لا سبيل إلىٰ اكتسابه إلا بالتكلُّف والتصنُّع أوّلًا، ثم يصيرُ بالعادة طَبْعًا، وهو المرادُ بقول بعضهم:

العادةُ طبيعةٌ خامسةٌ»[(١)].

كما أنّ هذا سيُوسّعُ مَدارِكَك، ويُحفِّزُ ذهنَكَ علىٰ التفكير والتأمّل، ويُعطيكَ القدرةَ علىٰ توليدِ المعاني والأفكار.

ومِن وصايا شيخ الرّحّالين محمد بن ناصر العُبُودي للناشئة: اكتبْ كلَّ شيءٍ حتىٰ غيرَ المهمّ؛ فإنك إذا كتبتَ غيرَ المهمّ، تعوّدَ قلمُك كتابةَ المهمّ[(٢)].

وما زال هذا ديدنُ العلماء من قديمٍ؛ فكتابُ «**الفُنُون**»[(٣)] الذي ألَّفه

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٩٦).

(٢) قاله في بعض محاضراته.

(٣) **كتابُ «الفُنُون»**: هو أكبر كتابٍ في الدنيا!!

قيل: إنه في مائتيْ مجلّدٍ! وقيل: في أربع مئة مجلّدٍ!! وقيل: في ست مئة مجلّدٍ!!! وقيل: في ثمان مئة مجلّدٍ!!!!

- **قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ** عنه: «هذا الكتابُ مئتا مجلد، وقع لي منه نحوُ مئةٍ وخمسين مجلدًا». ذيل طبقات الحنابلة: لابن رجب (١/ ٣٤٤).

قال سِبْطُه: «اختصر منه جدّي عشرَ مجلدات فرَّقها في تصانيفه». مرآة الزمان (٨/ ١٥١).

- **وقال عبدُ الرزاق الرسْعني** في «تفسيره»: قال لي أبو البقاء اللّغوي: سمعت الشيخ أبا حكيم النّهرواني يقول: وقفتُ علىٰ السِّفْر الرابع بعد الثلاث مئة من كتاب «الفنون»!. شذرات الذهب: لابن العماد (٦/ ٦١).

- **وقال الذهبيُّ** في العبر في خبر من غبر (٢/ ٤٠٠) عنه: «شيخ الحنابلة، وصاحب التصانيف، ومؤلِّف كتاب «الفنون» الذي يزيد علىٰ أربع مئة مجلّد!».

وقال في تاريخ الإسلام (٣٥/ ٣٥١): «لم يصنَّف في الدنيا أكبرُ منه، حدثني من رأىٰ المجلّد الفلانيّ بعد الأربع مئة، يحكي فيه بحوثًا شريفةً ومناظراتٍ وتواريخَ ونوادرَ، وما قد وقع له».

وقال في سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٤٥): «هو أزيدُ من أربع مئة مجلد، حشد فيه كلَّ ما كان يَجري له مع الفضلاء والتلامذة، وما يَسنح له من الدقائق والغوامض، وما يَسمعه من =

=

العجائب والحوادث».

قال محقّقُ «السير»: «وقد طُبِع منه جزءٌ في دار المشرق لبنان (سنة ١٩٦٩)، ووقع لمحقّقه تحريفاتٌ فاضحةٌ».

وقال في معرفة القراء الكبار (ص/ ٢٦١): «بلغ أربع مئة وسبعين مجلدًا». وكذا ذكر ابنُ الجزري في غاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٥٥٦).

- **وفي لسان الميزان لابن حجر** - تحقيق: أبو غدة - (٥/ ٥٦٤): «يشتمل علىٰ ستِّ مِئَة مجلدٍ أو أكثر! ملأه من دامغاته ومناظراته وملتَقَطاته، طالعتُ أكثرَه!».

- **وقال ابنُ رجب** في ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٣٤٥): «أخبرني أبو حفص عمر بن علي القزويني ببغداد، قال: سمعتُ بعضَ مشايخنا يقول: هو ثمان مئة مجلَّدة!».

- **وقال صاحب كشف الظنون** (٢/ ١٤٤٧): «جمع فيه: أزيدَ من أربع مئة فنٍّ!!».

قلتُ: لعلّ هذا التباينَ الكبيرَ في عدد مجلَّداته؛ راجِعٌ إلىٰ تفاوت عمل النُّسّاخ في نَسْخ الكتاب؛ فبعضُهم يكتبُه بخطٍّ دقيقٍ علىٰ ورقٍ كبيرٍ، وبعضهم يكتبُه بخطٍ كبيرٍ علىٰ ورقٍ أقلّ حجمًا؛ فلذا تفاوت عددُ مجلداته! وهذا أمرٌ معلومٌ عندَ العارفينَ بالمخطوطات.

لطيفةٌ: قال أبو المظفر سِبْطُ ابن الجوزي: حكىٰ ابنُ عقيل عن نفسه قال: «حَجَجْتُ، فالتقطتُ عِقدَ لؤلؤٍ في خَيطٍ أحمر، فإذا شيخٌ أعمىٰ يَنشُدُه، ويَبذلُ لملتقِطه مئةَ دينارٍ، فرددتُه عليه، فقال: خُذْ الدنانير، فامتنعتُ، وخرجتُ إلىٰ الشام، وزُرتُ القدسَ، وقصدتُ بغدادَ، فأويتُ بحلبٍ إلىٰ مسجدٍ وأنا بَرْدانُ جائعٌ، فقدَّموني، فصليتُ بهم، فأطعموني، وكان أولَ رمضان، فقالوا: إمامنا توفّي فصلِّ بنا هذا الشهر، ففعلتُ، فقالوا: لإمامنا بنتٌ، فزُوّجتُ بها، فأقمتُ معها سنةً، وأولدتُها ولدًا ذَكَرًا، فمرضتْ في نفاسها، فتأملتُها يومًا فإذا في عنقها العِقْدُ بعينه بخيطه الأحمر! فقلتُ لها: لهذا قصةٌ، وحكيتُ لها، فبكتْ، وقالتْ: أنتَ هو والله! لقد كان أبي يبكي، ويقول: اللهم ارزق بنتي مثلَ الذي رَدَّ العِقْدَ عَليَّ! وقد استجاب اللهُ منه، ثم ماتتْ، فأخذتُ العِقدَ والميراثَ، وعُدْتُ إلىٰ بغداد!». تاريخ الإسلام (٣٥/ ٣٥٤)، وسير أعلام النبلاء: للذهبي (١٩/ ٤٤٩).

لطيفةٌ ثانيةٌ: قال ابنُ الجوزي في ترجمة عبد الله بن المبارك بن الحسن العكبري: «باع مُلْكًا له، واشترىٰ كتاب «الفنون» وكتاب «الفصول» لابن عقيل، ووقَفَهما علىٰ المسلمين!». المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٧/ ٢٨٧).

أبو الوفاء بنُ عقيلٍ الحنبليّ (ت ٥١٣ هـ) هو من هذه البَابَة.

قال ابنُ الجوزي عن مؤلِّفه ابنِ عقيلٍ: «كان دائمَ الاشتغال بالعلم؛ حتىٰ إني رأيتُ بخطّه: «إني لا يَحِلُّ لي أن أُضِيْعَ ساعةً من عمري، حتىٰ إذا تعطّل لساني عن مذاكرةٍ ومناظرةٍ، وبصرىٰ عن مطالعةٍ، أُعمل فِكْري في حال راحتي وأنا مُسْتَطرِحٌ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أُسطّره، وإني لأجد من حرصي علىٰ العلم وأنا في عَشْرِ الثمانين أشدّ مما كنتُ أجدُه وأنا ابنُ عشرين!»، وكان له الخاطر العاطر، والبحث عن الغوامض والدقائق، وجعل كتابه المسمَّىٰ بـ«الفنون» مَنَاظِرًا لخواطره وواقعاته»[1].

وألّف الإمامُ ابنُ الجوزيّ كتابَ «**صيد الخاطر**»[2]، وهو كتابٌ نفيسٌ في مادّته، قويٌّ في أسلوبه، عميقٌ في تحليله، دقيقٌ في نقده.

قال عنه الأديبُ الكبيرُ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقديمه للكتاب: «لا تخلو نظرةٌ فيه من موعظةٍ أتّعظُ بها، أو فائدةٍ أستفيدُها، أو طُرْفةٍ آنَسُ بها. وفيه - فوق ذلك - تحليلٌ للنفوس، وفيه وصفٌ للمجتمع، في أسلوبٍ مبتكَرٍ، وطريقةٍ في التصنيف لا أعرفها لأحدٍ من المصنِّفين».

ثم قال عن اسم الكتاب - (صيد الخاطر) -: «وفي هذا الاسم توفيقٌ عجيبٌ؛ ذلك أنّ الخواطرَ لا تَفْتأُ تمرُّ علىٰ الذهن كأنها الطُّيُورُ التي تَجوزُ

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٧/ ١٨١).

(٢) أفضلُ نشرةٍ رأيتُها للكتاب - حتىٰ الآن - هي نشرةُ دار ابن خزيمة، بعناية الشيخ: عامر بن علي ياسين، فقد أجاد الشيخُ في خدمة الكتاب تبويبًا، وتعليقًا، واستدراكًا علىٰ المؤلف فيما شَطَحَ به قلمُه.

سماءَ الحقْل، تراها لحظةً ثم تَفتقِدُها، فكأنّكَ ما رأيتَها، فإذا أنتَ اصْطدتَها وقيّدتَها ملكتَها أبدًا! لذلك جعل المؤلفُ هذا الكتاب قيدًا لصيد الخاطر، فكان الاسمُ نفسُه نفْحةً من نفْحاتِ العبقريّة!».

وإنني من بعده أقولُ: لم أرَ في رِحلتي الطويلة مع الكتب كتابًا يُدانيه في قُوَّةِ أُسلوبِه، ولا يُسامِيه في دِقّة تناولِه وعُمْق تحليلِه، فأسلوبُ ابن الجوزيِّ فيه يُعَدُّ ضَرْبًا من ضُرُوب العبقريّة، والْتِماعَةً من الْتِماعَاتِ الألمعيّة، بل إنني أزعمُ أنّ أسلوبَه فيه هو أقصىٰ ما يُمكِنُ أنْ يصلَ إليه كاتبٌ![(١)].

---

(١) سأذكر لك نموذجًا واحدًا فقط من هذه النماذج الباهرة التي تدلُّ علىٰ متانة أسلوبه وعُمْقه؛ لتُدرِكَ بحَدْسِك، وتُوقِنَ بنفْسِك:

قال ابنُ الجوزي: «**أعظمُ البلايا**: أنْ يُعطيَكَ (اللهُ) هِمّةً عاليةً، ويَمنعَكَ من العمل بمقتضاها.

فيكونَ من تأثير هِمّتكَ الأَنَفَةُ من قبول إرفاق الخلْق؛ استثقالًا لحَمْل مِنَنِهم، ثم يَبتليَكَ بالفقر، فتأخذَ منهم!

ويُلطِّفَ مِزاجَك، فلا تقبلُ من المأكولات ما سَهُلَ إحضارُه، فتحتاجُ إلىٰ فَضْل نفقةٍ، ثم يُقلِّلَ رِزقَك!

ويُعلِّقَ هِمَّتَك بالمسْتَحْسَنَات، ويقطعَ بالفقر السبيلَ إليهنّ!

ويُرِيَكَ العلومَ في مقام مَعْشوقٍ، ويُضعِفَ بدنَك عن الإعادة، ويُخْليَ يديكَ من المال الذي تُحصَّلُ به الكتبُ!

ويُقوِّي تَوَقَكَ إلىٰ درجات العارفين والزهّاد، ويُحوِجَكَ إلىٰ مخالطة أرباب الدنيا!

وهذا البلاءُ المبينُ!

وأما الخسيسُ الهِمّة، الذي لا يَستنكِفُ من سؤال الخلْق، ولا يَرىٰ الاستبدالَ بزوجته، ويكتفي بيسيرٍ من العلم، ولا يَتوقُ إلىٰ أحوال العارفين، فذاك لا يُؤلِمُهُ فَقْدُ شيءٍ، ويرىٰ ما وَجَدَ هو الغايةَ، فهو يفرحُ فرحَ الأطفال بالزخارف؛ فما أهونَ الأمر عليه!

إنما البلاءُ علىٰ العارف، ذي الهمّة العالية، الذي تدعوه هِمّتُه إلىٰ جميع الأضداد؛ للتزيّد =

وألّف ابنُ القيّم كتابَ «**الفوائد**»، وهو كتابٌ ماتعٌ كاسْمه، ملأهُ مؤلِّفُه بغُرَر الفوائد، ودُرَر القلائد.

وقد قال فيما يتعلّقُ بالخواطر: «معلومٌ أنه لم يُعْطَ الإنسانُ إماتةَ الخواطر، ولا القوةَ علىٰ قطعها؛ فإنها تَهجم عليه هجومَ النَّفَس. إلّا أنّ قوةَ الإيمان والعقل تُعينُه علىٰ قَبول أحسنها، ورضاه به، ومساكنته له. وعلىٰ رفع أقبحها، وكراهته له، ونفرته منه..... وقد خلق اللهُ سبحانه النفسَ شبيهةً بالرَّحا الدائرة التي لا تَسْكُنُ، ولا بدّ لها من شيءٍ تطحنُه، فإن وُضع فيها حَبٌّ طحنتْه، وإن وُضع فيها ترابٌ أو حصًىٰ طحنتْه.

فالأفكارُ والخواطرُ التي تجول في النفس هي بمنزلة الحَبِّ الذي يُوضَع في الرَّحا، ولا تبقىٰ تلك الرَّحا مُعطلةً قَطّ، بل لا بدَّ لها من شيءٍ يُوضَع فيها، فمِنَ الناس مَنْ تَطحنُ رحاه حَبًّا يَخرجُ دقيقًا يَنفعُ به نفسَه وغيرَه، وأكثرُهم يَطحن رملًا وحَصًىٰ وتِبْنًا ونحو ذلك، فإذا جاء وقتُ العَجْن والخَبْز تبيّن له حقيقةُ طحينه!»(١).

=

من مقام الكمال، وتَقْصُر خُطاه عن مداركِ مقصودِه.

فيا له من حالٍ يَنفَدُ في طريقه زادُ الصابرين!

ولولا حالاتُ غفلةٍ تعتري هذا المبتَلَىٰ يعيشُ بها؛ لكان دوامُ ملاحظتِه للمقاماتِ يُعْمي بَصَرَه، واجتهادُه في السلوك يُحْفي قَدَمَه!

لكنّ ملاحظاتِ الإمدادِ له - تارةً ببلوغِ بعضِ مرادِه، وتارةً بالغفلةِ عمّا قَصَدَ - تُهوِّنُ عليه العَيْشَ!

وهذا كلام عزيزٌ، لا يَفهمُه إلا أربابُه، ولا يَعلمُ كُنهَه إلا أصحابُه!». صيد الخاطر (ص/ ٣٢٣ - ٣٢٥).

(١) الفوائد (ص/ ١٧٤).

بل الأعجبُ من هذا:

أنّ كبارَ العلماء والأدباء قد كتبوا فيما نظنّه نحنُ اليومَ تافِهًا، ونحسَب أنه من التَّرَفِ الفِكْريِّ الممجُوجِ!

فقد ألَّف الجاحظُ «تفضيل البطن علىٰ الظهر»! و «تفضيل النُّطق علىٰ الصمت»![1].

وألّف قاضي الجماعة أبو الحسن عليُّ بنُ عبد الله البُنَّاهي المالَقي «المقامة النخْليّة»، حيثُ فاضَلَ فيها بين النخْلة والكَرْمة![2]، وهي التي شرحها في كتابه «الإكليل في تفضيل النخيل»[3].

وألّف الحافظُ الذهبيُّ رسالةً في المُفاخرة بين التُّوت والمِشْمِش!

ومثلُه محمدُ بنُ عابد الصَّرْخدي[4].

وألّف أبو الحسن عليُّ بنُ محمد الماِرديني: المناظرةَ بين الوَرد والنرجس!

وألّف عبدُ الباقي بنُ عبد المجيد اليماني: «زهر الجِنان، في المفاخرة بين القنديل والشَّمْعَدَان»![5].

---

(١) نُشرتا ضمنَ «الرسائل الأدبية» للجاحظ، الذي طبعته دار ومكتبة الهلال، بيروت.

(٢) نُشرتْ المقامةُ أكثرَ من مرةٍ، كان أقدمُها نشرةَ المستشرق الألماني/ ماركس جوزيف مولر، الذي نشرها سنة (١٨٦٦ م) ضمنَ كتابه «مساهمات العرب المغاربة».

(٣) طبعتْه الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب.

(٤) منه نُسخةٌ خَطِّيّةٌ مصوّرةٌ في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، برقم (٢٧٢٨).

(٥) كشف الظنون (٢/ ٩٥٩).

وألّف حسينُ بنُ مسعود الشافعي: «حديقة البحار، في المفاخرة بين السماء والأرض والليل والنهار»![١].

وألّف جماعةٌ في المفاخرة بين السيف والقلم. منهم: محمدُ بنُ نباتة الفارقي، وابنُ الوَردي، والقَلقَشنديِ، وقال: «قد أكثر الناسُ منهما، فمِنْ عالٍ وهابِط، وصاعدٍ وساقط»[٢].

وألّف عليُّ بنُ عثمان التركماني: «لذّة السمع، في المناظرة بين السُّلاف والشمْع»!

وألّف الإمامُ الصنعانيُّ: «المفاخرةَ بين العِنب والنخل»!

وألّف أحمدُ بنُ عبد اللطيف البَرْبِير الحسني: «المفاخرة بين الماء والهواء»![٣].

وألّف محمدُ بنُ محمد المبارك، الجزائري (ت ١٣٣٠هـ) عدّةَ مؤلَّفاتٍ في هذا، منها:

«أبهىٰ مَقامةْ، في المفاخرة بين الغُرْبة والإقامَةْ»!

و«غريبُ الأنباء، في مناظرة الأرض والسماء»!

وحتّىٰ الإمامُ ابنُ القيِّم أدلىٰ بدلوه في هذا!

فقد ذكر في كُتُبه مباحثَ مطوّلةً فاضَلَ فيها بين الأشياء.

---

(١) منه نُسخةٌ خطّيّة محفوظةٌ في مكتبة رضا - بالهند - رامبور - برقم: ١/ ٥٨٤ (٣٧٥).

(٢) صُبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا (١٤/ ٢٦٣).

(٣) مطبوعٌ ضمن كتاب «المفاخرات والمناظرات»، بعناية الدكتور محمد حسَّان الطَّيَّان، ونشرتْه دار البشائر الإسلامية.

فكَتَبَ في المفاضلة بين التراب والنَّار، وبين الشيخ والشَّاب، وبين السماء والأرض، وبين الذكر والأنثىٰ، وبين السمع والبصر، وبين العِنَب والنَّخْل، وبين العسَل والسُّكّر! وغيرها[(١)].

أمّا الحافظُ السيوطيُّ فله في هذا الباب عجائبُ وغرائبُ؛ فقد ألّف: «المفاخرة بين الطَّيْلَسان والطَّرْحَة»!!

وألّف مقامةَ (الرياحين) ذكر فيها المفاخرة بين الرياحين! كالوَرد، والنَّرْجس، والياسمين، والبان... إلخ، وحَكَمَ في آخرها للفاغية[(٢)].

وألّف مقامةَ (الطِّيْب) ذكر فيها مزايا بعض أنواع الطِّيْب! كالمِسك، والعنبر، والزعفران...إلخ.

وألّف المقامةَ (التفّاحيّة) ذكر فيها مناقبَ أنواعٍ من الفواكه! كالرمّان، والأُترجّ، والسفرجل، والتفاح... إلخ.

وألّف المقامةَ (الزمرّديّة في الخضروات) ذكر فيها المفاضلةَ بين أنواع الخضروات! كالقَرْع، والهندبا، والخسّ، والبامية، والملوخيّا... إلخ[(٣)].

---

(١) **انظر**: التقريب لعلوم ابن القيم: لبكر أبو زيد (ص/ ٨٢).

(٢) **الفاغِيَةُ**: نَوْرُ الحِنَّاءِ، أو يُغْرَسُ غُصْنُ الحِنَّاءِ مَقْلوبًا، فيُثْمِرُ زَهْرًا أطْيَبَ من الحِنَّاءِ، فَذَلِكَ الفاغِيَةُ. القاموس المحيط (ص/ ١٣٢٢).

وفي المعجم الوسيط (٢/ ٦٩٦): الفاغيةُ: نَوْرُ الْحِنَّاء خاصَّة وهو (تَمْرُ الحِنّا) في لُغَة الْعَامَّة.

(٣) ووردتْ فيها عبارتُه الجميلةُ: «علىٰ الخبير سَقطتمْ، ومن البحر لَقطتمْ، ولقد أقْسَطتُمْ في سؤالكم وما قَسَطتُمْ، وسأنبيكم بما يفوقُ حِكْمةَ بُقراط، من غيرِ تفريطٍ ولا إفراط»!

وألّف المقامةَ (الفُستقيّة) في البقول والمكسَّرات! ذكر فيها مزايا الفستق، واللوز، والجَوز، والبُندق... إلخ.

وألّف المقامةَ (الياقوتيّة) ذكر فيها المفاخرةَ بين سبعةٍ من اليواقيت السَّنِيّة، وهي: الياقوت، واللؤلؤ، والزُّمرّد، والمرجان، والزبرجد، والعقيق، والفيروزَج.

والفائدةُ من وراء ذلك أمورٌ، منها:

تقويةُ الأسلوب، والتعوُّدُ علىٰ توليد الأفكار، وصَقْلُ الذِّهن؛ حتىٰ يَنشطَ الذِّهنُ بعد ذلك لفهم مسائل العلم.

فينبغي لطالب العلم أن يَختليَ بنفسه ولو مرةً في الأسبوع؛ يَنسُجُ خواطرَه، ويدوّنُ مشاعرَه، ويسجّلُ تجارِبَه؛ إما بشعرٍ إن كان شاعرًا، وإما بنثرٍ أدبيٍّ مُحلِّقٍ.

وفيما قاله الشيخُ الطُّلَعَةُ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري مراشدُ سديدةٌ تُوضِحُ لك هذا الـمَهْيَع[1].

(١) قال وفّقه اللهُ وختم له بخيرٍ: «طالبُ العلم في هذه الحياة المحدودة حريصٌ علىٰ الاستزادة وإشباع النَّهَم والاستيلاء علىٰ المعارف البشرية.

قال أبو عبدالرحمن: وقد جرّبتُ في حياتي العلمية طريقةً سَمْحةً تُعين علىٰ التبحّر في العلم. ولهذا فأنا حريصٌ علىٰ إرشاد أترابي اليها؛ لأنه (لا يؤمن أحدُكم حتىٰ يحبّ لأخيه ما يحبّه لنفسه). فأقول:

يجب أن يُحدّد طالبُ العلم لنفسه جلسةً يوميةً خاصةً؛ ولكن بشرط أن تكون طويلةً لا تقلُّ عن ثلاث ساعات. وكلما زادتْ فأَنعِمْ وأَكرِمْ.

فيومٌ يكون للثقافة، وهي الأخذ من كل علمٍ بطرفٍ، وذلك لا يكون إلا بالتصفّح العاجل، =

* - اِحرصْ علىٰ اقتناص الفائدة الصحيحة، واقبلْها مِنْ كلّ مَنْ جاء بها؛ فإنّ الحكمةَ ضالّةُ المؤمِن. و«طالبُ العلم ينتقي؛ كالنحْلة تأخذُ من كافَّة الأشجار»[(١)].

قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «الْعِلْمُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَخُذُوهُ وَلَوْ مِنْ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ، وَلَا يَأْنَفْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْخُذَ الْحِكْمَةَ مِمَّنْ سَمِعَهَا مِنْهُ»[(٢)].

وقال معاذُ بنُ جبلٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أُحَذِّرُكُم زَيغَةَ الحكيمِ؛ فإنّ الشيطانَ قد يقول كلمةَ الضلالة علىٰ لسان الحكيم، وقد يقول المنافقُ كلمةَ الحق. فقال له يزيدُ بنُ عَميرةَ: ما يُدريني - يرحمك اللهُ - أنّ الحكيمَ قد يقول كلمةَ الضلالةِ، وأنّ المنافقَ قد يقول كلمةَ الحق؟ قال: بلىٰ، اجتَنِبْ من كلام

=

والالتقاط السريع.

تأخذ موسوعةً في علمٍ لا يحتاج إلىٰ حفظٍ أو تأملٍ من المعارف البشرية البسيطة. كالبداية والنهاية في التاريخ، والأغاني في الأدب... إلخ. فتقرأ الموسوعةَ الواحدةَ في ثلاث جلسات قراءةَ تصفُّحٍ لا قراءةَ تمعُّنٍ.

ويكون همُّك التقاطَ النوادر، وجمعَ الأشباه، والاستدراكَ، وذلك وَفْقَ عملية الكُرُوت المشهورة.....

ويومٌ يكونُ للتبحّر أو التخصّص؛ فتفرِّغُ وقتَك وجهدَك لبحث مسألةٍ مّا، في أيّ فنٍّ، وتحقّقُها وتستوفي الأقوالَ فيها. وبهذا تكونُ إمامًا في هذه المسألة متخصِّصًا فيها.

ويومٌ ليس للقراءة بل للكتابة، تجلسُ للتأمّل والتفكّر، فتسجِّلُ خواطرَك شعرًا أو نثرًا بطريق تفلسفٍ عقليّ، أو توهّجٍ عاطفيّ، أو تهويمٍ خيالي.

وهذا أحسنُ منهجٍ عندي لإشباع النَّهَم العلميّ». الفنون الصغرىٰ (ص/ ١٨١).

(١) فتاوىٰ حديثية: لسعد الحميد (ص/ ١٤٩).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٠٠) رقم (٦٢١).

الحكيم المُشتهِرَاتِ التي يُقال ما هذه؟! ولا يَثْنِيَنَّكَ ذلك عنه، فإنه لعله أن يُراجِعَ، وتَلَقَّ الحقَّ إذا سمعتَه؛ فإنّ علىٰ الحقِّ نُورًا»[(١)].

وعن عبد الله بن عبيد بن عمير، قال: كان يُقال: «العِلْمُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ يَغْدُو فِي طَلَبِهِ، فَإِذَا أَصَابَ مِنْهُ شَيْئًا حَوَاهُ»[(٢)].

فيجبُ أنْ «ننظرَ إلىٰ ذاتِ القولِ لا إلىٰ قائلِه؛ لأنّ كلّ كلامٍ فيه مقبولٌ ومردودٌ، إلا كلامَه ﷺ، ومعلومٌ أنّ الحقَّ حقٌّ ولو كان قائلُه حقيرًا، ألا ترىٰ أنّ مَلِكةَ سبأ في حال كونها تسجدُ للشمس من دون الله هي وقومُها، لما قالتْ كلامًا حقًّا صدّقها اللهُ فيه، ولم يكن كفرُها مانعًا من تصديقها في الحقِّ الذي قالتْه، وذلك في قولها فيما ذكر اللهُ عنها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ فقد قال الله تعالىٰ مصدِّقًا لها في قولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤][(٣)]. **وقد قال الشاعر:**

لا تَحقـرنَّ الـرأيَ وهْـو مُوافـقٌ	حُكْمَ الصوابِ إذا أتىٰ من ناقصِ
فالـدُّرُّ وهْـو أعـزُّ شـيءٍ يُقتَنَـىٰ	مـا حَـطَّ قِيمتَه هَـوانُ الغَـائصِ»[(٤)]

بل إنّ النبيَّ ﷺ قد قال عن شيطانٍ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[(٥)]،

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن برقم (٤٦١١) وغيرُه، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف - طبعة السلفية - برقم (٣٦٨٦٤).

(٣) وفي القصة نفسِها قَبِلَ سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما جاء به الهُدْهُد - وهو من أراذلِ الطيرِ - لـمّا جاءَه بسلطانٍ مبينٍ!

(٤) أضواء البيان: للشنقيطي (١/ ٨).

(٥) رواه البخاري في الصحيح برقم (٢٣١١) و (٣٢٧٥) و (٥٠١٠) معلّقًا مجزومًا به من =

يعني أنّ الأصلَ فيه الكذبُ، لكنه قد يَصْدُقُ.

ولذا قال شيخُ الإسلام: «علىٰ الإنسان أن يُصدِّق بالحق الذي يقولُه غيرُه، كما يُصدِّقُ بالحق الذي يقولُه هو، ليس له أنْ يُؤمِنَ بمعنىٰ آيةٍ استدلّ بها، ويردَّ معنىٰ آيةٍ استدلّ بها مُناظِرُه، ولا أنْ يقبلَ الحقَّ من طائفةٍ، ويردَّه من طائفةٍ أخرىٰ.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٢، ٣٣].

فذمَّ سبحانه من كَذَبَ أو كَذَّبَ بحقٍ، ولم يمدحْ إلا من صَدَقَ وصَدَّقَ بالحق.

فلو صَدَقَ الإنسانُ فيما يقولُه، ولم يُصَدِّقْ بالحقِّ الذي يقولُه غيرُه، لم يكنْ ممدوحًا، حتىٰ يكونَ ممّن يَجيءُ بالصِّدْق ويُصدِّقُ به، فأولئك هم المتّقون»[(١)].

ولله دَرُّ عليّ بن فضّال المجاشِعي حيثُ يقول[(٢)]:

خُذِ العلمَ عن رَاوِيهِ واجْتَلِبِ الهُدىٰ وإِنْ كـان رَاوِيـهِ أخـا عَمَـلٍ زَارِي

=

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورواه ابن بشران في الأمالي برقم (٥٤٦)، والبيهقي في الدعوات الكبير برقم (٤٠٦)، وفي شعب الإيمان برقم (٢١٧٠)، والبغوي في شرح السنة برقم (١١٩٦)، وغيرهم موصولًا.

قال البغوي: هذا حديثٌ صحيحٌ.

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٠٤).

(٢) معجم الأدباء: للحموي (٤/ ١٨٣٦).

فَـإِنَّ رُواةَ العِلْـمِ كالنَّخْـلِ يـانِعٌ كُلِ التمرَ منه واتْرُكِ العُودَ لِلنَّارِ!

كما أجاد الشاعرُ القَرَويُّ في تصويرَ هذا المعنىٰ بقوله(١):

اِسْـتَقِ الحِكمـةَ لا يَشْـغَلْكَ مِـنْ أيِّ يَنبـوعٍ جَـرَتْ يـا مُسْـتقِي

فشُـعاعُ الشـمسِ يَمْـتَصُّ النَّـدَىٰ مِـنْ فَـمِ الـوَرْدِ وَوَحْـلِ الطُّـرُقِ!

❊❊❊

❊ - لا بدّ لطالب العلم أن يحفظَ أصلًا في كلّ فنٍّ؛ ليكونَ عليه المدارُ في جميع مسائل ذلك الفنّ.

وفائدةُ ذلك أنّ جميعَ ما سيقرأه بعدَ ذلك من شروحٍ وتعليقاتٍ وغيرِها سيَستقرُّ ويَرسَخُ؛ لأنه قد سبقها أصلٌ تُطيفُ به وتأوي إليه.

قال العلّامةُ السعديُّ: «الحالةُ التقريبيّةُ: أن يجتهد طالبُ العلم في حفظ مختصرٍ من مختصراتِ الفنِّ الذي يشتغل فيه. فإنْ تعذّر أو تعسّر عليه حفظُه لفظًا، فليُكرّرْه كثيرًا، متدبرًا لمعانيه، حتىٰ ترسخ معانيه في قلبه. ثم تكونُ باقي كتبِ هذا الفنِّ كالتفسيرِ والتوضيحِ والتفريعِ لذلك الأصلِ الذي عرفه وأدركه؛ فإنّ الإنسانَ إذا حفظ الأصولَ وصار له ملكةٌ تامّةٌ في معرفتها؛ هانتْ عليه كتبُ الفنِّ كلِّها: صغارِها وكبارِها. ومَنْ ضيَّع الأصولَ حُرِمَ الوُصولَ.

فمَنْ حَرَصَ علىٰ هذا الذي ذكرناه، واستعان بالله: أعانه اللهُ، وبارك في علمه وطريقه الذي سلكه. ومَنْ سلك في طلب العلم غيرَ هذه الطريقة

---

(١) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي: لقبّش (ص/ ١٢٢).

النافعة: فاتتْ عليه الأوقاتُ، ولم يُدرِكْ إلا العناءَ، كما هو معروفٌ بالتجرِبة. والواقعُ يَشهدُ به، فإنْ يسَّر اللهُ له مُعلِّمًا يُحسِن طريقةَ التعليم، ومسالكَ التفهيم؛ تمَّ له السببُ الموصِلُ إلىٰ العلم»[١].

فتأمّلْ في هذه الوصيّةَ الذهبيّةَ من هذا العالِمِ الجِهْبِذ، وعَضَّ عليها بنواجذك؛ فإنك تَظْفَرُ.

وَلِمَحْمُودٍ الْوَرَّاقِ:

الْقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ ... والْفِعْلُ مَا صَدَّقَهُ الْعَقْلُ

لا يَثْبُتُ الْفَرْعُ إِذَا لَمْ يَكُنْ ... يَقِلُّهُ مِنْ تَحْتِهِ الْأَصْلُ[٢]

***

* – عَوِّدْ نفسَك علىٰ التفكّر والنَّظر في مسائل العلم؛ فإنَّ التَّعوُّدَ علىٰ التَّفكّر والنَّظر يُساعد علىٰ تفكيكِ الإشكالاتِ، وتَشقيقِ المسائلِ، وبناءِ العلومِ.

وكلُّ مسألةٍ لها مَدخلٌ يُولَجُ منه لحلِّها؛ ولا يتمُّ ذلك إلّا بالنظر الفاحص، والتفكير العميق، فكُنْ من هذا علىٰ ذُكْرٍ؛ فإنه مُجَرَّبٌ.

قال عبدُ القاهر الجُرجاني: «اعلمْ أنه ليسَ إذا لم تُمكِنْ معرفةُ الكُلِّ، وجَبَ تركُ النظرِ في الكُلِّ[٣]. وأَنْ تَعرفَ العِلَّةَ والسببَ فيما يُمْكِنُك معرفةُ ذلك فيه

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار (ص/ ٥١).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٤٠).

(٣) فائدةٌ: لا يجوز إدخالُ (ألْ) علىٰ (كُلّ) و (بعض)؛ لأنهما معرفتان.

جاء في كتاب المزهر للسيوطي (٢/ ١٤٩): «في كتاب «ليس» لابن خالويه: العوامُّ وكثيرٌ =

وإِنْ قلَّ، فتجعلَه شاهدًا فيما لم تَعْرِفْ؛ أَحْرَىٰ من أنْ تَسُدَّ بابَ المعرفة علىٰ نفسِك، وتأْخذَها عن الفهم والتفهُّم، وتعوِّدَها الكَسَلَ والْهُوَيْنا!»[(١)].

ومِن حِكمة الله أنْ فاوَتَ بين العلوم من حيثُ الصعوبةُ واليُسْرُ، كما فاوَت بين مسائل العلم نفسه من هذه الحيثيّة؛ لِيَعظُمَ الأجرُ، وتَنمازَ المراتبُ، وتُعرفَ المقاماتُ، ويَتبيّنَ المشمِّر!

قال ابنُ قتيبة: «وكلُّ بابٍ من أبواب العلم: من الفقه والحساب والفرائض والنحو، فمنه ما يَجِلُّ، ومنه ما يَدِقُّ؛ لِيرتقيَ المتعلِّمُ فيه رُتبةً بعد رُتبةٍ، حتىٰ يبلغَ منتهاهُ، ويُدركَ أقصاهُ. ولِتكونَ للعالِمِ فضيلةُ النظر، وحُسْنُ الاستخراج، ولِتقعَ المثوبةُ من الله علىٰ حُسْنِ العناية.

ولو كان كلُّ فنٍّ من العلوم شيئًا واحدًا؛ لم يكن عالِمٌ ولا متعلِّمٌ، ولا خَفِيٌّ ولا جَلِيٌّ؛ لأنَّ فضائلَ الأشياء تُعرفُ بأضدادها، فالخيرُ يُعرفُ بالشرّ، والنفعُ بالضُّرّ، والحلوُ بالمرّ، والقليلُ بالكثير، والصغيرُ بالكبير، والباطنُ بالظاهر.

وعلىٰ هذا المثال كلامُ رسولِ الله ﷺ، وكلامُ صحابته والتابعين، وأشعارُ الشعراء، وكلامُ الخطباء، ليس منه شيءٌ إلا وقد يأتي فيه المعنىٰ اللطيفُ الذي يُتَحَيَّرُ فيه»[(٢)].

=

من الخواصِّ يقولون: الكلُّ والبعضُ! وإنما هو كلٌّ وبعضٌ، لا تدخلُهما الألفُ واللامُ؛ لأنهما معرفتان في نية إضافةٍ. وبذلك نزل القرآنُ، وكذلك هو في أشعار القدماء.

وحدثنا ابنُ دريدٍ عن أبي حاتمٍ عن الأصمعيِّ قال: قرأتُ آدابَ ابن المقفّع فلم أرَ فيها لحنًا إلا قولُه: «العلمُ أكثرُ من أنْ يُحاط بالكُلِّ منه، فاحفظوا البَعضَ».

(١) دلائل الإعجاز (ص/ ٢٩٢).

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص/ ٥٨).

ولقد أحسن من قال:

يَـــا أَيُّهَـــا الـــدَّارِسُ عِلْمًـــا ألا تَلْـــتَمِسُ الْعَـــوْنَ عَلَـــىٰ دَرْسِـــهِ

لَـــنْ تَبْلُـــغَ الْفَـــرْعَ الَّـــذِي رُمْتَـــهُ إِلَّا بِبَحْـــثٍ مِنْـــكَ عَـــنْ أُسِّـــهِ[١]

***

* - ينبغي لطالب العلم الحريص ألَّا يَستَخفَّ بشيءٍ من العلم؛ ظنًّا منه أنه غيرُ مهمٍّ؛ فيتركه زُهْدًا فيه! بل جميعُ مسائل العلم مُهمّةٌ نافعةٌ؛ وإنْ تفاوتتْ مراتبُها في ذلك.

فمثلًا: وَفَيَاتُ العلماء، تجدُ كثيرًا من طلّاب العلم لا يعرف متىٰ تُوفِّي مشاهيرُ العلماء وكبارُ المصنِّفين والمجدِّدين! فضلًا عن آحادهم!

بل إنّ بعضَهم قد يَجهلُ وَفَيَاتِ الخلفاءِ الراشدين وكِبارِ الصحابة!!

وأعرف رجلًا كان مُغْرَمًا بكتاب «فتح الباري» يقرأ فيه ليلًا ونهارًا، فسألتُه يومًا: متىٰ تُوفِّي الحافظُ ابنُ حجر؟ فتكَعْكَعَ في الجواب!!

وهذا لا يَلِيق بطالب العلم؛ لأنَّ هذه المعارفَ التي يَعُدُّها كثيرٌ من طلبةِ العلمِ اليومَ من الفُضول! كان علماؤنا المتقدِّمون يَعُدُّونَها من المهمّات[٢]؛

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٤٠).

(٢) قال ابنُ عبد البرّ: «معرفة السِّيَر، وأيام الإسلام، وتواريخ أعمال الأنبياء والعلماء، **والوقوف علىٰ وفاتهم**، من علم خاصَّة أهل العلم، وأنه مما لا ينبغي لمن وَسَمَ نفسَه بالعلم جهلُ ذلك، وأنه مما يلزمه من العلم العنايةُ به». الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار (٨/ ٢٨٧).

وقال ابنُ الصَّلاح: «بَلَغَنَا عن أبي عبد الله الحميدي الأندلسي أنه قال ما تَحريرُه: ثلاثةُ أشياء من علوم الحديث يجبُ تقديمُ التَهَمُّمِ بها:

العِلَلُ، وأحسنُ كتابٍ وُضِع فيه «كتابُ الدارقطني».

=

حتىٰ إنهم ألّفوا فيها مؤلفاتٍ خاصةً[(١)]، وأفردوا لها في كتبهم أبوابًا مستقلّةً[(٢)].

والمؤتلفُ والمختلفُ، وأحسنُ كتابٍ وُضع فيه «كتابُ ابن ماكولاء».
ووَفَيَاتُ الشيوخ، وليس فيه كتابٌ.
قلتُ: فيها غيرُ كتابٍ، ولكنْ من غير استقصاءٍ وتعميمٍ. معرفة أنواع علوم الحديث (ص/ ٣٨١).
وقال ابنُ قنفذ: «ومِن الكمال معرفةُ تاريخِ موتهم وولادتهم (يعني العلماء)؛ ليتبيّنَ مَن سَبَقَ لمن لَحِقَ... واعلم أنّ معرفةَ الكتب، وأسماء المؤلفين من الكمال، ومعرفة طبقات الفقهاء في العلم من مهمّات الطالب» شرف الطالب في أسنىٰ المطالب (ص/ ٢٣٦).

(١) مِن تلك المؤلَّفات:
- «**تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**»: لمحمد بن عبد الله بن أحمد بن سليمان الربَعي (ت٣٩٧هـ).
- «**ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**»: لعبد العزيز بن أحمد بن محمد التميمي (ت٤٦٦هـ).
- «**ذيل ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**»: لهبة الله بن أحمد بن محمد الدمشقيّ، ابن الأكفاني (ت ٥٢٤هـ).
- «**وفيات قومٍ من المصريين ونفرٍ سواهم**»: لإبراهيم بن سعيد المصري، الْحَبَّال (ت٤٨٢هـ).
- «**جزءٌ فيه وفياتُ جماعةٍ من المحدِّثين**»: لعبد الرحيم بن علي بن أحمد الأصبهاني (ت٥٦٦هـ).
- «**الوفيات**»: لتقي الدين محمد بن هجرس بن رافع السلّامي (ت ٧٧٤هـ).
- «**الوفيات**»: لابن قُنفذ (ت ٨١٠هـ).

وكلُّها - بحمد الله - مطبوعةٌ.

فائدة: قال الحافظُ الذهبيُّ: «لم يَعْتنِ (أي يَكتب) القدماءُ بضبط الوفيات كما ينبغي، بل اتّكلوا علىٰ حفظهم، فذهبتْ وفياتُ خلقٍ من الأعيان من الصحابة ومن تبعهم إلىٰ قريب زمان أبي عبد الله الشافعي، فكتبْنا أسماءَهم علىٰ الطبقات تقريبًا، ثم اعتنىٰ المتأخرون بضبط وفيات العلماء وغيرهم، حتىٰ ضبطوا جماعةً فيهم جهالةٌ بالنسبة إلىٰ معرفتنا لهم، فلهذا حُفِظتْ وفياتُ خَلْقٍ من المجهولين، وجُهِلتْ وفياتُ أئمةٍ من المعروفين! وأيضًا فإنّ عِدَّةَ بلدانٍ لم يقعْ إلينا أخبارُها؛ إمّا لكونها لم يُؤرِّخْ علماءَها أحدٌ من الحفّاظ، أو جُمعَ لها تاريخٌ ولم يقعْ إلينا». تاريخ الإسلام (١/ ١٦).

(٢) كما فعل السيوطيُّ مثلًا في كتابه المزهر (٢/ ٤٦١)، حيثُ أفردَ النوع الثامن والأربعين في معرفة المواليد والوفيات.

كما أنّ معرفة الوَفَيَاتِ من أهمّ ما يساعد طلّاب العلم علىٰ التمييز بين مشتبه الأسماء للعلماء والرواة؛ فربّما اشترك شخصان فأكثرُ في الاسم والكنية، أو الاسم والنسبة، أو الاسم والبلد... إلخ، والذي يرفعُ اللَّبْسَ في هذا كلِّه هو معرفةُ تاريخ الوفاة.

ولمعرفة الوَفَيَاتِ فوائدُ أُخَر[1].

ولهذا قال المحدّثون: إذا استعمل الرُّواةُ الكذبَ، استعملنا لهم التَّاريخ!

ومثله: **تواريخُ الحوادث**، لا سيّما الكبار منها كالغزوات والفتوحات... إلخ، حيثُ يجهل الكثيرُ منهم مُعظَمَها!

***

*** - مِن وسائل تحصيل العلم: العملُ به، وتعليمُه، والتصنيفُ فيه.**

قال الوزيرُ ابنُ هُبَيرَة: «يُحصَّلُ العِلمُ بثلاثة أشياء:

أحدها: العملُ به؛ فإنّ مَن كَلَّف نفسَه التكلّمَ بالعربيّة؛ دعاه ذلك إلىٰ حفظ النحو. ومَن سأل عن المشكلات ليعمل فيها بمقتضىٰ الشرع؛ تعلَّمَ.

والثاني: التعليمُ؛ فإنه إذا علَّم الناسَ كان أدعىٰ إلىٰ تعليمه.

---

(١) **قال السخاوي:** «وكذا يتبيّنُ بمعرفة الوَفَيَات ما في السند من انقطاعٍ، أو عَضْلٍ، أو تدليسٍ، أو إرسالٍ ظاهرٍ أو خفيٍّ؛ للوقوف به علىٰ أن الراوي لم يُعاصِرْ مَن روىٰ عنه، أو عاصره ولكنْ لم يَلقَه؛ لكونه في غير بلده وهو لم يرحل إليها» فتح المغيث (٤/ ٣١٢).

ومِن فوائدها أيضًا: تمييزُ المؤتلف والمختلف، والمتفق والمفترق من الأسماء والأنساب.

انظر: بحوث في تاريخ السنة المشرّفة: لأكرم العُمري (ص/ ١٤٠)، وعلم الرجال نشأته وتطوّره: لمحمد بن مطر الزهراني (ص/ ٢١٥).

الثالث: التصنيفُ؛ فإنه يُخرجُه إلىٰ البحث، ولا يتمكّن من التصنيف من لم يُدرِكْ غَوْرَ ذلك العلم الذي صنَّف فيه»[١].

***

* - اِحذرْ كلَّ الحذَرِ من (سوفَ)؛ فإنّ (سوفَ) من جنود إبليس![٢]، وليس علىٰ طالب العلم أضرُّ منها!

فتجدُ الطالبَ يقولُ: سوفَ أقرأُ! سوفَ أحفظُ! سوفَ أتفرّغُ! ويَمضي الوقتُ سَبَهْلَلًا ولـمَّا يَبدأْ بعدُ! والليالي تَعملُ عملَها كما قال الصَّلَتانُ العَبْدي:

أشابَ الصغيرَ وأفنىٰ الكبيـ ـرَ كَرُّ الغداةِ ومَرُّ العشيّ

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٥٦).

(٢) جاء في كتاب قِصَر الأمل: لابن أبي الدنيا (ص/ ١٤٠) عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «التسويفُ جندٌ من جنود إبليس عظيمٌ، طالما خَدَعَ به».

- وعن أبي الجَلْد، قال: «قرأتُ في بعض الكتب: أنّ سوف جندٌ من جنود إبليس».

- وقال أبو بكر العدوي - رجلٌ من قريش -: «كتب رجلٌ من الحكماء إلىٰ أخٍ له: أخي إياك وتأمير التسويف علىٰ نفسك، وإمكانه من قلبك؛ فإنه محلّ الكَلال، وموئلُ الملال، وبه تُقطع الآمال، وبه تنقضي الآجال».

- وفي اقتضاء العلم العمل: للخطيب البغدادي (ص/ ١١٣) عن أبي إسحاق، قال: «قيل لرجلٍ من عبد القيس: أوصِ، قال: احذروا سوفَ!».

- وفي حفظ العمر: لابن الجوزي (ص/ ٥٨) عن محمد بن أبي توبة، قال: «أقام معروفٌ الكرخيُّ الصلاةَ، ثم قال لي: تقدمْ. فقلتُ: إن صليتُ بكم هذه الصلاة لم أصلِّ بكم غيرَها. فقال معروفٌ: وأنتَ تحدّث نفسكَ أن تصليَ صلاةً أخرىٰ؟! نعوذ بالله من طول الأمل؛ فإنه يمنع خيرَ العمل».

وانظر: صيد الخاطر: لابن الجوزي (ص/ ٣٣٤).

إذا ليلـــةٌ هَرَّمــــتْ يَومَهــــا أتــىٰ بعــد ذلــك يــومٌ فَتــيّ[(١)]

وقال الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا معشرَ الشباب إياكم والتسويفَ: سوفَ أفعلُ، سوفَ أفعلُ!»[(٢)].

لذا؛ فإنّ التسويفَ من أعظم الآفات في طريق طلب العلم، فاحذرْه - يا طالبَ العلم - أشدَّ الحذر، وكُنْ كما قال القائل:

إذا مـرَّ بـي يـومٌ ولـم أقتـبسْ هـدىً ولم أستفدْ عِلمًا، فما ذاك من عُمْري!

وقال غيرُه:

عَليـكَ بـأمْرِ اليـومِ لا تَنْتَظِـرْ غَـدًا فَمَـنْ لغَـدٍ مِـنْ حَـادثٍ بكَفِيـلِ؟

وكان أبو مسلم الخراساني كثيرًا ما يُنشِدُ:

ولا أُؤخّـرُ شُـغلَ اليـومِ عـن كسـلٍ إلـىٰ غـدٍ؛ إنّ يـومَ العـاجزين غَـدُ!

وقـال السـخاويُّ عـن شـيخِه الحـافظِ ابـنِ حجـر: «كانـت هِمَّتُـه المطالعـةَ والقراءةَ، والسَّماعَ والعبادةَ، والتصـنيفَ والإفـادةَ، بحيـثُ لـم يَكـنْ يُخْلِـي لحظـةً مِنْ أوقاتِه عن شيءٍ مِنْ ذلك، حتىٰ في حالِ أكْلِهِ وتَوجُّهِهِ وهو سالِكٌ، كما حكىٰ لي ذلك بعضُ رُفْقَتِهِ الذين كانوا معه في رحلتِهِ، وإذا أراد اللهُ أمرًا هيّأ أسبَابَه.

وقد سمعتُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول غيرَ مرةٍ: إنني لأتعجّبُ مِمَّن يجلسُ خاليًا عن الاشتغال! هذا أو معناه.

---

(١) الحماسة: لأبي تمام (٢/ ٥٦).

(٢) قِصَر الأمل: لابن أبي الدنيا (ص/ ١٤٢).

ويدلُّ علىٰ مِصداقِ قولِه، ما أخبرني به بعضُ أصحابنا أنَّه شاهدَه يومًا بالمدرسة الصالحيَّة النجْميَّة، وهو جالسٌ في بعض بيوتِها، ولم يكنْ عندَه إذْ ذاك شيءٌ مِنَ الكتب، فاستدعىٰ مِنْ بعضِ مَنْ حَضَرَه مُصْحفًا، فبادرَ لذلك، فأخذ في التلاوة منه، فمرَّ فيه علىٰ سورةٍ أخطأ الكاتبُ في عَدِّ آيِهَا، فكتب مقابلَها بالهامش: الصوابُ كذا، أوْ بلْ عِدَّتُها كذا! فلم يَسْهُلْ به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يَجلِسَ بطَّالًا. ولم يُخْلِ المصحفَ مع ذلك - مِنْ فائدة!

وهكذا كان دأبُه في غالب ما يَقِفُ عليه مِنْ الكتب العِلمية والأدبية وغيرِها»[١].

***

* - مِن المتقرِّرِ في قوانينِ الطَّلَبِ أنّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أنْ يَحويَ العلومَ كلَّها؛ لأنّ العلمَ بحرٌ لا ساحلَ لَه![٢].

فلو أنّ طالبَ علمٍ تفرَّغ لدراسة علمٍ من علوم المقاصد مثلًا عشرَ سنين لما اسْطَاع احتواءَه، فكيفَ بعدّة علومٍ؟!

ولقد صَدَقَ ابنُ أغنس حيثُ يقول:

ما أكثرَ العلمَ وما أوسعَهْ ... مَنْ ذا الذي يَقدرُ أنْ يَجمعَهْ

---

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١/ ١٧٠).

(٢) تكلّمتُ عن هذا العنصر أيضًا بشيءٍ من التفصيل في كتابي الآخَر (الإبداع العلمي)، في الفصل السَّادس: مُقوِّمَاتُ الإبداعِ العِلميِّ.

إنْ كنــــتَ لا بُـــدَّ لـــه طالبًـــا … مُحـــاولًا فالْتمِسَـــنْ أنفعَـــهْ[١]

وقال ابن معطي في مقدمة ألفيته:

وبَعــدُ فــالعلمُ جليـلُ القــدْرِ … وفي قليلـــهِ نفـــادُ العُمْـــرِ

فابــدأْ بمــا هــو الأهــمُّ فــالأهمْ … فالحــازمُ البــادئُ فيمــا يُسْــتَتَمْ

فــإنَّ مَــنْ يُــتقِنُ بعــضَ الفَــنِّ … يُضْــطَرُّ للبــاقي ولا يَسْــتغْني

وقال الآخَرُ:

مــا حَــوَىٰ العلــمَ جميعًــا أحــدٌ … لا، ولــو مارسَــه ألــفَ ســنهْ!

إنمــا العلــمُ كبحــرٍ زاخــرٍ … فاتّخـذْ مـن كـل شـيءٍ أحسَـنَهْ[٢]

لذا؛ فإنّ المطلوبَ مِن طالب العلم أمرانِ:

الأولُ: أنْ لّا يَطمعَ في احتواء جميعِ العلوم؛ فإنّ هذا لا سبيلَ إليه البتّةَ، ومَن حاولَ ذلك فشلَ ولابُدَّ، وانقطعَ، وكان كالـمُنْبَتِّ!

الثاني: أنْ يَتَخَصَّصَ ويَتَمَهَّرَ في فنٍّ أو فنّيْنِ أو ثلاثةٍ، ويأخذَ بنصيبٍ وطَرَفٍ من باقي الفنون[٣].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٣٧).

(٢) البيتان منسوبان لعليّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كما في روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار: للأماسي (ص/ ٤٦).
ويُنسبان أيضًا للإمام الشافعي، كما في ديوانه (ص/ ١٢٧).

(٣) لأنّ «القلوب تَرتاحُ إلىٰ الفنونِ المختلفةِ، وتَسْأمُ من الفنِّ الواحِدِ» كما قال الماورديُّ في أدب الدنيا والدين (ص/ ١٣).

قيل للشافعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: متىٰ يكونُ الرجلُ عالمًا؟ قال: «إذا تحقّقَ في علم الدين فعَلِمَه، وتعرَّضَ لسائر العلوم فنظَرَ فيما فاته، فعند ذلك يكون عالمًا؛ فإنه قيل لجالِينوس: إنك تأمرُ للدَّاء الواحد بالأدوية الكثيرة المجمَّعة! فقال: إنما المقصودُ منها واحدٌ، وإنما يُجعَلُ معه غيرُه لِتسْكُنَ حِدَّتُه؛ لأنّ الإفرادَ قاتلٌ!»[(١)].

وقال المبرِّدُ: «ينبغي لمن يُحبُّ العلمَ أن يَفْتَنَّ في كلِّ ما يقدرُ عليه من العلوم، إلّا أنه يكونُ مُفْردًا غالبًا عليه عِلمٌ منها، يَقصِدُه بعينِه ويُبالِغُ فيه». قال أبو جعفرٍ النحّاسُ: هذا من أحسنِ ما سمعتُ في هذا[(٢)].

وقال ابنُ حزمٍ: «مَنْ اقتصرَ علىٰ علمٍ واحدٍ لم يُطالِعْ غيرَه؛ أوشك أنْ يَكونَ ضُحْكَةً[(٣)]، وكان ما خَفِيَ عليه من عِلْمه الذي اقتصرَ عليه، أكثرَ مما

---

(١) إحياء علوم الدين: للغزالي (١/ ٢٦).

(٢) الفروع: لابن مفلح (٢/ ٣٥٧).

(٣) مما يؤيّد ما قاله؛ قصةٌ لطيفةٌ أوردها الخطيبُ البغداديُّ بسنده عن أبي حاتم سهل بن محمد السِّجِسْتاني، قال: «وَرَدَ علينا عاملٌ من أهل الكوفة، لم أرَ في عمّال السلطان بالبصرة أبرعَ منه، فدخلتُ مسلِّمًا عليه، فقال لي: يا سِجِسْتانيُّ، مَن علماؤكم بالبصرة؟».

قلتُ: الزِّيادِيُّ أعلمُنا بعلم الأصمعي، والمازنيُّ أعلمُنا بالنحو، وهلالُ الرأيُ أفقهُنا، والشَّاذَكُونيُّ مِن أعلَمِنا بالحديث، وأنا - رحمك اللهُ - أُنسَبُ إلىٰ علم القرآن، وابنُ الكلبيّ مِن أكْتبِنا للشروط، قال: فقال لكاتبه: إذا كان غدٌ فاجمعْهم إليَّ قال: فجَمَعَنَا.

فقال: أيُّكم المازنيُّ؟ قال أبو عثمان: ها أنا ذا يرحمك اللهُ، قال: هل يُجزئ في كفارة الظِّهار عِتقُ عبدٍ أَعْوَر؟ فقال المازنيُّ: لستُ صاحبَ فقهٍ رحمك الله، أنا صاحبُ عَربيّةٍ!

فقال: يا زِياديُّ، كيف يُكتَب بين رجل وامرأةٍ خالعها علىٰ الثلث من صداقها؟ قال: ليس هذا من عِلْمي، هذا من عِلْم هلالٍ الرأْيِ!

=

أدرك منه؛ لِتعلُّق العلومِ بعضِها ببعضٍ كما ذَكَرْنا. وأنها دَرَجُ بعضِها إلىٰ بعضٍ كما وَصَفْنا.

ومَنْ طَلَبَ الاحتواءَ علىٰ كلِّ عِلمٍ أوشكَ أن ينقطعَ وينحسرَ، ولا يحصلَ علىٰ شيءٍ، وكان كالمُحْضِرِ (١) إلىٰ غير غايةٍ؛ إذْ العمرُ يَقْصُر عن ذلك.

ولْيأخذْ من كلِّ علمٍ بنصيبٍ، ومقدارُ ذلك معرفتُه بأعراض ذلك العلم فقط، ثم يأخذُ مما به ضرورةٌ إلىٰ ما لا بدّ له منه كما وَصَفْنَا. ثم يعتمدُ العلمَ الذي يَسبِقُ فيه بطبعه وبقلبه وبحِيلته، فيستكثرُ منه ما أمكنَه، فربّما كان ذلك منه في عِلْمين أو ثلاثةٍ أو أكثرَ، علىٰ قَدْرِ زَكَاءِ فهمِه، وقوّةِ طبعِه، وحُضورِ خاطرِه، وإكبابِه علىٰ الطلَبِ، وكلُّ ذلك بتيسير الله تعالىٰ؛ فلوْ بإرادة المرءِ

=

قال يا هلالُ، كم أسند ابنُ عونٍ عن الحسن؟، قال: ليس هذا من عِلْمي، هذا من عِلْم الشَّاذَكُوني!

قال: يا شَاذَكُوني، مَنْ قرأ: «تَثْنُونِي صُدُورُهُم»؟ قال: ليس هذا من عِلْمي هذا من عِلْمِ أبي حاتم!

قال: يا أبا حاتم، كيف تَكتبُ كتابًا إلىٰ أمير المؤمنين تَصِفُ فيه خَصَاصَةَ أهل البصرة، وما أصابهم في الثمرة، وتسألُه لهم النَّظَرَ والنَّظِرَةَ؟ قال: لستُ - رحمك الله - صاحبَ بلاغةٍ وكتابةٍ، أنا صاحبُ قرآنٍ!

فقال: ما أقبح الرجلَ يتعاطىٰ العلمَ خمسينَ سنةً لا يعرف إلا فنًّا واحدًا! حتىٰ إذا سُئل عن غيره لم يَجُلْ فيه ولم يَمُرّ، ولكنّ عالمَنا بالكوفة الكِسَائيُّ لو سُئل عن كلِّ هذا لأجابَ». تاريخ بغداد (١٣/ ٣٤٥).

وانظر: نثر الدرّ في المحاضرات: للرازي (٥/ ٧٦)، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لابن الجوزي (٩/ ١٧١)، وإنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة: للقفطي (٢/ ٢٦٠).

(١) المُحْضِر: هو الفرس إذا عَدَا عَدْوًا شديدًا، مِن أَحْضَرَ فهو مُحْضِرٌ إذا عَدَا. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير (١/ ٣٩٨)، ومجمع بحار الأنوار: للفتّني (١/ ٥٣١).

كانَ، لكانَ مُنىٰ كلِّ أحدٍ أنْ يكونَ أفضلَ الناس. والفهمُ والعنايةُ مقسومانِ كقِسمةِ المالِ والحالِ: والحَظُّ مَقْسُومٌ فأَجْمِلْ في الطَّلَبْ»(١).

وقال ابنُ الجوزي: «نظرتُ إلىٰ عُلوّ هِمّتي، فرأيتُها عجبًا، وذلك أنني أروم من العلم ما أتيقّن أني لا أصِلُ إليه؛ لأنني أحبُّ نيلَ كلِّ العلوم علىٰ اختلاف فنونها، وأريدُ استقصاءَ كلِّ فنٍّ! هذا أمرٌ يَعْجِزُ العمرُ عن بعضه. فإنْ عَرَضَ لي ذو هِمّةٍ في فنٍّ قد بلغ منتهاه، رأيته ناقصًا في غيره، فلا أعدُّ هِمّتَه تامةً، مثلُ المحدِّث فاته الفقهُ، والفقيهُ فاته علمُ الحديث، فلا أرىٰ الرِّضا بنقصان العلوم إلا حادثًا عن نقص الهِمّة!»(٢).

❊❊❊

❊ - تباعَدْ ما استطعتَ عن علم الكلام، والفلسفة، والمنطق، والجدَل، وهي ما تُسمّىٰ علومَ الأوائل. فإنها ليستْ من علوم أهل الإسلام!

وما قد يكونُ فيها من حقٍّ فإنه لا يَحتاجُ إليه الذكيُّ، ولا يَنتفِعُ به البليدُ!(٣).

---

(١) رسالة مراتب العلوم (رسائل ابن حزم) (٤/ ٧٧-٧٨).

(٢) صيد الخاطر (ص/ ٤٠١).

وقال في المصدر نفسه (ص/ ٦٠٤): «الموفّقُ مَن طلبَ المهمَّ؛ فإنّ العمرَ يَعجزُ عن تحصيل الكلّ، وجُمهورُ العُلوم: الفقهُ».

(٣) قال ابنُ القيّم: «زعم أرسطو وأتباعُه أنَّ المنطقَ ميزانُ المعاني، كما أنَّ العروضَ ميزانُ الشعر!

وقد بيّن نُظّارُ الإسلام فسادَ هذا الميزان وعِوَجَه، وتعويجَه للعقول، وتخبيطَه للأذهان. وصنّفوا في رَدِّه وتهافته كثيرًا.

=

=

وآخرُ من صنّف في ذلك شيخُ الإسلام ابن تيمية، ألّف في ردِّه وإبطالِه كتابيْن: كبيرًا، وصغيرًا، بيّن فيه تناقضَه وتهافتَه وفسادَ كثيرٍ من أوضاعه. ورأيتُ فيه تصنيفًا لأبىٰ سعيد السِّيرافي». إغاثة اللهفان (٢/ ٢٦٠).

- وقال أيضًا: «أما المنطقُ فلو كان عِلمًا صحيحًا كان غايتُه أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها، فكيف وباطلُه أضعافُ حقّه؟! وفسادُه وتناقضُ أصوله واختلافُ مبانيه تُوجِبُ مراعاتُها الذهنَ أن يَزِيغَ في فِكْره.

ولا يُؤمِنُ بهذا إلّا من قد عرفَه وعرف فسادَه وتناقضَه ومناقضَة كثيرٍ منه للعقل الصريح!

وأخبرَ بعضُ من كان قد قرأه وعُنِيَ به أنه لم يزل متعجِّبًا من فسادِ أصوله وقواعده، ومبايَنتِها لصريح المعقول، وتضمّنِها لدعاوٍ محضةٍ غيرِ مدلولٍ عليها، وتفريقِه بين متساوييْن وجمعه بين مختلفيْن! فيحكم علىٰ الشيء بحكمٍ وعلىٰ نظيره بضدّ ذلك الحكم! أو يحكم علىٰ الشيء بحكمٍ ثم يحكم علىٰ مضادِّهِ أو مناقِضِه به.....

وما كان من هَوَس النفوس بهذه المنزلة فهو بأن يكون جهلًا أولىٰ منه بأن يكون عِلمًا تعلُّمُه فرضُ كفايةٍ أو فرضُ عينٍ!

وهذا الشافعيُّ وأحمدُ وسائرُ أئمة الاسلام وتصانيفُهم، وأئمةُ العربية وتصانيفُهم، وأئمةُ التفسير وتصانيفُهم لمن نظر فيها؛ هل راعوا فيها حدودَ المنطق وأوضاعَه؟ وهل صحَّ لهم عِلمُهم بدونه أم لا؟ بل هم كانوا أجلَّ قدرًا، وأعظمَ عقولًا من أن يَشغلو أفكارهم بهذَيَان المنطقيّين!

وما دَخَلَ المنطقُ علىٰ علمٍ إلا أفسدَه وغيَّرَ أوضاعَه وشَوَّشَ قواعدَه!!». مفتاح دار السعادة (١/ ٤٨٣ - ٤٨٥).

- وقال أيضًا: «المتخلِّفُ يقول: معي آلةُ المنطق، والكُلّيّاتُ الخمسُ، والمقولاتُ العشرُ، والمختلِطاتُ، والموجِّهاتُ أهتدي بها!

والرسولُ يقول: معي كتابُ الله، وكلامُه، ووحيُه.

والمتخلِّفُ يقول: معي العقلُ!

والرسولُ يقول: معي نورُ خالقِ العقلِ، به أَهدِي وأهتدِي.

والرسولُ يقول: قال اللهُ كذا، قال جبريلُ عن الله كذا.

والمتخلِّف يقول: قال أفلاطونُ، قال بقراطُ، قال أرسطو كذا، قال ابنُ سينا، قال الفارابيُّ!». الصواعق المرسلة (٣/ ٨٩١).

=

ولله دَرُّ الإمامِ الذهبيِّ إذْ يقول محذِّرًا طلّابَ العلم من هذه العلوم[١]:

أَفِـقْ يَـا مُعَنَّـىٰ بِجَمْـعِ الحُطَـا ... مِ وَدَرْسِ الكَـلَامِ وَمَـيْنٍ يُصَـاغُ

وَلَازِمْ تِـلَاوَةَ خَيْـرِ الكَـلَا ... مِ وَجَانِبْ أُنَاسًا عَنِ الحَقِّ زَاغُوا

وَلا تُخدَعَنْ عَنْ صَحِيحِ الحَدِيثِ ... فَمَـا فِـي مُحـقٍّ لِـرَأْيٍ مَسَـاغُ

وَمَـا للتَّقِـيِّ وَلِلبَحْـثِ في ... (عُلُـومِ الأَوَائِـلِ) يَوْمًـا فَـرَاغُ

بلَاَغًـا مِـنَ اللهِ فَاسْـمَعْ وَعِـشْ ... قَنُوعًـا، فَمَـا العَـيْشُ إِلَّا بَـلاغُ!

وقال عن ابنِ حزمٍ الظاهريِّ: «ولقد وقفتُ له علىٰ تأليفٍ[٢] يَحُضُّ فيه علىٰ الاعتناء بالمنطق، ويقدِّمُه علىٰ العلوم، فتألَّمتُ له؛ فإنه رأسٌ في علوم الإسلام، مُتبحِّرٌ في النقل، عَديمُ النظير، علىٰ يُبْسٍ فيه، وفَرْطِ ظاهريةٍ في الفروع لا الأصول»[٣].

❊❊❊

=

وانظر المناظرة العجيبة التي جرتْ بين متّىٰ بن يونس القنائي الفيلسوف وبين الإمام أبي سعيد السيرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات في نقض المنطق وإبطاله، في معجم الأدباء (٢/ ٨٩٤ - ٩٠٨) وقد فَلَجَ فيها السيرافيُّ بالحجّة وأفحم خصمَه أيّما إفحام!

لطيفة: قال النُّعيميُّ عن ابن الصَّلاح: «كان لا يُمكِّنُ أحدًا في دمشق من قراءة المنطق والفلسفة، والملوكُ تُطيعه في ذلك» الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٢١).

(١) انظر الأبيات في: أعيان العصر وأعوان النصر (٤/ ٢٩٤)، والوافي بالوفيات: للصفدي (٢/ ١١٧).

(٢) اسمُه: «التقريب لحدِّ المنطق» وهو مطبوعٌ.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٦).

* - اِحذرْ سُلوكَ الطَّريقةِ الأنْبُوطِيّة[١] التي تَقْلِبُ قَوَاعدَ العُلُومِ الجليلةَ

---

(١) نسبةً إلىٰ الشيخ عامر الأَنْبُوطِي الشافعي (ت ١١٧٣هـ) عفا اللهُ عنه، ولعلّه أوّلُ مَنْ سَنَّ هذه الطريقةَ الـمَرْذولَة!!

قال الجَبرتي في ترجمته: شاعرٌ مُفلِقْ، هِجاءُ لَهيبِ شَرارِه مُحْرِقْ.

كان يأتي من بلده يزور العلماءَ والأعيانَ، وكلّما رأىٰ لشاعرٍ قصيدةً سائرةً قلَبَها وزنًا وقافيةً إلىٰ الهَزْل والطبيخ! فكانوا يَتَحَامَوْنَ عن ذلك.

وكان الشيخُ الشبراويُّ يُكْرِمُه ويَكْسِيه ويقول له: يا شيخُ عامر؛ لا تُزفِّرْ (مِن الزَّفَرُ وهو: اللحم، والأطعمة المطبوخة بالدَّسَم) قصيدتي الفُلانيّة؛ وهذه جائزتُك!

ومن بعده الشيخُ الحفنيُّ؛ كان يُكرِمُه ويُغدِقُ عليه ويستأنسُ لكلامه.

وكان شيخًا مُسنًّا صالحًا، مُكحَّلَ العينين دائمًا، عجيبًا في هيئته!

ومِن نظمه: ألفيةُ الطعام علىٰ وزن ألفية ابن مالك! وأولُها:

يَقُولُ عامرٌ هو الأنْبُوطِي … أحمدُ ربي لستُ بالقَنُوطِ

عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٣٠٦).

قلتُ: ومنها قولُه:

وأستعينُ الله في ألفيّةْ … مقاصدُ الأكْلِ بها مَحْوِيّةْ!

فيها صنوفُ الأكلِ والمطاعِمْ … لذّتْ لكلِّ جائعٍ و هائمْ

طعامُنا الضَّاني لذيذٌ للنَّهِمْ … لحمًا وسَمنًا ثم خُبزًا فالْتَقِمْ!

فإنها نفيسةٌ والأكلُ عَمّ … مَطاعِمًا إلىٰ سَناها القلبُ أَمّ

وقولُه فيها:

والأصلُ في الأخبازِ أن تُقمَّرَا … وجوّزوا التَّقديدَ إذْ لا ضَرَرَا!

وامنعهْ حين تَشويَ الخرفانِ … فإنه يُعيقُ أكلَ الضاني!

=

=

ومن جنس هذا العبث بألفيّة ابن مالك، قولُ بعض الأزهريّين:

كلامُنا لفظٌ مفيدٌ جَاكْ وَجَعْ! اسمٌ وحرفٌ ثم فِعلٌ يا جَدَعْ!

وقولُ الآخر:

وكلُّ حرفٍ مُستحقٌّ للبِنا والأصلُ في المجنون أن يُسَكَّنا!!

وقولُ بعضِهم - كما في «مُلاعَبة الصَّيْد» لابن عقيل الظاهري (ص/ ٢٢٦) -:

وجوّزوا دخولَ لمْ على المُضِيْ كلمْ دَعا، ولم سَعىٰ، ولمْ رَضيْ!

وقد تُسمّىٰ لغةَ العجَّاجي وإنها واضحةُ المنهاجِ!

وقال آخَرُ وقد أفْحَشَ:

ترخيمًا احذفْ آخِرَ الحَواشِيْ كَيَا...... لِمَنْ دَعَا خَرَاشِي!!

- ومما يلتحق بهذا الباب: ما ذكروه عن الشيخ القاضي محمد بن إبراهيم البواردي (ت١٤٠٤ هـ) من أنه كان يَحضُرُ في صِباه مع زملائه شرْحَ الرحبيّة في علم الفرائض عند الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ، وكان المكلَّفُ بقراءة الأبيات بين يَدَيْ الشيخ زميلٌ لهم ضَريرٌ، وكانوا يُلقّنون زميلَهم الضريرَ الأبياتَ التي سيقرؤُها حتىٰ يَحفظَها ثم يقرؤُها علىٰ الشيخ في اليوم التالي، وكان للشيخ شاةٌ يُربِّيها، وكان الطلابُ ينتظرون أن يذبحَها الشيخُ ليُطعمَهم من لحمها، ويهابون أن يطلبوا من الشيخ ذبحَها، فلما طال عليهم الانتظارُ، احتال البواردِيُّ حِيلةً عجيبةً؛ وهي أنه عندما لقَّنَ الضريرَ هذه الأبيات من الرحبية:

وَإِنْ تَكُنْ مِنْ أَصْلِهَا تَصِحُّ فَتَرْكُ تَطْوِيلِ الْحِسَابِ رِبْحُ

فَأَعْطِ كُلًّا سَهْمَهُ مِنْ أَصْلِهَا مُكَمَّلًا، أَوْ عَائِلًا مِنْ عَوْلِهَا

زاد عليها من نظمه بيتين، أوْهم الضريرَ أنهما من أبيات الرحبية، وهي:

وإن تكنْ من صَدْرها تَكُحُّ فإنّ أولىٰ ما يكونُ الذَّبْحُ!

=

=

فــأعْطِ كُـــلًّا ســـهمَه مـــن لحمِهـــا مكَمَّـــلًا، أو عـــائلًا مـــن شـــحمِها!

يَعني الشاةَ! فقرأهما الضريرُ علىٰ الشيخ ظنًّا منه أنهما من الرحبية! ففطن الشيخُ لما أرادوا، وضحك، وذبحها وأطعمهم! وانظر كتاب: من طرائف العلماء المعاصرين: لعبد الرحمن الرحمة (ص/ ٦٥).

لطيفةٌ: ظَهَرَ لي من خلال قراءاتي عن الأنبوطيِّ هذا، أنَّ نظمَه جُلّه - إنْ لم يكنْ كلّه - في المطاعمِ والمشاربِ!! فمن ذلك قولُه:

وخيـــرُ مـــا في غَرْبِنـــا يُلْـــتَمَسُ حَـــبٌّ مُكَرْكَـــبٌ يُســـمَّىٰ الكُسْـــكُسُ!

وقَهْوَتـــانِ في الصـــباحِ والمسَـــا ومَـــنْ يَـــزِدْ عليهمـــا فقـــدْ أسَـــا!

ومِن القصائد المشهورة التي زَفَّرها!:

١- لاميّة العجم للطُّغرائي، التي مطلعُها:

أَصَـالَةُ الـرَّأْيِ صَـانَتْنِي عَـنِ الْخَطَـلِ وَحِلْيَـةُ الْفَضْـلِ زَانَتْنِـي لَـدَىٰ الْعَطَـلِ

حيث قال الأنبوطيُّ:

أنـــاجرُ الضـــأن تِريـــاقٌ مـــن العِلـــلِ وأصـــحُنُ الـــرزِّ فيهـــا منتهـــىٰ أملـــي!

أكلـي غـداءً وأكلـي في العشـاء علـىٰ حـدٍّ سـواءٍ إذا اللحـمُ السـمينُ قُلِـي!

فِـيمَ الإقامـةُ بالأريـاف لا شِـبَعي فيهـا ولانُزهتـي فيهـا ولا جَـذَلي

نـاءٍ عـن الأهـل خـالِ الجَـوفِ منقبـضٌ كمُعـدَمٍ مـاتَ مـن جُـوعٍ ومـن قَشَـل

فـلا خليـلٌ بـدفع الجـوع يرحمُنـي ولا كـريمٌ بلحـم الضـأن يَسـمحُ لـي!

طـال التلهّـفُ للمطعـوم واشـتعلتْ حُشاشـتي بحَمـام البيـت حـين قُلِـي!

أريـد أكْـلًا نفيسًـا أسـتعينُ بـه علىٰ العبـاداتِ والمطلوبِ مِن عَملي!

=

إلىٰ ضَربٍ من ضُروبِ الهَزْلِ والعَبَثِ والتَّنَدُّر!

فإنّ في هذا هَتْكًا لحُرْمَةِ العلمِ، واسْتِخْفَافًا بِمُواضَعَاتِ العلماء، وتهوينًا لجهودِهم في تقريرِ الفنونِ وتقعيدِ العلومِ التي تَعِبَوا في تحريرِها وتحبيرِها أكثرَ من عشرةِ قُرونٍ!!

قال ابنُ الجوزي: الواجبُ علىٰ العالم صِيانةُ عِلْمه، وإقامةُ قَدْر العلم عندَ العوامّ. **فقد قال بعضُ السلف**: كُنّا نمزحُ ونضحكُ؛ فإذْ صِرْنا يُقتَدىٰ بنا، فما أَراه يَسَعُنا ذلك. **وقال سفيانُ الثوري**: تعلَّموا هذا العلم، واكْظِمُوا عليه،

=

والدهرُ يفجع قلبي من مطاعمه ... بالعَدْسِ والكِشْك والبيسار والبصل!

قلتُ: الأناجِرُ: مفردها أنجر. وهو وعاءٌ دائريٌّ لا عُروة له. تكملة المعاجم العربية: لدوزي (١٠/ ١٧٣).

والقَشَل: يُكْنىٰ به عن الفقر، وهي كلمةٌ مِصريةٌ عاميةٌ مبتذلَةٌ. تاج العروس: للزبيدي (٣٠/ ٢٥٣).

٢- لاميّة ابن الوردي التي مطلعُها:

اعتزلْ ذكرَ الأغاني والغَزَلْ ... وقُلِ الفصلَ وجانبْ من هَزَلْ

فقد زَفَّرَها بقولِه:

اجتنبْ مَطعومَ عَدْسٍ وبصلْ ... في عَشاءٍ، فهو للعقل خَبَلْ!

وعن البيسار لا تحفلْ به ... تُمسِ في ضعفٍ وسُقمٍ وعِلَلْ

واحتفلْ بالضأنِ إن كنتَ فتىً ... زاكيَ العقل ودعْ عنك الكسلْ

من كبابٍ وضُلوعٍ قد زكتْ ... أكلُها ينفي عن القلب العِلَلْ!

ولا تخلِطُوه بهَزْلٍ فتمُجُّه القلوبُ[١].

أمَّا إنْ استُخدمَ النظمُ العِلميُّ في غرضٍ صحيحٍ، كما فعل جمالُ الدين ابنُ نُباته، حيثُ أخذ أَكثرَ أبيات «مُلحة الإعْرَاب» للحريريّ فضمَّنها قصيدةً امتدح بها الشيخَ عليَّ بنَ عبد الكافي السُّبْكي، فلا بأسَ حينئذٍ[٢].

***

*** - ينبغي الموائمةُ بين الدروسِ النِّظاميَّةِ والدروسِ العِلميَّةِ الخاصّةِ أو العامّة التي تُقام في المساجدِ والحِلَق ونحوها، والاستفادةُ إلىٰ أقصىٰ حدٍّ منها جميعًا، وعدمُ المصَادَمةِ بينها؛ بحجّة أن هذه أنفعُ من تلك!**

فما زال العلماءُ وطلّابُهم يَنْتَابُونَ دُروسَ العلم في المساجد والحِلَق، وفي المدارس النظاميّة التي كان يبْنِيها لهم الخلفاءُ والأمراءُ[٣]، دون أن يَحصُلَ

---

(١) صيد الخاطر (ص/ ٣٩١ - ٣٩٢) بتصرّفٍ يسيرٍ.

(٢) انظرها بطولها في طبقات الشافعية الكبرىٰ (٩/ ٣٠٠ - ٣٠٧). أولُها قولُه:

صـــرَّفتُ فعلـــي فِـــي الأســـىٰ وَقَـــوْلِي ... بِحَمْـــدِ ذي الطَّـــوْل الشَّـــديد الْحَـــوْل

وقال في آخرها:

دُونَكَهـــــــــــا مَعْسُـــــــــــولةَ الْآدَابِ ... حـــــلاوةً في «مُلْحـــــةِ الإِعْـــــرَابِ»

(٣) كانت المدارسُ النِّظاميّةُ التي بناها السلاطينُ والتجّارُ والمياسيرُ وغيرُهم، وأوقفوها علىٰ العلماء وطلّاب العلم، ودفعوا لهم الإعاناتِ والأرزاقَ أثناءَ دراستهم وتدريسهم فيها، تملأُ الآفاق!

وكان طلّابُ العلم يتنافسون علىٰ الالتحاق بها، والإعادة فيها - مثلما هي وظيفةُ (معيدٍ) في الجامعات اليوم! - مع دراستهم في المساجد والجوامع.

=

بينها صِدامٌ علميٌّ كما يحصلُ من بعضِ طُلّاب العلم اليوم![١].

=

وكان كبارُ علماء الإسلام من أمثال: ابن الصلاح، والنووي، والمزّي، وابن كثير، والسُّبكي، والعلائي، يتنافسون علىٰ تولّي مشيختها، والتدريس فيها.
وحَسْبُكَ أنْ تعلمَ أنّ الشيخَ عبدَ القادر النُّعيميّ (ت٩٢٧هـ) قد ذكر في كتابه: «**الدارس في تاريخ المدارس**» مئاتِ المدارسِ ودُورِ العلمِ والمعاهدِ التي بناها السلاطينُ والتجّارُ والمياسير. هذا في دمشقَ وحدَها! فما بالُك بسائر أصقاع العالم الإسلاميّ؟!

(١) أليس من السَّذَاجة تَحسُّسُ بعض الطلّاب من الدروس والمحاضرات النِّظاميّة؛ مع أنَّ ذلك الأستاذَ الذي يُدرِّس في المسجد أو منزله؛ هو نفسُه - غالبًا - الذي يُدرِّس في المعهد أو في الجامعة؟! فهل يكون هنا بشخصيَّةٍ وهناك بشخصيّةٍ أخرىٰ؟!
بل إنَّ تحضيرَ الأستاذ للمُحاضرة التي يُلقيها في المعهد أو في الجامعة؛ أقوىٰ - في الغالب - من تحضيره للدرس الذي يُلقيه في المسجد أو في المنزل والذي يكون غالبًا من طَرَف الذِّهْن! وهذا أمرٌ معروفٌ.
كما أنّ هناك فنونًا كثيرةً تُدرَّسُ في الجامعات والمعاهد لا تُدرَّسُ في المساجد.
ثمّ إنّ هذا العملَ قادحٌ في الإخلاص؛ فما دام أنّ الطالبَ مقتنعٌ بأنَّ هذه الدروسَ النظاميّةً لا تُجدي نفعًا؛ فلماذا يُتعِب نفسَه بالحضور كلَّ يوم ساعاتٍ وساعاتٍ؟!
فليس مقصودُ الطالبِ العلمَ إذن، وإنما مقصودُه تلك الورقةُ التي يستلمُها في آخر سنوات الدراسة، التي تُسمّىٰ (الشَّهادة)! وهي شهادةُ زُورٍ في حقِّ مَنْ هذا حالُه!!
- ولقد أحسن أحمدُ شوقي حيثُ يقول:

أُطلبُوا العلمَ لِذاتِ العلمِ لا ... لشهاداتٍ وآرابٍ أُخَرْ!

- وقال إلياسُ قنصل:

رأيتَ الأماني كلَّها في شهادةٍ ... مديدُ الغنىٰ والجاهِ بعضُ ثمارِها
فلم تسْعَ للعِرفان جَهْدَكَ، إنما ... بذلتَ المساعي ضارعًا لادِّخارِها
فلا يَرتفعْ بالزَّهْوِ رأسُكَ، فهْيَ لا ... تشارِكُ إلا عالمًا بفَخَارِها

=

*** – مِن أعظم المحاذِير التي يجب علىٰ طالب العلم أنْ يتجنَّبها: التَّعصُّبُ الأعمىٰ للحَرَكَاتِ والأحْزابِ والمشايخِ، والدخولُ في الحِزْبيّةِ الضَّيِّقةِ، والسُّقوطُ في حَمْأة التَّبَعيَّة المُطْلَقة لها دون وَعْيٍ ولا تبصُّرٍ.**

ولْيُعلَمْ أنه لا يُوجد شيءٌ أعظمُ تَفْوِيتًا وتضييعًا للفوائد والأوقات علىٰ طالب العلم؛ منْ هذه الدوائر المغلَقَة؛ التي يَحشُرُ طالبُ العلم فيها نفسَه! مع ما تُورِثُ صاحبَها من قَسوةِ القلب، وسُوءِ الظنّ، وحُبِّ الظهور، واتِّباعِ الهوىٰ،

=

وكَمْ مِنْ شَهاداتٍ يَغُرُّ جَلالُها ... وقيمتُها النَّقْشُ الذي في إطارِها!

رباعيات مختارة (ص/ ٣١).

– ولقد بَلَغَنا من الثقاتِ أنّ طالبًا من طلّاب السنة الأخيرة في الجامعة، سألَ الشيخَ العلّامةَ/ محمدَ الأمين الشنقيطي (صاحبَ أضواء البيان) عن تعريفِ شهادة الزُّور، فأجابه الشيخُ علىٰ البديهة: «هي التي ستحصلُ عليها بعد شَهرينِ!!».

فليتَ طُلابَ العلم يَعُونَ هذا!!

ضميمة = قلتُ: ومِن شهاداتِ الزُّور في هذا الزمان! إجازةُ بعضِ المُشْتغلين بالحديث طلابَهم إجازةً عامةً بجميع الكتبِ والمرويّاتِ؛ بدعوىٰ تحصيل بركة الإسناد، زعموا! مع أنّ المُجيزَ والمُجازَ له لم يَقرأوا علىٰ الأشياخ شيئًا منها! أو ربّما قرأوا نُتَفًا يسيرةً!

وهؤلاء كما قال الحاكم النيسابوري عن طبقةٍ من المجروحين: «حملهم الجهلُ والشَّرَهُ علىٰ أنْ حدّثوا بتلك الكتب من كتبٍ مُشتراةٍ، ليس لهم فيها سماعٌ ولا بلاغٌ، وهم يتوهّمون أنهم في رواياتها صادقون. وهذا النوعُ مما كَثُر في الناس، وتعطاه قومٌ من أكابر العلماء والمعروفين بالصلاح، وكلُّ مَنْ طلبه في زماننا عايَنَه!!». المدخل إلىٰ معرفة كتاب الإكليل (ص/ ١٥٦).

وقال أبو نصرٍ السِّجْزي: «سمعتُ جماعةً من أهل العلم يقولون: قولُ المحدِّث: قد أجزتُ لك أن ترويَ عني، تقديرُه: أجزتُ لك ما لا يجوزُ في الشرْع؛ لأنّ الشرْعَ لا يُبيحُ روايةَ ما لم يسمعْ!». معرفة أنواع علوم الحديث: لابن الصلاح (ص/ ١٥٢).

وانظر تحرير علوم الحديث: لعبد الله الجُديع (١/ ١٥٢ – ١٥٣).

وكثرةِ التعالي، والرغبةِ في التسلّط، والبحثِ عن الترأُّس، والاشتغالِ بما لا ينفع، وشَحْنِ النفوس بالعداوة والبغضاء، والاستهانةِ بالوقيعةِ في الأعراضِ والأغراضِ، إلىٰ غيرِ ذلك من العظائمِ الفَظِيعَة، والمفاسدِ الشَّنِيعَة!!

ومِن وراءِ ذلك أمرانِ خطيرانِ:

أولُهما: أنها تُقلِّلُ - إنْ لم نقلْ تَمنعُ - الاستفادةَ من علوم الآخَرين (من خارج الحِزْب أو الطائفة!)، وفيهم علماءُ أجِلّاء، وأساتذةٌ فُضَلاء.

وثانيهما: أنها شَغَلَتْ الطُلاَّبَ بالنِّقاشَاتِ والرُّدودِ العقيمةِ، التي ضيّعتْ أوقاتَهم، وبدّدتْ جُهودَهم؛ فيما لا طائل مِن ورائه عند التَّحقيق والتَّأَمُّل!

ولهذا تجدُ أدْواءَ الغِيبةِ، والنميمةِ، والسبِّ، والثَّلْبِ، وتصيُّدِ العَثَراتِ، - وواأسفىٰ - قد فَشَتْ بين طُلاب العلم؛ بسبب استفحال هذا الدّاءِ الدَّوِيِّ!

حتىٰ صار حالُ بعضِهم كحالِ سيفِ الدّينِ السامَرِّي إذْ قال:

يـا رَبُّ مـا لـيْ غيـرُ سَـبِّ الـورىٰ ... أرجــو بــه الفــوزَ مــن النــارِ!!

أو ما جاء في «مطلب الجواب بفصل الخطاب» للّمتوني- كما في الحاوي للفتاوي للسيوطي(١/ ٢٨٦) - حيث قال عن التَّكْرُور[١]: «مِنهم مَن حِرْفتُه أن يكـونَ نمّامًـا، أو مُغتابًـا، أو مُتجسِّسًـا، ومِنهم مَن حِرْفتُه معـاداةُ العلمـاء والأتقياء والصالحين!!».

وفي هؤلاء يَصْدُقُ ما روىٰ أبو سليمان الخطابي عن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «ما في الأرض آدميٌّ إلا وفيه شَبَهٌ من بعض البهائم، فمِنهم مَنْ

---

(١) هم قومٌ يسكنون بلدةً في غرب إفريقيا حولَ مالي وغانا، في عصر المؤلِّف.

يُقدِم إقدامَ الأسد، ومِنهم مَنْ يَعْدُو عَدْوَ الذئب، ومِنهم مَنْ يَنبَح نُباحَ الكلاب، ومنهم من يَتَطوَّس كفعل الطاووس، ومنهم من يَشْرَهُ شَرَهَ الخِنزير!».

وفي روايةٍ: «منهم من يُشبِهُ الخنزيرَ، إذا أُلقِيَ إليه الطعامُ الطيّبُ تركَه، وإذا قام الرجلُ من رَجيعه وَلَغَ فيه!»، وكذلك تجد من الآدميينَ مَن لّو سمع خمسينَ حِكمةً لم يَحفظْ منها واحدةً! فإن أخطأتَ واحدةً حفظها، ولم يجلسْ مجلسًا إلّا رواها عنك!! ثم قال: فاعلم يا أخي أنك إنما تعاشر البهائمَ والسباعَ، فبالغْ في الحذار والاحتراز!(١).

ويقول الإمامُ ابنُ رجب: «يأبىٰ اللهُ العِصمةَ لكتابٍ غيرِ كتابِه، والـمُنصِفُ مَنِ اغْتفرَ قليلَ خطأِ المرءِ في كثيرِ صوابِه»(٢).

فأين العلمُ إذًا؟! وأين آدابُ الطَّلَب؟! وأين ذُهِبَ بنا عن المقصود الحقيقيّ من طلب العلم؛ وهو العملُ؟!!

وما أحسنَ قولَ أبي إسحاقَ الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإن أُعطيتَ فيه طُولَ باعٍ ... وقال الناسُ: إنكَ قد عَلِمْتا

فلا تأْمَنْ سُؤالَ الله عنهُ ... بتوبيخٍ: عَلِمتَ؛ فهل عَمِلْتا؟

فرأسُ العِلْمِ تقوىٰ الله حَقًّا ... وليس بأنْ يُقالَ: لقد رَأَسْتَا!

ولذا؛ فإنّ مَنْ وَلَجَ هذا الطريقَ الـمُعْوجَّ لا يكادُ يُرجَىٰ فَلاحُه، **قال يحيىٰ بنُ أبي طالب: سمعتُ أبا داود يقول:** «كُنْتُ يَوْمًا ببابِ شُعْبَةَ، وكان الـمَسْجِدُ

---

(١) **انظر**: مفاتيح الغيب: للرازي (١٢/ ٥٢٦)، والبحر المحيط: لأبي حيان (٤/ ٥٠٢).

(٢) تقرير القواعد (١/ ٤).

مَلْآنَ، قال: فَخَرَجَ شُعْبَةُ فَاتَّكَأَ عَلَيَّ، وقال: يا سُلَيْمَانُ، تُرَىٰ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ يَخْرُجُونَ مُحَدِّثِينَ؟ قُلْتُ: لَا، قالَ: صَدَقْتَ، وَلَا خَمْسَةٌ؟ قُلْتُ: خَمْسَةٌ؟! قَالَ: نَعَمْ، يَكْتُبُ أَحَدُهُمْ فِي صِغَرِهِ ثُمَّ إذا كَبِرَ تَرَكَهُ، وَيَكْتُبُ أَحَدُهُمْ فِي صِغَرِهِ ثُمَّ إذا كَبِرَ يَشْتَغِلُ بِالْفَسَادِ! قال: فَجَعَلَ يُرَدِّدُ عَلَيَّ، قالَ أبو دَاوُدَ: ثُمَّ نَظَرْتُ بَعْدُ، فما خَرَجَ مِنْهُمْ خَمْسَةٌ!!»[(١)].

قلتُ: وأيّ فسادٍ أعظمُ من الاشتغال بالوقيعةِ في العلماء وطلبة العلم، والتشْغيبِ عليهم؟!

قال العلّامةُ السعديُّ: «ولْيَحذرْ من الاشتغالِ بالناس، والتفتيشِ عن أحوالهم، والعَيبِ لهم؛ فإن ذلك إثمٌ حاضرٌ، والمعصيةُ من أهل العلم أعظمُ منها مِن غيرهم، ولأنّ غيرَهم يَقتدي بهم، ومَن كان طبعُه الشرُّ مِن غيرهم جعلهم حجةً له؛ ولأن الانشغالَ بالناس يُضيِّع المصالحَ النافعةَ والوقتَ النفيسَ، ويُذهِبُ بهجةَ العلم ونورَه»[(٢)].

وقد نبَّه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية وتلميذُه ابنُ القيِّم رَحِمَهُمَاٱللَّهُ علىٰ خطورة هذا الأمر في كثيرٍ من كلامهما، وكأنهم يَروْنَ ما نُعانيه اليومَ رأيَ العين!

فقال ابنُ القيّم: «**البصيرُ الصادقُ**: يَضربُ في كلِّ غنيمةٍ بسهمٍ، ويُعاشرُ كلَّ طائفةٍ علىٰ أحسنَ ما معها. ولا يَتحيَّزُ إلىٰ طائفةٍ، ويَنأىٰ عن الأخرىٰ بالكُلّيّة: أن لّا يكون معها شيءٌ من الحقّ. فهذه طريقةُ الصادقين، ودعوىٰ الجاهلية كامنةٌ في النفوس.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي: للخطيب البغدادي (١/ ١١٣).

(٢) الفتاوىٰ السعدية (ص/ ٤٦١).

ولا أعنـــي بـــذلك أصْـــغَرَيْهِم ولكنـــي أُريـــد بـــه الـــدُّوَيْنا

سمع النبيُّ ﷺ في بعض غزواته قائلًا يقول: يا لَلمهاجرين، وآخَرَ يقول: يا لَلأنصار! فقال: «ما بالُ دعوىٰ الجاهلية، وأنا بين أَظْهُرِكم؟!».

هذا، وهما اسمان شريفان، سماهم الله بهما في كتابه، فنهاهم عن ذلك. وأرشدهم إلىٰ أن يتداعوا بـ (المسلمين، والمؤمنين، وعباد الله) وهي الدعوىٰ الجامعة، بخلاف المفرِّقة كـ (الفلانيّة والفلانيّة) فاللهُ المستعانُ.

وقال ﷺ لأبي ذرّ: «إنك امرؤٌ فيك جاهليةٌ». فقال: علىٰ كِبَر السنّ مني يا رسول الله؟ قال: «نعم».

فمن يأمنُ القرّاءَ بعدَك يا شَهْرُ؟![1]

---

(١) يشير ابنُ القيم هنا إلىٰ البيت المشهور:

لقـــد بـــاع شَـــهْرٌ دينَـــهُ بخَريطـــةٍ فمَـــنْ يـــأمن القـــرّاءَ بعـــدك ياشَـــهْرُ؟!

وبعدَه:

أخـــذتَ بهـــا شـــيئا طفيفًـــا وبعتَـــه مـــن ابـــن جريـــرٍ، إن هـــذا هـــو الغـــدرُ

والمقصودُ شَهْرُ بنُ حَوْشَب الأشعري.

وسببُ ذلك أن شهرَ بنَ حوشبَ هذا جعله يزيدُ بنُ المهلَّب أمينًا علىٰ خزائنه، فأخذ خريطةً فيها دراهم، فقيل فيه هذا البيت. القصةُ أخرجها أبو أحمد الحاكم في الأسامي والكنىٰ (٢/ ٣٤٧)، والبيهقيُّ في الخلافيات (١/ ٤١٨)، وابنُ عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٣/ ٢٣١) وغيرُهم.

وعند ابن عساكر: «فرفعوا عليه أنه أخذ خَريطةً، فسأله يزيدُ عنها، فأتاه بها، فدعا يزيدُ الذي رفع عليه فشتمه، وقال لشهرٍ: هي لك، فقال: لا حاجةَ لي فيها!».

ولا يذوقُ العبدُ حلاوةَ الإيمان، وطعمَ الصدق واليقين، حتىٰ تخرجَ الجاهليةُ كلُّها من قلبه.

والله لو تحقّق الناسُ في هذا الزمان ذلك من قلب رجلٍ لرموْه عن قوسٍ واحدةٍ! وقالوا: هذا مبتدعٌ، ومن دُعاة البِدع! فإلىٰ الله المشتكىٰ. وهو المسئولُ الصبرَ، والثباتَ. فلا بُدّ من لقائه ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ [طه:٦١]، ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]»[١].

وأمَّا شيخُ الإسلام فقد حذّر من ذلك أشدَّ التحذير، في طائفةٍ كثيرةٍ من كلامه الدقيق، وتأصيله العميق، وهذا التحذيرُ للمعلِّمين والمتعلِّمين علىٰ حدٍّ سواءٍ! فتأمّلْ فيه؛ فإنه في غاية النفاسة.

وسوف أذكر هنا مقتطفاتٍ من كلامه؛ نظرًا لكثرتِه وطولِه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علىٰ المعلِّم أن ينصحَ للمتعلِّم ويجتهد في تعليمه، وعلىٰ المتعلِّم أن يعرفَ حُرْمةَ أستاذه ويشكرَ إحسانَه إليه؛ فإنه من لا يشكر الناسَ لا يشكر اللهَ. ولا يجحدْ حقَّه، ولا يُنكرْ معروفَه. وعلىٰ المعلِّمين أن يكونوا متعاونين علىٰ البر والتقوىٰ كما أمر النبي ﷺ بقوله: «**المسلمُ أخو المسلمِ لا يُسلِمُه ولا يَظلِمُه**».

وقال: «وليس لأحدٍ من المعلِّمين أن يعتديَ علىٰ الآخر ولا يؤذيَه بقولٍ ولا فعلٍ بغير حقٍّ؛ فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب:٥٨]. وليس لأحدٍ

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٥٠).

أن يعاقب أحدًا علىٰ غير ظلمٍ، ولا تعدّي حدٍّ، ولا تضييع حقٍّ، بل لأجل هواه؛ فإن هذا من الظلم الذي حرم اللهُ ورسولُه؛ فقد قال تعالىٰ: فيما روىٰ عنه نبيُّه ﷺ «يا عِبادِي إني حَرَّمْتُ الظلمَ علىٰ نفسي وجعلتُه بينكُم مُحرَّمًا فلا تَظالَموا».

وإذا جنىٰ شخصٌ فلا يجوز أن يُعاقَب بغير العقوبة الشرعية، وليس لأحدٍ من المتعلمين والأُستاذِين أن يعاقبَه بما يشاء، وليس لأحدٍ أن يعاونَه ولا يوافقَه علىٰ ذلك، مثلُ أن يأمرَ بهَجْر شخصٍ فيهجرَه بغير ذنبٍ شرعيٍّ. أو يقول: أقعدتُه أو أهدرتُه أو نحو ذلك؛ فإن هذا من جنس ما يفعله القساوسة والرهبان مع النصارىٰ، والحزّابون مع اليهود، ومن جنس ما يفعله أئمةُ الضلالة والغواية مع أتباعهم...

فإذا كان المعلِّمُ أو الأستاذُ قد أمر بهَجْر شخصٍ؛ أو بإهداره وإسقاطه وإبعاده ونحو ذلك: نُظر فيه، فإن كان قد فعل ذنبًا شرعيًا عُوقب بقدر ذنبه بلا زيادةٍ، وإن لم يكن أذنب ذنبًا شرعيًا، لم يَجُزْ أن يُعاقَبَ بشيءٍ؛ لأجل غرض المعلِّمِ أو غيرِه.

وليس للمعلِّمين أن يُحزّبوا الناسَ ويفعلوا ما يُلقِي بينهم العداوةَ والبغضاءَ، بل يكونون مثلَ الإخوة المتعاونين علىٰ البرّ والتقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

وليس لأحدٍ منهم أن يأخذ علىٰ أحدٍ عهدًا بموافقته علىٰ كلّ ما يريدُه؛ وموالاةِ مَن يُواليه؛ ومعاداةِ مَن يُعاديه، بل مَن فَعَلَ هذا كان من جِنْسِ (جِنْكِيز خان) وأمثالِه الذين يجعلون من وافقهم صَدِيقًا مُواليًا، ومَن خالفَهم عدوًّا باغيًا؛ بل عليهم وعلىٰ أتباعهم عهدُ الله ورسوله بأن يُطيعوا اللهَ ورسولَه؛

ويفعلوا ما أمر اللهُ به ورسولُه؛ ويُحرّموا ما حرّم اللهُ ورسولُه؛ ويَرْعَوْا حقوقَ المعلِّمين كما أمر اللهُ ورسولُه.

فإن كان أستاذُ أحدٍ مظلومًا نصرَه، وإن كان ظالمًا لم يُعاوِنْه علىٰ الظلم، بل يمنعُه منه؛ كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**انصرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا. قيل: يا رسولَ الله، أَنصُرُهُ مظلومًا فكيف أنصُرُه ظالمًا؟! قال: تمنعُه من الظلم؛ فذلك نصرُك إيّاه**».

وإذا وقع بين معلّمٍ ومعلّمٍ، أو تلميذٍ وتلميذٍ، أو معلّمٍ وتلميذٍ، خصومةٌ ومشاجرةٌ، لم يَجُزْ لأحدٍ أن يُعِينَ أحدَهما حتىٰ يَعلَم الحقَّ. فلا يعاوِنْه بجهلٍ ولا بهوىً، بل ينظرْ في الأمر، فإذا تبينَ له الحقُّ أعان المحقَّ منهما علىٰ المبطل، سواءٌ كان المحقّ من أصحابه أو أصحاب غيره؛ وسواءٌ كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره. فيكونُ المقصودُ عبادةَ الله وحده، وطاعةَ رسوله؛ واتّباعَ الحق، والقيامَ بالقِسْط....

ومَنْ مَالَ مع صاحبه - سواءٌ كان الحقُّ له أو عليه - فقد حَكَمَ بحُكْم الجاهلية وخرج عن حُكْم الله ورسوله. والواجبُ علىٰ جميعهم أن يكونوا يدًا واحدةً مع المحقّ علىٰ المبطل، فيكون المعظَّمُ عندهم مَن عظَّمه اللهُ ورسولُه، والمقدَّمُ عندهم مَن قدَّمه اللهُ ورسولهُ، والمحبوبُ عندهم مَن أحبه اللهُ ورسولهُ، والمهانُ عندهم مَن أهانه اللهُ ورسولُه، بحَسَبِ ما يُرضِي اللهَ ورسولَه لا بحَسَبِ الأهواء؛ فإنه مَن يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقد رَشَدَ؛ ومَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه فإنه لا يَضُرُّ إلا نفسَه. **فهذا هو الأصلُ الذي عليهم اعتمادُه**. وحينئذٍ فلا حاجة إلىٰ تفرّقهم وتشيّعهم....

ولا يَشدُّ وسَطَه لا لمعلِّمه ولا لغير مُعلِّمه؛ فإنّ شدَّ الوسَط لشخصٍ معينٍ وانتسابَه إليه - كما ذُكر في السؤال -: من بِدَع الجاهلية؛ ومن جِنْس التحالف الذي كان المشركون يفعلونه؛ ومن جِنْس تفرُّق قيسٍ ويمنٍ!

فإن كان المقصودُ بهذا الشدِّ والانتماءِ التعاونَ علىٰ البر والتقوىٰ؛ فهذا قد أمر اللهُ به ورسولُه له ولغيره، بدون هذا الشدِّ. وإن كان المقصودُ به التعاونَ علىٰ الإثم والعدوان فهذا قد حرَّمه اللهُ ورسولُه. فما قُصِد بهذا من خيرٍ ففي أمر الله ورسوله بكل معروفٍ استغناءٌ عن أمر المعلِّمين، وما قُصِد بهذا من شرٍّ فقد حرّمه اللهُ ورسولُه.

فليس لمعلِّمٍ أن يحالف تلامذته علىٰ هذا، ولا لغير المعلِّم أن يأخذَ أحدًا من تلامذته ليُنسَبوا إليه علىٰ الوجهِ البِدْعيِّ: لا ابتداءً ولا إفادةً. وليس له أن يجحد حقَّ الأول عليه، وليس للأول أن يمنع أحدًا من إفادة التعلّم من غيره، وليس للثاني أن يقول: شُدَّ لي، وانتسبْ لي دون معلِّمك الأول. بل إنْ تعلَّم من اثنين فإنه يراعي حقَّ كلٍّ منهما، ولا يتعصبْ لا للأوّل ولا للثاني. وإذا كان تعليمُ الأوّل له أكثرَ؛ كانت رعايتُه لحقّه أكثرَ.

وإذا اجتمعوا علىٰ طاعة الله ورسوله وتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ لم يكن أحدٌ مع أحدٍ في كل شيءٍ؛ بل يكون كلُّ شخصٍ مع كل شخصٍ في طاعة الله ورسوله، ولا يكونون مع أحدٍ في معصية الله ورسوله، بل يتعاونون علىٰ الصدق والعدل والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصر المظلوم وكلِّ ما يحبه اللهُ ورسولُه. ولا يتعاونون لا علىٰ ظلمٍ ولا عصبيةٍ جاهليةٍ ولا اتباعِ الهوىٰ

بدون هدىً من الله ولا تفرّقٍ ولا اختلافٍ؛ ولا شدٍّ وَسَطٍ لشخصٍ؛ ليتابِعَه في كلّ شيءٍ، ولا يحالفُه علىٰ غير ما أمر اللهُ به ورسولُه.

وحينئذٍ فلا ينتقلْ أحدٌ عن أحدٍ إلىٰ أحدٍ؛ ولا ينتمي أحدٌ: لا لقيطًا ولا ثقيلًا ولا غير ذلك من أسماء الجاهلية؛ فإنّ هذه الأمورَ إنما ولَّدَها كونُ الأستاذ يريد أن يُوافقَه تلميذُه علىٰ ما يريد؛ فيُوالي من يُواليه؛ ويُعادي من يُعاديه مطلقًا. وهذا حرامٌ؛ ليس لأحدٍ أن يأمر به أحدًا؛ ولا يُجيب عليه أحدًا؛ **بل تجمعُهم السنةُ وتفرّقُهم البدعةُ؛ يَجمعُهم فِعلُ ما أمر اللهُ به ورسولُه، وتُفرِّقُ بينهم معصيةُ اللهِ ورسولِه**، حتىٰ يصير الناسُ أهلَ طاعةِ الله، أو أهلَ معصيةِ الله، فلا تكون العبادةُ إلّا لله ﷻ، ولا الطاعةُ المطلَقةُ إلا له سبحانه ولرسوله ﷺ....

ومَن حالف شخصًا علىٰ أن يواليَ مَنْ والاه، ويعاديَ مَنْ عاداه، كان من جنس التَّتَر المجاهدين في سبيل الشيطان. ومثل هذا ليس من المجاهدين في سبيل الله تعالىٰ، ولا من جند المسلمين، ولا يجوز أن يكون مثلُ هؤلاء من عَسْكَر المسلمين؛ بل هؤلاء من عَسْكَر الشيطان»[(١)].

***

وبهذه القواعدِ الجامعةِ، والكلماتِ النافعةِ، أختِمُ هذا الكتابَ، سائلًا المولىٰ جَلَّوَعَلَا أن يَنفعَ به قارئَه وكاتبَه، وأن يَرفعَ به باذلَ العلمِ وطالبَه.

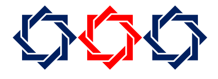
---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ١٣ - ٢٢).

وبعدُ؛ فهذا:

كتــابٌ قــد تعبــتُ عليــهِ دَهــرًا ... وخُضْــتُ لجمْعِــه كُتُبًــا عَديــدَهْ
وَقرَّبـــــتُ القَصِـــــيَّ لطالِبيــــهِ ... وقــد كانــتْ مســـافتُه بعيــدَهْ
وغُصْـتُ علـىٰ الخبايـا في الزَّوايـا ... فهــا هـــيَ فيـــهِ بــارزةٌ عَتيــدَهْ
وكـم قـد رُضْـتُ فيـهِ جِيَادَ فِكْري ... ومَــرَّتْ لـــي بـــه مُــدَدٌ مَديــدَهْ
إلـــىٰ أَنْ بلَّـــغَ الـــرَّحْمَنُ منــه ... مُــرادي مِــن مواهبِــه المديــدَهْ
فـدونكَ كنـزُ علـمٍ لسـتَ تلقـىٰ ... مـدىٰ الْأَزْمَـان في الـدُّنْيَا نَدِيـدَهْ
وثِــقْ بجميــعِ مــا فيــهِ فــإني ... مَنحْـتُ الْعلـمَ فيــهِ مُسـتفيدَهْ
إلهـي اجْعَلْـهُ لـي ذُخْـرًا وضـاعِفْ ... ثــوابي مِــن عطايــاك الحميــدَهْ
وجُــدْ بقبولِــه واجعَــلْ جزائـي ... رضـاكَ، وجنةَ الخُلْـد الـمَشِيدَهْ[(١)]

والحمدُ لله ربِّ العالمين.



(١) النور السافر عن أخبار القرن العاشر: للعيدروسي (ص/ ١٢٨).



- **القرآن الكريم**.
- **آثار الشيخ العلّامة عبد الرحمن بن يحي المعلّمي اليماني**: اعتنىٰ به: جماعةٌ من الباحثين، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٤هـ.
- **الآداب الشرعية والمنح المرعية**: لأبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيّام، مؤسسة الرسالة، ط٢ (١٤١٧هـ).
- **أبو تراب الظاهري، صفحاتٌ من حياته، وتأملاتٌ في أدبه**: لعبد الكريم بن عبد الله العبد الكريم، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٩هـ.
- **الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في القرن الثالث الهجري**: الدكتور عبد المجيد محمود عبد المجيد، مكتبة الخانجي، مصر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- **إحياء علوم الدين**: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

- **أدب الدنيا والدين**: لعلي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، ط١ (١٤٠٨هـ).
- **أدب الطلب ومنتهىٰ الأرب**: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: يوسف بديوي وحسن سويدان، دار اليمامة، دمشق بيروت، ط١ (١٤٢١هـ).
- **الأعلام**: لخير الدين الزركلي، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.
- **أعيان العصر وأعوان النصر**: لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، **تحقيق**: الدكتور علي أبو زيد وآخرين، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق - سوريا، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ.
- **الإلماع إلىٰ معرفة أصول الرواية وتقييد السماع**: لعياض بن موسىٰ اليحصبي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط الثانية (١٣٩٨هـ).
- **إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة**: لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط١ (١٤٠٦هـ).
- **البداية والنهاية**: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: أحمد ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت.

- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**: لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار المعرفة - بيروت.
- **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**: لأحمد بن يحيىٰ بن أحمد بن عميرة، الضبّي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، ط١ (١٤١٠هـ).
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**: لمحمد بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**: لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الملقّب بمرتضىٰ، الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحقّقين، الناشر: دار الهداية.
- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**: لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ.
- **تاريخ بغداد**: لأحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.
- **تاريخ دمشق**: لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ.

- **تاريخ علماء الأندلس**: لعبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، المعروف بابن الفرضي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، ط٢ (١٤١٠هـ).
- **التبيان في أيمان القرآن**: لابن القيم الجوزية، تحقيق: عبد الله بن سالم البطاطي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط ٣، ١٤٣٨هـ.
- **تحت راية القرآن**: لمصطفىٰ صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٧ (١٣٩٤هـ).
- **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**: لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، ط٣ (١٣٩٩هـ).
- **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**: لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **تذكرة الحفاظ**: لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: عبد الرحمن المعلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **التذكرة الحمدونية**: لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون البغدادي، دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٧هـ.
- **تذكرة السامع والمتكلم**: لبدر الدين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة الكناني، تحقيق: محمد هاشم الندوي، رمادي للنشر، ط١ (١٤١٥هـ).

- **التراتيب الإدارية**: لعبد الحي الكتاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **تعليم المتعلم طريق التعلّم**: لبرهان الدين الزرنوجي، تحقيق: صالح الخيمي ونذير حمدان، ط ٢، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ١٤٠٧هـ.
- **تقييد العلم**: لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: يوسف العش، ط٢، دار إحياء السنة النبوية، ١٩٧٤م.
- **التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح**: لزين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن العراقي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ، ١٣٨٩هـ.
- **تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد**: لمحمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، المعروف بناظر الجيش، تحقيق: أ. د. علي محمد فاخر وآخرين، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٨ هـ.
- **تهذيب الأسماء واللغات**: لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، عنيت بنشره: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية. توزيع دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- **تهذيب التهذيب**: لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: إبراهيم الزيبق، وعادل مرشد، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ.

• **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**: لجمال الدين يوسف المزي، تحقيق: بشار عوّاد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ (١٤١٣هـ).

• **تهذيب اللغة**: لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق: محمد عوض، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠١م.

• **الجامع الصحيح**: لمحمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، شرح وتعليق د. مصطفىٰ ديب البغا، الناشر: دار طوق النجاة. الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

• **الجامع الصحيح**: لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

• **جامع بيان العلم وفضله**: ليوسف بن عبد البر القرطبي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الرابعة، ١٤١٩هـ.

• **الجامع لأحكام القرآن**: لمحمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٣هـ.

• **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**: لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ.

• **الجرح والتعديل**: لعبد الرحمن بن محمد بن إدريس الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية – بحيدر آباد

الدكن – الهند، تصوير دار إحياء التراث العربي - بيروت، عن الطبعة الأولىٰ، ١٣٧١هـ.

- **جمهرة أشعار العرب**: لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٤ هـ.
- **الحاوي للفتاوىٰ**: للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٢هـ).
- **الحديث والمحدّثون**: لمحمد محمد أبو زهو، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- **حُسْن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**: لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية - عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه - مصر، الطبعة الأولىٰ ١٣٨٧هـ.
- **حِلْية البشَر في تاريخ القرن الثالث عشَر**: لعبد الرزاق البيطار، تحقيق: محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق (١٣٨٢هـ).
- **خزانة الأدب وغاية الأرب**: لعلي بن عبد الله الحموي، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١ (١٩٨٧م).
- **خُطبة الكتاب المؤمَّل للردّ إلىٰ الأمر الأول**: لأبي شامة المقدسي، تحقيق: جمال عزّون، مكتبة أضواء السلف، ط١، ١٤٢٤هـ.
- **دُرّة الحِجال في أسماء الرجال**: لأحمد بن محمد المِكناسي، الشهير بابن القاضي. تحقيق:محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة.

- دُرّة الغوّاص في محاضرة الخواصّ: لبرهان الدين إبراهيم بن فرحون المالكي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، وعثمان بطّيخ، دار التراث، القاهرة، والمكتبة العتيقة، تونس.
- الدُّرَر السَّنيَّة في نظم السِّيرة الزَّكيَّة: لزَيْن الدين عبد الرحيم بن الحسين العِراقي، اعتنىٰ بها: منصور العتيقي، طبع وزارة الأوقاف بالكويت، ٢٠٠٤ م.
- الدُّرَر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد/ الهند، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- دلائل الإعجاز: لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط٢ (١٤١٠هـ).
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: لإبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الذخيرة: لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي، تحقيق: محمد حجّي وآخرين، الناشر: دار الغرب الإسلامي- بيروت الطبعة الأولىٰ، ١٩٩٤ م.
- الذيل علىٰ طبقات الحنابلة: لابن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت.
- رفع الأستار عن مُحيّا مخدَّرات طَلعة الأنوار: لحسن بن محمد المشّاط، تحقيق: محمد طاهر نور ولي، المكتبة المكية، ط١، ١٤٣١هـ.

- روح المعاني: لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- زاد المعاد في هدي خير العباد: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة: لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ.
- سنن أبي داود: لسليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: عزّت عبيد الدعاس، وعادل السيد، الطبعة الأولىٰ، دار الحديث، بيروت، ١٣٩٣هـ.
- سير أعلام النبلاء: لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق مكتب التحقيق بمؤسسة الرسالة، بيروت.
- السيف المسلول علىٰ من سبّ الرسول: لتقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: إياد أحمد الغوج، دار الفتح (عمان - الأردن)، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ.
- الشذا الفيّاح من علوم ابن الصلاح: لبرهان الدين الأبناسي، تحقيق: صلاح فتحي هلل، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨ هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكُلوم: لنشوان بن سعيد الحميرىٰ اليمني، تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني - د يوسف محمد عبد الله. الناشر: دار الفكر المعاصر

(بيـروت - لبنـان)، دار الفكـر (دمشـق - سـورية)، الطبعـة الأولـىٰ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- **الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربيـة**: لأبـي نصـر إسـماعيل بـن حمـاد الجـوهري الفـارابي، تحقيـق: أحمـد عبـد الغفـور عطـار، دار العلـم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ.
- **صيد الخاطر**: لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابـن الجـوزي، تحقيـق: عامر علي ياسين، دار ابن خزيمة، ط١ (١٤١٨هـ).
- **الضوء اللّامع لأهل القرن التاسع**: لشمس الـدين السـخاوي، دار مكتبـة الحياة، بيروت.
- **طبقات الحنابلة**: لأبي الحسين بن أبي يعلىٰ محمد بـن الحسـين الفـراء، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة – بيروت.
- **طبقـات الشـافعية الكبـرىٰ**: لتـاج الـدين عبـد الوهـاب بـن تقـي الـدين السـبكي، تحقيـق: عبـد الفتـاح الحلـو، ومحمـود الطنـاحي، دار هجـر، مصر، ط ٢، ١٤١٣هـ.
- **طبقات المفسّرين**: لمحمـد بـن علـي الـداودي، تحقيـق: علـي محمـد عمـر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٥هـ.
- **الطِّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**: ليحيىٰ بن حمزة بن علـي بـن إبـراهيم، الحسـيني العلـويّ الطـالبي، المكتبـة العصـرية - بيـروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣هـ.

- **العين**: للخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- **الغُنية، فهرست شيوخ القاضي عياض**: لعياض بن موسىٰ اليحصبي، تحقيق: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١ ١٤٠٢هـ.
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- **فتح المغيث بشرح ألفية الحديث**: لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق: عبد الكريم الخضير ومحمد آل فهيد، مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦هـ.
- **الفروع**: لمحمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، شمس الدين المقدسي الصالحي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤هـ.
- **الفِكْر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**: لمحمد بن الحسن بن العربيّ بن محمد الحجْوي الثعالبي الجعفري الفاسي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ.
- **الفنون الصغرىٰ**: لأبي عبد الرحمن محمد بن عمر بن عقيل الظاهري، منشورات نادي الطائف الأدبي، ط ١، ١٤٠٥هـ.
- **القاموس المحيط**: للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨ (١٤٢٦هـ).

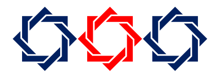
- **الكامل في ضعفاء الرجال**: لعبد الله بن عدي الجرجاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- **لباب التأويل في معاني التنزيل**: لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، الشهير بالخازن. تصحيح: محمد علىٰ شاهين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤١٥هـ.
- **المبسوط**: لمحمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي، تحقيق: خليل محي الدين الميس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ.
- **المجروحين من المحدِّثين والضعفاء والمتروكين**: لمحمد بن حبان بن أحمد التميمي، البُستي، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي – حلب، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٩٦هـ.
- **مجموع الفتاوىٰ**: لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الدمشقي، جمع عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (١٤١٥هـ).
- **المجموع شرح المهذّب**: لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، الناشر: دار الفكر.
- **مجموع فتاوىٰ ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين**: جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الناشر: دار الوطن - دار الثريا، الطبعة الأخيرة - ١٤١٣هـ.

- **المجموع في ترجمة العلّامة المحدِّث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري**: لعبد الأول بن حماد الأنصاري، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ.
- **المحدِّث الفاصل**: للحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي، تحقيق: محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، ط٣ (١٤٠٤هـ).
- **مدارج السالكين**: لابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت (١٣٩٢هـ).
- **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**: لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ.
- **مطالع الأنوار علىٰ صحاح الآثار**: لإبراهيم بن يوسف الوهراني، المعروف بابن قُرْقُول، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٣هـ.
- **معجم الأدباء**: لياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١ (١٩٩٣م).
- **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ.
- **معرفة القرّاء الكِبار**: لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ (١٤٠٨هـ).

- **معرفة علوم الحديث**: لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: معظّم حسين، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط٢، ١٣٩٧هـ.
- **المعيد في أدب المفيد والمستفيد**: لعبد الباسط بن موسىٰ بن محمد بن إسماعيل العلْموي، تحقيق: الدكتور مروان العطية، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ.
- **مفتاح دار السعادة**: لابن القيم الجوزية. تحقيق: علي بن حسن الحلبي. دار ابن عفان، الخبر، ط١، ١٤١٦هـ.
- **المنار المنيف**: لابن القيم الجوزية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢ (١٤٠٣هـ).
- **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**: لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، الناشر: خانجي وحمدان، بيروت، ط٢.
- **مناقب الشافعي**: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط١(١٣٩٠هـ).
- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**: لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفىٰ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ.
- **من مؤلفات ابن سينا الطبية**: تحقيق: محمد زهير البابا، منشورات جامعة حلب (١٤٠٤هـ).

- **منهاج السنة النبوية**: لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦هـ.
- **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**: لأبي زكريا يحي بن شرف النووي، تحقيق: خليل شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط٧ (١٤٢١هـ).
- **الموافقات**: لإبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الخبر، ط١(١٤١٧هـ).
- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**: لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- **نثر الدرّ**: لأبي سعد منصور بن الحسين الرازي الآبي، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ.
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.
- **نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء**: لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط٣ (١٤٠٥هـ).

- **النور السافر عن أخبار القرن العاشر**: لمحي الدين عبد القادر بن شيخ العيدروسي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ.
- **وفيات الأعيان**: لشمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خَلِّكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٣٩٧هـ).
- **يتيمة الدهر**: لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، دار الكتب العلمية، ط١ (١٣٩٩هـ).



فِهْرِسُ المواضِيع والفوائد

المقدِّمة

الفصلُ الأولُ

أقسامُ العُلُوم

الفَصْلُ الثَّاني
طُرُقُ تَحصِيلِ العِلْم

المبحثُ الأولُ
طريقُ الحفظِ

أنواعُ المحفوظات

أولًا: حفظُ القرآن الكريم

ثانيًا: حِفظُ السُّنّةِ النبويّةِ

ثالثًا: النَّظْمُ التَّعليميُّ

رابعًا: الشعرُ البديعُ

المبحثُ الثاني

طريقُ الفَهْمِ

المبحثُ الثالثُ

أُصُولٌ في المطالعةِ المفيدة

الفصلُ الثالثُ

أَخَائِرُ الذَّخَائِر، ومَنَائِحُ النَّصَائِح

